

دراساتُ حضاريّة في القرآن الكريم



الظواهر الجبالية

في القرآن الكريم

نذير حمدان

دار النشأة
جدة - السعودية

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

وزارة المالية

جدة: ٢١٤٣١، ص.ب: ١٢٥٠ - هاتف الإدارة: ٦٦٠٣٦٥٢
هاتف وفاكس: ٦٦٠٢٣٨ - هاتف المعرض: ٦٦٧٥٨٦٤
مكة - المدينة

الظاهرة الجمالية
في القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد:

قال لي زميل جامعي: وماذا تكتب عن جماليات القرآن وكل ما فيه جمال؟.

قلت: إنني أحاول أن أتقصى هذه الجماليات لأستنتج منها تصوراً كلياً أو قاعدة ظاهرة.

— وهل تظن أن أحداً لم يقنّ قاعدةً جماليةً ممن كتب عن القرآن أو عن البلاغة العربية؟.

— إن هذه القضية شغلت ذهني منذ أمد طويل. ومع كثرة مطالعاتي لم أعثر على مثل هذا التصور العام.

— وما موقف العلماء والنقاد والمفسرين والبلاغيين والدارسين وسبقهم إلى إبراز نماذج وصور منها؟.

— إن الدراسة لا بدّ من أن تُفيد من نظراتهم وملاحظاتهم وسبحاتهم ودقائق تأملاتهم.

— ولكن ماذا تقصد بالقاعدة أو الظاهرة الجمالية، وقد تحدّث الأقدمون والمحدثون عن بلاغة القرآن وإعجازه وتحدياته وكثير من صوره وخصائصه؟.

— أرى أن أقدم مدخلاً لدراسة (الجمالية) وحدها يشمل أهمية هذه الظاهرة وشيئاً من تاريخها وخصائص الأدب الجاهلي جمالياً. ثم تصنيف الجماليات القرآنية إلى: مفردات جمالية، وتراكيب جمالية، وخصائص وموضوعات جمالية، ومن ثم يمكنني استنتاج القاعدة أو الظاهرة الجمالية في القرآن، وذلك عقب إيراد نماذج منها: خاصة وعامة.

وسيقضيني ذلك:

- ١ — أن أتخذ أسلوباً أدبياً علمياً يتناسب وطبيعة الموضوع وخطته.
 - ٢ — وأن أوسع مدى الوقفات الوجدانية المتأنية في روعات الآيات القرآنية حتى تقتبس أبعاداً فكرية، وتطلعات روحية، تعتمد على مواقف المفسرين والبلاغيين ومؤلفاتهم في المجال الجمالي.
 - ٣ — وأن أخص بعمق تحليل المقومات الجمالية ومجالاتها وطبيعتها وآثارها. فإن القضية الجمالية القرآنية صحيحة وعامة وضافية.
- فليست هذه الدراسة (تحديثاً) لفنون البلاغة وإن كان في بعضها نظرات بلاغية ذاتية وأخرى مسبوقة.
- وليست (تطبيقاً) لمناحي (علم الجمال) والتماساً لأحد مذاهبه، واقتباساً من فروعه، واعتماداً على آراء الجمالين في الشرق والغرب، ولا تأثراً بما تذهب إليه تفسيراتهم ومدارسهم وتياراتهم واتجاهاتهم، وإن ضمت شيئاً من الموازنات النقدية وسوقاً لبعض أقوالهم.
- فالظاهرة القرآنية مستقلة عن كل هذا لأنها ربّانية المصدر تتوج (الإعجاز البياني) الذي تحدّى العرب بياناً، وتحدى الناس شريعة ونظاماً، وهي تتحدى الجمالين في روائعه وجمالياته وجلالياته.

إن دراسة الجمالية في القرآن ذات جوانب متشابكة:

● فهي منطلق وجود حضاري لأقدس وأعظم سجل حضاري في الوجود.

● وهي اتجاه أدبي وفني رائد يغني الموضوعات الكونية والإلهية بأبهى الصور الأدبية والفنية الرائعة.

● وهي منحى تربوي يلبي حاجات الإنسان الجمالية، ويصيغه بالشخصية المسلمة على نمط جامع وفريد متميز.
أسأل الله الصبر والعون والسداد فهو ولي ذلك.

المؤلف

المدخل

١ - إن ظاهرة الوحي

وظاهرة التشريع

وظاهرة الفكر

وظاهرة الإبداع الفني

من أبرز ظواهر القرآن الكريم، التي يمكن أن تجتمع وتلاحم في أي أثر فني أو عملي آخر لتحقيق أهداف البناء والتربية الإنسانية، والنسق الجمالي الذي يكسو هذه الظواهر وغيرها، ويمنحها القدرة على التأثير الوجداني والسلوكي والعقلي معجزة المعجزات.

فالقرآن باعتباره وحياً إلهياً له قدسيّة التنزيل وعُلوّية الوحي وربانية المصدّر فلا يطرأ عليه زيف ولا تعتريه شكوك، وليس من مهمته معالجة الواقع الاجتماعي وأنماط الحياة وحدها وإنما ما يحسّن العلاقة بين الله والنفس الإنسانية، ويأخذ بها إلى مدارج الخير والسعادة.

وباعتباره مصدراً أساسياً في التشريع، فمن المعتاد والمألوف في مثل المصادر التشريعية الأخرى، أن تعرض قضاياها ومسائلها بأسلوب التقنين القانوني، ولكن القرآن خالف ويخالف المعتاد المألوف، فقد أتى بها في القصة والغزوات وتاريخ الأنبياء ومشاهد الدنيا والآخرة بأسلوبه المعجز، وبيانه الفذ.

وباعتباره عقيدة قائمة على الفكر، فإن أمثاله من مصنفات العقيدة

تَعرّض إلى خيالاتٍ وأساطيرٍ وتَهويماتٍ وتعقيداتٍ لا تَمُتُّ إلى الحقائق والقضايا التي تشغل فكر الإنسان بصلة، أما القرآن الكريم فقد بَيَّن ما يتصل بالذات الإلهية والغيبيات، منبهاً العقل، ومثيراً وسائل الإدراك، في صياغة من الإبداع الفني الذي لم تعرف في الآثار الأخرى.

إن أدبه (الواقعيّ المثالي الملتزم) يَلَوِّن الحياة الفكرية والتشريعية بألوان البهجة والروعة، ويضفي عليها فناً من القول والتعبير ما يجعله أدب الحياة في الماضي والحاضر والمستقبل.

وهو إذ يوسّع مفهوم الواقعية، ويضبط أبعاد المثالية، ويصحح الالتزام لتشمل المجالات كلها بأفاقها الرحبة وأبعادها الفسيحة، فإنه ينفرد عن سواه بصياغة واقعية مثالية ملتزمة (للذات الإنسانية والجماعة المسلمة) على أقوم منهج وأصدق سبيل بعيداً عن النظريات التربوية والنفسية المتخبطة.

ففيه أدب النفس والقلب والروح، وأدب البدن واللباس والطعام والحاجات المادية الفطرية، وفيه أدب الفرد مع الجماعة، وأدبها معه، ثم أدبها مع الأسرة البشرية وما يحيط بها من نشاطات كونية مختلفة.

إن القرآن إذ يعالج قضايا الحياة الأدبية والعلمية والاجتماعية والتشريعية والفكرية يتفوق على المؤلفات الاختصاصية ومعالجاتها من جانبيين: من طبيعة المعالجة والدراسة والتحليل، ومن الأسلوب الفني المعجز.

فهو باتّساق معالجاته للقضايا المختلفة بوسائله وصوره الجمالية يراعي مصداقيتها وحُسْنُها ودقة التصوير الأدبي فيها.

وقد أضحت هذه في مجموعها تمثّل (جمالية) القرآن أو أرحب ظواهره الأخرى باعتبارها أطراً وأوعية للمبادئ والعلوم والقواعد الفكرية المختلفة.

* * *

٢ - ويعد الجاحظ أول من وضع مسألة الجمالية القرآنية في نسقه البديع ونظمه الجميل، وربط ذلك بالتحدي النبوي. يقول: إن الرسول تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه^(١).

ويؤكد في كتابه: الحيوان بقوله: ... بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ... إلى أن يقول: وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد...^(٢).

وتابع (الخطابي) (ت ٣٨٨ هـ) الجاحظ في جمالية النظم، ولكنه بناه على صفات جمالية في الألفاظ... يقول: وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه (اللفظ الحامل، والمعنى به، والرباط الناظم لهما) في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمته، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها...^(٣).

وجمالية الألفاظ في انتقائها واختيار موقعها من الجملة القرآنية و(وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فضول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة...)^(٣).

وربما انفرد الخطابي ببيان وجه جمالي من المعجزة القرآنية: وهي لذة القلب والنفس بسماعه، وفعاليته بهما عند تلاوته. يقول^(٤):

«قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر، ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا

(١) الكامل: ٤٤/٢ عن نشأة البلاغة د. سيد نوفل: ١٢٠.

(٢) ٨٥/٤.

(٣) بيان إعجاز القرآن: ٢٦ - ٢٨ - ٢٩.

(٤) المصدر السابق: ٢٠ وذكرها: بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار من ص ٤٣٥ د. عبد الفتاح لاشين. دار الفكر العربي.

الشاذ من أحادهم: وذلك صنيعة في القلوب، وتأثيره في النفوس فإنك لا تكاد تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً أو منشوراً - إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيبُ والقَلْق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب يحول بين النفس وبين مضممراتها، وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً.

والباقلائي (ت ٤٠٣ هـ) ينوه بخاصية النثر القرآني في الجمالية وهي جمالية تتميز بطول (نفسه) وتناوله أغراضاً كثيرة فيه على غير ما اعتاده العرب في مثل هذا الجانب الأدبي:

يقول: ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصريف البديع والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول وهذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات محدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف والتعمّل والتكلف والتجوز والتعسف.

وقد جاء القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به، فقال عز من قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣) ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢). فأخبرهم أن كلام الأديمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلاف.

ثم ينوه بخاصية الجمالية في أغراض القرآن جميعها من غير تفاوت ولا

تباين، وهي جمالية النظم العجيبة التي يعجز عن مثلها أرباب الفصاحة والأدب يقول^(١):

«ومنها: أن القرآن عجيب في نظمه، وبديع في تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر وقصص، ومواعظ، واحتجاج، وحكم، وإعذار، وإنذار، ووعد، ووعد، وتبشير، وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها.

ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، يختلف حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التآبين، ومنهم من يجود في التآبين دون التقريظ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل والخيول، أو سير الليل أو وصف الحرب، أو وصف الروض أو وصف الخمر، أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر، ويتداوله الكلام... ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابعة إذا رهب، وزهير إذا رغب.

ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه، ووقف دونه، وبان الاختلاف في شعره...

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والوصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط على المنزلة العليا ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا... إلخ».

أما (الجرجاني) (ت ٤٨٢) فينبه إلى انبهار العرب الأبياء بجمال متفرد للقرآن الذي يسري في جميع ألفاظه وآيه وسوره ومقاطععه. ولكنه إذ ينوه بالنظم

(١) إعجاز القرآن للباقلاني: ٥٣.

القرآني فإنه لا يغفل عن جماليات أخرى تترين باتساقها وحسنها يقول: أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق نظمه. وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظه وموقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة، وتنبيه وإعلام، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وبيان... وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشراً وعشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، أو لفظة ينكرها شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك، أو أشبه أو أخرى أو أخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتثاماً وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حكّ بياFOXه السماء، موضع طمع، حتى خرس الألسن أن تدعي وتقول، وخلدت القروم فلم تملك أن تقول^(١).

أ - إنه هنا جمال انبھاري قام على البديع الرائع في النظم واللفظة الجميلة اللائقة، والاتساق والتثام والنظام المبهر للعقول والبيان.

ب - وخصائص جمالية أخرى في طول نفسه ومد بيانه.

ج - ولذة النفس بسماعه وتلاوته من قبل أن يصنف هذا الجمال إلى علوم البلاغة المعروفة.

حتى وإن استوعب رواؤه بعضها وأدخلها في أنواع الاستعارات والتشابه والكنايات فإن جماليات أخرى تعجز عن تصنيفها وتوزعها، لأنها احساسات (ذوقية) رائعة لأعظم وجود أدبي معجز.

وعموماً فإن عبقرية العمل الأدبي تظهر في أمرين:

١ - الشكل الذي يختاره الأديب مظهراً للحقيقة الجمالية.

٢ - الكلمة من حيث علاقاتها اللزومية المرتبطة بمعناها^(٢).

وقد بزّت روعة القرآن وجماليته عبقریات الآثار الأدبية الأخرى.

(١) دلائل الإعجاز: ٣٢.

(٢) من مقدمة أسرار البلاغة: محمد عبدالمنعم خفاجي.

أرسل عمر بن الخطاب إلى لبيد بن ربيعة العامري أحد شعراء المعلقات، يطلب منه ما قاله في الإسلام من الشعر، فانطلق إلى بيته، فكتب سورة البقرة في صحيفة، ثم أتى بها. فقال: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر^(١).

ولكن هذا لم يمنع من تشجيع الرسول عليه الصلاة والسلام شعراء الدعوة والإسلام مثل: حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وعبدالله بن رواحة، وأن يرفعوا لواء الحق ويخاصموا به أعداءه في بيان رائع ومؤثر.

٣ - خصائص تعبيرية في الأدب الجاهلي: إن العرب برعوا في لغتهم الأدبية، وبلغوا شأواً طويلاً في تذوق جمالياتها وتفهم أسرارها وامتازوا بالفصاحة، وقَدَّروا الفصحاء من الخطباء والشعراء، وكان الأدب الجاهلي ثمرة عقولهم وقلوبهم والتعبير عن بيئاتهم.

ويمكننا^(٢) أن نحدد ما قبلناه من خصائص التعبير للغة الأدبية قبل الإسلام... بما يأتي:

أولاً: خصائص صوتية: وتتمثل في مراعاة النسق الموسيقي بحذف بعض أصوات الكلمة لتحقيق الانسجام الصوتي.

ثانياً: خصائص صرفية: وتتمثل في إحلال صيغ محل أخرى. كوضع فعيل في موضع مُفْعِل أو مُفْعَل، أو أفعل موضع الفاعل، وكاستخدام المصدر في موضع الفاعل، أو الفاعل في موضع المفعول، أو المفعول في موضع المصدر...

ثالثاً: خصائص تركيبية: وتتمثل في الخروج من الرفع إلى النصب، والاتباع في حركات الإعراب، والتضمين، ومخالفة القياس لهدف فني... ومخالفة ظاهر اللفظ كإخراج الشيء المحمود بلفظ يوهم غير ذلك...

(١) طبقات فحول الشعراء.

(٢) من كتاب: لغة القرآن الكريم في جزء عم: الفصل الثالث: الخصائص التعبيرية للغة الأدبية قبل الإسلام: ١٤٥ - ١٤٦. د. محمد أحمد نحلة. دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١ م.

هذا في الشعر، ويزيد في النثر:

١ - الميل إلى الجمل القصار المتلاحقة، والتي تكون منفصلة أو متصلة بروابط خفيفة في وحدات متتالية أشبه بحبات العقد، وهي على كل حال لا تصل إلى العبارات المركبة التي تترابط فيما بينها ترابط أعضاء الكائن الحي، ويبدو أن هذه ظاهرة تعبيرية في الأسلوب السامي على وجه العموم.

٢ - التوسع الكائن في استخدام أدوات الشرط والجمل الحالية، وأفعال التفضيل الذي تنفرد به العربية دون سائر أخواتها الساميات، ذلك بأن صيغة (أفعل من) ليس لها نظير في العبرية والآرامية والحبشية والعربية الجنوبية القديمة.

٣ - الميل إلى التسوية بين العبارات وكثرة الفواصل والفقرات السريعة والحروف العاطفة الخفيفة كالواو والفاء ونحوهما.

٤ - الميل إلى التسجيع المقترن بالتوازي العددي، لأن «الحفظ إليه أسرع، والأذان لسماعه أنشط، وهو أحقّ بالتقييد وقلة التفلت».

٥ - الاتجاه إلى التصوير المجازي السريع الخاطف، والعزوف عن التحليل المتصل الهادئ.

والقرآن الكريم الذي نزل بأسلوب العربية في الجاهلية، وتضمن أسمى وأسلم خصائصها فإنه بهر معاصريه ومن بعدهم بروعة تراكيبه وتنوع جملة وجمال صوتياته وبهاء فاصلته، وقبل هذا وذاك في اتساقه الفني وطول نفسه في تناول القضايا الأساسية والكونية والإلهية.

وإن الآثار الأدبية الجمالية والتربوية والعلمية مظاهر متجددة للإعجاز القرآني في وجوهه المتعددة وفي مقدمتها المعطيات الجمالية بسماتها الخاصة في الشكل والمضمون.

حتى إنه ليصح القول: إن الجمالية أبرز الظواهر القرآنية بسبب ما استخدمته من المواد العربية الأولى كالمفردة والتركيب والصورة الأدبية، ولكن في آفاق من الإعجاز الإلهي الدائم.

مفردات جمالية في القرآن الكريم

المفردات والإعجاز القرآني :

من المعروف لغوياً وبلاغياً أن القرآن الكريم جرى في كلماته وتراكيبه على أسلوب العرب وأنماط خطابهم ما عدا تلك المفردات أو التراكيب الإسلامية التي أسبغ عليها معانٍ ومفاهيم تقتضيها الدعوة الإسلامية في بعدها العربي والعالمي .

فالقرآن عربي اللغة، معجز البيان، تحدّى العرب وأفحمهم بلسانه الفذ وبيانه الفريد، كما أفحم غير العرب بتشريعه ونظمه الربانية .

وإذا أمكن أن تترجم معاني القرآن ومسائله التشريعية وفصائله الخلقية وحكمه البالغة فإنه من الصعب ترجمة صوره الرائعة وجماليات بيانه .

بل ومن غير الممكن أن تترجم هذه وأمثالها بسمو بلاغتها ودقة فنيها كأثر أدبي إلى أية لغة أخرى...

ويجري معظم البلاغيين المسلمين على أن إعجاز القرآن كامن في العلاقات الأسلوبية بين الألفاظ وما يعرف بالشكل والصورة التي تظهر منهما جمالية الصورة والتعبير البلاغي .

فالعلاقات بين الألفاظ ومعانيها وتلازمهما في الجملة القرآنية توضح الإعجاز في (النظم) القرآني أكثر من أي جانب آخر.

ولكن لا بد من أن يتم البيان القرآني المعجز من تلك (المفردات) التي يقوم عليها تركيبه وصوره وروعة نظمه.

فإن قوام هذا البيان يعتمد على (اختيار) مفرداته وانتقائها لمراعاة النسق المعجز في الجملة أو الصورة القرآنية، في عقد جمالي يبدأ من وظيفة الكلمة مفردة إلى وظيفة الجملة ثم إلى تألف الجمل القرآنية بعضها ببعض في لوحات أو مشاهد جمالية بالغة الروعة.

حتى إن بعض علماء البلاغة ينوهون بأهمية (المفردة) القرآنية المنتقاة في إعجاز القرآن جملة وتفصيلاً.

فبعد القاهر الجرجاني (ت ٤٨٢ هـ) أشد البلاغيين تحمساً لإبراز (النظم) دليلاً على إعجاز القرآن وجماله لا يغفل عن صورة الكلمة وبنائها من حيث أنها مألوفة مستعملة أو غريبة وحشية، أو أن تكون حروف واحدة أخف وامتزاجها أحسن ومما تكد اللسان أبعد.

وهذا التفاضل الذي لا يعتد به عند الجرجاني وأمثاله لا يجعله أيضاً ينكر على اللفظ قيمته ووزنه في جمال الصورة البيانية وإشراق وجهها. وكثيراً ما يستقل اللفظ بجماله، ويستغني بحسنه، ولكن الأكثر ما يروع المتذوق من نظم القرآن وبيانه المتألف المتآخي.

يقول الجرجاني: وجملة الأمر أن ههنا كلاماً حسنه للفظ دون النظم. وآخر حسنه النظم دون اللفظ، وثالثاً قرىء الحسن من الجهتين، ووجبت له المزية بكلا الأمرين... (١).

ويقول القاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمداني قبله (ت ٤١٥ هـ)... فالذي تظهر فيه المزية ليس إلا الإبدال الذي تختص به الكلمات (أي اختيار الكلمات لأداء المعنى المناسب)... ثم يقول: ولا

(١) وانظر تمة كلامه الذي لا يقدم على النظم وجهاً آخر في: دلائل الإعجاز: ٧٥.

يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره... إلى أن يقول: فأما حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسناً على السمع، لا أنه يوجد فضلاً في الفصاحة^(١).

ويفرد الخطابي قسماً خاصاً باللفظ المفرد الذي سماه: اللفظ الحامل، من بين بلاغة الكلام وإعجازه، وهي القائمة على: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم، ويطبق وجهة نظره في ألفاظ القرآن فيقول: ... حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه... ثم يقول: واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف... ويتابع كلامه منبهاً إلى الفروق بين المفردات والمترادفات فيقول: إن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم، والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنتع والصفة، وكقولك: اقعد واجلس، وبلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات... والأمر فيها وترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصة تتميز بها عن صاحبيتها في بعض معانيها وإن كانا يشتركان في بعضها... ثم يورد أمثلة قرآنية على انتقاء اللفظة القرآنية نذكر منها تعليقه على قوله: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ...﴾ (يوسف: ١٧)، ولم يقل: فافترسه الذئب. يقول: إن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، وأصل الفرس: دق العنق، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلًا وأتى على جميع أعضائه فلم يترك مفصلاً ولا عظماً، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل^(٢).

(١) من كتابه: المغني في أبواب التوحيد والعدل: ١٦/١٩٩، منتقاة.

(٢) بيان إعجاز القرآن: ٢٦ - ٤١، منتقاة.

وسياتي معنا تعليل (الرازي) لاختيار القرآن الألفاظ الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ...﴾ (البقرة: ١٧٩). ونستنتج مما سبق أن ثمة علاقة أساسية أو ثانوية للمفردات بالإعجاز القرآني، وأن البيان القرآني المعجز إنما قام على وجوه تعبيرية متنوعة ومنها: اللفظة القرآنية بخصوصها مفردة كانت أو منتظمة مع غيرها.

وعلى ذلك جرت تعليقات بلاغية واسعة من كتاب الله لحسن اختيار ألفاظه وانتقائها من مترادفها ونظرائها^(١).

يقول الجرجاني^(٢): "... واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز وإنما الذي ننكره ونفيل (نقبح ونخطيء) رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزاً به وحده ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات.

* * *

-
- (١) وانظر مثلاً: تفسير الرازي، فيه الكثير وبخاصة قوله تعالى: ﴿والسمااء بنيناها بأيدينا وإنا لموسعون﴾ (الذاريات: ٤٧). وانظر أيضاً تفسير سورة الرحمن.
- (٢) دلائل الإعجاز: ٤٠١، وستأتي أقوال أصرح ومواقف أبين في أهمية المفردات بالنسبة للإعجاز.

المفردات وجماليات القرآن :

وإذا كانت الجمالية صورة مشرقة للإعجاز البياني في القرآن، وأحياناً جانباً هاماً فيه، فإن دلالة المفردات القرآنية على جمالياته في الوضع اللغوي الأصولي المنفرد أوضح من دلالتها الإعجازية النظامية.

فإن المفردات الجمالية موضوعة في الأصل اللغوي تعبيراً عن روائها وحسنها، وكذلك فإن القرآن اتخذ بعضها في صورة فنية أو تشبيه رائع أو كناية بديعة، أو إسناد بليغ.

وحينئذ يمكن أن ينظر لها وإلى أهميتها من وجوه ثلاثة:

أ - فهي تعبير عن مضمون جمالي مادي أو معنوي في وضعها اللغوي الأصيل.

ب - ودلالة على تلاحم المفردة مع سائر الجملة القرآنية في نسق بياني معجز، تتخذ لها إطاراً جمالياً آخر.

ج - ثم إنها الأداة في تصوير فني لألوان من الجمال اللفظي والمعنوي في صورة أو مشهد تأخذ الكلمة المستعارة بعداً جمالياً إضافياً ومتنوعاً.

والذوق الأدبي الجمالي إذ يقرر بفطرته وبقواعده النقدية انتشار المفردات القرآنية فإنه قادر على تقويمها تقويماً جمالياً بسبب انتقائها لأروع الجمال الفني القرآني بعد أن وضعت في العربية للتعبير عن ألوان الجمال المتشعبة.

وسنخصص الكلام على جماليات المفردات القرآنية من جوانب:

١ - جماليات وضعية:

ويقصد بها أن اللفظة الواحدة تحمل معنى جمالياً في (أصل) اللغة،

ولهذا اختارها القرآن للتعبير عن المفاهيم والقيم الإسلامية الجديدة التي يمكنها أن تزدد ضياءً وبهاءً بها مثل ما حملها من معانيه السامية بالقدر الذي تفي بأغراضه الفكرية والفنية.

ولا ريب أن هذه المفردات تحمل قيماً جمالية لها فعاليتها في النفوس المرهفة الذواقة، مثل ما تحدثه أصدادها من الآثار في التربية الجمالية.

وإن عرض هذه المفردات (منعمة) في كثير من الأحيان تنمي الحس الجمالي في تفهم القيم الإسلامية والالتزام بها واتباعها على المستويين الفكري والجمالي.

فحيثما تلونا سورة أو جزءاً منها أو أنصتنا إليها فإن نفوسنا تسبح في عالمها الجمالي وأذهاننا تقرر في حسن معانيها، وآذاننا لا تمل من تكرارها وتردادها.

وسواء عبرت المفردات عن جماليات مادية أو معنوية فإن استيعاب القرآن العظيم لكل منهما يدل على شمولية في مفهوم الجمالية التي تتجاوز الماديات إلى المجالات الفكرية والنفسية والروحية والخلقية.

وهذا ما نلاحظه وبكثرة وعمق في المفردات ذات الدلالات المعنوية الجمالية في آفاقها الإلهية والكونية والإنسانية الفسيحة مثل:

أ - الله - النور - الخير - الحق - الحكمة - اليقين - الروح - العقل - العلم - النفس - الفضل - العدل - السلام - الإيمان - الإحسان - البر - التقوى - المعروف - الأخوة - المحبة - المودة - الطهر - العذوبة - الرضا - الحنين - اللطف - الرحمة - الإيثار - الإشفاق - الطيب - الصلاح - التعظم .
وكثير من الصفات النفسية والروحية، فهي جماليات معنوية تدرك بالعقل والوجدان والعاطفة والإرادة لا تبرحها، ومن غيرها تبقى الحياة جافة قاتمة وبائرة ضيقة.

ب - ومفردات تنص على الجمالية صراحة بكل ما تستوعبه من معاني الجمال والحسن المادي والمعنوي مثل :

الجمال - الحسن - النضارة - السنا - الأنس - حقائق ذات بهجة - بديع السموات والأرض - السراج الوهاج - القمر المنير - الظل الظليل - اللذة - المتعة - ريحان - زهرة الحياة الدنيا - زينة الحياة الدنيا - الضياء - روضة الجنان - رخاء حيث أصاب - جنة الدنيا والآخرة - فرح - الذوق .

وهي ألفاظ تزدان بها اللغة العربية التي لم تضمن بها على القرآن : وقد استطاع القرآن أن يستوعبها كلها أو معظمها لتلبي موضوعاته الفكرية والجمالية في نمط أسلوبه رائع .

ج - ومفردات ذات صلة وثيقة بالجمالية ترتبط به كعامل نفسي مساعد ولفظي تعبري في مجالاتها وميادينها مثل :

الحب - الحسن - الشعور - الشكر - التصوير - الضحك - القلوب والأفئدة - شهوات النفس - الهوى والأهواء - تحية وسلاماً - أشرقت الأرض بنور ربها - العذب السائغ - الاهتزاز - والربى - نديّ - لينة . إنها أجمل ما ترتبط بالجمال ، وأبهى ما تتعلق بالبهاء . وأروع ما تضيفي على الجمال القرآني حسناً وألقاً .

د - وجمالية محسة رائقة الحسن يتقراها اللمس وتمتلأها العين ، وتأنس بها الآذان مثل : الزخرف - الذهب والفضة - الظل - المزن - العبقري الحسان - العسل المصفى - الصبح - والإصباح والمصابيح - الجوار المنشآت - أثاثاً ومتاعاً - أثاثاً ورثياً - ريشاً - ريع آية - الصبح المسفر - الطلح المنضود - الظل الممدود - كأس من معين - . . . وكل جماليات النعيم الأخروي .

ويتبعها الأفعال والأسماء المضعفة العين مثل : عسعس - حصحص - وشوش - وسوس - الوسواس - صفصفاً - صلصال .

فهي إذ تدرك بالحواس فإن الوجدان يتقبل رواءها المحسوس وحسنها
المادي متأثراً بها ومؤثراً في النفوس بقدرتها التعبيرية والظلالية والجرسية.

هـ - ومفردات فنية توحى بالخشية والهلع والفرع، وتنبض بالجلال
والعظمة والقوة مثل:

لجة - لظى - تلظى - تلقف - ضبحا - قدحا - عتياً - صك - متصدعاً -
صعق - صعر - اللهب - الصواعق - لواحة - يحموم - صياصي - مقامع من
حديد - تمور السماء - زلزلت الأرض - البحر المسجور - رجّت الأرض رجاً.
وسائر الألفاظ في وصف القيامة عموماً ومشاهد العذاب الأخروي خصوصاً.
ومنها اشتقاقاتها مثل: لاهية قلوبهم - يموج - نجياً - القارعة -
كالهون - مهطعين - مقنعي رؤوسهم - وسائر الألفاظ التي تصور مشاهد الآخرة
وهولها، والقدرة وعظمتها...



٢(١) - وقد يستقل لفظ واحد: - لا عبارة كاملة - برسم صورة شاخصة -
لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة - . وهذه خطوة أخرى في تناسق
التصوير، أبعد من الخطوة الأولى، وأقرب إلى قمة جديدة في التناسق. خطوة
يزيد من قيمتها أن لفظاً مفرداً هو الذي يرسم الصورة، وتارة بجرسه الذي يلقيه
في الأذن، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال، وتارة بالجرس والظل جميعاً.

تسمع الأذن كلمة «أثأقلتم» في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالَكُمُ
إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَأَقَلُّتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فيتصور الخيال ذلك
الجسم المُثَقَّل، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثقل. إن
في هذه الكلمة «طناً» على الأقل من الأثقال! ولو أنك قلت: تثأقلتم، لخف

(١) التصوير الفني في القرآن: ٩١ - ٩٥.

الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ، واستقل برسمها.

وتقرأ: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئُ﴾ فترسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلها - وفي جرس «ليبطئن» خاصة. وإن اللسان ليكاد يتعثر، وهو يتخبط فيها، حتى يصل ببطء إلى نهايتها!.

وتتلو حكاية قول هود: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنِينَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ مَكْمُوهًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ فتحس أن كلمة «أنزلهم مكموها» تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق، وشد بعضها إلى بعض، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدون إليه وهم منه نافرون!.

وهكذا يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية، وأرفع من الفصاحة اللفظية، اللتين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن - قديماً وحديثاً - أعظم مزايا القرآن!.

وتسمع كلمة «يصطرخون» في الآية:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٢٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

فيخيل إليك جرسها الغليظ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة؛ كما تلقي إليك ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه. وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون.

وحين يستقل لفظ واحد بهذه الصورة كلها يكون ذلك فناً من التناسق الرفيع.

ومثلها كلمة «عُتِلَّ» في تمثيل الغليظ الجافي المتنطع: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ﴾.

فإذا سمعت: ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْجَرِحِهِ مِنْ أَلْعَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ صورت لكل كلمة «بمرحزحه» - المقدمة في التعبير على الفاعل لإبرازها - صورة الزحزحة المعروفة كاملة متحركة، من وراء هذه اللفظة المفردة.

وكذلك قوله: ﴿فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوِنَ ۖ وَخُنُوذُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾. فكلية «كبكبو» يحدث جرسها صوت الحركة التي تتم بها.

وحقيقة إن وضع هاتين اللفظتين اللغوي هو الذي يمنحهما هذه الصورة - وليس هو استعمال القرآن الخاص لهما، كما هو الشأن في الكلمات الماضية، التي اشتقها خاصة أو استعملها أول مرة - ولكن اختيارهما في مكانيهما يحسب بلا شك في بلاغة التعبير.

ومن الأوصاف التي اشتقها القرآن ليوم القيامة: «الصَّاخَّة» و«الطَّامَّة». والصاخة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها، وشقه للهواء شقاً، حتى يصل إلى الأذن صاخاً مُلِحّاً. والطامة لفظة ذات دويّ وطنين، تخيل إليك بجرسها المدوي أنها تطم وتعم، كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه.

ضع هذه الألفاظ بجوار ذلك اللفظ المشرق الرشيق «تنفس» «والصبح إذا تنفس» تجد الإعجاز في اختيار الألفاظ لمواضعها، ونهوض هذه الألفاظ برسم الصورة على اختلافها.

ومثلها التعبير عن النوم بالنعاس، وعن التنويم بغشية النعاس: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ تجد جو النعاس الرقيق اللطيف، وكأنه غشاء شفيف، يغشى الحواس في لطف ولين: «أمنة منه» فالجو كله أمن ودعة وهدوء.

ونوع آخر من تصوير الألفاظ بجرسها يبدو في الناس :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾
مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ .

اقرأها متوالية تجد صوتك يحدث «وسوسة» كاملة تناسب جو السورة .
جو وسوسة «الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس» .

ونوع من هذا - ولكن فيه عنه اختلافاً - ذلك قوله : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً
تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ فالملطوب هنا هو تفضيع ما قالوا من
أن الله اتخذ ولداً، وتكبير هذه الفرية بكل طريقة . فقال : «كبرت» وأضمر
الفاعل ؛ ثم جعل هذه الكلمة تمييزاً منكراً ، ليكون في الإضمار والتكبير معنى
الاستنكار والتكبير «كبرت كلمة» ثم جعلها تخرج من أفواههم خروجاً كأنها
رمية من غير رام «تخرج من أفواههم» وتنسيقاً لجو التكبير كله جاءت كلمة
«أفواههم» . وإنك لحتاج في نطقها أن تفتح فاك بالواو الممدودة، وأن تخرج
هائين متواليتين من الحلق في عسر ومشقة، قبل أن تطبق «فاهك» على الميم
الأخيرة ! .

وهناك نوع من الألفاظ يرسم صورة الموضوع، ولكن لا بجرسه الذي
يلقيه في الأذن، بل بظله الذي يلقيه في الخيال، وللألفاظ كما للعبارات
ظلال خاصة يلحظها الحس البصير، حينما يوجه إليها انتباهه، وحينما
يستدعي صورة مدلولها الحسية .

مثال ذلك : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ فالظل
الذي تلقيه كلمة «انسلك» يرسم صورة عنيفة للتملص من هذه الآيات، لأن
الانسلاخ حركة حسية قوية .

ومثله : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ فلفظة «يتربص» ترسم هيئة
الحذر المتلفت . (ولا نغفل هنا أنه خائف يتربص «في المدينة» موضع الأمن

والاطمئنان عادة، وإن كان هذا خاصاً بالتعبير كله. ولكن العبارة هنا تبرز قيمة اللفظ المصوّر للفرع في موطن الأمان!).

وقد يشترك الجرس والظل في لفظ واحد مثل: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ فلفظ الدَّع يصور مدلوله بجرسه وظله جميعاً. ومما يلاحظ هنا أن «الدَّع» هو الدفع في الظهور بعنف، وهذا الدفع هو كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتاً غير إرادي فيه عين ساكنة هكذا: «أع» وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس «الدَّع»!

ومثله: ﴿حَذُوهُ فَأَعْيَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ فالعُتْل جرس في الأذن وظل في الخيال، يؤديان المدلول للحس والوجدان.



٣ - ومفردات تتعين نفسها لأداء وظيفة معنوية: لا تستوفيه لفظة مرادفة أخرى في دقة معناها وشموله، ويعرف هذا من وجودها في الجملة القرآنية التي تتسق مفرداتها مع بعضها للتعبير عن أدق المعاني باختيار أدق الألفاظ.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ فنراه قد استخدم كلمة «أهل» وهي هنا أولى بهذا المكان من كلمة «أصحاب»، لما تدل عليه تلك من الإقامة في النار والسكنى بها. وكلمة «ميراث» في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، واقعة موقعها، وهي أدق من كلمة «ملك» في هذا الموضع، لما أن المال في أيدي مالكيه من الناس، ولكنه سوف يصبح ميراثاً لله.

وقد يحتاج المرء إلى التريث والتدبر، ليدرك السر في إثارة كلمة على أخرى، ولكنه لا يلبث أن يجد سمو التعبير القرآني، فمن ذلك قوله: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ (طه: ٦٥)، فقد يبدو

للنظرة العاجلة أن الوجه أن يقال: إما أن تلقى وإما أن نلقى، وربما توهم أن سر العدول يرجع إلى مراعاة النغم الجرسى فحسب، حتى تتفق الفواصل في هذا النغم، وذلك ما يبدو بادىء الرأي. أما النظرة الفاحصة فإنها تكشف رغبة القرآن، في تصوير نفسية هؤلاء السحرة، وأنهم لم يكونوا يوم تحدوا موسى بسحرهم خائفين، أو شاكين في نجاحهم، وإنما كان الأمل يملأ قلوبهم، في نصر مؤزر عاجل، فهم لا ينتظرون ما عسى أن تسفر عنه مقدرة موسى عندما ألقى عصاه، بل كانوا مؤمنين بالنصر سواء ألقى موسى أولاً، أم كانوا هم أول من ألقى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (البقرة: ١٧٦) فقد يتراءى أن وصف الشقاق، وهو الخلاف، بالقوة أولى من وصفه بالبعد ولكن التأمل يدل على أن المراد هنا وصف خلافهم بأنه خلاف تتباعد فيه وجهات النظر إلى درجة يعسر فيها الالتقاء، ولا يدل على ذلك لفظ غير هذا اللفظ الذي اختاره القرآن. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج: ٢٧) فربما كانت الصوتيات، والفاصلة في الآية السابقة دالية، تجعل من المناسب أن يوصف الفج بالبعد، فيقال: فج بعيد، ولكن إثارة الوصف بالعمق، تصوير لما يشعر به المرء أمام طريق حصر بين جبلين، فصار كأن له طولاً، وعرضاً، وعمقاً.

وإشارة كلمة «مسكوب» في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٧٧) في سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٧٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٧٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٨٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٨١﴾ مكان كلمة (غزيرة)، أدق في بيان غزارته، فهو ماء لا يقتصد في استعماله، كما يقتصد أهل الصحراء، بل هو ماء يستخدمونه استخدام من لا يخشى نفاذه، بل ربما أوحى تلك الكلمة بمعنى الإسراف في هذا الاستخدام.

واستخدام كلمة «يظنون» في الآية الكريمة: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ

وَالصَّلَاةُ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ (البقرة: ٤٥، ٤٦) قوية في دلالتها على مدح هؤلاء الناس، الذين يكفي لبعث الخشوع في نفوسهم، وأداء الصلاة والاتصاف بالصبر أن يظنوا لقاء ربهم، فكيف يكون حالهم إذا اعتقدوا؟^(١).



٤ - ومفردات موظفة لألوان جديدة من الجمالية: فلا يراد منها معناها الوضعي لسبب بلاغي وجمالي، وعندئذ يمكن أن تكتسي غالباً حلتين من الجمالية: واحدة من حقيقتها الوضعية والثانية من دلالتها الجديدة المقصودة.

وإن نقل مفردات من مضمونها اللغوي إلى مضمون قرآني في صورة مجازية يسبغ عليها جمالاً قدسياً وبهاء ربانياً آخر باعتبار أن القرآن صفة أزلية لله تعالى، كما يلبي مقصداً بيانياً في إعجاز الكلمة والجملة والنظم القرآني. وعندئذ تلتحم (آلية) المفردة باعتبارها حروفاً منتقاة بلون جمالي جديد لأداء مفهوم معين يصاغ بصور لا حد لها في المجاز والتشبيه والتمثيل ووجوه مختارة من البديع.

أولاً - التوظيف التنزيهي:

وهو استعمال تزييني تنتقل اللفظة من مدلولها اللغوي الأصلي إلى دلالة بديعية تليق بالذات الإلهية التي ينبغي أن تنزه عن صفات النقصان والحوادث، وفي هذا جمال معنوي وجلالي إلهي ينفي عن الله التجسيم والتشبيه والنظير والمثلية. ومن وجوه التنزيه الملائمة:

١ - المشاكلة: وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا^(٢)، فالله تعالى يقول: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

(١) من إعجاز القرآن الكريم: د. أحمد حمدي بدوي.

(٢) الإتيان: ٩٤/٢. وانظر موقف سيد قطب من مراعاة النظير في التصوير الفني:

يَعْمَهُونَ ﴿البقرة: ١٥﴾ فلا تصح نسبة «الاستهزاء» إلى الله في مقابل استهزاء المنافقين بالرسول ﷺ وبالصحابة، وإنما الهزء حاق بهم، وعقوبة جازاهم الله عليها، ولذلك قال: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا...﴾ (الشورى: ٤٠)، وهذا جار على أسلوب العرب ومذهبهم وطريقة خطابهم.

وفي آية أخرى يقول الله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيْءَايَانَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (يونس: ٢١) فالله تعالى منزّه عن المكر الذي قد يتصف به بعض الناس، لأنه استهزاء وتكذيب وخداع وتحايل، فلا يصح نسبة ذلك إلى الله، فالمعنى إذاً كما ذكره ابن كثير أن الله أشد استدرجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذّب وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على حين غرة منه... ويقول الرازي: إن الكفار لما قابلوا نعمة الله بالمكر فالله سبحانه وتعالى قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك وهو ما أعده لهم يوم القيامة من العذاب الشديد، وفي الدنيا من الفضيحة والخزي والنكال.

٢ - التورية: وهي أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد ويراد البعيد منهما، ويستدلون عليها بآيات منها:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧) ويفسرون الأيدي هنا بالقوة والقدرة ويقولون: ذكر في الآية ما يناسب المعنى القريب وهو «بناها»، وسماها البلاغيون: بالتورية المرشحة وهذا تفسير ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد كما نقله ابن كثير.

وقال الرازي: الأيد: القوة وهذا هو المشهور.

وأحياناً يرجح تناسق الصورة أو المشهد المعنى البعيد حين تدل عليه أمارة. فالله تعالى يقول: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (الرحمن: ٦) فالنجم هنا النبات الذي لا ساق له، وقرينته: الشجر، ويسجدان. في مقابل:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ المتقدمة. وإن كان تفسيره بالنجم المعروف والقريب مرجوحاً عند معظم المفسرين.

٣ - المبالغة والتكثير: وهي أن يذكر المتكلم وصفاً فيزيد فيه حتى يكون أبلغ المعنى الذي قصده: وهي مبالغة بالوصف مثل: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ ومبالغة بالصيغة، وصيغ المبالغة: فعلان كالرحمن أبلغ من الرحيم، وفعال: تواب، وفعليل: حكيم... (١).

وفسر البلاغيون بهما بعض الآيات الكلية مثل: ﴿هَافِرَ طَنًا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ...﴾ (الأنعام: ٣٨) وقوله: ﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٢٣). قال أبو السعود في تفسيره مشيراً إلى أن لفظة «كل» لا يراد منها العموم: أي من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك. وقال ابن كثير: من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن، وعلى رأي الرازي هو عام دخله التخصيص (٢).

وقريب منه قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الكهف: ٥٤) فقد ضرب في القرآن أمثالاً للتقريب والعظة والاعتبار مما يحتاج إليه العباد في أمر دينهم وجرى ذلك على أسلوب العرب وطريقتهم.

ويرى الرماني (ت ٣٨٤ هـ) والزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) أن المبالغة والتكثير قد تجري في الجملة القرآنية وصورتها أيضاً وليس في اللفظة الواحدة، ويستشهدان على ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١) وغيرها. وليس هنا مجال التفصيل فيها.

(١) اقتباس من: الإتقان ٩٤/٢.

(٢) عند تفسير قوله: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٢٩).

إن تألق مفردات قرآنية ضمن جملتها، وتزيين بعضها في تناسق بديعي، وإرادة معنى جميل يتناسب والجماليات الإسلامية والقرآنية، من وظيفة الفن البديعي الذي يسبغ على اللفظة والجملة بهاءً لفظياً وجمالاً رائعاً. والحقائق الفكرية والعقدية التي يسوقها القرآن تصاغ بمثل هذه الأوعية اللفظية الفنية فتزيدها بهاءً وجمالاً وتضفي عليها الروح والحياة في كثير من الأحيان.



ثانياً: مفردات موظفة لألوان الصور الجمالية في التشبيه والمجاز:

والمقصود هنا بحث الألفاظ التي خصها القرآن بهذا اللون الجمالي دون سواها حتى كانت محور صوره أخاذه رائعة.

فالقرآن اتخذ مفردات معينة لإقامة علاقات جمالية بينها وبين سائر الجملة أو الصورة القرآنية وهذا يوحى بشيئين:

أ - أهمية هذه اللفظة أو تلك في بناء صورة فنية أدبية عامة.

ب - جمالية اللفظة مفردة وبعد ضمها إلى رتل الألفاظ الأخرى لتكوين الصورة الفنية المطلوبة.

ولذا فإننا لا نتحدث عن أنواع التشبيه والاستعارة والمجاز لأن مثل هذا الحديث ينبغي أن نبين فيه العلاقة الفكرية والجمالية بين أركان التشبيه والاستعارة والمجاز، وإنما سنقصر الكلام على جمالية المفردة أصلاً واستعمالاً.

وإذا ألقينا ضوءاً على بعضها بما يشبه جريان التشبيه والاستعارة فإن المقصود بذلك لفت النظر إلى جمالية المفردة في موضعها الفني وصورتها القرآنية.

فمنها مفردات مشرقة باسمه موحية بمشاعر الرضى والبهجة. مثل:

الروح - الهدى - الأمهات - الحياة - الوجه - الناصية - الحسنات - وارثو الفردوس .

ومنها مفردات مهيبة مروعة موحية بظلال القوة والحزم مثل : حديد - الختم والطبع - السوء والسيئات - ربطنا - الموت - الصدع - المتين - الأغلال - أضللن - صم - بكم - عمي - أرساها .

ويلحق بها مفردات ذات دلالة فنية خاصة . مثل : غشاوة - أكنة - الحجاب - حرف - سكارى - المرض .

ومنها مفردات عفة مهذبة الدلالة ، بعيدة عن التهافت والابتذال ، والأدب المكشوف : مثل : تغشاها - التماس - الحرث - الملامسة - فاحشة قوم لوط - لباس لكم ولباس لهن - النكاح - هيت لك - لا تواعدوهن سرأ - أفضى بعضكم إلى بعض . . .

إن من له إلمامة بالعربية يدرك الفروق بين هذه الأصناف اللفظية ، كما يدرك بذوقه جمالها الفني الذي يعبر عن تشوف إليها أو انكماش عنها .

والقرآن قد اختارها واختار معها أن يرصفها في صورة فنية معبرة أو ينقلها إليها فتزداد حسناً ، وتتسع بعداً فنياً حتى لتكاد تنسى دلالتها الوضعية أحياناً .

وإذا عدنا إلى هذه المفردات ثانياً - ومع ملاحظة سياقها - نجد تعدداً في طبيعتها وجوهرها نقلاً من حقيقتها اللغوية إلى مجازات وتشبيهات وكنائيات بلاغية .

فقد احتفظ ببعضها في دلالته المجردة الخالصة ، وأحياناً ينقلها إلى صورة ومجال ماديين ، مثل : ينزل الملائكة بالروح من أمره - فأهّوهم إلى صراطٍ مستقيم - فأثابكم غمّاً بغم - فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه - وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه . .

وأبقى بعضها في دلالة المادية مثل : والجبال أرساها - وأنه هو أضحك وأبكى - سمعوا لها تغيظاً وزفيراً^(١).

ووظف بعضها في مجالات فكرية بعد أن كانت دلالة المحسة أصلاً وحقيقة، وهذا واضح من قوله: صم بكم عمي فهم لا يعقلون - وقوله: وربطنا على قلوبهم إذ قاموا... - في قلوبهم مرض - واصنع الفلك بأعيننا - فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا - في آذانهم قر - هو عليهم عمى . وأكثر من نقل المفردات من الدلالات المادية إلى المعنوية مثل قوله: الذين يرثون الفردوس - وترى الناس سكارى وما هم بسكارى - فاصدع بما تؤمر - ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة - إذ الأغلال في أعناقهم - فبصرك اليوم حديد - وكلمة الله هي العليا . . .

وحسبي الآن أن أبين ما يوحيه هذا النوع من الألفاظ في النفس، ذلك أن تصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكناً من النفس، وتأثيراً فيها، ويكفي أن تقرأ قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (البقرة: ٧) وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٢٣) لترى قدرة كلمة ختم، في تصوير امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَآؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة: ٢٥٧) لترى قيمة كلمتي الظلمات والنور، في إثارة العاطفة وتصوير الحق والباطل وقوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٨) لترى قيمة هذه الصفات التي تكاد تخرجهم عن دائرة البشر، وقوله سبحانه: ﴿يَتَّقُصُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ

(١) تقدم بعضها. هذا وقد توسع علماء البلاغة في تصنيف هذه الألفاظ وغيرها في علوم المعاني والبيان والبدیع، ولنا عودة إليها ضمن تراكيبها القرآنية المبدعة.

مِثْقَهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴿ (البقرة: ٢٧) فالكلمات: ينقضون ويقطعون ويوصل، تصور الأمور المعنوية في صور (محسنة). وفي اختيار القرآن للكلمة الدقيقة المصورة للمعنى خذ كلمة «يسكن» في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُسَكِّنِ الرَّيحَ فَيُظِلِّلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ (الشورى: ٣٣) وكلمة «تسوروا» في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوُ الْأَخْصَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمَحْرَابَ﴾ (ص: ٢١) وكلمة (يطوقون) في الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءٍ أَنْتَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، وكلمة «يسفك» في آية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠) وكلمة (انفجر) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (البقرة: ٦٠) وكلمة «يخرون» في الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (الإسراء: ١٠٧، ١٠٨) وكلمة «مكبا» في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكْبَأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: ٢٢) وكلمة «تفيض» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٨٣) وكلمة «يصب» في قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (الحج: ١٩) وكلمة (يدس) من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿٥٨﴾ يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩). وكلمة «قاصرات» من قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ

قَصِرَتْ الظُّرْفُ عَيْنٌ ﴿ (الصفات: ٤٨)، وكلمة «مستسلمون»، في قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۚ ﴾ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿ (الصفات: ٢٥ - ٢٦) و«متشاكسون» في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ (الزمر: ٢٩) ويطول بي القول، إذا أنا مضيت في عرض هذه الكلمات التي توضع في مكانها المقسوم من الجملة، فتجعل المعنى مصوراً تكاد تراه بعينك، وتلمسه بيدك، ولا أريد أن أمضي في تفسير الكلمات التي استشهدت بها، لأنها من وضوح الدلالة بمكان المحس الملموس.

وفي القرآن كثير من الألفاظ، تشع منها قوى توحى إلى النفس بالمعنى وحياءً، فتشعر به شعوراً عميقاً، وتحس بجو الفكرة إحساساً قوياً، خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَالْأَيْلِ إِذَا عَسَّعَسَ ۖ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ۖ ﴾، فتأمل ما توحى به كلمة: تنفس، من تصوير هذه اليقظة الشاملة للسكون بعد هدأة الليل، فكأنما كانت الطبيعة هاجعة هادئة، لا تحس فيها حركة ولا حياة، وكأنما الأنفاس قد خفتت حتى لا يكاد يحس بها ولا يشعر، فلما أقبل الصبح صحا الكون، ودبت الحياة في أرجائه.

وخذ قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ... ﴾ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ تُعْذِرُوا عَلَيْهِمْ لِيُتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ (التوبة: ١١٧، ١١٨) وقف عند كلمة ضاق في ضاقت عليهم أنفسهم، فإنها توحى بما ألمَّ بهؤلاء الثلاثة من الألم والندم، حتى شعروا بأن نفوسهم قد امتلأت من الندم امتلاءً، فأصبحوا لا يجدون في أنفسهم مكاناً، يلتمسون فيه الراحة والهدوء، فأصبح القلق يؤرق جفنهم، والحيرة تستبد بهم، وكأنما أصبحوا يريدون الفرار من أنفسهم.

واقراً قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (السجدة: ١٦) وتبين ما تثيره في نفسك كلمة «تتجافى»، من هذه الرغبة الملحة التي تملك على المتقين نفوسهم، فيتألمون إذا مست جنوبهم مضاجعهم، ولا يجدون فيها الراحة والطمأنينة، وكأنما هذه المضاجع قد فرشت بالشوك فلا تكاد جنوبهم تستقر عليها حتى تجفوها، وتنبو عنها. وقف كذلك عند كلمة «يعمّهون» في قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة: ١٥) فإن اشتراك هذه الكلمة مع العمى في الحروف، كفيل بالإيحاء إلى النفس، بما فيه هؤلاء القوم، من حيرة واضطراب نفسي، لا يكادون به يستقرون على حال من القلق. واقراً الآية الكريمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَمَةٌ أَلْفُورٍ﴾ (آل عمران: ١٨٥) أفلا تجد في كلمة «زحرج» ما يوحي إليك بهذا القلق الذي يملأ صدور الناس في ذلك اليوم، لشدة اقترابهم من جهنم، وكأنما هم يبعدون أنفسهم عنها في مشقة وخوف وذعر. وفي كلمة (طمس) من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ﴾ ما يوحي إليك بانمحاء معالم هذه العيون، حتى كأن لم يكن لها من قبل في هذا الوجه وجود. ويوحي إليك (الراسخون) في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧) بهذا الثبات المطمئن، الذي يملأ قلب هؤلاء العلماء، لما ظفروا به من معرفة الحق والإيمان به. وتوحي كلمة «شنان» في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾

(المائدة: ٢) توحى بهذا الجوى، الذي يملأ الصدر، حتى لا يطيق المرء رؤية من يبغضه، ولا تستسيع نفسه الاقتراب منه.

ولما سمعنا قوله تعالى لعيسى بن مريم: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (آل عمران: ٥٥) أوحى إلينا التعبير بالتطهير، بما يشعر به المؤمن بالله نحو قوم مشركين، اضطر إلى أن يعيش بينهم، فكأنهم يمسونه برجسهم، وكأنه يصاب بشيء من هذا الرجس، فيطهر منه إذا أنقذ من بينهم. وكلمة سكرت في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثِّتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا﴾ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمِعْ أَلاَّ نَحِدْ لَّوْ شَاءَ بَارِئُهَا، ألا ترى أنها في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه، كما جاءت في الشعر، ولو قال الشاعر بدلاً منها مقاعد العواد، مقاعد الزيارة، أو ما جرى مجراه لذهب ذلك القبح، وزالت تلك الهجنة، ولذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ما تراه من الحسن، وجاءت على ما تراه من القبح، في قول الشريف الرضي^(١).

ومن ذلك استخدام كلمة شيء، ترجع إليها في القرآن الكريم، فترى جمالها في مكانها المقسوم لها. واستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا﴾، (الكهف: ٤٥) وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: ٣٥) وقوله تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ

(١) المثل السائر: ٢٦٣/١. وقول الشريف الرضي هو:

أعزَّزَ عليَّ بأنَّ أراك وقد خلا عَنْ جَانِبَيْكَ مَقَاعِدَ الْعُودِ

شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ (يونس : ٤٤) إلى غير ذلك من عشرات الآيات التي وردت بها تلك اللفظة، وكانت متمكنة في مكانها أفضل تمكن وأقواه، ووازن بينها في تلك، وبينها في قول المتنبي يمدح كافوراً: لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شيء عن الدوران فإنك تحس بقلقها في بيت المتنبي، ذلك أنها لم توح إلى الذهن، بفكرة واضحة، تستقر النفس عندها وتطمئن، فلا يزال المرء بعد البيت يسائل نفسه عن هذا الشيء، الذي يعوق الفلك عن الدوران، فكأن هذه اللفظة لم تقم بنصيبتها في منح النفس الهدوء الذي يغمرها، عندما تدرك المعنى وتطمئن إليه.

ولم يزد مرور الزمن بألفاظ القرآن إلا حفظاً لإشراقها، وسياجاً لجلالها، لم تهن لفظة ولم تتخل عن نصيبتها، في مكانها من الحسن، وقد يقال: إن كلمة الغائط من قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، (المائدة: ٦) قد أصابها الزمن، فجعلها مما تنفر النفس من استعمالها، ولكننا إذا تأملنا الموقف، وأنه موقف تشريع وترتيب أحكام، وجدنا، أن القرآن عبر أكرم تعبير عن المعنى، وصاغه في كناية بارعة، فمعنى الغائط في اللغة المكان المنخفض، وكانوا يمضون إليه في تلك الحالة، فتأمل أي كناية تستطيع استخدامها مكان هذه الكناية القرآنية البارة، وإن شئت أن تبين ذلك، فضع مكانه كلمة تبرزتم، أو تبولتم، لترى ما يثور في النفس من صور ترسمها هاتان الكلمتان. ومن ذلك كلمة ترى كيف كان موقع هذه الكناية يوم نزل القرآن، وأنها لا تزال إلى اليوم أسمى ما يمكن أن يستخدم، في هذا الموضع التشريعي الصريح^(١).

(١) د. أحمد حمدي بدوي: من إعجاز القرآن البياني. مقتبسات من ص ٦١ - ٧٥.

ثالثاً - في الفاصلة القرآنية:

وهي الكلمة التي تختتم بها الآية، وبها يتم معناها، ويزداد وضوحاً وجلالاً. ففيها تفصيل توضيحي جمالي يضيف على معناها رواء بيانياً بديعاً بما تؤديه من جرس صوتي ينسجم مع آياتها وسائر الآيات.

١ - ففي الناحية الصوتية والجرسية: نلاحظ أن أكثر ما تنتهي الآيات بالنون والميم المسبوقتين بحروف المد، وتلك هي الأجزاء الطبيعية في الموسيقى نفسها. قال سيويه: إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا.

وقد تعددت (إيقاعات) الفواصل، مثل: حرف مد (العوض) المسبوق بالحروف الهجائية، كما في سور: النساء - والإسراء - والكهف - والفتح - والنصر...

والألف اللينة المسبوقة بالحروف الهجائية أيضاً، في سورة: عبس، وطه، وبعض من سورة النازعات فهو غالباً إيقاع لطيف خفيف يعبر عن حركات سريعة ويقتضي مدّاً قصيراً له صوته الملائمة.

وكثيراً ما يسبق المدّ حرفي النون والميم كما أشرت - وأحياناً حروفاً أخرى غير النون والميم وهو ما نلاحظه في سور متعددة، مثل سور: النساء، والفيل، وقريش، والزمر، وص،... ومثل هذا الإيقاع يمد بنفس صوتي طويل يقتضي أداءً صوتياً خاصاً.

وأحياناً تخلو الفاصلة من حرف المد ويستعاض عنه بالقلقلة، أو التفخيم، أو الهمس، أو الحلق، أو السكت... مثل سور: الكوثر، والصمد، وأبي لهب، والفلق، والانفطار، والهمزة، ومعظم التكوير، والعصر، وهذا الإيقاع المباشر الصامت والساكن يوحى غالباً بالقوة والفخامة والجلال الجرسى.

فكل فاصلة ضمن أسرتها تنزع إلى تحقيق لون جمالي من الجرس

الظاهر، والخفي، والإيقاع القوي أو السلسل الرتيب، القصير والمتوسط والطويل، وتنسجم في تركيب الآية، وتتسق في معناها، حتى يمكن أن تنغم بالصوت الحسن المشروع.

يقول الرافي^(١): وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صوراً تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها؛ أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقي.

وسنعود إلى هذه المسألة بتفصيل أكثر في: التناسب الصوتي إن شاء الله.

٢ - ومن ناحية التناسب المعنوي: (فتأتي الفاصلة في القرآن مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها، تعلقاً تاماً بحيث لو طرحت لاختل المعنى، واضطرب الفهم، فهي تؤدي في مكانها جزءاً من معنى الآية ينقص ويختل بنقصانها...).

(١) إعجاز القرآن: ٢٤٥. والرافي على أدبياته المؤمنة، وكذلك أمثاله من الأدباء الإسلاميين نقدم لهم الملاحظة هي: وصفت هنا وفي مواضع أخرى بعض آيات القرآن الكريم بالموسيقى، وأنا حين أنقلها كما هي أمانة، فإن مما لا يليق بكتاب الله وصفه بذلك، ويحسن تغييرها بلفظة أخرى مثل: التناسب الصوتي، والتناسق الصوتي...

وقد يشتد تمكن الفاصلة في مكانها حتى لتوحى الآيات بها، قبل نطقها، كما روي عن زيد بن ثابت أنه قال: أُملى عليّ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ... لَحْمًا﴾ وهنا قال معاذ بن جبل: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢)، فضحك الرسول، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: «بها ختمت»^(١).

حتى ليأبى قبولها والاطمئنان إليها، من له ذوق سليم؛ إذا غيرت وأبدل بها سواها، كما حكي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾، ولم يكن يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا، الرحيم لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه^(٢)... والآية إنما ختمت بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٠٩)...

والقرآن كله نماذج تلتحم فيها الفواصل بنسيج بديع ونسق عجيب مع الجمل القرآنية لفظاً ومعنى لتحدث في نفوسنا الأثر المراد.

ومن الأمثلة أيضاً قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ...﴾ (البقرة: ٢٢٠) فالمقام تشريع وتحذير يستدعي هيئة المحذر وكلمة المشرع.

وقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ...﴾ (البقرة: ٣١) فالموضوع تعليم حكيم، وبها ختمت الآية.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ فِي... الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: ٦) أليست الفاصلة متناسبة مع الألوهية المتفردة والاختيار الإلهي المطلق لما يشاء وفق الحكمة الربانية؟

ومن الفواصل الواضحة قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ... حَلِيمٌ﴾

(١)، (٢) الإتيان: ١٤/٢، ١٠١.

(البقرة: ٢٢٥) فإن مناسبة الغفران والحلم لعدم المؤاخذة على اللغو في الإيمان واضحة قوية...

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (الحاقة: ٤١ و ٤٢) فختم الأولى بتؤمنون، لأن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة، فمن قال إنه شعر كان كافراً ومعانداً عناداً محضاً، فكان من المناسب ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، أما مخالفة القرآن لنظم الكهان فمما يحتاج إلى تدبر وروية، لأن كلا منهما نشر، فليست مخالفته له في وضوحها لكل أحد كمخالفة الشعر، ولكنها تظهر بتدبر ما في القرآن من بلاغة رائقة ومعان أنيقة، فحسن لذلك ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾^(١).

ومما يجمل إirاده هنا أن تختلف الفاصلتان في موضعين، والمتحدث عنه واحد فيهما، وذلك كقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَأَتَّكُم مِّن كُلِّ مَآسٍ لِّتُؤْمَرُوا وَتَنذَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْضَوْهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٧) وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: ١٨). والمتأمل يجد سر هذا الاختلاف، أن القرآن راعى مرة موقف الإنسان من نعم الله، فهو ظلوم كفار، وأخرى مقابلة الله سبحانه نكران الجميل والظلم والكفر بالنعم، بالغفران والرحمة، وكان ختام الآية الأولى بما ختمت به، لأنها كانت في معرض صلة الإنسان بالله، وكانت الثانية في معرض الحديث عن الله، فناسب ختم الآية بذكر صفاته.

ونظير ذلك قوله سبحانه في سورة الجاثية: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا

(١) الإنتقان: ٢٠٢/٢.

لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مِّنْ عَمَلٍ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

كررت هذه الآية في سورة فصلت، وختمت بفاصلة أخرى، إذ قال تعالى:

﴿مِّنْ عَمَلٍ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦)

ولعل سر ذلك أن الآية الأولى جاء قبلها حديث عن منكري البعث، فناسب ختم الآية بالحديث عنه، أما الآية الثانية فناسب ختمها معناها: من جزاء كل بما يستحق. ونظير هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨) وقال مرة أخرى في السورة نفسها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١١٦) ونستطيع أن نلتبس سر هذا الاختلاف في أن الآية الأولى وردت في حديث عن اليهود الذين افتروا على الله الكذب، بما ناسب أن تختتم الآية بالافتراء، الذي اعتاده اليهود، وهم أهل الكتاب. أما الآية الثانية فقد وردت في حديث عن المشركين، وهم في إشراكهم لا يفترون، ولكنهم ضالون ضلالاً بعيداً.

وربما احتاج الأمر إلى إمعان وتدبر لمعرفة سر اختتام الآية بهذا الوصف، ويبدو أن ختمها بسواه أولى. من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۗ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فقد يبدو باديء ذي بدء أن قوله: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، يحتم أن تكون الفاصلة الغفور الرحيم، ولكن تأملاً هادئاً يهدي إلى أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد، يرد عليه حكمه، فهو عزيز غالب، وحكيم يضع الشيء في موضعه، وقد يخفى وجه الحكمة على الناس فيما يفعل، فيتوهم أنه خارج عن الحكمة، وليس كذلك، فكان الوصف بالحكيم احتياطاً حسناً، وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب، فلا اعتراض لأحد عليك في ذلك، والحكمة فيما

فعلته، ونظير ذلك قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وفي سورة الممتحنة: ﴿وَأَعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفي سورة غافر: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (غافر: ٨). وفي سورة النور: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ١٠) فقد يكون من المناسب في بادئ الرأي أن يوصف سبحانه هنا بتواب رحيم؛ لأن الرحمة مناسبة للتوبة، لكن التعبير بالحكمة هنا إشارة إلى حكمته سبحانه في مشروعية اللعان، الذي سن أحكامه، في هذه السورة.

وقد تحدث العلماء عما يكون في الآي مما يشير إلى الفاصلة، ويسمون ذلك تصديراً وتوشيحاً^(١)، أما التصدير فأن تكون اللفظة قد تقدمت مادتها في الآية، ودعوه رد العجز على الصدر، ومثلوا له بقول تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ وقوله تعالى: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَهَزَىٰ رُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَاتَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾.

وفي ذلك وشبهه ما يدل على التحام الفاصلة بالآية التحاماً تاماً، يستقر

(١) أقول: ذكر السيوطي في الإتيان: ١٠١/٢ أربعة أنواع هي: التمكين والتصدير والتوشيح والإيغال. وكثير من الأمثلة من قبل ومن بعد، اقتبسها د. بدوي في كتابه السابق من الاتقان.

في النفس وتتقبله أعظم قبول. وحيناً يظن أن الآية تهيء لفاصلة بعينها، ولكن القرآن يأتي بغيرها، إثارة لما هو ألصق بالمعنى، وأشد وفاء بالمراد. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فربما وقع في النفس أن الفاصلة ترتبط بالاستهزاء، وتتصل به، ولكنها جاءت تبرؤاً من الجهل. وفي ذلك إشارة إلى أن الاستهزاء بالناس جهل وسفه، لا يليق أن يصدر من عاقل ذي خلق.

أما ما سموه توشيحاً، فهو أن يكون معنى الآية مشيراً إلى هذه الفاصلة، ومثلاً له بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فإن الاصطفاء يكون من الجنس، وجنس هؤلاء المصطفين، هو العالمون. ويقول تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾.

هذه الفواصل لها قيمتها في إتمام المعنى، وهي مرتبطة - كما رأينا - بآياتها تمام الارتباط، ولها أثرها الجرسى في نظم الكلام، ولهذه الصوتية أثرها في النفس، وأسلوب القرآن فيه هذه الجرسية المؤثرة، ومن أجلها حدث في نظم الآي ما يجعل هذه المناسبة أمراً مرغياً، وتجذب بعض ذلك في كتاب الإتقان^(١)، ومن ذلك إثارة أغرب اللفظين نحو «قسمة ضيزى».

وقد أحسن ابن الأثير توجيه هذه اللفظة إذ قال^(٢): «إنها في موضعها لا يسد غيرها مسدها، ألا ترى أن السورة كلها - التي هي سورة النجم - مجموعة على حرف الياء فقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ١ مَاضِلٌ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ وكذلك إلى آخر السورة. فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد، وما

(١) الإتقان: ٩٩/٢.

(٢) المثل السائر: ٦٢. أقول انظر: إعجاز القرآن: ٢٦١ للرافعي، وسيد قطب في: التصوير الفني في القرآن: ٨٦.

كان يزعمه الكفار، قال: ﴿الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (١٦) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿، فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه، وغيرها لا يسد مسدها في مكانها.

ويقول: وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا: إن غير هذه اللفظة أحسن منها، ولكن في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها، ولا مناسبة، لأنها تكون خارجة عن حروف السورة، وسأبين ذلك فأقول. إذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة، قلنا: (قسمة جائرة أو ظالمة) ولا شك أن (جائرة، أو ظالمة) أحسن من (ضيزى)، إلا أنا إذا نظمنا الكلام، فقلنا: ﴿الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾، تلك إذا قسمة جائرة، لم يكن النظم كالنظم الأول، وصار الكلام كالشيء المعوز، الذي يحتاج إلى تمام، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام. هذا وإن غرابة هذه اللفظة من أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة».

(وقد يشتد التقارب الموسيقي في الفواصل، حتى تتحد الفاصلتان في الوزن والقافية، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿ وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٥٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿ وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ وقد تختلفان في الوزن، ولكنهما تتقاربان في حروف السجع، كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿ وقد تتساوى الفاصلتان في الوزن دون التقفية، كقوله تعالى: ﴿وَمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ﴾ (١٥) وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ ﴿ وقوله: ﴿وَأَلَيْنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ (١٧) وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿.

وقد تختلفان وزناً وقافية، ولكنهما تتقاربان، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢) مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ﴿ وقوله: ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿.

ويسمي العلماء الفواصل المتفقة في الحرف الأخير متماثلة، وما عداها

مقاربة، ولا تخرج الفواصل عن هذين النوعين أبداً، وقد تنتهي السورة بفاصلة منفردة تكون كالمقطع الأخير، كقوله تعالى في ختام سورة الضحى:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝١ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝٢ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾.

وقد تتفق الفاصلتان لا في الحرف الأخير فحسب، ولكن في حرف قبله، أو أكثر، من غير أن يكون في ذلك كلفة ولا قلق، بل سلاسة ولين وجمال، مثال التزام حرف الراء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝١ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝٢﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ ۝١ الْجَوَارِ الْكُنَافِ ۝٢﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝٨﴾^(٢). ومثال ما اتفقتا في حرفين، قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ۝٢﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٦ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٧﴾ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَ ۝٦٦ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝٦٧ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۝٦٨﴾.

ومثال التزام ثلاثة أحرف قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۝٥١ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي أَلْعَىٰ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٥٢﴾.

وأنت ترى في كل ما التزم فيه حرف أو أكثر أنه طبيعي، لا تكلف فيه.

هذا وإذا كانت الفاصلة في الآية كالقافية في الشعر، فقد رأينا فيما سبق بعض ما تختلف فيه الفاصلة عن القافية، حينما تتقارب الفواصل ولا تتماثل، كما أنه من المعيب في الشعر أن تتكرر القافية، قبل سبعة أبيات، وليس ذلك بعيب في الفاصلة. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝٨٨﴾

(١) الكواكب السيارة.

(٢) وسق: جمع.

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۖ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ
لِلْجِبَالِ هَڈَا ۖ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ ^(١)

* * *

مفردات جمالية واشتقاقية يكررها القرآن

وهي ألفاظ ذات طابع جمالي في الجرس والدلالة والظلال، سبق الكلام على كثير منها كمفردات مستقلة، تثير كل منها ألواناً من أحاسيس البهاء والحسن، عند تذوقها بالحس الفني المرفف، وتشعر أن القرآن يتخذها (مواد) يتكرر حضورها في معان شتى، ومبادئ متنوعة.

فقد يُظَنُّ أن ألفاظاً مثل: الإصباح، والضحك، والذوق، والجمال، قاصرة على طابعها الجمالي من الوجهة المادية المحببة وحدها.

وقد يظن أن ألفاظاً أخرى مثل: الحب، والتزيين، والحسن... لا ينبغي فنياً تكرارها لأنها ضيقة الأفق محدودة الأبعاد والمجالات.

ولكن الإبداع الفني والجمالي يسري في جميع سور القرآن وآيه للتعبير عن المحسسات والمجردات والغيبيات، وهي ميادين بعيدة الاماد، واسعة الجوانب، عميقة الأغوار.

وهذا يستدعي بالضرورة تكرار المفردة الواحدة في موضوعات متعددة وإيرادها في مجالات مختلفة تكون المفردة محورها وعمادها.

ويطلعنا على ألوان مختلفة، وأحياناً متعارضة من المعاني والجماليات استوعبتها مفردة واحدة.. ففي الحب القرآني جمال وقبح، وفي الزينة رغبة ونفور، وفي الذوق إقبال وكراهية، وفي الإصباح روح وهلاك...

(١) اقتباس من: من بلاغة القرآن. د. أحمد أحمد بدوي. أقول: وقارن بالإنقار:

وسنوضح ذلك كله في النماذج التالية :

روعة الإصباح :

الصبح - صباح - مصبحين - مصباح - مصابيح - إصباح : من المفردات القرآنية المعبرة عن جمال فني في حجم أدنى من المتوسط . . . وخلال ١٦ موضعاً من الآيات .

وإنما قلت إن هذه المفردة تعبر عن جمال فني حتى لا يتبادر إلى الذهن أن استعمالات القرآن لها ينحو إلى جمال الإشراق وبهاء نوره وحده، ولكنه بالإضافة إلى جمال هذا المشهد ورونقه يتجه به إلى أعمال وأحوال ترتبط بالجهاد الإسلامي وفتوحات المسلمين .

١ - فالصبح الذي ورد أربع مرات يسفر عن الليل ويكشف بضيائه عن ظلمته ويؤذن بحركة زمانية دائبة في يوم جديد، استحق من الله أن يقسم به ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا أَشْفَرُ ۚ ﴾ (٢٤) إِنَّهَا لِأَجْدَى الْكَبِيرِ ﴿ (المدثر: ٣٤ ، ٣٥) .

وإن امتداد ضوئه وتكامله والتألق المشرق يبعث الحياة في الأحياء، فلا غرابة أن يصوّر نابضاً بالحياة ومظاهر الحياة: واستحق أن يقسم الله به ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ۚ ﴾ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿ (التكوير: ١٨ ، ١٩) .

وأورد الرازي في مجازيه قولين: أحدهما أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له، على المجاز وقيل: تنفس الصبح .

والثاني: أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي جلس بحيث لا يتحرك، واجتمع الحزن في قلبه، فإذا تنفس وجد راحة، فهنا لما طلع الصبح فكانه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس وهو استعارة لطيفة . وفي كلا القولين يضيفي (تشخيص) الجمادات وإضفاء الروح عليها ومنها (الصبح) في تنفس يوحى باللين والنعمة والإنسياب حركة الحياة، ومشهداً جمالياً رائعاً من مشاهد الطبيعة المتجدد .

والصبح من ناحية ثانية أنسب الأوقات لإقامة العقوبة الدنيوية على قوم لوط ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٨١). ثم إنه أليق الأزمنة لظفر المجاهدين ﴿وَالْعَدِيدَتِ ضُبْحًا﴾ (١) ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾ (٢) ﴿فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا﴾ (العاديات: ١ - ٢).

حتى إن اشتقاقية: صباح، ومصبح يليان هذه الحاجة وفي مثل هذا الوقت الذي يكون الناس عادة في بيوتهم أو وراء أعمالهم.

فهو صباح سيء بالنسبة للمنذرين ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (الصفات: ١٧٧) وهو أسوأ حين تأخذهم ﴿أَلَصِيحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (الحجر: ٨٣)، أو حين يبيتون أمراً خطيراً ليليل ﴿إِذَا قَسَمُوا لِيَصْرُمْنَهَا مُصْبِحِينَ﴾ (٧) ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ (القلم: ١٧، ١٨).

٢ - أما (المصباح) وجمعه فلم يستعمله القرآن إلا في أبهى الصفات النورانية وأجمل مشاهد الطبيعة.

فقد مثل الله به نوره ﴿كَمِشْكُورٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ (النور: ٣٥). وهي (مصاييح) لتزيين السماء الدنيا وحفظها بالنجوم المتألثة المتموجة ﴿وَرَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مَصْبِيحَ وَحَفْظًا﴾ (فصلت: ١٢) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مَصْبِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك: ٥).

إن إنسانية هذه الجمالية تبدع في النفس حساً جمالياً، وتذوقاً فنياً تتملأها كل عين ويشعر بروائها كل إنسان.

ضحك مختلف:

ضحكت - أضحك - تضحكون - ضاحكاً - ضاحكة - من المفردات القرآنية المعبرة عن جمال فني أيضاً في عدد لا يتجاوز عشرة مواضع من كتاب الله.

وفنية هذه المفردة أنها تعبر عن الانكشاف والبروز في حالتي الانبساط والرضى الظاهر سروراً أو هزواً. وقد استعملها القرآن لهاتين الحالتين جرياً على دلالتها اللغوية، فهي تدل على انفراج الشفتين وبدو الأسنان سروراً وجوراً، وكذلك (منه، وبه) للسخرية، وأحياناً للعجب والفرع.

ومن المشتقات الجميلة: الضحك بمعنى العسل أو البلع كما قال ابن فارس.

١ - فقد ينسب الإضحاك إلى الله تعالى باعتبار أنه أثر لقدرته العظيمة وأنه موجد لأشياء تضحك وتفرح ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى...﴾ (النجم: ٤٣). ويلاحظ هنا إطلاق الإضحاك والإبكاء، فليس سياقهما لبيان المقدور فلا يحتاجان إلى متعلق وهو المفعول به، ثم إنهما وصفان للذكر والأنثى، فكلاهما متصف به، كما يلاحظ اختصاص الإضحاك بالله تعالى بضمير الفصل (هو) قبله، ثم اقترانهما بفعل من الله وحده فيما بعد ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ (٤٤، ٤٥). (النجم: ٤٤، ٤٥).

وإذا عرّف فلاسفة الإنسان بأنه (إنسان ضاحك)، فإن تصريح القرآن بهذا الاشتقاق وفي أحوال خاصة دنيوية وأخروية يُعبر عن مدى السرور والرضى في وقائع مضحكة ومسرة متنوعة.

يقول تعالى عن نبيه سليمان عليه السلام عند سماعه حديث النملة ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ (النمل: ١٩) فقد جمع لفظتين جماليتين محبوبتين (تبسم) و(ضاحكاً) للتعبير عن حالة نفسية تجاه حديث غريب من نوعه في الدنيا، وفهم أغرب منه وأعجب، فقد تبسم متعجباً من قولها كما يقوله بعض المفسرين، أو تبسم شارعاً في الضحك وتجاوز حد التبسم كما يقوله الرازي. وفي كلتا المفردتين تمان عن حالة الابتهاج والسرور.

وفي الدار الآخرة تهش نفوس المؤمنين فإذا بها ضاحكة مستبشرة وتنظر وجوههم فإذا بها مسفرة مشرقة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (٢٨) ضاحكة مُّسْتَبِشِرَةٌ ﴿

(عبس : ٣٨ ، ٣٩) . فهي مضيئة متهللة فرحة بما نالت من كرامة الله ورضاه ، وبما تشاهده من النعيم المقيم والبهجة الدائمة .

٢ - وقد ينسب الضحك إلى المشركين المعاندين وهم يستهزئون من المؤمنين ويسخرون من أحوالهم المعاشية والدينية . وتلك حالة العجز عن مواجهة التحدي الإسلامي بالمنطق والبرهان الذي يفتقدونه .

ففي الدنيا سخر فرعون وملؤه من موسى عليه السلام وآيات الله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ (الزخرف : ٤٧) فأخذهم الله بعذاب الغرق وغيره ، وكذلك فقد سلك كفار العرب سننهم فتوعدهم الله واستنكر عليهم استهزاءهم ﴿ أَفَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ ﴾ ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ (النجم : ٥٩ - ٦٠) ومثلهم المنافقون المخلفون عن مقاعد الجهاد ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (التوبة : ٨٢) . إن فرحهم وبشاشتهم في الدنيا لا يوازي ببكائهم وحسرتهم في الآخرة . وإن جمالاً فنياً في الضحك والبكاء وفي مقابلتهما ووصفهما بالقلة في الأول وبالكثر في الثاني يبلغ القلوب وتتأثر به النفوس .

تلك مقابلة بين حالتين لفئة واحدة . .

وفي حالات أخرى لفئات مختلفة يتقابل المؤمنون والمجرمون مثل ما تقابلوا في الدنيا فيسخرون منهم كما سخروا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ ﴿ ... فَأَلْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ (المطففين : ٢٩ ، ٣٤) .

إنه مشهد مؤثر من مشاهد انقيامة كانت (يضحكون ، وتضحكون) محوره وحرسته . ولكن شتان بين (الضحكين) وبين الموقفين ، فقد باع المجرمون باقياً بفان ، وفاز المؤمنون بالنعيم المقيم . فبطل استهزاء الكافرين في مواجهة الإيمان والمؤمنين .

تصوير فائق :

صَوْر - صَوْرناكم - يَصَوِّرُكم - صورة - المَصَوِّر من المفردات المعبرة عن جماليات في القرآن ضمن حجم أقل من المتوسط من مفرداته، فهي لا تزيد عن ثمانية مواضع في كتاب الله .

ومن مزية هذه المفردة جمالها اللفظي والمعنوي والتعبير به عن جماليات الإله والإنسان معاً .

١ - قاله المصور ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمَصَوِّرُ﴾ (الحشر: ٢٤)

فهي من أسمائه الحسنى، وتعني فيما تعنيه أن الله خالق صور الخلق على ما يريد، الموجد لصورها وكيفيةها كما أراد، ومعطي الملامح المتميزة والسمات التي تمنح لكل شيء شخصيته الخاصة، والمعجز في إبداع كل صورة متفردة لكل إنسان .

والمثالية التصويرية للإنسان اقتضت أمر الله لملائكته أن يكرموه فيسجدوا له سجود تحية وتقدير ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ (الأعراف: ١١). فقد أثبت صورة كل إنسان بل وصورة كل شيء من الأزل على هيئته المعجزة بدءاً من تصوير آدم أبي البشر واستمراراً في تصوير ذريته في الأرحام كيف يشاء ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾ (آل عمران: ٦).

٢ - وإذا كان الله المصور فلا بد أن تبلغ (صوره) منتهى الجمال والحسن في خلق الإنسان خاصة على هيئته وتكوينه، وإبداعه .

فإن تمثل الإنسان في ﴿أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ﴾ لأكبر دليل على أن الله المصور في أبهى البهاء وأسمى السمو الرباني، فالله أحسن صورنا ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ (غافر: ٦٤) و﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن: ٣).

وهذا يعني أن (تركيب) الصورة الإنسانية معجزة إلهية لا يقدر على مثلها الشركاء والنظراء ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: ٨).

فهل هناك جمالية ترقى إلى تصوير الإله المصور؟ وهل من تعبير أدل على هذا الجمال من التصوير الخالقي؟.

إن آيتين سابقتين تكرران لفظ الصورة البشرية التي صنعتها القدرة الإلهية. فإذا كانتا على (أحسن) الخلق، وأروع الإيجاد، وأبلغ التكوين فإن الفضل في ذلك لله الموجد الباري المنعم المتفضل، وما أروع أن يصف الله نفسه بالوجه واليد والعين... صفات ذاتية تليق به، وبالعلم والحياة والسمع والبصر والكلام صفات معنوية وذاتية تليق بهذه الذات الأحدية... وهي في أصولها مما خلقها في الإنسان خليفته في الأرض، ومثال لصورته فيها وفي الأحياء على وجه فاصل يتسق بالخالقية الإلهية، والمخلوقية البشرية.

وحين يحسّ الإنسان بجمال خلقه وحسن تركيبه وأن الله وحده أبدع هذا الجمال والتركيب بنسق تكريمي فإن تشریف المصطفين منهم بالرسالة، وتكليفهم بالمسئولية الخطيرة وإشعارهم وغيرهم بالعبودية الخالصة تكمل جمال الصورة الإنسانية وحسنها في إبداع الإله الأحد المصور.

جمال رحب:

جَمُل - جمالاً - جميل: من المفردات القليلة المحدودة فليس لها اشتقاقات واسعة، وهي مادة يدل لفظها على معناها: فالحسن والزينة والتلطف أو كما يقال: رقة الحسن، واجتلاب البهاء والإضاءة، مما يتلمسه اللغوي من هذه المادة.

ومع ذلك فنلاحظ توسعاً في متعلقاتها وجمالياتها:

١ - فهي تفيد الحسن للعين تتملأه من جمال الأنعام في مراعيها وفي غدوها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٦). ويبدو أن هذه الإراحة أكثر ما تكون أيام الربيع كما أشار الرازي إذا سقط الغيث

وكثر الكلاُ وخرجت العرب للنجعة، فإن عادت ملأى البطون حافلة الضروع وتجاوب فيها الثغاء والرغاء فإن فرح أهلها بها وسرورهم بمنظرها وسماعها ومرعاها وحركتها مما يقع موقع الحسن والرضا. فهي لوحة حية محبة تأنس لها العين والأذن، قد لا يبلغها مشهدها الجمالي الحي.

٢ - وهي تتجاوز الجمال الشكلي المادي والإنساني إلى وضاء المعاني وحسن القول والمعاملة. فالصبر الجميل، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ مما يضيف مسحة من البهاء على حس النفس والإرادة، وكذلك الصفح الجميل فإنه عفو تجاوز بالحسنى ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهَا فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥) وقريب منه السراح الجميل الذي يدل على خلقية المسلم في تسريح زوجته بإحسان حين تتعذر الحياة الزوجية المشتركة فلا إساءة ولا إيذاء ولا رعونة ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب: ٤٩).

حتى إن هجران الآخرين بصفاته الشرعية ينبغي أن يتصف بالجمال: فهو هجران جميل ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْرِجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمل: ١٠). إذن: الصبر الجميل، والصفح الجميل، والسراح الجميل، والهجران الجميل، جماليات معنوية خلقية تبرز حسن المعاملة وصدق المودة.

إنها - وكما يلاحظ - معانٍ أقرب إلى الترك والدعة والسلبية، ومع هذا فلا بد من أن ترتدي رداءً بهيئاً حسناً، فما بالك بمعانٍ وصفات تدعو إلى العمل والتصرف والقول في صفات وفضائل إيجابية.

يقول الطبري عند تفسير هذه الآية: وخلوا سبيلهن تخلية بالمعروف. ومن صور التسريح الجميل المادية: ألا يطالبها الرجل بما آتاها من المهر وغيره.

ومن صور الهجران الجميل الخلقية: حسن المخالطة والمصابرة على إيدائهم، ومجانبتهم في قلبه وهواه، ومخالفتهم في الأفعال مع المدارة

والإغضاء... كما قاله الرازي. ويقول ابن تيمية: أمر الله نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل: فالهجر الجميل: هجر بلا أذى، والصفح الجميل: صفح بلا عتاب، والصبر الجميل: صبر بلا شكوى^(١). ولكن وصف الصبر والصفح والتسريح والهجران بالجمال وتوجيه القرآن بالتزامه أحب ما يشعر به المسلم في نفسه وأرقى ما يقوم به في عمله وتصرفه. وأرحب ما يتصوره في الآفاق والمجالات الجمالية.

ألوان من الحب:

حَبّ - أَحَبّ - تُحِبُّونَ - حُبّ - حَبّه - أَحِبَّاءُه - محبة - استحبوا... من أطول المفردات الجمالية.

وهي إذ تدل على صدق مضمونها، واستقامة مشاعرها، ونظافة عاطفتها فإن تعدد متعلقاتها ومجالاتها يشيع روح الألفة والأنس وأحاسيس المودة والالتزام.

ومع تشعب هذه المادة في الاشتقاق والمتعلقات فإنها لا تضعنا وحدها في معالجة موقف (الحب القرآني) إن صح التعبير، وإنما لا بد لنا من أن يمتد النظر والمعالجة إلى مواد أخرى: مثل: المودة، الرضا، الحق، الشهوات... حتى يتجلى أمامنا (الإطار) العام لهذه القضية الحساسة، ولكن عملنا سيقصر على تصنيف هذه المادة وحدها وإلقاء الضوء على دلالتها الجمالية.

فلإنسان عموماً محبوبات، وللمؤمن محبوبات باعتباره إنساناً ومؤمناً، والله محبوبات ومكروهات... فالحب صفة مشتركة بين المخلوق والخالق:

١ - فالإنسان عموماً يحب الحياة الدنيا ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (القيامة: ٢٠) ويحب المال كثيراً ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّاجِمًا﴾ (الفجر: ٢٠) ﴿وَأِنَّهُ

(١) الفتاوى: ٦٦٦/١٠.

لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ (العاديات : ٨) . وقد انحرف (الحب) هنا إلى مبالغات مرفوضة نابية عن الفطرة السليمة .

ولكنه في المحبوبات الأخرى يقرر القرآن استجابات الفطر الإنسانية العامة لها فيقول : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ (آل عمران : ١٤) .

فيلاحظ هنا أن جل مشتبهات (الناس) النساء، والنسل، والأموال الكثيرة وبخاصة الذهب والفضة، والخيول الحسان، والسوائم، والزرع . . . وفي آية (التوبة : ٢٤)، التي سنذكرها فيما بعد، محبوبات أخرى : كالآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، والتجارة الرائجة، والمساكن الرضوية . ومن الحب الحرام الذي يدل على انحراف في الفطر : حب الأنداد لله

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ (البقرة : ١٦٥)، والحب الشغوف للدنيا ﴿ إِنَّكَ هَؤُلَاءِ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ (الإنسان : ٢٧)، وامرأة العزيز التي ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ (يوسف : ٣٠) . ومنه : حب الثناء والشهرة من غير عمل ﴿ وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ . . . ﴾ (آل عمران : ١٨٨) ومحبة نشر الفساد والفواحش ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . . . ﴾ (النور : ١٩) .

٢ - المؤمن يُحِبُّ ويُحَبُّ : فهو يحب المشتبهات البشرية التي سبق الكلام عليها ولكنه أعظم حباً لرسالته التي حمله إياها الإسلام والمهمة التي خلقه الله من أجلها، فقد عقب الله على محبوبات (الناس) التي ذكرها في آية آل عمران بقوله : ﴿ قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ

بَصِيرًا بِالْعِبَادِ ﴿ (آل عمران: ١٥) . فأين هذه المحبوبات الخالدة والنعيم المقيم ورضوان الله من مشتهيات فانية، نبّه القرآن إليها للابتلاء والامتحان؟ .

وصرح القرآن بالحب (الأفضل) وآثاره العظيمة في آية التوبة ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤) .

ولذلك فالمؤمن يحب النظافة والتطهير الظاهرين والباطنين: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا... ﴾ (التوبة: ١٠٨) ﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ويحب أخاه المؤمن ويؤثره على نفسه ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَلْبُدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩) .

ويحب انفاق المال لذوي القربى والمحايير ﴿ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ ﴾ (البقرة: ١٧٧) .

ويحب انتصار الإسلام وإعلاءه في الأرض ﴿ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصف: ١٣) .

ويحب هداية حبيبه ويسعى إليها ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (القصص: ٥٦) .

ويحب أن يعفو ويصفح حتى يغفر الله له ذنوبه ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور: ٢٢) .

وهو لا يحب الرذائل ومنها الغيبة ﴿ أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ... ﴾ (الحجرات: ١٢) .

ولكن أعظم المحبوبات وأخلصها وأعمقها هي حبه لله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ... ﴾ (البقرة: ١٦٥)، وهذا يقتضي متابعة الأوامر الإلهية وطاعة رسوله عن محبة والتزام ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... ﴾ (آل عمران: ٣١).

٣ - الله محب وحيب: فهو يصرح بحبه للمؤمنين والمحسنين، والتوابين، والمتطهرين، والمتقين، والصابرين، والمتوكلين، والمقسطين، والمجاهدين ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ ﴾ (الصف: ٤).

وعلى العكس فإنه يصرح بأنه لا يحب المعتدين، والفساد والمفسدين، والكافرين، والظالمين، والمستكبرين، والخائنين الآثمين والمُسرفين. ومدعي الحب من اليهود والنصارى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ... ﴾ (المائدة: ١٨).

وما أجمل وشائج المحبة وروابط المودة بينه وبين المؤمنين، فهو يرضى عنهم ويرضون عنه، ويودهم ويودونه و﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة: ٥٤)، فحبب إليهم ﴿ الْإِيمَانَ وَزَيْنَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾، وأجرى فيهم محبته وفق حكمته البصيرة ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٦).

والحب قدر الله لعباده وعلى عباده لا يجد معه الإنسان فكاكاً ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ... ﴾ (طه: ٣٩).

ولا بد من أن يجعله بين المؤمنين الصالحين المتحابين فيه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (مريم: ٩٦). وبين الزوجين ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ... ﴾ (الروم: ٢١)، والأعداء ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَرِهْتُمْ مَوَدَّةً ... ﴾ (المتحنة: ٧).

ولا عجب في ذلك فهو المحب لمن آمن به وتاب إليه وسار على منهجه ﴿وَهُوَ الْعَفُورُ الْودُودُ﴾ (البروج: ١٤).

وأخيراً فإن (الحب) الذي اعتاده الناس عاطفة مؤلمة ومشحونة بالحنين واللوعة وكان هذا مبعثه الجمالي عند الشعراء والأدباء اتخذ في المفهوم القرآني مجالات أرحب، و(محبوبات) أغزر، وجماليات أكثر ثم أضحي شعوراً هادئاً وعميقاً يظهر مكامن العواطف الأخوية، وتربط المؤمن بمحبة الله العلي الأعلى.

زينة وزينة:

زَيْن - زَيْنًا - اَزَيْنَتْ - زينة - زينتها - زينتهن: من أوسع المفردات الجمالية تناولاً في القرآن الكريم من حيث الحجم والاستعمال.

أما من حيث الحجم فقد استخدمها القرآن حوالي (أربعين مرة) في الآيات المكية والمدنية مبثوثة في طوال المفصل وقصاره، وأما من حيث الاستعمال فقد أخذت مجالات وألواناً متعددة في معان ومفاهيم مختلفة.

ويمكن تصنيف (التزيين) القرآني في المجالات التالية:

١ - الزينة المرفوضة:

فالشيطان زَيْنَ للمشركين أعمالهم فأعجبوا بها عن الحق: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٤٣). وكذلك ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ (الأنفال: ٤٨)، والزينة وسيلة الشيطان في التغيير دائماً ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ (الحجر: ٣٩).

ويتبع هذا (تزيين) النفوس مباهج الفتنة ووسائل الخداع وقبائح الصفات والأعمال، فالمسرفون زَيْنَ لهم إسرافهم المتع الحرام ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَ

لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ (يونس: ١٢)، وفي مقدمتها: حب الشهوات والمرغبات في المال والأهل والولد..

ويخص الأموال والبنين بهذه الزينة العامة ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (الكهف: ٤٦) وإذا كانت (الزينة) تحل حراماً أو تحرم حلالاً فإنها سراب الفكر وخداع الحياة ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَنِينَةٍ مِّن رَّيِّءٍ كَمَنْ زُينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ...﴾ (محمد: ١٤).

والمكر قد يتخذه الإنسان زينة ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ (الرعد: ٣٣) وعندئذ ينحرف الكفار في تشريعهم وحياتهم ﴿فَاجْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ عَمَلِهِمْ﴾ (التوبة: ٣٧)...

إن الصيغ التزيينية جميعها تسحر الألباب وتأخذ بمجامع النفس وتدفع إلى السلوك المنحرف ما دامت مشاعر الزينة مستقرة في القلوب والعقول ﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنِّي السَّوْءَ﴾ (الفتح: ١٢).

حتى إنها تأخذ بأحدهم مخدراً إلى قتل الأولاد ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ (الأنعام: ١٣٧).

٢ - الإيمان والفضائل زينة محببة: فلها جمالها الروحي ورؤاها الماتعة وشفافيتها الأخاذة، لا لأنها جميلة وماتعة وبهية بطبيعتها وحسب وإنما لأنها من الأنوار الإلهية التي يخص بها عباده المؤمنين ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ (الحجرات: ٧).

فقد أمر بها للمسجدين ﴿يَبْنِيءَ أَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾ (الأعراف: ٣١). ولم يحرمها على المسلمين خارج المسجد ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...﴾ (الأعراف: ٣٢).

حتى إن الله منحها للمشركين ومدعي الألوهية ﴿وَقَالَكَ مُوسَىٰ رَبَّنَا

إِنَّكَ أَتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً... ﴿ (يونس: ٨٨).

وقارون الذي ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ...﴾ (القصص: ٧٩)،
و(يوم الزينة) موعد الحق والباطل بين موسى وفرعون... تسبغ بهاءها
ورونقها الخادع عن جماليات الإيمان وتزيينه في القلوب.

إن (مسألة) الإيمان جمال، والله صانع هذا الجمال، والأمر به في كل
مسجد ومجتمع، تتجاوز الواجبات والمسؤوليات إلى آفاق الحب وأشواق الروح
وجماليات الأحاسيس.

من غير الله يسدي للبشرية مثل هذه النعماء ويمنح هذه الجماليات؟.

وإن قضية: (التغيير الجمالي) أي بسبب من جمال الزينة وبهجتها، من
الباطل إلى الحق وبالعكس تضعنا أمام حقيقة شعورية ذوقية في صياغة النفس
البشرية.

وحسبنا أن الله جعلها وسيلة في يد الشيطان والنفس وقرناء السوء
﴿وَقَيَضْنَا لَهُمْ قُرَآءًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَآبِينَ أَيْدِيهِمْ...﴾ (فصلت: ٢٥).

ثم إنه وحده أثارها في فطرة الإنسان ونزعته الجمالية في تحبيب الحق
والإيمان ﴿وَزَيَّنَّا فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ (الحجرات: ٧).

٣ - زينة الطبيعة وجمالها: بما فيها من وسائل النقل المعتادة حينذاك
﴿وَالْخَيْلَ وَالْإِبْغَالَ وَالْحَمِيرَ لَتَزْكُبُوهَا زِينَةً...﴾ (النحل: ٨)، وما تزال
الخيال متعة الإنسان وجماله في أي مكان وجيل.

فجمال الطبيعة يستحق أن يبرز في صفة الله (الجميل). وهو إذ يبيته في
عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد يرتفع إلى أجواء السماء المبهرة
وآياتها المبدعة، ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ (الصفات: ٦)، فالكواكب
مصاييح السماء وزيتها ﴿وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا...﴾

(فصلت: ١٢).

وخص السماء الدنيا بهذه المصاييح لتتملاها الأعين وتسربها الأنفس ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك: ٥).
ومثلها بروج الكواكب ومنازلها فقد (تبرجت) للناس وأظهرت محاسنها وجمالها ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِ﴾ (الحجر: ١٦).
فالسماء بناء محكم ومزين لا يمله النظر ولا تأنفه العين ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ (ق: ٦).

والأرض (العروس) أخذت زخرفتها في أبهى حللها وأنضرت جمالها ﴿وَأَزَيَّنَّتْ...﴾ (يونس: ٢٤).

وسرت في شعابها ومناكبها ومساربها ألواناً من الإبداع والبهاء، في الينابيع والأنهار والشجر والزرع والزهر والطير والجبال ما يؤكل ويشرب ويهيج. ولكنه جمال (يتلى) به الإنسان، وحين (يمتحن) لمواقفه في الشكر والجحود والإيمان والكفران، وهي على كل حال (زينة) الحياة الدنيا ماثلة في الأرض ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٧) ذلك لأن للشيطان زينة، وللإيمان زينة، وللطبيعة والكون زينة، والإنسان قادر على أن يميز بينها ويختارها حين يختبر بها ضمن إرادته ومسؤوليته.

من دلالات (الحق) وجمالياته:

الحق - حق - حقنا - يحق - استحق - حقاً - أحق - حقيق - الحاقة:
يرجح أنها أوسع المفردات الجمالية والجلالية في القرآن. وقد تضمنت وفرة من المفاهيم والدلالات الهامة.

وبعضها عرض في تراكيب جمالية ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾

(البقرة: ٤٢) ﴿وَجَاءَ الْحَقُّ...﴾ (الإسراء: ٨١) ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ...﴾ (المؤمنون: ٧١). فهو يلتبس به، ويجيء، ويتبع...

أما إنها أوسع المفردات فلأنها استغرقت قريباً من (٢٨٠) موضعاً في كتاب الله، ومعظم ورودها في السور المكية، في كثرة آياتها وسورها.

واستأثرت سورة (البقرة) المدنية بالنصيب الأوفر من بين سائر المدني، أما سورة (يونس المكية) وحدها فقد وردت في (١٧) موضعاً دلالة على معانٍ متشعبة ومتعددة.

وأما أنها من المفردات (الجمالية - الجلالية) فلأن الحق قوة وفي القوة جمال وجلال... ولأن منطقيته ناصعة تنتظم العقول والأفكار ومعطياتها، والشرائع وحجيتها، والكون وقيامه عليها.

وفي كل ذلك جلال وجمال. فالضعف تهالك وقبح، والمنطقية برهان والعبثية جهالة أو ظن. وانتظام العقول حكمة، وفوضى الأفكار ضعف وباطل. وقد شمل (الحق) أعظم القضايا وكبريات المسائل الإلهية والإنسانية.

أ - الله حق: وجوداً وقدرة وحكمة ومصدراً ومرجعاً، فقد وصف نفسه بصفات الكمال، ومنها أنه (الحق) الذي لا يداخله باطل، وأن صفاته حق لا ينتقص منها شيء، وهو منبع الحق ومرجعه ينزل على من يشاء من عباده. فربنا الحق ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ (يونس: ٣٢) ترد إليه البشرية وحده ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (يونس: ٣٠) وهو الملك المتعالي عن النظر حقاً ﴿فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ (طه: ١١٤) و (المؤمنون: ١١٦) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ...﴾ (الحج: ٦) و (لقمان: ٣٠).

ب - وهو مصدر الحق للكائنات جميعاً ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿يونس: ١٠٨﴾ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ (الكهف: ٢٩) و ﴿لَهُدَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ (الرعد: ١٤). والنبوات عمومًا ونبوة الرسول ﷺ منه ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (يونس: ٩٤) و ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (البقرة: ٢١٣).

ج - وهو الخالق حقًا، وقد خلق الأشياء والكائنات بالحق، بديع السموات والأرض وما فيهن ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ...﴾ (الأنعام: ٧٣)، خلق يستحق النظر والتأمل ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٤٤) و ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ...﴾ (إبراهيم: ١٩)... وآيات أخرى تصرح بالخالق والخلق مقترنة بعجائب القدرة الحقة، دالة على الإيمان الحق.

وإذ تصرح بالحقية الخلقية تبرز قضية (التوحيد) فيها ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النحل: ٣) فهو الله الحق الخالق الواحد القادر المدبر الحكيم، لذا فيستحيل أن يتصف خلقه بالبطلان والعبث والفساد.

د - والقرآن حق مصدرًا وتنزيلًا: فهو كلام الله المعجز متسق الآيات، منتظم التراكيب مستوعب المعاني في رواء باهر وبهاء جليل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأكد الله حقية القرآن في ألوان من المعاني والمفاهيم، فهو من الله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾ (البقرة: ١٧٦) وحكم بين الناس ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥)، ومنزل وحياً من الله ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء: ١٠٥)

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ...﴾ (فاطر: ٣١)، وناطق بالحق تلين له القلوب وتفيض بتلاوته الدموع ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد: ١٦) ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٨٣).

وما اشتمل عليه من الآيات لا يعترىها الباطل، وما تضمنته من التشريع والحكمة والتربية والقصص لا يخامره شك، فكل ما أنزله الله منها ثابت ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ (آل عمران: ٦٢) بدءاً من آدم وإخراجه من الجنة وابنيه إلى نهاية ما قصه وبينه ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾ (المائدة: ٢٧) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾ (البقرة: ١٤٤).

ومن أبرز ما اشتملت عليه آياته الإيمان الراسخ بالشرائع والكتب السماوية السابقة ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ...﴾ (الأعراف: ٤٣) ففي أقوامهم الصالحون والمنكرون ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْذِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٩)...

والعبادات ومنها: الزكاة هي حق الفقراء ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ (الأنعام: ١٤١) ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج: ٢٣، ٢٤).

هـ - صراعات أزلية خالدة: فالحق والباطل في صراع، والخير والشر في مواجهة، فإذا كانت الغلبة للحق والخير ساد العدل والفضائل، وعمت الطمأنينة والاستقرار وتقدم الإنسان حضارياً، وإذا ساد الباطل والشر عمت الفوضى وانتشر الفساد وارتكست حضارة الإنسان، ولاحت نذر التدمير والبوار، وهذا يعني سيادة الحياة الرضية السعيدة أو الشقية التالفة. ولكن القرآن ينوه ببقاء الخير وينبه إلى زوال الشر مهما قوي نفوذه أحياناً ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ

وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿ (الإسراء: ٨١) والله يتولى النصر على الشر ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿ (الأنبياء: ١٨) ﴿ وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴿ (الشورى: ٢٤). ومن الصراعات: صراع الحق والأهواء وانتصاره عليها ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ... ﴿ (المؤمنون: ٧١).

وتلك لعمري قاعدة حضارية توسع الآمال وتغذي الطموحات الإسلامية في النصر المؤزر للحق وأهله، وفي مقدمتها مسئولية الدعاة والعلماء في بيان الحق خالصاً ناصعاً ﴿ وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوهَا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ (البقرة: ٤٢).

وصراع الحق والسحر ﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا... ﴿ (يونس: ٧٧).

والعلماء والمؤمنون أهل الحق: فهم أعرف الناس به وأولاهم بحمل لوائه وأقدرهم على كشف زيوفه، وعرضه مبرراً واضحاً ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ... ﴿ (سبأ: ٦). ثم إنهم يتواصلون به، ويتناصحون في إعلائه وتحقيقه، ألم يصفهم الله بقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿ (العصر: ٣)؟.

وأهل الباطل يجادلون به، ويخاصمون من أجله، لتكون لهم الغلبة على حق العلماء والمؤمنين، ولكن الله يحق الحق بكلماته ﴿ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ... ﴿ (غافر: ٥).

و- إن وفرة هذه المادة لفظاً ومعنى تتشعب في نواح كثيرة ومجالات جمّة، فالحق يرتبط بالعلم والعقل والصدق والخلق والنصر إلى جانب ارتباطه بالإلهيات والنبوات والشرائع...

وهذا يلهم بجمال مبدئي روحي ، وجلال عقلي فكري يحرص القرآن عليه أكثر من حرصه على جماليات أخرى .

مجالات ذوقية مختلفة :

ذاقت - ذاقا - ذاقوا - يذوقون - ذق - ذوقوا - أذاقه - أذقناك - فلنذيقن - ذائقة - ذائقون . . . من أوسع المواد الجمالية وأكثرها تشعباً ، فهي تأخذ مكانها من آيات الكتاب الحكيم في ثلاثة وستين موضعاً . مما يلفت النظر ويسترعي الانتباه ، ويدفع إلى التأمل عموماً والتأمل الجمالي خصوصاً .

والذوق في الأصل حسّ ينشأ من تنبيه أعضاء خاصة تنتشر في اللسان وما جاوره ، وحاستا الذوق والشم متشابكتان ويتمان بعضهما ، ولحاسة الذوق أهمية حيوية وبخاصة بالنسبة للحيوان . . .

وإذا اختصّ بالمطعمومات حقيقة باختبار الشيء من جهة الطعم فإنه بالمجاز يدل على حسن الذوق للشعر إذا كان صاحبه مطبوعاً عليه كما ذكره الزمخشري في الأساس ، واستشهد عليه بالحديث : إن الله يبغض الذواقين والذواقات . أي : كلما تزوج أو تزوجت مدّ عينه ، أو مدّت عينها إلى أخرى أو آخر .

فالذوق يشمل معنيين : الاختبار مثل : ذاق الطعام : اختبر طعمه ، والإحساس مثل : ذاقته يدي : أحسسته . وهو مجازي لأن الذوق المادي كما أشرت : حاسة تميز خواص المطعمومات ، والذوق المعنوي المجازي : حاسة أو إحساس معنوي - في الأدب والفن - يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لدى النظر في أثر من آثار العاطفة أو الفكر ، حتى إنه يقال : حسن الذوق للشعر فهامة له خبير بنقده ، كما صرح به المعجم الوسيط .

فالجماليات لا بد لها من ذوّاقة يختبرها بالمقاييس الجمالية وبالإحساس الذوقي معاً .

وأشار الرازي إلى معنى الإحساس عند قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٥٦)، وقال: المقصود من ذكر الذوق الإخبار بأن إحساسهم بذلك العذاب في كل حال يكون كإحساس الذائق المذوق، من حيث إنه لا يدخل فيه نقصان ولا زوال بسبب ذلك الاحتراق.

ويصح هذا المعنى في قوله: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ﴾ (التغابن: ٥) و(الحشر: ١٥).

وإثارة القرآن لفظه (الذوق) له دلالة البلاغية في ذوقية العذاب تهكمًا بهم وتبكيًا لهم.

وهذا يشعر بتناول أوسع للمفردة الفنية.

ويمكن بعد التتبع أن نستخلص الدلالات التالية:

١ - الذوق المحسوس المرغوب به: مثل تذوق طعام محبوب فيه من الإغراء ما يدعو إلى تناوله على الرغم من المخالفات الشرعية أحياناً، يقول الله تعالى عن آدم وحواء: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ (الأعراف: ٢٢)، ويقول في تذوق الذهب والفضة المكنوزتين ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٥). وهل من لهف أشد وإقبال أعظم من الغمس في حسن النقدين وبهائمها والتلذذ بهما؟ إنه ذوق محبوب لذائقه ولكن عاقبته الوخيمة تنسيه تلك اللذات والمتع.

والكفار يتمنون الخلاص من عذاب جهنم ولكن الله يقول: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (النبأ: ٢٤).

٢ - الذوق المحسوس المكروه: مثل أصناف العذاب وألوان الجوع

والخوف التي يجازى بها الجاحدون في الدنيا والآخرة . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا نَخْذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَاقَدُمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ ۝۰۰ ﴾ (النحل : ٩٤) .

ويبدو أن قوم لوط من سائر المعاندين نالوا العذاب في حالين : أحدهما خاص بالمرادين الذين طمس الله على أعينهم ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ۖ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴾ (القمر : ٣٧) ، وثانيهما : عام حين ﴿ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ۖ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴾ (القمر : ٣٨ - ٣٩) . يقول الرازي : نقول : ذق فعلك : أي مجازاة فعلك وموجبه ، ويقال : ذق الألم على فعلك .

وصرح بعذاب الدنيا بقوله : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ (الزمر : ٢٦) .

وفي الآخرة مذاقات لأصناف من العذاب ، فهو أليم وحريق وكبير وسعير وشديد ، وغليظ وحميم وغساق . . . وعذاب الخزي وعذاب أكبر . وعذاب الخلد والسوء ، يشمل عذاباً مادياً ومعنوياً ، وكل ذلك مما يذوقه أهله ، وقومه بسبب تكذيبهم وكفرهم وشركهم وبما كانوا يكسبون .

فهو وصف قرآني أو إضافة (التذوق) إلى صفات وأشياء يصعب على الحس العادي أن يقبلها أو يستسيغها عادة .

إنه تذوق العذاب ، والموت ، والعمل الحرام ، والجوع ، والخوف ، والبؤس بالإضافة إلى تلك الصفات (الجهنمية) التي ينالها ذائقوها مرارة وغصصاً وآلاماً .

٣ - الذوق المعنوي المحبوب : ومن مجالاته الواسعة النعماء بعد ضراء ، والسعادة بعد الشقاء . ولكن مجالاته الأكثر اتساعاً ورحابة تلك الرحمة الشاملة العامة ، فإنها وردت في ثمانية مواضع من كتاب الله .

وبمقتضى ذلك فإن هذه الرحمة يفرح بها الإنسان ويسترخي إليها حتى إنه ربما يدعيها لنفسه أحياناً. فالرحمة مذاق محبوب مصدرها الرحمن الرحيم ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّهِمْ...﴾ (يونس: ٢١) وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ (الروم: ٤٦)، وغيرها، فإنها دائماً من مصدر ألهي رحيم.

وإن اشتقاقات (التذوق) وإسناده إلى الرحمة يلهم بسرّياتها في كل جانب من حياة الناس، فقد كرر القرآن: أذقنا، ويزدق، وأذاق مسنداً إليها الرحمة الخاصة والعامة.

ولكن القرآن خصّ: أذقنا - وأذقناه بالرحمة دائماً، وأما أذاق ويزدق فقد أسندت إليها الرحمة وغير الرحمة، وربما كانت الحكمة بالتخصيص في الأولى والتعدد في الثانية هي اتساقها مع التوجه الإلهي والمباشر بضمير المتكلم والتعبير بالغيبة عنها وعن غيرها فيما عدا ذلك.

والرحمة التي فسرت بالفرج بعد الكرب، والمطر بعد المحل في أحوال خاصة، وقد تكون عامة أو مطلقة هي من مدركات الشاكر الطائع الذي ينبغي له أن ينعم بها ويرتاح إليها فتزفرف بأجنحتها على حياته، وهو فرح بها راض بنصيبه منها مقدر نعماء الله عليه. فهي من أجمل المفردات للتعبير عن أجمل الحالات والأوضاع.

إن البأس الذي يتوقع مزيداً من البؤس، والمحروم الذي ينتظر استمرار الحرمان يفرج عنه برحمات الله الرحمن فتتنفس كربته ويزال بؤسه فلا ينبغي له البأس والكفران أبداً ما دامت هذه الرحمات يذوقها الإنسان.

٤ - الذوق المعنوي المكروه: ويقصد بالذوق هنا كل ما يحسّ أولاً يحسّ به من سوء الأعمال والفتنة والوبال، والخزي والبأس.

إن تذوقها (التخيلي) يقربها من المعنويات وإن كان بعضها في الأصل من الماديات المحسنة.

فقد بين الله عاقبة القرى العاتية عن أمر ربها ورسله فقال: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خَسِرًا﴾ (الطلاق: ٩) فهو ذوق وبال، وعاقبته الخسارة. ومثلها ما بينه من عاقبة يهود بني قينقاع في المدينة حينذاك ﴿كَمْثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ (الحشر: ١٥) فهي عاقبة أمرهم بما أنزل الله بهم من العقوبة.

ولا تفترق آية (التغابن: ٥) و (المائدة: ٩٥) عنها بكثير.

والعمل أو عاقبة العمل ونتيجته مما يذاق أيضاً ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٥) ومثله: تذوق عذاب النار للظالمين والكافرين في آيات أخرى.

والفتنة التي فسرها العلماء بالعذاب أيضاً مما يحسه الخراصون المتكهنون المرتابون ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَنَتَكُمُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (الذاريات: ١٣، ١٤)، فهي عذابهم وتحريقهم بها وهي مما يذاق أيضاً حتى يكتمل الإحساس به على الدوام.

أما (الخزي) فيصح أن يقترب من الإحساس المعنوي كما صرحت به الآية ﴿فَإِذَا ذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٢٦).

ومثله (البأس) الذي وإن أمكن أن يتمثل في ظواهر مادية فإن دلالة اللغوية الأصلية ترجح انصرافه إلى المعنويات وليس إلى المحسوسات ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ

بَعْضُكُمْ بِأَسْ بَعْضٍ... ﴿ (الأنعام: ٦٥) .

فقد فسّر به صنوف العذاب كالرجم والظوفان والخسف والاختلاف في الأهواء، والإصابة بالسيوف وقتل بعضهم بعضاً... .

إنه تذوق كربه لا يستسيغه الناس ولا يقبلونه فكيف - وهو المكروه المنبوذ - يقبله الكافرون ويتذوقونه؟ إنه ولا ريب ارتكاس في الفطر البشرية.

٥ - ذائقة الموت: الموت قدر النفوس الثابت، وحقيقة كونية راسخة في الوجود، وهو في عرف القرآن مما يذاق أيضاً: وهذا الاشتقاق الفريد (ذائقة) من أجمل الألفاظ القرآنية لا من حيث مبناها وحسب وإنما من حيث دلالتها على الفاعل الذائق أيضاً.

فكل نفس حاضرة مكلفة تذوق الموت حتى أولئك الملائكة تموت مثل الإنسان لأن لها نفوساً.

وقد وردت هذه اللفظة (ذائقة) في ثلاث آيات:

أ - ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ... ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

قال الرازي عند تفسير الآية: اعلم أن المقصود من هذه الآية تأكيد تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، والمبالغة في إزالة الحزن من قلبه، وهو تقرير لحقيقة ثابتة يراد منها التنبيه إلى ما بعدها وهي: وفاء الناس أجورهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر. فالموت مرحلة لها ما بعدها.

ب - ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

قال الرازي وهو يمسها جمالياً: الذوق ههنا لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأن الموت ليس من جنس المطعموم حتى يذاق، بل الذوق إدراك

خاص فيجوز جعله مجازاً عن أصل الإدراك . . .

ج - ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٧).

ونبه الرازي إلى العلاقة بينها وما سبقها فقال: لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان فقال لهم: إن ما تكرهون لا بد من وقوعه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ . . . ثم لفت النظر إلى وجه دقيق في المعنى وفيه وجه أرق وأدق، وهو أن الله تعالى قال: كل نفس إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهي للموت، ثم إلى الله ترجع فلا تموت . . . ثم يقول: فمن يريد ألا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فإن النفس ذائقتها . . . فإذا التعلق بالله يريح من الموت . . . ويصرح المفسرون والبلاغيون هنا بـ (مجازية) هذه اللفظة ويجرون عليها الاستعارة المكنية . حيث شبه الله الموت - العذاب - . . . بشيء مُرٍّ يذاق، وطوى ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإذاقة، فأثبتها تخييل.

وفيما عدا «ذائقة الموت» السابقات لم ينسب القرآن «الموت» في هذه المادة إلا إلى قوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ . . . (الدخان: ٥٦).

ويمكن استنتاج «فنية» هذ المفردة في أنها تستوعب «إدراكاً معيناً» لألوان كثيرة من الآلام البدنية والنفسية يصعب إدراكها من غير تذوقها وكأنها المطعوم المذاق.

وإن حالات الإنسان عند الموت وسكراته تدرك النفوس تماماً مهما اختلفت صورها وأشكالها، فيستعذبها المؤمن لأنها طريق إلى لقاء الله، ويهابها الجحود لأنها تبقيه في آلامها وشدتها محروماً من آماله وأشواقه التي تخفف عنه الكثير. ومن ثم تؤول به إلى أنواع من العذاب الأخروي الأليم. والصورة الجمالية هنا، فنياً، قادرة على تحريك المشاعر وتثير الصالحات

لأن تستعد كل نفس حتى تذوق الموت ثم ترجع إلى الله، فتوفى أجورها.

٦ - الموافقة الذوقية: وإذا أقر الكافرون بأنهم ﴿لَذَائِقُونَ﴾ (الصفات: ٣١) و﴿لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (الصفات: ٣٨). فإن إعلان الله لهم أنهم سيدوقون عذابه بعد اختبار نفوسهم في الدنيا، وإظهار موقفها من تذوقها رحمة الله الواسعة. يقول الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (فصلت: ٥٠). فواضح من هذه الآية: إذاقة الرحمة في أولها، وإذاقة العذاب الغليظ في آخرها، وهي موافقة لفظية تدل على استيعاب «الإذاقة» كلاً من الحالين المحبوبة والمكروهة.

وهذا يعني أن جمالية هذه المفردة إنما تقع في إطار «الفنية» التي تشمل القبح والجمال معاً وقد أوحى بظلمها الفني الجميل.

خصائص في المفردات القرآنية:

مما سبق نستنتج الخصائص اللفظية التالية:

- ١ - المفردات هي المادة الأساسية للإعجاز القرآني وجمالياته، في الصورة والحوار والقصة والحكمة، والتشريع والتوجيه الخلقي والتربوي.
- ٢ - المفردات مُنتقاة ومختارة لفظاً ودلالة وجرساً، وصفاً ووعظاً، وظلالها من أخص صفاتها وسماتها.
- ٣ - أضفى القرآن الكريم على المفردات اتجاهاته الفكرية الجديدة، وحملها من الدلالات التي (تجددت) معها اللفظة العربية معنى ومبنى.
- ٤ - أكثر القرآن من المفردات الروحية والمعنوية والفكرية والجمالية والكونية الكلية والإنسانية العامة مما لم تألفه العربية من قبل.

٥ - توسّع في استعمال المفردة إلى أقصى طاقاتها، واستوفى دلالات جديدة باستخدامها في مجالات متعددة وأحياناً متعارضة.

٦ - نسّق بين اللفظة وأختها في التركيب الواحد، وبينها وبين الصورة الفنية في المشهد الحي، وبين الألفاظ الأخرى في التناسب الجرسى والترتيلي المتفرد.

* * *

ألوان من جماليات التركيب القرآني

تراكيب رقمية :

في القرآن الكريم أرقام مختلفة تتفاوت من الأحاد والعشرات والمئات والألوف إلى عشرات الألوف.

وهذه وإن كانت بلغة الحسابات والاقتصاد جافة فإن عرضها القرآني يجعلها تتألق بجمال عددي نوعي في سياق الجملة القرآنية التي تزيد من بهائه وروائه.

ويرجع ذلك إلى طريقة القرآن في استخدامه وعرضه الذي يراعي فيه سياق الآية وسباقها وفاصلتها وإيقاعها واعتبارات صوتية متعددة. فالأرقام الأحاد والعشرات تكتسي في التركيب القرآني جمالاً في النسق والجرس. خذ لذلك الرقم (واحد) ومؤنثه. فقد ورد ما يزيد عن (٦٠) موضعاً تنوعت معانيه، وتلونت عروضه من الإيمان بأحدية الله تعالى ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَحِيدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٣)، إلى وحدة الأمة المسلمة منذ القدم ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ (البقرة: ٢١٣)، إلى وحدة الأصل البشري ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُورًا بَكْمٍ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ (النساء: ١) إلى طلب المشركين أن ينزل القرآن مرة أو جملة واحدة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ (الفرقان: ٣٢) إلى الصيحة والزجرة الواحدة يوم القيامة...

وإلى استعمالات أخرى... ولكن أروعها، فكرياً وجمالياً «الأحدية» و«الوترية» في أوائل سورتي الإخلاص والفجر.

والرقم (اثنان) ومشتقاته زاد على (١٠) مرات. أقصر منه على مثالين: أولهما: في صحبة أبي بكر لرسول الله ﷺ في غار ثور ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ...﴾ (التوبة: ٤٠) والزوجية الإثنية في الأنعام ﴿مِنَ الضَّكَّانِ اثْنَيْنِ...﴾ (الأنعام: ١٤٣) ﴿وَمِنَ الْمُعْزِ اثْنَيْنِ﴾ (الأنعام: ١٤٣) ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ...﴾ (الأنعام: ١٤٤) ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ...﴾ (الأنعام: ١٤٤).

والرقم «ثلاثة» ورد في القرآن مع مشتقاته أكثر من (٢٠) مرة، في بيان أوقات الاستئذان بالدخول وشعب الظلال في جهنم. والأنصاء في الميراث وتعدد الزوجات والطلاق، ومدد الطمث والطهر...

ومن سياق هذا الرقم خلق الملائكة بأجنحتها العظيمة ﴿... جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَثَلَّثَ وَرُبَعَ...﴾ (فاطر: ١) وإنكار عقيدة النصارى في التثليث ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾ (المائدة: ٧٣). وهكذا في سائر أرقام الأحاد...

ولكن في الرقم «أربعة» نظام شهادات اللعان، وأنواع الحيوان الذي يمشي على أربع، والطير الأربعة في معجزة الخلق، والأشهر الحرم، ومنها: تقدير أقوات الخلق ﴿... وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ (فصلت: ١٠).

والله رابع المتناجين يعلم نجواهم وسرهم ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ...﴾ (المجادلة: ٧).

ومن أكثرها وروداً الرقمان «سبعة» و«عشرة».

فقد ورد الأول حوالي (٢٤) مرة بينما ورد الثاني حوالي (١٦) مرة...

وأكثر ما ورد الأول في خلق السموات والأرض ثم في أبواب جهنم . . .
وأخصها سورة الفاتحة التي قدمها الله بقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ
الْمَثَانِي . . . ﴾ (الحجر: ٨٧). وعظمة علم الله وسعة كلماته ﴿ وَالْبَحْرِ مِدْمُ
مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ . . . ﴾ (لقمان: ٢٧).

أما الرقم «عشرة» فقد ورد إلى جانب معان وقضايا هامة: منها معجزات
موسى عليه السلام في تفجير الينابيع، وصدقة التطوع، وتحدي الكفار أن
يأتوا بعشر سور مثل القرآن، والليالي العشر المقسم بها وكفارة اليمين المنعقدة . . .
وكذلك في تعداد الأيام نهارها ولياليها: ففي هلاك (عاد) بالريح
الصرصر ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٧)، إنها أرقام مدمرة تثير الرعب في
مصارع القوم ومصائرهم.

والرقم مئة ومضاعفاته كما سبق، ورد في القرآن (١٠) مرات في
أروع السياق وأجمل الذكر، وأقدس الموضوعات . . . ففي صدقة التطوع
والإنفاق قوله: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ
سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ . . . ﴾ (البقرة: ٢٦١).

والصبر على الجهاد ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ . . . ﴾
(الأنفال: ٦٦).

وكذلك في حد الزنا ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ . . . ﴾
(النور: ٢).

ويذكر الرقم (٣٠٩) كما يلي: ﴿ وَلِيُثَوِّبُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ
وَأَزْدَادُوا تِسْعًا ﴾ (الكهف: ٢٥)^(١). في اتساق جميل بهي مع الفاصلة القرآنية

(١) انظر تعليقا عليه وعلى آيات الحاقة السابقة: من أساليب البيان في القرآن الكريم: =

السابقة واللاحقة .

وربما كان الرقم (١٠٠٠) ومضاعفاته من أشدها هولاً وجلالاً وهيبة .
فيوم الله يختلف عن أيام الناس فهو كما قال : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ
كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۖ﴾ (الحج : ٤٧) .

والروح والملائكة تصعد إلى الله في أيام طوال جداً ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ
وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج : ٤) .

والرقم الألف ونواقصه ومضاعفاته يثير ألواناً من المشاعر العجيبة
المفرحة حيناً والمؤلمة حيناً آخر .

فنوح عليه السلام لبث يدعو قومه إلى التوحيد (٩٥٠) سنة ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ
أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت : ١٤)
إنه عمر مديد بلغ ألفاً إلا خمسين عاماً ولم يقل خمسين عاماً وتسع مئة مثلاً
لثلا يؤثر ذلك في إيقاع الآية وفاصلتها .

ويونس عليه السلام أرسله الله إلى أكثر من مئة ألف إنسان ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى
مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٤٧) ﴿فَتَأْمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (الصافات : ١٤٧ ، ١٤٨) .
هم أكثر أو أزيد من مئة ألف ولكن لفظة (أو) أضفت على الرقم الأول والثاني
جمال الفاصلة في حرف النون . . .

وهكذا وردت أرقام «الألف» ومضاعفاتها في أكثر من (١٤) مرة لم

= ٣٥ ، محمد علي أبو حمدة . جمعية عمال المطابع التعاونية ط / ١ ١٣٩٨ هـ -

١٩٧٨ م .

يخفف واحدها شيئاً من جلالية التركيب، وإنما كانت الأذن تقع دائماً على سماعه وترداده، والقلب على فقهه وفهمه في نمط من القدرة الفائقة والخلق الفطري، والعمل المسئول.

حتى إن بعضها قد اقترن بمعجزات النصر الإلهي في أعظم غزوة من غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام «بدر الكبرى» ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَكِ مَرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩)، وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ آلَفٌ يَغْلِبُوا آلَفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ (الأنفال: ٦٦).

وحسب هذا الرقم تألفاً اقترانه بليلة القدر ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ...﴾ (القدر: ٣).

ويطول بنا المقام إن استعرضنا الأرقام العشرات والعقود والمئين، والألوف، ومشتقاتها ومضاعفاتها...

ويمكن أن نستنتج من إيراد الرقم أموراً منها:

١ - الرقم ضبط للزمن والحال والخلق والأشياء وقد يقصد به التكثير أحياناً.

٢ - تلونت عروض الرقم في القرآن بألوان شتى فقد يلحق الرقم الأحادي أو وصفه، العشرات والمئات والألوف لسبب جمالي فني يتعلق بالفاصلة القرآنية وبالقدرة الفائقة، وبالنسق المعجز.

٣ - كانت أرقام معينة موضع دراسة جمالية حديثة مثل: الرقم (١٩)، إلى جانب دراستها لتقدير الأشهر والأعياد الإسلامية في التقويم الهجري والتاريخ القديم وأحداثه العالمية.

وفي كل نتيجة يضيف الرقم في الصورة أو التركيب القرآني لمسة جمالية لها وقعها في الأذن والوجدان.

تراكيب تصنيفية:

وهي تلك التراكيب التي تعتمد على تعداد الأشخاص والأشياء والأفكار والمعلومات وتصنفها عددياً في جداول خاصة.

وإذا شملت التراكيب الرقمية أعداداً مختلفة وأرقاماً متنوعة تجاوزت وظيفتها الحسابية والاقتصادية إلى عروض قرآنية بديعة، فإن التراكيب التعدادية من وظيفة البيانات والقوائم التي تنظم وتفصل وترتبط بالجدول الرقمية والحسابية التي لا بد من أن تضيف إلى هذه المهمة وظيفة جمالية في نسقها الفني القرآني، وربما كانت سورة (الواقعة) المكية من أبرز السور التي تصنف الناس ومصائرهم إلى أزواج ثلاثة: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، والسابقون السابقون.

وكذلك فإن الآيات الأولى من (البقرة) المدنية، تصنف الناس إلى: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، وتصف كلاً منهم بأدق الصفات النفسية والعقلية والشعورية كنماذج حية لمجموعات ضخمة من البشر متكررة في كل زمان ومكان، يرسمها القرآن صوراً واضحة كاملة نابضة بالحياة، دقيقة السمات جميلة النسق والإيقاع.

ولكن تراكيب أخرى تبرز التعدادية بشكل مفصل يقترب من الترقيم الحسابي. سنعرض لنماذج منه:

● في إشراقة الفضائل الإسلامية الكبرى وعتامة المفاصد تصنف الآيات عدداً منها بين سابقة وخاتمة تضيء عليها سموها وإشراقها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ...﴾ (النحل: ٩٠) فالفضائل هنا مما يأمر به الله، ومما ينهى عن أضدادها، وفي هذا عظة بالغة للذاكرين^(١).

(١) وانظر في إيجازها وإعجازها: الإتقان: ٥٤/٢ للسيوطي.

● في تحريم الخبائث من المطاعم والمعبودات ضمت آية واحدة أحد عشر صنفاً من هذه المحرمات وقد أطرت في مقدمتها بأنها من محرمات الله ، وفي خاتمها بتمام الدين وكمال الإسلام ونعمة الشريعة . . . ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ . . . ﴾ (المائدة: ٣) .

إنها مما حرمه الله ، فصل بعضها في إطار الكمال والرضا والمغفرة والرحمة .

● وفي تعداد الأنبياء ووحدة رسالتهم وملتهم ضمت آية واحدة كثيرائهم ، ففي آية الأحزاب السابعة خمسة أنبياء ، وفي آية الشورى (١٣) ستة من الأنبياء وأقوامهم وكذلك في آيات أخرى . . .

وفي سورة النساء الآية (١٦٣) آية واحدة ذكرت ثلاثة عشر نبياً مع شيء من كتبهم وصحفهم .

أما التجمع النبوي فقد احتضنته أربع آيات من سورة الأنعام حتى بلغ عددهم سبعة عشر نبياً مع ذكر آبائهم وذرياتهم وإخوانهم يقول تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام: ٨٤ - ٨٧) .

إن جمالية التعداد هنا اقترانه بمعان شفافه وروحية شاملة ، وإحسان وارف ، واجتباء وهداية إلى صراط مستقيم . وكأن الامتداد الزمني في تاريخ الرسل الطويل يتسق مع طول الآيات وامتدادها بالنسبة إلى تصنيفات وجداول أخرى .

● وفي تعداد أركان الإيمان تبعاً في آية واحدة أو جزءٍ منها ذكر خمسة أركان . يقول الله : ﴿... وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَاتِهِ وَكُنُيِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء : ١٣٦) .

وما أروع تصنيف هذه الأركان بعد خطاب الله : يا أيها الذين آمنوا . . . وبعد أمره بالإيمان بها : آمنوا بالله ورسوله . . . وما أروع خاتمة الآية فيما بعد ، في ضلال الكافرين بها ضلالاً بعيداً . . .

إن دعائم الإيمان مقومات عقلية وعاطفية وسلوكية ، وأحرى بالمؤمنين أن يلتزموا بها ويقوموا بما يرتبط بها ، فهي من الوجهة الوجدانية تحقيق للحاجات الإيمانية الجمالية ، وتصورات عميقة الأبعاد والآفاق في الوجود الإنساني المكرم .

● وفي الأصناف الثمانية الذين يستحقون الزكاة جمعهم آية واحدة على نسق منظم يكسوها مسحة جمالية معنوية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة : ٦٠) .

فإلى جانب التصنيف الجامع لفئات مختلفة من المجتمع ومصالح هامة في البناء الاجتماعي فإن السامع والقارئ لا يمل من تراددها ، ذلك لأن المؤمن حين يقدر نعمة التكافل الاجتماعي في إزالة الفقر والجهل والمرض والضعف والبطالة والعبودية البشرية ، فإنه يتصور تحقيقاً أن الكفاية والعدالة ترفرفان على أبناء المجتمع الإسلامي الذين يعيشون إخوة في العقيدة والعبادة قبل أن يعيشوا إخوة الدم والنسب .

وإن مشاهد البؤس والبؤساء وحياة الخذلان والتخاذلين ، ومعيشة البطالة والمتبطلين نذير شؤم في البناء الحضاري لا من حيث الصيغة الاجتماعية

وحسب وإنما من الوجهة الجمالية التي لا بد أن ترتفع بالحياة الضنكة العسرة فوق الضرورات المعاشية...

● ومن أروع القضايا المتعددة وأرسخها في تصورات المسلم وأصقها بالجماليات الكونية العلوية والأرضية ما احتوته آية واحدة هي قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ...﴾ (البقرة: ١٦٤).

فقد عدت عشر آيات للدلالة على وحدانية الله وقدرته وحكمته ونعمته... ومع هذا التعداد برزت كونية ضخمة من الخلق والصنع والبث والتصريف والإحياء...

فقد برزت هذه الآيات العشر بضخامة مظهرها ودقة تكوينها، وانتظام سيرها، وتكامل منافعها لمن يرى بحاسة عينه وعقله البسيط ولمن يراها ببصيرته الثابتة وعلمه الواسع وفكره العلمي، ولكنها على كل حال آيات عظيمة الجلال لمن يتفكر بخلقها وانتصابها وحركتها وتوازنها وتناسبها، وانسجامها...

إنها في مجال العقل والفكر والوجدان غذاء عقلي وفكري ووجداني يتملأها العقل والقلب تأملاً ونظراً وتلاوة.

فهل هناك عروض تتسق فيها جماليات التعدد مثل هذه العروض؟ وهل تستطيع وسيلة جمالية بالرسم أو الأدب أو أي فن أن ترسم أو تعبر عنها بمثل هذه الروعة والبهاء؟.

إن التركيب التعددي جمالياً كان أو جلالياً يبلغ أوج الفن التعبيري الذي تلتحم فيه أبعاده الفكرية والإصلاحية والجمالية في نمط فذ من النثر الفني المعجز.

تراكيب مغفلة:

وإلى جانب تلك التراكيب المضبوطة بالترقيم والتعداد والتفصيل فإن معظم الجمل القرآنية مغفلة من الأسماء التاريخية والمعاصرة لتزول القرآن كأسماء الأعلام، والأمكنة والأحداث سوى ما يتصل بالرسل وأقوامهم. والتي يبحث عنها المفسرون في الروايات المختلفة، ويهتم الأدباء بها عادة في القصة والرواية والبحث الأدبي.

وفي هذا أكثر من أمانة أدبية على إنسانية القرآن الفنية باعتباره أعظم أثر فني في الوجود.

والاتجاه القرآني المفضل هو تسمية العلم والمكان والشيء بصفته المميزة التي يمكن أن تطلق على (عموم) الأعلام والأمكنة والأشياء التي تتماثل في السمات والشيئات.

مثلاً نجد: حاضرة البحر - مجمع البحرين - ملك الموت - النافخ في الصور - أصحاب القرية ورسّلها والمؤمن الساعي إليهم - الحواريون - الأسباط - زوجة آدم - المجادلة - أم المؤمنين الواهبة نفسها - ثاني اثنين - أهل البيت - آل إبراهيم - فتية الكهف - موقعه - مكان وفاتهم - ذو القرنين - فتى موسى - معلمه العبد الصالح - الأخوان الفقير والغني في سورة الكهف. وأمثال هذا هو الغالب في الاتجاه القرآني.

ولكننا لا نعدم تركيزاً عجيباً على أعلام وأمكنة وأحداث معينة يمكن أن نستنتج من إعلانها والتصريح بها حكماً دينية وجمالية متنوعة إلى جانب الدقة في عرض الأحداث والأسماء.

أذكر على سبيل المثال لا الحصر:

● من الأعلام: طالوت - جالوت - هاروت - ماروت - يأجوج ومأجوج - أبو لهب - قارون - آزر - هامان - فرعون... وهم أئمة الكفر.

و: آدم - ذو القرنين - عمران - عزيز - لقمان - ومريم - زيد . . . وهم من المؤمنين .

● ومن القبائل والأمم: قريش - الأحزاب - الروم - العرب - عاد - إرم - يأجوج ومأجوج - عاد - ثمود - قوم تبع - أصحاب الرس .

● ومن أصنامها: ود - سواع - يغوث - نسر وهي أصنام قوم نوح، واللات والعزى ومناة: أصنام قريش، وبعل صنم قوم إلياس . . .

● ومن الملائكة: جبريل - ميكال - رقيب - عتيد .

● ومن الأمكنة: بابل - سبأ - بكة - مكة - المدينة - عرفات - المشعر الحرام - حنين - بدر - أحد - المسجد الحرام - المسجد الأقصى - مصر - الحجر - الطور - سبأ - الأحقاف - طوى - الجودي - الكهف .

وإذاً فإن تحديد الأشخاص والأزمنة والأمكنة في القصة القرآنية وتعيين الأسماء والأحداث في أبرز المسائل الإنسانية عبر التاريخ العريق وخلال منزل القرآن، يعين على فهم هذه القصة كأنها ماثلة للعيان، ويبعث في المسائل الإنسانية الحياة المتجددة التي لا تحدها الأسماء ولا السنون، فيعرف الحدث بحدوده والشخص بسماته والتاريخ بأبعاده الزمنية والمكانية والشخصية . حتى وإن عدد القرآن أو حدد الأسماء والكنى والألقاب فإن صفة العموم هي ما يستنتجها الباحث، وسمة الروح الإنسانية هي ما يعتبره المتأمل في تشريعه وتوجيهه وتطلعاته الفنية (فالعبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) كما يقولون .

ولا تعوزنا الأمثلة والنماذج، فمعظم الآي الحكيم في هذا الاتجاه العام الذي يجعل ألفاظه وتراكيبه أكثر إنساناً في دخولها القلب وتأثيرها في النفس والتصاقها بالذاكرة .

فالرسول الذي يعاتبه الله في آيات كثيرة وأحياناً يلحف في هذا العتاب لا يصرح بالأسماء الذين عوتب من أجلهم . . . فهو يقول عن المتخلفين ﴿عَفَا اللَّهُ

عَنْكَ لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴿٤٣﴾
(التوبة: ٤٣).

إنه دعاء جميل من رب رحيم، وتوجيه كريم لتبيين الصادقين والكاذبين متجاوزاً أسماء الثلاثة وغيرهم ممن تخلفوا عن غزوة تبوك. فليس في ذكرهم فائدة مرجوة. ونبيه إلى الالتزام بالمؤمنين على فقرهم وبؤسهم ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨).

أنه أمر بملازمة المؤمنين الموصوفين بالإخلاص، ونهي عن طاعة المفرطين الغافلين من غير تصريح بأسماء الصحابة البؤساء ولا بأسماء الكافرين المتعاليين.

والتعبير القرآني المعاتب للرسول والمعلن لفضائل صحابته لا يأمر وينهى هكذا وإنما يريد من الرسول إعلاء القيم الروحية وأصحابها وإحباط الكفر وأهله. مهما استعلوا بأموالهم وأحسابهم وسلطانهم...

فالصبر فضيلة نفسية أكدتها الآية فقالت: اصبر نفسك، والمعول عليه هو حبس النفس عن النقائص ويقتضي ذلك عملاً عفاً وسلوكاً صابراً.

والغداة والعشي: يقصد بها الأوقات كلها، وفيهما من الجمال الحسي ما لا يوجد في أية لفظة أخرى كالأزمان والأوقات...

يريدون وجهه: يخلصون له الدعاء والعمل. فما أكرم وجه الله وما أبر الإخلاص إليه... وما أروع صلة المؤمنين وإرادتهم وجه الله تعالى، تريد زينة الحياة الدنيا: فقد أثبت الله للدنيا زينة كما أثبتها في آيات عديدة، وعلى هذا فالمذموم من زينة الحياة الدنيا هي تلك التي تبعد عن القيم وتغفل عن المثل وتناى بالمؤمنين الموحيدين.

أغفلنا قلبه عن ذكرنا: إنها غفلة القلب عن الله جعلتهم يتكبرون ويتشامخون ويتبعون أهواءهم المفرطة...

إنها سلسلة مترابطة متلاحمة من التراكيب القرآنية التي تضيف على المبادئ والقيم روائع البيان وعموميات المعاني لتصنف مثل هذه المشاهد بأحداثها وأشخاصها وأبعادها المكانية والزمانية الخاصة، في آفاق إنسانية خالدة.

ومثل آخر نجده في «أصحاب القرية» من سورة يس (١٣ - ٢٩) تزدحم فيها أسمى المعاني والتضحيات وأصدق الدعوات في مقابل التكذيب والتطير... إنه صراع الحق وأهله والباطل وأصحابه.

فالحواريون أعلنوا التوحيد في مدينة (إنطاكية) ولم يبالوا بالقتل في سبيل دعوتهم، وحين جاءهم (حبيب) - على ما ذكره المفسرون - من أقصى المدينة ثبتت دعوتهم ويقوي بيانهم، كان ذلك مثلاً رائعاً في التأييد والنصرة في كل زمان ومكان...

وقد أغفل القرآن أسماء الحواريين، والرجل المؤمن الساعي والقرية ليعيش الإيمان والمؤمنون في رحابة الحياة الإنسانية الكبرى، وليستتج المسلمون فيما بعد أسمى التوجيهات في بناء الدعوة وطرقها وثباتها، والجهاد في سبيلها.

ومما يساعد على هذه الأدبية الإنسانية ما اشتملت عليه القصة من تراكيب وألفاظ مثل: فغزنا بثالث، فقالوا إنا إليكم لمرسلون، وما علينا إلا البلاغ المبين... إنا تطيرنا بكم... طائرکم معکم - ما لي لا أعبد الذي فطرني...

إنها تراكيب قصيرة معبرة عن نوازع الخير والشر وانفعالات النفوس، ومجابهة الأضداد، زينت بالفاصلة (النون) المسبوقة بالواو والياء ليبلغ إيقاعها المؤثر أعماق الأفتدة حتى تلين إلى ذكر الله وما نزل من الحق. فهو مثل أمر

رسوله أن يضربه للكافرين ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾، مثل بعيد في التاريخ بعيد في المكان، واحد في الدعوة والتبليغ.

تراكيب سائرة وحكيمة:

وهي الجمل القرآنية التي جرت مجرى المثل فإنها تلهم مبادئ عامة، بما تتضمنه من حكم نبيلة وفضائل كلية، وتمتاز بألفاظها الموجزة الموحية التي تستوعب معاني كثيرة.

وإنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً، (ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة)^(١). ومعظم الآيات تصلح أن تكون مثلاً سائراً ينطبق على مواقع كثيرة وحالات متعددة. فهي إذاً تمتاز بعمومها وشمولها. والأمثال في القرآن لون من ألوان الهداية الإلهية تغري النفوس على الخير أو تحضها على البر، أو تمنعها من الإثم، أو تدفعها إلى فضيلة... وتناولت الإيمان، والكفر، وفضحت النفاق، وحضت على الإنفاق، ونادت بالخير، ونددت بالشر، وصورت الطيب والخبيث، والصالح والطالح، ومثلت للحق والباطل، واشتملت على بيان بتفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله.

وأبرزت المعقول في صورة مجسمة، وألبست المعنوي ثوب المحسوس، وفصلت المجل، وأوضحت المبهم، لتهذب الطبائع وتقلّم الغرائز الشريرة، وتخفف من غلواء النفوس، وتحد من ضراوتها وتطامن من كبريائها وغرورها.

(١) الإتقان: ١٣٢/٢.

ومن جماليات المثل ما نقل عن النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة^(١).

ومن الأمثال:

- ١ - ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَغَدَّ هَبُ جُفَاءً﴾ .
الباطل ضعيف لا بد أن يؤول إلى زوال.
- ٢ - ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ﴾ .
الحق ثابت خالد مهما تكالب عليه الناس.
- ٣ - ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ .
الخير لا ينشأ عنه إلا الخير.
- ٤ - ﴿وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ .
الشر لا ينضح إلا بالشر.
- ٥ - ﴿لَيْسَ لَهُمَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ .
القوة العظمى وحدها تكشف السوء والهموم.
- ٦ - ﴿أَلَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ .
الآن ظهر الحق ودفع الباطل.
- ٧ - ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ .
لا يليق أن يقابل الفضل بالسوء.

(١) مختصر: الأمثال في القرآن: ٧ - ٩، محمود بن الشريف. دار عكاظ ط/٢ والإتقان السابق.

٨ - ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ .

لا يتساوى الخير والشر والحق والباطل .

٩ - ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ﴾ .

لا مسئولية بعد الآن (لا عذر بعد البيان) .

١٠ - ﴿نَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ .

قوة الخصم ضعف .

ونوه (الثعالبي) بجماليات الأمثال ومزاياها بأنها تجمع الإعجاب ، والإعجاز ، والإيجاز : وساق عدداً منها^(١) :

- ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ .

من يضمّر لغيره شراً يعود عليه .

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ .

النفس تؤاخذ بما تفعل ، فكل إنسان مجزي على أعماله .

- ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ .

كل شيء في الدنيا يزول ويفنى فلا يدوم غير الله .

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ .

لا مهرب لأحد من الموت .

- ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ .

كل شيء يتقلب وينتقل لا بد له في النهاية من مستقر ، فلكل شيء منتهى ومثبت .

- ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ .

كل إنسان يعمل ما يشابهه ويضارعه .

(١) بتصرف من الإعجاز والإيجاز : ١٦ . أبو منصور الثعالبي . دار البيان (بغداد) ، دار صعب (بيروت) . وأخذ تفسيرها من الحاشية بتصرف طفيف .

- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ .
لا تؤاخذ نفس إلا بما جنته ولا تؤاخذ عنها غيرها .

- ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ .
يظنون أي صارخ يطلبهم .

- ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ .
يظنون أن يمدحوا على صنيعهم .

أمثال مقارنة :

وهي تلهم بقوة الحافظة والاستحضار لدى العلماء، وغنى القرآن
بالأمثال السائرة الحكيمة .

ومن طريف الروايات في هذه الأمثال ما نقله الماوردي قال : سمعت أبا
إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول : سمعت أبي يقول : سألت
الحسن بن الفضل .

فقلت : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ، فهل تجد في
كتاب الله : خير الأمور أوسطها؟ قال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا
وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ ، وآيات أخرى . قلت : فهل تجد في كتاب
الله : من جهل شيئاً عاداه؟ .

قال : نعم في موضعين : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِهٖ﴾ ، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ
فَسَيَقُولُونَ هَذَا آفَاكٌ قَدِيمٌ﴾ .

قلت : فهل تجد في كتاب الله : احذر شر من أحسنت إليه؟ .

قال : نعم ، ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ .

قلت : فهل تجد في كتاب الله : ليس الخبر كالعيان؟ .

قال: في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

قلت: فهل تجد: في الحركات البركات؟.

قال: في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

قلت: فهل تجد: كما تدين تدان؟.

قال: في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

قلت: فهل تجد فيه قولهم: حين تقلي تدري؟.

قال: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾.

قلت: فهل تجد فيه: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين؟.

قال: ﴿هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾.

قلت: فهل تجد فيه: من أعان ظالماً سلط عليه؟.

قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

قلت: فهل تجد فيه قولهم: لا تلد الحية إلا حية؟.

قال: قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِٰلَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

قلت: فهل تجد فيه: للحيطان آذان؟.

قال: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُؤْنَ لَهُمْ﴾.

قلت: فهل تجد فيه: الجاهل مرزوق والعالم محروم؟.

قال: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلَيْسَ دَلَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾.

قال: فهل تجد فيه: الحلال لا يأتيك إلا قوتاً، والحرام لا يأتيك إلا جزافاً؟.

قال: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا
يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾^(١).

تراكيب جدلية حوارية:

فلا تكاد سورة من طوال المفصل ومتوسطه تخلو من مشهد حوارى أو
جدلي بين الله وعباده أو بين الرسول وقومه، أو بين الناس بعضهم مع بعض،
حتى بين الإنسان ونفسه في كثير من الأحيان.

فأسلوب الحوار الذي يبعث الحياة والحركة في النص أو المشهد
ويحقق مغزاه التربوي هو الأسلوب القرآني المفضل في كثير من القضايا
المطروحة.

وقد كان أسلوباً مفضلاً لدى كثير من الأمم السابقة في غرس المفاهيم
الفكرية والخلقية والعلمية، وما يزال المسرح والكتاب عموماً والأدبي
خصوصاً يستخدمه للوصول إلى أقصى النجاحات المطلوبة.

وإن البيان الذي يشتمل على طرق (حوارية) (تتناظر) فيه أكثر من فئة أو
فريق يظهر أدباً نفسياً رفيعاً قد لا يوجد مثله في (الجدال) المغالب
والخصومات الكلامية واللدن العنيف، وإن جمعت بعض الآيات بينهما في
مثل قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ
إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّاتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ
لَعَفُوفٌ غَفُورٌ^(٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ
أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ كُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ^(٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ

(١) الإنتقان: ١٣٢/٢ - ١٣٣.

مُتَابِعِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ أَفْمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سَيِّئِينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤١﴾ (المجادلة: ١، ٤).

ولكن البيان القصصي خاصة يقوم معظمه على الحوار في أحداثه وحوادثه، ومن ذلك قصص الأنبياء مع أقوامهم، والصراع في تاريخ الفكر الديني عموماً وما يلحق به من المناظرات بين المؤمنين بعضهم مع بعض، وبين المنافقين والكافرين...

وإذا أكثر القرآن من المشاهد الحوارية ليعطي أدباً حياً مؤثراً فإن العرب وهم خصمون لدأجج ما يكونون إلى هذا الأسلوب لا لمطابقة أحوالهم وآدابهم وحسب وإنما للدلالة على وجه ظاهر من وجوه الإعجاز البياني.

وأجل أنواعه وأرهبا وأعظمها وقعاً في النفوس تلك التحوارات بين الله وعباده التي تشمل الخطاب القصير والحوار الطويل في مسائل الألوهية والبشرية ومصائر الناس في الدنيا ومشاهدتهم في الآخرة.

ولا يقتصر الجدل أو الحوار على بني البشر وحدهم وإنما يشمل الملائكة المقربين والشياطين المبعدين، كما يشمل أحياناً الجمادات من الطبيعة التي تنطق وتخطب، في جماليات مشخصة تضفي عليها الحياة والحركة.

صور من الجدل القرآني وإيحاءاته الجمالية:

● توجيهات إلهية: فالله يوجه رسوله والمؤمنين إلى الدعوة الحكيمة، والجدال بالأحسن في جملة قرآنية موجزة اللفظ، عميقة المعنى شاملة الأبعاد والنشاطات ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ بَالَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، فهي دعوة، وحكمة، وموعظة وجدال...

ومن هذه الآية وغيرها استنتج العلماء ما يعرف: بأدب البحث

والمناظرة، والدعوة، وطرقها وأساليبها.

كما يوجه المؤمنين إلى الجدل بالأحسن في القول والبرهان ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

ويوجههم إلى استهداف الحقائق بالبراهين الصحيحة عن علم ومعرفة.

● قدم المجادلة في القرآن: فقد نوه القرآن بالحوار بينه وبين ملائكته قبل خلق آدم ثم السجود له بعد خلقه وتعليمه. وجدل بين آدم وإبليس. وآدم وزوجه، ولديهما: قابيل وهابيل..

فمن التراكيب الموحية بالجمال قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً... وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ... وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ... وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا... فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾^(١).

ومن نبأ ابني آدم - قال: إنما يتقبل الله من المتقين - إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك - فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله - كيف يوارى سوءة أخيه - قال: يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب^(٢)....

إنها تراكيب واضحة مفهومة مؤثرة تميزت بانتقاء ألفاظها، وبإيحاءاتها الفنية الحية، تهتم بالحكمة والعلم الإلهي المطلق، وتبرز ضالة حجم المعرفة لغيره، وتعلن بداية الصراع بين الخير والشر واستمراره، وتنبه إلى الأطماع البشرية، في مقدرة أدبية بيانية فذة.

● حوار تعليمي خاص: فالحوار قوام النجاح في أية مادة دراسية علمية أو أدبية، وهو أغنى أسلوب تربوي وأيسره في إيصال الحقائق الفكرية إلى الطلاب.

(١) انظر الآيات في سورة البقرة: ٣٠ - ٣٩.

(٢) الآيات في سورة المائدة: ٢٧ - ٣١.

وفي القرآن نماذج من الحوار التعليمي، أخصه: ما جرى بين المعلم «الرجل الصالح» وبين «موسى وفتاه»، فقد أوضح الحوار الغرض التعليمي منه فقال عن المعلم والطالب «وعلمناه من لدنا علماً» فالله المعلم والرجل الصالح المتعلم، والمادة العلمية هي علم لدني من الله تعالى.

وكذلك في قول موسى الطالب لمعلمه ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ وفي نهاية الجولة التعليمية التي اتخذت أسلوب الحوار قال المعلم الرجل: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. إنها قصة حوارية رائدة في العملية التعليمية الناجحة.

ومن التراكيب الملهمة بالجمال: مجمع البحرين - اتخذ سبيله في البحر سرباً - لقينا من سفرنا هذا نصباً - وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً - لقد جئت شيئاً إمرأً - لا ترهقني من أمري عسراً - فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه - يأخذ كل سفينة غصباً - خشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً - خيراً منه زكاة وأقرب رحماً - فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك^(١) . . .

فهي قصة مشحونة بأجمل التراكيب وأكثرها إثارة للعقل والعاطفة، وأعمقها بالأحداث الغريبة العجيبة، والنتائج الباهرة تلونت تراكيبها بين الخبر والإنشاء، والحقيقة والمجاز، والإيجاز والإطناب، واختارت أصفى الألفاظ وأجمل الكلمات وأفصحها للتعبير عن حوار علمي حي متسع الأبعاد والآفاق، قائم على المحسسات والغيبيات، والمقدمات والنتائج، معتمد على الشخصيات في سماتها الفكرية والشعورية، وهي في رقابة الله وحكمته وتدبيره . . .

● حوار عقدي: فقد كثرت الحوارات العقدية عبر الحياة الإنسانية

(١) الآيات في الكهف: ٦٠ - ٨٢.

المديدة ومضت تتغلغل في القرون والحقب اللاحقة. وفي مقدمتها الحوارات العنيفة بين الأنبياء وأقوامهم حيث كانت لها أغراض دعوية وتربوية وعقلية وجمالية...

ولكننا سنعرض لحوار خاص وقع بين مؤمن من آل فرعون وقومه، وفي مقدمتهم الملك الأكبر الذي كان يعلن أنه الرب الأعلى...

— هو قبطي في أصح الأقوال يناقش الطغيان والجبروت، ويعلن الحق ويهدد بالآخرة ويدافع عن موسى وقومه المهددين بالقتل والتشريد والتعذيب ويدعوهم للعبادة من تاريخ المكذبين: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ويذكرهم بسير الأنبياء المرسلين وبراهينهم ومعجزاتهم... ويخوفهم من مصائرهم الدنيوية والأخروية.

— ولكن فرعون تطاول وطلب من وزيره هامان أن يبنّي له صرحاً ليطلع على الله ويبارزه ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (غافر: ٣٧).

— ويعود الحوار إلى الرجل المؤمن ثانية فيطلب من قومه أن يتركوا فرعون وعمله ويتبعوه يهديهم «سبل الرشاد»، فالحياة متعة زائلة والآخرة دار القرار، والإنسان مجزي بعمله ذكراً أو أنثى...

— ثم يستنكر متعجباً من قومه فيقول: ﴿مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۚ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ۚ مَا لِيَ بِهِ ۚ عَلِمْتُ أَنِّي إِنْ دَعَاكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ۚ لَأَجْرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (غافر: ٤١ - ٤٤).

- وأخيراً يحكم الله بين المتجادلين ويصرح بعاقبتهم فيمنع المؤمن من مكر الكافرين، ويعاقبهم في البرزخ مقدمة لعقوبتهم الدائمة في الآخرة ﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٥)^(١).

إنه حوار (جامع) لأطراف متعارضة متباينة: المؤمن من آل فرعون، في جانب ومعه الله يؤيده ويدفع عنه، وقومه في جانب آخر ومعهم فرعون بجبروته وسلطانه وبطانته.

و«جامع» للربوبية المزيفة والإيمان الراسخ في صراع عقدي بين الحق والباطل والتوحيد والشرك.

و«جامع» لأنواع من الترغيب والترهيب من التاريخ القديم والقريب وعاقبة المؤمنين والمكذابين.

و«جامع» لألوان من البراهين والتأثيرات العقلية والعاطفية والسلوكية المؤثرة في العقل والعاطفة والسلوك.

و«جامع» لأحداث جسيمة وقعت في الدنيا وأحداث أضخم ستقع في الآخرة.

إنه من «أجمع» المشاهد الحوارية في القرآن وأغناها بالانفعالات النفسية التي نستلهمها من معظم التراكيب والجمال مثل: قال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب - أقتتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات - يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين - يوم الأحزاب - يوم التناد - ما لكم من الله من عاصم - كبر مقتاً عند الله - كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار - زين لفرعون سوء عمله - والآخرة دار

(١) الآيات جميعها من سورة غافر: ٤١ - ٤٥.

القرار - لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة -
أفوض أمري إلى الله - فوقاه الله سيئات ما مكروا .

إنها في «جمعها» السابق تؤثر في منطق العقل والوجدان لما تتضمنه
من براهين مقنعة، وأفكار ومعان عامة وخالدة، وإحياءات وظلال وجدانية
وارفة، تنفيذها النفس، وتملاها الروح، إنها ظلال الإيمان الوارفة في مقابل
الطغيان والمراوغة والاستهتار والسخرية، والسلطان الجائر المتعسف .

ولذا فإن النص أو المشهد عموماً زاخر بنشاط فكري ودعوي وبوسائل
وطرق ناجحة للنشاط الفكري والدعوي صالحة لكل زمان ومكان وجيل .

وقد صيغت بتراكيب قوية الجرس شديدة الوقع تنم عن أرق المشاعر
والانفعالات الوجدانية المتعالية المتنفخة، تتراقف أو تتقابل مع تراكيب أخرى
لطيفة الجرس خفيفة الوقع، مع وضوح الفكر، وقوة المبدأ، ونصاعة الحق .

وهذه التراكيب الرصينة المعبرة اتسقت بأفصح الألفاظ وأبلغها إلى
النفوس والقلوب في إيقاع ثابت، وجرس قوي يوحى بالصراع الشديد،
والمنازعات الفاصلة، ومن ثم فإنها تنتهي باستعلاء الحق وثباته ورسوخه
﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَغَابَ جُفَاءً﴾ .

● حوار قيمي: وقد جرى بين رجلين أحدهما يصور أن قيمة الإنسان
والحياة محصورة بالمال الكثير والجني الوفير والعشيرة القوية، وكل ما يتصل
بالأحوال المادية القريبة والبعيدة، وآخر يصور أن القيمة الحقيقية هي قيمة
روحية ربانية، فهي الباقية الدائمة وما عداها متعة زائلة وظل مستعار^(١) .

— فالرجل الغني يعتز بغناه وجنتيه وعشيرته، ولا يبالي بأي شيء آخر .

— والفقير يعتز باتصاله بالله ويأمل بما عنده من خير الدنيا والآخرة .

(١) الآيات في سورة الكهف: ٣٢ - ٤٣ .

– والنتيجة هي أنه أحيط بثمر الرجل الغني وندم على تصوره المادي
ولات ساعة مندم.

وإذا استعرضنا النص أو المشهد فإننا نجده زائراً بالتركيب الوصفية
والتحليلية والفكرية:

فمن التراكيب الوصفية الموحية: وحففناهما بنخل - آتت كلها - فجرنا
خلالهما نهراً - أحيط بثمره - وهي خاوية على عروشها - يصبح ماؤها غوراً -
تصبح صعيداً زلقاً... فهي أجمل ما توصف به الطبيعة في جنات الأرض.
ومن التراكيب التحليلية: ظالم لنفسه - أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً - ما
أظن أن تبید هذه أبداً - لأجدنّ خيراً منها منقلباً... فهي تبيان دقيق لأحوال
نفسية ومعاشية وسلوكية..

ومن التراكيب الفكرية: ما أظن الساعة قائمة - أكفرت بالذي خلقك من
تراب... لا أشرك بربي أحداً - يا ليتني لم أشرك بربي أحداً - ولم تكن له
فئة ينصرونه من دون الله - هنالك الولاية لله الحق... فهي إنكار وجحود للقيم
الدينية... وهذه التراكيب التي تحمل قيماً نظرية وعملية، أبدع منها الحوار
مادة حية شائقة مهما كان بعدها التصوري، وأضفى عليها من البيان المؤثر ما
جعل روعة القيم الحقيقية تخلد على الأيام، وإن كثر الباطل وأشياءه، وزيف
قيماً موهومة أخرى ومرفوضة. إنه أدب خالد في جوهره الفكري التصوري فلا
يكاد مجتمع يخلو من مثل هذا المشهد الإنساني، وهو أدب سام ملتزم بالفكر
القيمي، والتطلعات الروحية يدعو له من خلال حوار الحية الممتع، إنه أدب
القرآن الذي أراد أن يتأدب به المسلمون في نفوسهم وأن يتذوقوه
بوجداناتهم، وأن يزينوا قلوبهم بجمال آيه وتراكيبه.

● امرأة تجادل الرسول ﷺ للحافظ على بيتها: كانت خولة بنت ثعلبة
الخزرجية قد تزوجت بأوس بن الصامت وهي في صباها وشبابها، وعاشا
عمرًا طويلاً تقدمت بهما السن... وفي وقت نزق وغضب حرمها على نفسه

كما حرمت أمه عليه، وكان الظهار من أشد الطلاق في الجاهلية حيث كان
يوجب الفرقة المؤبدة...

يقول أوس وقد كبرت سنه و(ساء خلقه) لزوجته: أنت علي كظهر
أمي.

تقول الزوجة: كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ، وقد قلت
ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه...

ثم خرجت إلى الرسول فذكرت له ما لقيت منه وجعلت تشكو إليه ما
تلقاه من (سوء خلقه).

يقول الرسول ﷺ: يا خويلة: ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه.
تقول المرأة: إن أوساً ظاهر مني، وإنّا إن افترقنا هلكنا، وقد نشرت
بطني منه.

يقول الرسول ﷺ: ما أعلمك إلا قد حرمت عليه...

تقول المرأة: أشكو إلى الله ما نزل بي.

يقول الرسول ﷺ بعد أن نزل عليه الوحي: أين المرأة، اقرأ عليها
وعلى زوجها ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (المجادلة: ١) (١).

وبقيت المجادلة اسماً على السورة كلها تذكر بهذه القصة الفريدة
وحوارها العجيب.

وفي النص القصير ما يدل على حوار، وشكوى، واستعطاف من المرأة
الوفية، من غير أن يصرّح بأسلوب الحوار والجدل، ومن غير أن يعلن ما دار

(١) من مجموعة روايات في تفسير ابن كثير. وجملة (ساء خلقه) من كلام خولة وفي
أصل الحديث.

بينها وبين زوجها، أو بينها وبين الرسول عليه الصلاة والسلام، وتبدو شخصية المجادلة من خلال النص أنها عاقلة حسيمة مؤمنة محافظة على بيتها.

والتعبيران: تجادلك في زوجها، وتشتكي إلى الله، يدلان على هذا الحوار المشفق المخوف من عاقبته.

أما التعبيرات الأخرى مثل: الذين يظهرون منكم من نسائهم، ما هن أمهاتهم... ثم الحكم بتحرير رقبة إن وجدت، وإلا فالصيام،... وإلا فالإطعام.... فهي الجواب الرباني الأخير الذي بلغه الرسول للمرأة وزوجها.

ويضاف لما سبق تراكيب منفرة مرهبة مثل: ما هن أمهاتهم - إنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً - والله بما تعملون خبير - وللكافرين عذاب أليم.

وتراكيب عفة ومرغبة مثل: من قبل أن يتماسا - إن الله لعفو غفور - ذلكم توعظون به - ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله...

إنه مشهد رائع يربط الحوار الأرضي بالله الذي سمع قول المرأة وجدالها وحرصها على زوجها وولدها...

وهو يشعر برحمة الله وعفوه عن المسيء الغضوب ويفتح أمامه أبواب العودة إلى الرشد والاستقرار بعد أن أوصدته الجاهلية بالفراق الدائم، ويضع له ولأمثاله الجزاء علاجاً رادعاً يحقق المنافع للجميع...

ومزية التراكيب هنا وضوحها وتفصيلها وردعها، وخلوها من الصور الفنية ودقتها في البيان، وروعها في التأثير...

وجدليات أخرى لا يتسع المقام لها مثل: جدليات فرعون مع السحرة^(١)، والأنبياء وأقوامهم وذوئهم... ومنها جدال الرسول عليه الصلاة

(١) مثلاً: في سورة طه: ٦٠ - ٧٦.

والسلام مع قومه في قضايا التوحيد، والبعث، والقدر، والنبوة، والوحي،
والقرآن، والنفاق، والإيمان، والفضائل^(١)...

أما حوار الله مع نبيه عيسى^(٢) ومحمد عليهما السلام^(٣)، وحواره مع
الجاحدين... وحواره مع العباد يوم القيامة^(٤) فهي المثل الأعلى في بيان
كرامة الإنسان والحرص على هدايته واستخدام قدراته للوصول إلى الحق
المبين.

جمالية التشابه والتكرار:

وهي مسألة ترتبط بالإعجاز القرآني بقدر ارتباطها بالدقة في مراعاة
المعاني والاعتبارات والكيفيات المختلفة من موسيقى اللغة وإيقاعها المتهادي
على مناط الذوق من النفوس التي تجد من الحبور والارتياح والتأثر ما لا
تجده في الأسلوب المغفل منه.

وهو بلا ريب مقياس جمالي يضيف على السياق حسن التأكيد والدقة
والإيقاع، تتفق فيه الآراء والأذواق والطبائع ولا يمكن لها إنكار بهائه وحسنه.
ومن سذاجة الفهم وبساطة التأمل أن يمر الدارس على هذه التراكيب
ولا يزننها بميزان جمالي ضمن مجموعة الآيات السابقة أو من خلال السورة
التي تتضمنها، فإنها على قلتها تشكل اتجاهاً فنياً مقصوداً له سماته
وخصائصه.

(١) مثلاً: سورة الجاثية: ٢٤ - ٢٨، والإسراء: ٤١ - ٥٢، والبقرة، ولقمان...، وسورة
الأنعام: ١٤٨ - ١٥٠.

(٢) سورة المائدة: ٧٥.

(٣) معظم السور القصيرة: مثل الضحى، الشرح، الكوثر...

(٤) مثلاً في سورة يونس: ٣١ - ٣٥. وانظر: استخراج الجدل من القرآن الكريم:

عبدالرحمن بن نجم الحنبلي المعروف بابن الحنبلي ت. د. زاهر الألمعي ط/

٢٠١٤ هـ - ١٩٨٢ م

والتكرار التام قليل في القرآن لا يتجاوز^(١) سوراً ستاً، مثل: الرحمن، التكاثر. أما الكثرة الكثيرة فهي تكرار في كلمة وأحياناً (معدلة) أو في تركيب يزداد فيه أو ينقص منه حسب الحاجة الفكرية والجمالية في اللفظ والمعنى والإيقاع. فتشابه الألفاظ والتراكيب.

أقول هذا مع حسن الظن أن هذا من السذاجة والبساطة في الفهم والتأمل، ولكن بعض الدراسات المغرضة تفسر التكرار تفسيراً تبدو فيه أمارات الافتراء والطعن أكثر مما تبدو فيه أمارات الدرس والبحث.

وفي مقدمة البدهيات لا بد من أن ننبه إلى الارتباط العام بين الفاصلة القرآنية والتركيب المتكرر الذي يعتبر مثله وفي غير القرآن (لازمة) إيقاعية بالنسبة لما قبله، بغض النظر عن الأغراض المعنوية والجمالية الأخرى.

ولذا فقد عني علماؤنا المفسرون والبلاغيون بهذا الجانب وأبرزوا أسرار اللفظية والمعنوية وأدخلوه في الإعجاز البياني...

يقول الكرمانى في مقدمة كتابه: أسرار التكرار في القرآن: هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف، أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان... وأبين السبب في تكرارها، والفائدة في إعادتها... والحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى... ليجري ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها، وتمتاز بها عن أشكالها...

والمتشابهات أو المكررات قد تكون لفظة واحدة مثل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فقد كرر «إياك» (لقطع الاشتراك، ولو حذف لم يدل

(١) المصدر السابق: ٢٠ يقول الكرمانى: وسميت هذا الكتاب: البرهان في متشابه القرآن. ت: عبد القادر أحمد عطا ط/٣ دار الاعتصام ١٣٩٨ هـ - ١٩٨٧ م.

على التقديم، لأنك لو قلت: «إياك نعبد ونستعين»، لم يظهر أن التقدير: «إياك نعبد وإياك نستعين»، أم: «إياك نعبد ونستعينك»، فكرر^(١)، ومثله تكرار (كلا) في سورة التكاثر فهي للردع والزجر في كل موضع فيها.

وهذه لا تدخل ضمن الإيقاع الجرسى في النص الواحد أو المشهد المعين.

وقد يكون التكرار آية أو جزءاً منها كما سيتضح ذلك بالأمثلة، وحينئذ تبرز قيمتها الفنية الإعجازية.

ومن الملاحظ أن جمال التكرار والتشابه يتوزع في ثلاث نواحٍ:
أولاهـا: في التركيب نفسه من حيث بلاغته وعرضه الفني منفرداً.
وثانيتهـا: في النسق القرآني الذي يعد جزءاً أساسياً من النص أو السورة.

وثالثتهـا: في الإلحاح على جملة طويلة أو جزء منها في سورة واحدة أو عدد منها.

ونعرض فيما يلي نماذج متنوعة:

١ - قال الكرمانى^(٢): قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة)، كرهه ثلاث مرات، وختم الأولى بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤٤)، والثانية بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥)، والثالثة بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤٧)، قيل: لأن الأولى نزلت في حكام المسلمين، والثانية في حكام اليهود، والثالثة في حكام النصارى، وقيل:

(١) ص: ٦٣، من السابق.

(٢) ص: ٦٣، من السابق.

الكافر والفاسق والظالم كلها بمعنى واحد، وهو الكفر، عبر عنه بالفاظ مختلفة لزيادة الفائدة واجتناب سورة التكرار. . . وأقوال أخرى. ولكن إذا تأملنا في هذه التراكيب لا نجد تكراراً سوى ما يتعلق بالجزء الأول أي فعل الشرط وهو: ومن لم يحكم بما أنزل الله. أما الجزء الثاني أو جواب الشرط فلا يقع في لفظه تكرار. ففي الأول (كافرون) لجحودهم وإنكارهم، وفي الثانية (ظالمون) لعدم تطبيقهم الشريعة على الناس بالتساوي أو الحكم بغير الشريعة، وفي الثالثة (فاسقون) لخروجهم عن وجوب الحكم بما أنزل الله. . . وكل منها متناسق مع آيتها.

ونستنتج منها شيئين:

الأول: المبدأ الكلي في موقف الحكام من الشريعة قد أوجزته هذه الآيات الثلاث وذلك بربط الجزاء بفعل الشرط، والتنبيه إلى أن الشريعة مما «أنزل الله»، يجب الحكم بها والتحاكم إليها، وأن التخلف عن ذلك يؤدي إلى انحراف تشريعي وحكمي.

الثاني: أن صفات الكفر والظلم والفسق التي هي من قبائح الأعمال والأحكام تتناسق مع الجحود والحيث والخروج عن طاعة الله الواردة في مطالع الآيات من ناحية، ثم إنها من ناحية ثانية صفات متعاطفة متلاصقة بأولئك الذين لا يحكمون بما أنزل الله، وفق الأحوال النفسية والتطبيقية. ولا ريب أن فاصلتها (النون) تضيف على المعنى تأثيراً ووقفاً في النفس لا يتوفر لو خلت منها.

٢ - في صفات الله تعالى: في سورة (الأحزاب) قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٣٤)، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ (٥٢)، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (٢٥)، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ (٥١) . . .

ويعلل الكرمانى ذلك بقوله: وهذا من باب الإعراب، وإنما نصب

لدخول (كان) على الجملة، فتفردت السورة به، وحسن دخول (كان) عليها، مراعاة لفواصل الآي. والله أعلم^(١).

ويلاحظ أن الكرمانى ينبّه إلى جمال الآيات إيقاعاً باعتبار توافقها في الإعراب والفواصل وليس التكرار عاملاً رئيساً فيها. ومع وضوح هذه الملاحظة اللفظية فإن خاتمة كل منها تتلاءم في جمال معناها مع مقدمتها. فالأولى تنتمى لحرمة بيوت النبي وأمّهات المؤمنين، فالله لطيف بهن خبير بما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، والثانية في الموضوع نفسه فالله رقيب عليهن وعلى الرسول فلا يحل له من النساء من بعد، وفي الرابعة تناسب مع تخيير الرسول زوجاته ممن يؤوي منهن ومن يؤخر، فهو وحده العالم بالقلوب الحليم عند أخطاء العباد. أما الثالثة فيختلف موضوعها الذي يتحدث عن (الأحزاب) ورد الكافرين بغیظهم قدرة من الله وعزة منه.

ويصح أن نتبين أن تلاحم الجمال اللفظي والمعنوي أبرز ألواناً من الجماليات وإن اختلفت المعاني والموضوعات.

٣ - وقد يحدث التكرير في آيتين متواليتين، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ... وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ١٣١ - ١٣٢). وذلك

الإيمان بغنى الله عن عبادة العابد، في قلوب الناس، ليقبلوا على العبادة مؤمنين بأنها لخيرهم وحدهم، بل قد يكون التكرير في الآية الواحدة، وذلك لتثبيت المكرر في النفس، كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر: ١٨)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَكْفُرُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ

(١) ص: ١٧٣.

وَطَهَّرَكَ وَأَصْطَفٰكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ (آل عمران: ٤٢)^(١).

٤ - وفي سورة الشعراء، كررت الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ

فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ثمانى

مرات وكانت متمكنة من موضعها في كل مكان حلت فيه، فقد جاءت في هذه السورة أولاً، بعد أن وجه القرآن نظرهم إلى الأرض، أو ليس فيما تنبته من كل زوج بهيج ما يثير في النفوس التأمل لمعرفة خالق الأرض ومحيتها؟

واستمع إليه سبحانه يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

(الشعراء: ٧ - ٩).

ويكرر الآية في موضع آخر، تحدث فيه عن انفلاق البحر لموسى ونجاته، وغرق فرعون، وتلك آية من أكبر دلائل قدرته سبحانه، فهي جديرة

بتسجيلها والإشارة إليها. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ

الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَمِنْ كُلِّ فَرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ وَأَزَلْفَنَّا ثَمَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ

وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ (الشعراء: ٦٣ - ٦٨).

وكررت تلك الآية ست مرات أخرى (في السورة نفسها) عقب كل ما

يجدر أن يكون عظة يعتبر بها، كتصوير جند إبليس، وقد كبكبوا في جهنم،

وأخذوا يختصمون فيما بينهم، ويقررون أنهم كانوا في ضلالة وعمى،

ويتمنون لو عادوا ليصلحوا ما أفسدوه، أو ليس في ذلك من العظة ما ينهى

عن مثل هذا المصير؟.

(١) د. بدوي. السابق.

وكررها كذلك عقب قصة صالح ولوط وشعيب، لأن مصير أقوامهم حقيق بأن تتلقى منه العظات والعبر، وكأن تلك الآية المكررة تشير إلى مرحلة من القول، يحسن الوقوف عندها والتريث لتدبرها، وتأمل ما تحوي من دروس تستفاد مما مضى من حوادث التاريخ.

وختم الآية بوصفه تعالى بالعزة والرحمة فيه كل المناسبة للحديث عن مصير الكافر والمؤمن، فهو عزيز يعاقب الكافر، ورحيم بمن آمن^(١).

٥ - في إشاعة السلام على الأنبياء: كررت آيات الصفات (السلام) في خمسة أنبياء: نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس فقال: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (الصفات: ٧٩) وبعده ﴿سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٠٩)، ثم ﴿سَلِّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (١٢٠) وكذلك ﴿سَلِّمْ عَلَى إِيْلَاسِينَ﴾ (١٣٠) فيمن جعله لغة في (إلياس)... يقول الكرمانى: ولم يقل في قصة لوط ولا يونس ولا إلياس «سلام» لأنه لما قال: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لِّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣)، ﴿وَإِنَّ يُوشَعَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) وكذلك ﴿وَإِنَّ إِيْلَاسَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٣) فقد قال: سلام على كل واحد منهم، لقوله في آخر السورة: ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١)^(٢).

وأضيف إلى ما سبق، حكمة هي إشاعة (السلام) نصاً لكل نبي من الأنبياء الخمسة ثم إجماله في سائرهم، وإن في (تكرار) السلام الإلهي جمالاً معنوياً هو طمأنينة النفس وحبور القلب في كل مرة وآية، مما لا يوجد مثله في حالة عدم التكرار، وإن نوعين من السلام مجملاً ومفصلاً ينبه الذهن إلى

(١) د. بدوي. السابق: ١٥٣، ١٥٤.

(٢) السابق ص: ١٨٠.

تعقب هذا السلام في كل حالة حتى يحصل عليه في خاتمة السورة. وعندئذ تهدأ الصدور وتتلج القلوب ويشيع فيها (السلام).

٦ - في تثبيت القدرة والنعم والآلاء الإلهية: وظهر ذلك بوضوح في سورة (الرحمن) وفي قوله: ﴿فَيَايَا آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيث كرر الآية (٣١) مرة، ثمانية منها ذكرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، ويدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وحسن ذكر الآلاء عقيبها لأن في صرفها ودفعها نعماً توازي النعم المذكورة، أو لأنها حلت بالأعداء وذلك يعدّ أكبر النعماء، وبعد هذه السبعة، ثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنة اللتين دونهما، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله، ووقاه السبعة السابقة... (١).

وإذا فقد كررت هذه الآية في ثلاثة مواضع أو في قضية واحدة ثم في مصائر الناس الثلاثة:

أ - في الإيمان بالخالق القادر الحكيم بديع السموات والأرض الباقي بعد فناء عباده ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

ب - في التحذير من النار وعقوبتها ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

ج - في الترغيب بثواب الله ودخول الجنة وما أعد الله فيها من النعيم المقيم ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾، ويتبعهما جنتان أخريان دون الجنة السابقتين. وانتهت السورة بقوله: ﴿نُبَشِّرُكَ يَا ذَا الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

(١) الكرمانى: ١٩٨. وانظر الظلال في تفسيرها.

وإن آية واحدة يصلح تكرارها في موضوعات متعددة ومتعارضة أحياناً تحمل سؤالاً للتسجيل والإقرار والإشهاد من جانب، والإنكار في التكذيب من جانب آخر فلا أحد يملك أن يكذب بآلاء الله في هذه المقامات جميعها. إنها تخاطب الإنس والجان بهذا التكرار المؤثر عقب نعم الله وعذابه وجناته، لم تدرك أي سورة أخرى مثلها، فهي (ملازمة) لكل نعمة ونقمة ومصير تزينها وتجميلها وتتفاعل في الضمائر والقلوب.

ولقد روي أن رسول الله ﷺ كان يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١).

وفي حديث جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: ما لي أراكم سكوتاً، لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذبك فلك الحمد^(٢).

ثم أليست هي (عروس القرآن) كما ورد في حديث علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن الرحمن»^(٣).

٧ - وتجد الآية التي كررت في سورة القمر، وهي قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (القمر: ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠) منبهة في كل موضع وردت فيه، إلى أن ما سيأتي بعدئذ مما عني القرآن

(١) ساقه الشوكاني في أول تفسير الرحمن.

(٢) المصدر السابق وقال: قال الترمذي بعد إخرجه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد، وانظره في الحاكم وتخريج الذهبي له. وكذلك في الزوائد للهيتمي عند تفسير (الرحمن).

(٣) الشوكاني السابق وقال: أخرجه البيهقي في الشعب.

بالحديث عنه، تذكرة وعظة، وهو لذلك جدير بالتأمل الهادئ والتدبر والإذكار.

وكررت في سورة المرسلات تلك الجملة المنذرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، وإذا نظرنا إلى هذه السورة، وجدناها تتحدث عن وقوع اليوم الآخر، وتصفه، فلا جرم كرر هذا الإنذار عقب كل وصف له، أو فعل يقع فيه، أو عمل من الله يدل على قدرة، يحيي بها الناس بعد موتهم، وفي هذا التكرير ما يوحى بالرهبة، ويملأ القلب رعباً من التكذيب بهذا اليوم الواقع بلا ريب^(١).

٨ - في سورة (الكافرون): يقول الكرمانى: هذا التكرار اختصار، وهو إعجاز لأن الله نفى عن نبيه عبادة الأصنام في الماضي والحال والاستقبال، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضاً، فاقضى القياس تكرار هذه اللفظة ست مرات، فذكر لفظ الحال، لأن الحال هو الزمان الموجود، واسم الفاعل واقع موقع الحال، وهو صالح للأزمنة الثلاثة، واقتصر من الماضي على المسند إليهم فقال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾، ولأن اسم الفاعل بمعنى الماضي فعمل على مذهب الكوفيين، واقتصر المستقبل على لفظ المسند إليه فقال: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ﴾ وكان أسماء الفاعلين بمعنى المستقبل^(٢).

فالحكمة في التكرار المختصر المعجز أو المشابه في الاشتقاق اللفظي نفيان: نفي الشرك عن الرسول ونفي التوحيد عن الكافرين في جميع الأحوال والأوقات، واستعان (الكرمانى) بدلالة الأزمنة في الأفعال وأسماء الفاعلين على ذلك، وعلى هذا فهو تكرار لفظي ذو دلالة معنوية متكاملة.

(١) التكرار من سورة القمر والمرسلات. من: بلاغة القرآن: ١٥٥ د. بدوي مع تغيير في الترتيب.

(٢) المصدر السابق ص: ٢٢٦.

وبينما تركز دراسة في (الظلال) على حسم الشبهة في (المفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق - وقد - نزلت هذه السورة بهذا الجزم، وبهذا التوكيد، وبهذا التكرار لتنهى كل قول، وتقطع كل مساومة، وتفرق نهائياً بين التوحيد والشرك...) فإن ابن كثير يطلق على السورة سورة (البراءة) من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، وينقل أقوال أربعة من العلماء، وآخرهم ابن تيمية الذي يفرق في المعنى بين الآيات المتكررة، ويقول: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية، لأن النفي بالجملة الإسمية أكد... ومعناه: نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً...^(١).

وإذا كان ثمة ما أضيفه فهو أن كل آية منها تصح أن تكون حكمة منفردة وموقفاً قائماً بذاته سواء كان ذلك في نفي الفعل أو نفي الإمكان، وإن في تكرار الحكمة أو الموقف المعلن استغراقاً في التوحيد الخالص مهما كانت المساومات المرغوبة والمرهبة. وكأنها (ترتيل) علوي يوجه إلى الرسول والمسلمين يحلوفيه تكرار اللفظ لتثبيت معناه. وإذا كان الرسول ﷺ يكثر من قراءتها ويوجه إلى ذلك كما جاء في الروايات الصحيحة فإن (التنغيم) القرآني المرتل سيبلغ مداه في النفس والسلوك.

(ويوحى التكرير - أيضاً - باليأس، إلى قلوب من كفر من أن ينصرف الرسول عن دينه، إلى ما كان يعبد هؤلاء الكفرة، فليتدبروا أمرهم بينهم ملياً، ليروا سر هذا الإصرار من محمد فعساهم يدركون أن هذا السر هو أن الرسول

(١) انظر الأحاديث في فضلها في تفسير ابن كثير. وتفصيل الكلام عليها في الفتاوى ١٦/٥٥١ وما بعد.

على حق فيما يدعو إليه، فلم ينصرف عنه إلى أديان لا سند لها من الصواب والحق^(١).

٩ - في سورة (الناس): يقول الكرمانى: كرر (الناس) خمس مرات... قيل: كرر تبجيلاً لهم على ما سبق، وقيل: كرر لانفصال كل آية من الأخرى لعدم العطف، وقيل: المراد بالأول: الأطفال، ومعنى الربوبية يدل عليه، وبالثاني: الشبان، ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدل عليه، وبالثالث الشيوخ، ولفظ: إله، المنبىء عن العبادة يدل عليه، والرابع: الصالحون والأبرار، والشيطان يولع بإغوائهم، وبالخامس: المفسدون والأشرار، وعطفه على المتعوز منهم يدل على ذلك.

هذه الأقوال أو الاستنتاجات لا يضيق القرآن بها جميعاً، حين يقتصر التكرار على لفظة (الناس) وحدها، والمراد منها بالنظر إلى سياقها.

يقول ابن كثير: هذه ثلاثة صفات: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإله... .

ويضاف إليه أن التكرار وقع أيضاً في حرف (س) عشر مرات سواء كانت (لفظته) ضمن الآية أو في فاصلتها، وهو حرف (همس) كما عرف في التجويد، قادر على إشاعة جو الهمس والوسوسة والخنس في السورة جميعاً.

فالخناس صفة الوسواس تدل على تخفيه واختبائه ودبيبه في صدور الجنة والناس يستعاذ منه بـ«رب الناس. ملك الناس. إله الناس...» وهي استعاذة بالأقوى والأقدر والأأنفع لأن المستعاذ به وهو الرب الإله، الملك، قادر على الإعانة والحماية مهما كان الإنسان واهناً وضعيفاً، فإنه يقدر بقدرة الله، ويقوي بقوته، ويحتمي بحماه، وحينئذ ينقلب وهن الإنسان قوة وضعفه شدة وعزماً. ومع هذا المعنى ترسم إيقاعات (الناس) في جو السورة

(١) د. بدوي. السابق.

لوناً جمالياً فريداً لا نعهده في سورة أخرى بمثل هذا التحسس الوجداني العقدي الفكري .

وسواء كانت السورة مكية النزول أو مدنية فإن السمة الجمالية التي تكسوها تدل على (ظاهرة) الجمال الفني في القرآن جميعه ما كان منه مكيّاً أو مدنيّاً، وتدل على أن لكل تركيب أو سورة لونه المميز والمتناسق مع موضوعه وجوه وإيقاعه .

في صور التركيب وجمالياته :

إن الاتجاه أو الأسلوب التصويري في القرآن سمة بارزة في التعبير عن موضوعات وأغراض شتى ، والإعجاز التصويري أقوى وأوضح وجه من وجوه إعجاز القرآن البياني .

فالصورة القرآنية المنتزعة من الطبيعة والإنسان خاصة ، هي الأغلب في المنزع الفني الذي يتشبع منه التركيب أو الجملة القرآنية ، فهي تعمل على رسم لوحات متدفقة بالحياة ، ومشاهد تتسق فيها الشخصيات والأحداث في أداء وبيان متميزين .

ويبدو أن جمالية هذا النوع من التركيب يتمثل في ناحيتين : الدقة الفنية ، ومدى القدرة على التأثير والفعالية .

١ - الدقة الفنية التصويرية :

فالتعبير (الصوري) الرائع الذي يختار له القرآن المصدر والمادة والألفاظ ونوعية الصورة يكسبه توضيحاً وتفصيلاً ودقة محكمة في أبعادها وجوانبها .

وما يزال علم البيان خاصة أوفى أنواع البلاغة في جلاء المعرفة البيانية الصورية التي كانت أداة القرآن المفضلة ووسيلته التي يحرص على جلائها ودقتها .

وما يزال علم الجمال أقدر على تبيان القيمة الجمالية في الصور الفنية، فكانت على زخمها وتنوعها وعمقها، وشمولها واختيار مناحيها، آية في بيان الإعجاز القرآني، والكشف عن جمالياته، وإظهار ألوان من تراكيبه وجملة الفنية.

وبادئ ذي بدء (يجب أن نتوسع في معنى التصوير، حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن. فهو تصوير باللون وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل.

وكثيراً ما يشترك الوصف، والحوار وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وصوتيات السياق في إبراز صورة من الصور، تملأها العين والأذن والحس والخيال، والفكر والوجدان.

وهو تصوير يوحي بالمشاعر والوجدانات^(١).

ومن ملامح التصوير القرآني:

● العمق في رسم المعنويات بالصور المحسنة: إن تصوير الأمور النفسية والعقدية والخلقية ومعاني الإنكار والاستحالة... بالصور المادية تلقي عليها إشعاعات تجلو غامضها وتوضح معناها وتقربها إلى الأفهام...

فالقرآن (يمثل^(٢)) وهن ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله وهنأ لن يفيدهم فائدة ما، فهم يعبدون ويبدلون جهداً يظنونهم مثمراً، وهو لا يجدي، فوجد في العنكبوت ذلك الحيوان الذي يتعب نفسه في البناء، ويبدل جهده في التنظيم، وهو لا يبني سوى أوهن البيوت وأضعفها، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوي، فزادته وضوحاً وتأثيراً قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ

(١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن: ٣٧.

(٢) د. أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن: ١٩٣، والأمثلة الآتية مقتبسة من كتابه.

يَبْتَئُونَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ لَبِئْتُ الْعَنَكَبُوتَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
(العنكبوت: ٤١).

وها هو ذا يريد أن يحدثنا عن أعمال الكفرة، وأنها لا غناء فيها، ولا ثمرة ترجى منها، فهي كعدمها فوجد في الرماد الدقيق، الذي لا تبقي عليه الريح العاصفة، صورة تبين ذلك المعنى أتم بيان وأوفاه، فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (إبراهيم: ١٨).

● الصورة ليست عنصراً إضافياً في الجملة ولا ثانوياً فيها، وليست تزييناً أدبياً أو زخرفاً من القول وإنما هي أساس لفظي ومعنوي لا يستقيم المعنى غيرها، وإذا زالت اختل المعنى أو انهار، فالتشبيه (يأتي ضرورة في الجملة يتطلبه المعنى، ليصبح واضحاً قوياً، وتأمل قوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ﴾ (البقرة: ١٨)، تجد فكرة عدم سماعهم الحق وأنهم لا ينطقون به، ولا ينظرون إلى الأدلة التي تهدي إليه، إنما نقلها إليك التشبيه في صورة قوية مؤثرة. كما تدرك شدة الفزع والرغبة التي ألمت بهؤلاء الذين دعوا إلى الجهاد، فلم يدفعهم إيمانهم إليه في رضا وتسليم، بل ملأ الخوف نفوسهم من أن يكون الموت مصيرهم، تدرك ذلك من قوله سبحانه: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (الأنفال: ٦). إنه سوق إلى الموت ينظرون إلى وسائله بعد أن ماتت قلوبهم وعقولهم عن تقبل الحق الذي يجادلون فيه.

● قيود وصفات في الصورة: تزيدها وضوحاً إذ تحدد أبعادها وتدقق صفاتها، خذ لذلك مثلاً:

قوله تعالى: ﴿فَمَالَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ (المدثر: ٤٩ - ٥١) فربما بدا أنه يكفي في تصوير

إعراضهم وصفهم بأنهم كالحمير، ولكنه في دقته لا يكفي بذلك، فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة، وإسراعهم في إبعاد أنفسهم عنها، إسراعاً يمشون فيه على غير هدى، فوصف الحمير بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الهرب، وتحثها عليه، يزيد في هربها وفرارها أسد هصور يجري خلفها، فهي تتفرق في كل مكان، وتجري غير مهتدية في جريها، أولاً ترى في صورة هذه الحمير، وهي تجد في هربها، لا تلوي على شيء، تبغي الفرار من أسد يجري وراءها، ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم، معرضين عن التذكرة، فارين أمام الدعوة، لا يلوون على شيء، سائرين على غير هدى، ثم ألا تبعث فيك هذه الصورة الهزء بهم والسخرية؟.

ومن ذلك وصفه الخشب بأنها مسندة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ (المنافقون: ٤) فهي ليست خشباً قائمة في أشجارها لما قد يكون لها من جمال في ذلك الوضع، وليست موضوعة في جدار، لأنها حينئذ تؤدي عملاً، وتشعر بمدى فائدتها، وليست متخذةً منها أبواب ونوافذ، لما فيها من الحسن والزخرف والجمال، ولكنها خشب مسندة قد خلت من الجمال، وتوحي بالغفلة والاستسلام والبلادة.

● انتقاء اللفظة الموحية المعبرة: فمن خصائص التشبيه القرآني المقدره الفائقة في اختيار ألفاظه الدقيقة المصورة الموحية، تجد ذلك في كل تشبيه قرآني، وحسبي أن أشير هنا إلى بعض أمثلة لهذا الاختيار.

نجد القرآن قد شبهً بالجبال في موضعين، فقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود: ٤٢)، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (الشورى: ٣٢) ولكنك تراه قد أثر كلمة الجبال عند الموج، لما أنها توحي بالضخامة والجلال معاً.

أما عند وصف السفن فقد أثر كلمة الأعلام، جمع علم بمعنى جبل،

وسر إثارةها هو أن الكلمة المشتركة بين عدة معانٍ تتداعى هذه المعاني عند ذكر هذه الكلمة، ولما كان من معاني العلم الراية التي تستخدم للزينة والتجميل، كان ذكر الأعلام محضراً إلى النفس هذا المعنى، إلى جانب إحضارها صورة الجبال، وكان إثارة هذا الخاطر ملحوظاً عند ذكر السفن الجارية فوق البحر تزين سطحه، فكأنما أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معاً، وفي كلمة الأعلام وفاء بتأدية هذا المعنى أدق وفاء.

وشبه القرآن الموج في موضعين، فقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود: ٤٢)، وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (لقمان: ٣٢). وسر هذا التنويع أن الهدف في الآية الأولى يرمي إلى تصوير الموج عالياً ضخماً، تستطيع كلمة الجبال أن توحى به إلى النفس، أما الآية الثانية فتصف قوماً يذكرون الله عند الشدة، وينسونه لدى الرخاء، ويصف موقفاً من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج، ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهاباً وأقوى تخويفاً إذا هو ارتفع حتى ظلل الرءوس، هنالك يملأ الخوف القلوب، وتذهل الرهبة النفوس، وتبلغ القلوب الحناجر، وفي تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين، فلما كان المقام مقام رهبة وخوف، كان وصف الموج بأنه كالظلل أدق في تصوير هذا المقام وأصدق.

٢ - القدرة على التأثير والفعالية:

وهي ما تهدف إليه الصورة القرآنية في تأثيرها على الوجدان والعواطف باعتبار أنها نابعة من جمال الصورة ودقتها وإحياءاتها وملاءمتها لمقتضى الحال، وكذلك من بيانها الرائع الذي لا تملك النفس تجاهه سوى الإعجاب والانبهار وتتم أثرها الجمالي فتتغلغل في مسارب الفكر والوجدان وتضفي عليهما لذة فنية رائعة.

فليس الحس وحده هو الذي يجمع بين المشبه والمشبه به في القرآن، ولكنه الحس والنفس معاً، بل إن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى .

والقرآن حين يشبه محسوساً بمحسوس يرمي أحياناً إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس، تجد ذلك في قوله سبحانه يصف سفينة نوح: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود: ٤٢) ألا ترى الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة، وتصور في الوقت نفسه، ما كان يحس به ركاب هذه السفينة وهم يشاهدون هذه الأمواج، من رهبة وجلال معاً، كما يحس بهما من يقف أمام شامخ الجبال. وقوله تعالى يصف الجبال يوم القيامة: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (القارعة: ٥) فالعهن المنفوش يصور أمامك منظر هذه الجبال، وقد صارت هشة لا تماسك أجزاؤها، ويحمل إلى نفسك معنى خفتها ولينها. وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ (يس: ٣٩) فهذا القمر بهجة السماء وملك الليل، لا يزال يتنقل في منازل، حتى يصبح بعد هذه الاستدارة المبهجة، وهذا الضوء الساطع الغامر، يبدد ظلمة الليل، ويحيل وحشته أنساً. يصبح بعد هذا كله دقيقاً نحيلاً محدودباً لا تكاد العين تنتبه إليه، وكأنما هو في السماء كوكب تائه، لا أهمية له، ولا عناية بأمره، أولاً ترى في كلمة العرجون، ووصفها بالقديم، ما يصور لك هيئة الهلال في آخر الشهر، ويحمل إلى نفسك ضالة أمره معاً. وقوله تعالى يصف نيران يوم القيامة: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۖ كَأَنَّهُمْ جُمُلْتُ صُفْرٌ﴾ (المرسلات: ٣٣، ٣٤)، فالقصر وهو الشجر الضخم، والجمالة الصفر توحى إلى النفس بالضخامة والرهبة معاً، وصور لنفسك شرراً في مثل هذا الحجم من الضخامة يطير.

ويرمي أحياناً إلى اشتراك الطرفين في صفة محسوسة، ولكن للنفس كذلك نصيبها في اختيار المشبه به الذي له تلك الصفة، وحسبي أن أورد هنا آيات ثلاثة تبين فيها هذا الذي أشرنا إليه. فالقرآن قد شبه نساء الجنة،

فقال: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الظَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَإِيَّاءَ الْآءِ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن: ٥٦ - ٥٨) وقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الظَّرْفِ عَيْنٌ ﴿٥٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ (الصفات: ٤٨، ٤٩) وقال: ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ ﴿٥٩﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ (الواقعة: ٢٢، ٢٣)، فليس في الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون فحسب، وإنما هو لون صاف حي فيه نقاء وهدوء، وهي أحجار كريمة تصان، ويحرص عليها، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط، أما الصلة التي تربطهن بالبيض المكنون، فضلاً عن نقاء اللون، فهي هذا الرفق والحذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما، أولاً ترى في هذا الكنّ أيضاً صلة تجمع بينهما، وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع، ولكن للنفس نصيب أي نصيب.

فالصورة القرآنية نموذج حي فعال للتأثير على النفس وعموماً فإن قيمتها ليست في كونها مطابقة وجميلة وحسب وإنما في كونها مؤثرة عميقة الأثر، وقد قالوا:

ما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس، وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطرباً مؤثراً، وكانت النفوس تواقه إلى سماعه واستيعابه، لأنه يزيد الحياة حياة، كما تزيد المرأة النور نوراً...

وصفوة القول إن المحك الذي لا يخطيء في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره، فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً، ووجداناً تعود إليه المحسسات فذلك شعر الطبع الحي والحقيقة الجوهرية^(١)...

(١) القرآن والصورة البيانية: ١١، د. عبدالرحمن حسين. وانظر: النقد الأدبي

إن القرآن الكريم (يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية، والفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس)^(١).

وهكذا كان أثر القرآن بليغاً في كثير من الجاهليين حين تذوقوا بيانه وتأملوا في آياته فأسلم من أسلم، وظل على عناده من أبي واستكبر. . . . وما يزال هذا الأثر نابضاً بالحياة قوي الفعالية ﴿لَمِنْ كَانَ لِمُؤَلِّبٍ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. (ق: ٣٧).

نموذج من التذوق الجمالي للجرجاني:

إن دراسة التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من فنون البلاغة دفع بكثير من أئمة البيان إلى تجاوز الأسلوب الدراسي ليتذوقوا صور الجمل القرآنية، ويدونوا انطباعاتهم الانبهارية حولها ويكشفوا عن أسرارها الجمالية.

وفي مقدمة هؤلاء الجرجاني في مناقشة الإعجاز القرآني الذي هو كامن في أسلوب القرآن ونظمه وليس في مفرداته وألفاظه. . . .

يقول^(٢): وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّارِضُ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤٤) فتجلى لك الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية؛ والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن

= الحديث: ٤٥٢، د. غنيمي هلال، والأسس الجمالية في النقد العربي: ٢١٢، د.

عز الدين إسماعيل، وفن الشعر: ١٠٥، ١١٠، د. مندور.

(١) سيد قطب في: التصوير الفني: ١٤٣.

(٢) دلائل الإعجاز: ٢٦، ٢٧.

يستقرها إلى آخرها، وأن الفضل نتائج ما بينهما، وحصل من مجموعها.

إن شككت - أي في أن لارتباط الكلمات في الآية الكريمة من فضل في هذه المزايا التي تجدها فيها - فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟.

قل: «ابلي» أو اعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك؟ ومعلوم أن مبدأ العظمة - في الآية - أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ «يا» دون أي نحو «يا أيتها الأرض»، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال «ابلي الماء»، ثم أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها - نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم قيل: «وغيض الماء» فجعل الفعل على صيغة «فعل» الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله: «وقضى الأمر» ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو: «استوت على الجودي» ثم إضممار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة، والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة «قيل» في الخاتمة بـ «قيل» في الفاتحة.

ثم يقول: أفترى في شيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيئة تحيط بالنفس من أقطارها، تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين الألفاظ من الاتساق العجيب؟.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعَلَّ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم: ٤) لم يزدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجبا سواها، وهكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجميلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة؛ ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما

يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده، مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول، إنما كان لأجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة. وذلك أننا نعلم أن «اشتعل» للشيب في المعنى وإن كان هو للرأس في اللفظ...

يبين أن الشرف كان لأنه سلك هذا المسلك، وتوخى به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ وتسندته إلى الشيب صريحاً، فتقول: «اشتعل شيب الرأس» و«اشتعل الشيب في الرأس» ثم تنظر، هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فإن قلت: فما السبب في أن كان في «اشتعل» إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل، ولم بان بالمزية من هذا الوجه تلك البيونة؟

قلت: فإن السبب أن تفيد - مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو الأصل - الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استقر به وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لم يبق منه إلا ما لا يكون إذا قيل: اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس، ووزان ذلك أن تقول: اشتعل البيت ناراً، فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه وأخذت في طرفه ووسطه، وتقول: اشتعلت النار في البيت، فلا يفيد ذلك، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه، وإصابتها جانباً منه... (١).

تراكيب علمية.. أدبية:

فمن المعهود أن للعلم أسلوباً وللأدب أسلوباً آخر، ولكل منهما خصائصه البيانية ومصطلحاته الفنية ورجاله الدارسين.

(١) الدلائل السابق: ٧٤ - ٧٦.

وقلما يجتمعان في أسلوب واحد أو تغطي خصائص العلمية على الأدبية مع وضوحها، وبالعكس، وإذا وجدا عند شخص فإن هذا يعد من مناقبه البيانية والعلمية معاً.

وأحرص ما يحرص عليه العلم أن يقدم بالبيان الواضح والعبارة المفهومة والتركيب المشرق، فهذا يخفف من جدية العلم، ويلون آفاقه بألوان جذابة تشد إليه الخاصة والعامة.

وأحرص ما يحرص عليه الأدب أن يتجنب التهويمات الحالمة والمبالغات فوق الخيال، حتى لا يصبح مضاداً للعلم ولخصائصه المعرفية والأسلوبية، ومن ثم يلتزم بالمعارف الهامة التي تغنيه وتعليه.

والمشكلة الأسلوبية القائمة بين الأدب والعلم ينبغي أن تخف حذتها وتتضاءل الفروق فيما بينهما حتى نصل إلى إبراز المعاني و(الأغراض) الأدبية بأسلوب علمي أو شبه علمي، وأن نحقق إيضاح العلوم بالأسلوب الأدبي الشائق.

والقرآن بيان رائع لجميع القضايا الفكرية والعلمية والتشريعية والخلقية التي عرض لها، فقد أكسبته هذه غنى في المضمون كما أكسبها رونقاً وبهاءً في الأسلوب والتعبير، تستوي في ذلك الحقائق العلمية النظرية والتطبيقية.

● **فالحقائق الكونية القرآنية:** عرضت في أروع بيان وأسلوب، وكان لها تأثير كبير في دفع علماء المسلمين إلى التعرف على أسرارها مثل ما بلغ تأثيرها العظيم في (شعبية) المعارف العلمية بين عامة المسلمين، وتعرفوا من ورائها إلى الحكمة والقدرة والعلم والوحدانية في المعطيات القرآنية المتنوعة.

والإعجاز العلمي القرآني تتنامى معارفه وتتسع آفاقه يوماً بعد يوم، وقد قدمت دعوات، وكتبت مؤلفات كثيرة في ذلك لا يخلو بعضها من تأويل بعيد

عن اللفظة العربية وضعاً واستعمالاً مثل بعدها عن واقع العرب وبيئتهم ومعارفهم

ولكن القرآن يبقى دائماً بخلود مضامينه ومصادقيه حقائقه لا يقتصر على الجيل الأول والبيئة المحددة وقد تأثر بروحه العلمية المسلمون فكانوا رواد العالم في الحضارة والتقدم العلمي .

فالآيات التي تتحدث عن أدق التكوين الإنساني وأهمها، وضرورة الماء لكل حي، وسنة الزوجية، وأسرار الخلية وحفظ الحياة والأحياء من الغزو الكوني، وحركة الأفلاك والنجوم والشموس، وخواص الطبيعة من الرياح والأمطار والبحار، والإعجاز في البنان، وغير ذلك، من الحقائق التي تقيم (مكونات) العلمية القرآنية في أجمل الأساليب والبيان من ناحية وتعلن إبطال (الصدفة) في تدبير الكون ونظامه من ناحية أخرى .

ومزيتها العظمى هي ارتباطها (بقيم الإيمان) ضمناً وصراحةً كما سيأتي الحديث عليه ونسوق هنا الأمثلة التالية :

١ - في تكوين السحب والرياح والأمطار :

إن ماء المحيطات والبحار والأنهار والبحيرات يتبخر بفعل الطاقة الشمسية ويصبح غازاً مثل الهواء وتحمل الرياح هذا الغاز الساخن وتصعد به إلى الطبقات الجوية العليا وحين يلتقي بأجسام باردة من جبال مرتفعة ورياح باردة يعود إلى ميوعته ويهطل بشكل قطرات مختلفة الحجم والمقدار بعد أن يمر بمراحل التكوين الخاص وربما حملت الرياح السحب الممطرة والتقت بسحاب أو سحب أخرى فتراكمت فيما بينها ونشأ البرق والرعد فإذا اشتدت البرودة الجوية تضخمت القطرات في شكل ثلوج وبرد

يقول الله تعالى في هذه الظاهرة العلمية الطبيعية المتكررة ﴿الَّذِينَ

أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاقِرُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ (النور: ٤٣). فالمطر سر من أسرار الله في الطبيعة ينزل بالقوانين الإلهية التي أودعها في الجو والسحب، فهناك سحب لا يسقط منها مطر ولو نشأ الرعد فيها، وهناك سحب صغيرة تنشأ عنها أمطار غزيرة بدون برق ورعد... .

يقول هنري ديسانس الأستاذ بكلية العلوم بفرنسا في كتابه: «التحكم في المناخ»: وبدون سحب فإن الحياة على الأرض ليست ممكنة أبداً، فإن السحب هي التي توزع الماء العذب على القارات، ويغذي المطر والثلج والبرد كلاً من العيون والوديان والأنهار والمياه الجوفية، ويتواصل نزول المطر من السحاب على الأرض منذ مليارات السنين، ولكن علم الإنسان بأجمعه غير قادر على أن يوضح سر هذا المطر^(١).

٢ - الشمس والمعجزة القرآنية:

لم يتكرر نجم في القرآن مثل ما تكرر نجما الشمس والقمر، وكانت الشمس أكثر منه وروداً، فقد ذكرت في القرآن (٣٢) مرة بينما ورد القمر (٢٦) مرة مقترناً مع آية الشمس العظيمة.

ويضاف لما سبق شيثان: الأول: تعيين سورة خاصة باسم الشمس، والثاني: قسم الله بهما مجتمعين ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا...﴾ (الشمس: ١ - ٢)، والقمر منفرداً ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (الانشقاق: ١٨، ١٩).

(١) الإسلام والنظر في آيات الله الكونية: د. محمد عبدالله الشرقاوي: ١٢٣. وانظر مصدره في الحاشية.

ولكننا سنخصص طرفاً من الكلام عن الشمس ضمن ورودها في القرآن في جماليات علمية وأدبية. مع شيء من الموازنة وموقعها في علم الفلك... فماذا يقول علم الفلك؟ وما الفرق بين أسلوب المعلومات التي يقدمها وأسلوب المعلومات القرآنية؟.

فلغة العلم تقول: الشمس كتلة من الغازات الملتهبة في مركز المجموعة الشمسية، وتعتبر نجماً متوسط الحجم، ولكن قرصها يبدو كبيراً لقربها من الأرض، وقوة جاذبيتها تحفظ الكواكب والمذنبات وغيرها في مسارات محددة، وضوؤها مصدر الحياة والطاقة المختزنة في الأطعمة والفحم وهي تبعد في المتوسط حوالي ٤٣,٠٠٠,٠٠٠ ميل عن الأرض، ويبلغ قطرها ٨٦٥,٤٠٠ ميل تقريباً، وحجمها ١,٣٠٠,٠٠٠ ضعف حجم الأرض وكتلتها ٢٣٢,٠٠٠ كتلة الأرض، أو ٧٠٠ مرة ضعف كتلة باقي أفراد المجموعة الشمسية، والجاذبية على سطحها ٢٨ ضعف جاذبية الأرض وكثافتها ١/٤ كثافة الأرض... وقد أثبتت دراسة خطوط الطيف وجود ثلثي العناصر الأرضية فيها، أما مصدر الطاقة الشمسية فلم يصل العلماء إلى حقيقة واحدة منها...

والشمس نجم مضيء بذاته لأنه كرة ضخمة جداً من الغازات المتوهجة التي من أهم مكوناتها:

- الهيدروجين ٩٠٪.
- الهيليوم ٨٪.
- غازات أخرى.

ووجد أن أشعة الشمس تنحل إلى سبعة ألوان وهي ألوان الطيف أو ألوان قوس قزح، وما يصل إلينا من أشعتها هو ١/٢٠٠٠ مليون من جملة ما تشعه، وهي نجم مترن يعطي كمية ثابتة من الطاقة... وتدور حول محورها من الشرق إلى الغرب، ولكن بسبب طبيعتها الغازية تختلف مدة الدوران من

٢٥ يوماً عند خط الإستواء إلى ٣٥ يوماً عند القطبين، والسطح المضيء منها يسمى المنطقة الضوئية، أما عند الكسوف الكلي فتظهر الطبقة الصبغية يحيط بها الإكليل الشمسي... (١).

أما لغة القرآن فهي البيان العلوي الذي يجمع بين الحقائق العلمية (المناسبة) والجلال الإلهي في الخلق والتقدير والتسخير....

ويربط الشمس والنجوم جميعها بالقدرة الربانية وإحكام الصنع والحكمة الإلهية والخلق العظيم....

مثلاً: لناخذ هذه الآيات التي تفهم أن الله جعل الشمس نجماً مضيئاً بذاته أي سراجاً وهاجاً ﴿وَبَلَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (١٢) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا...﴾ (النبا: ١٢، ١٣)، فأعظم وأبرز صفة لها أنها كتلة وهاجة مضيئة مسؤولة عن التمثل الضوئي للنبات وقيام الحياة على الأرض، ومصدر غني للطاقة بذاتها، وبأنواع الطاقة التي نستخرجها من الفحم والنفط... فهي مصدر الضوء والطاقة وهي حقيقة علمية كونية كبرى. فالقرآن لم يصرح بها ولكنه يربطها بالخالق الذي ينبغي السجود له وحده ولا يمكن أن ترقى بحال إلى أن يسجد لها وتتخذ معبوداً بعد أن كانت من المخلوقين العابدين ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت: ٣٧).

ومع ذلك فالقرآن قدر أهمية الشمس ومنزلتها كجرم هائل ومخلوق نافع فسخره للإنسان وأقسم به في سورة سماها باسمها ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (١) ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا...﴾ (الشمس: ١، ٢) قسم عظيم كبير والمقسم أعظم

(١) انظر: الموسوعة العربية الميسرة.

وأكبر... أما المقسم عليه فهو الغاية العظمى من خلقها وتسخيرها، إنه قسم على أن الفائز من زكى نفسه وطهرها، وأعلاها بالتقوى والأعمال الصالحة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا...﴾ (الشمس: ٩).

أي جمال هذا أن يربط القرآن بين حقائق العلم الكوني وانبهاره ويعرض ذلك كله بالبيان القرآني المعجز في جلالية اللفظية والتركيب. ومثلها وظيفة أو سمة قرآنية أخرى للشمس هي ثبات طاقتها واستقرار إشعاعها كما تقدم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ (إبراهيم: ٣٣) وهذا التركيب الموجز يمكن أن يغني بحثاً فلكياً عامراً بالأرقام والمعادلات الرياضية، إلى جانب فكرة التسخير للمصالح البشرية للذين يتفعلون بآثارها وفق السنن الكونية النظامية.

ومن هذه السنن جريانها ودورانها في نظام ثابت وجاذبية مقدرة لا تتخلف، وإن تخلفت حدثت زلازل وبراكين وهزات كونية هائلة لا يعلم عاقبتها إلا الله ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠). وإذا فصلنا هذه الآية إلى تراكيبها فإن كل واحد منها يشكل قانوناً كونياً يدل على العظمة الربانية والجلال الإلهي.

ومثلها وظيفة الحساب الشمسي، فقد نوّه الله به بقوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ آتِلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ (الأنعام: ٩٦) وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن: ٥) فالشمس بحجمها وحركتها وبعدها عن الأرض وعن مجموعتها محسوبة المقادير كامل الدقة بالنسبة إلى الأجرام السماوية وآثارها في الأرض، فلو أنها كانت أقرب إلينا لاحتقرت الأرض أو انصهرت أو استحالت بخاراً، ولو كانت أبعد منا لتجمدت أو لمات كل ما على الأرض من حياة ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

ثم إنها محل حساب تتعلق به مصالح العباد فقد عرفت منها الأشهر الشمسية أو ما يسمى بالتقويم الشمسي الذي يقدر السنة الشمسية بـ ٣٦٥ يوماً و ٥ ساعات و ٤٨ دقيقة و ٤٦ ثانية ثم اصطلح ما يسمى بالسنة الكبيسة ومقدارها ٣٦٦ يوماً كل ثلاث سنوات

وآية الظلال والخلق

ومثلها آيات الخلق المبدع والدلائل على وجود الخالق

إن المسائل العلمية عموماً تجلت في البيان القرآني، بروعة القدرة وحكمة الصنع وأمانة الخلق، وآية النظام ودقة العلم، وإذا تابع الإنسان تأملاته الفكرية ومعارفه العلمية فإنه يزداد إيماناً ويقيناً بالأسرار الكونية والدقائق الخلقية.

والقرآن عرض ذلك كله في إيجاز جامع وبيان فذّ منبهاً للعقل والوجدان إلى آيات الجلال والجمال.

● تشريع القرآن :

وللقرآن بيانه الخاص في تناول المسائل التشريعية المتنوعة : كالأحوال الشخصية والمعاملات والجهاد، والتشريع الجنائي فلا يماثل الدساتير أو القوانين في لغتها المعقدة الجافة ولا في تبويبها وتصنيفها المعتاد، ولا في تقنينها المسائل والقضايا المختلفة، وسأقتصر على نوعين منه :

أولاً: تشريع المعاملات:

وهو ركن أساسي في بيان الحلال والحرام في التعامل المختلف بين الناس وفي مقدمته الجانب المالي الاقتصادي الذي أخذ أهمية خاصة فيها، ودلّ بذلك على أن للإسلام منهجه المالي والاقتصادي المتميز من ضمن المناهج الذي نظم بها الحياة الدنيا والآخرة . . . وسأكتفي بذكر ثلاث مسائل في المعاملات مترابطة فيما بينها قرآناً وسنة وفقهاً هي: البيع، والربا،

والدين. وذلك من خلال الآيات التشريعية التي تربط هذه المسائل بالمؤثرات النفسية والخلقية، والزاجرات الواعظة والمرغبات الحائنة في بيان قرآني لم يعرف له مثل في التصنيف الفقهي أو القانوني العام.

١ - البيع: وعرفه ابن قدامة بأنه مبادلة المال بمال تملكاً وتملكاً، وأجمع المسلمون على جوازه، والحكمة تقتضيه، لأن حاجة الإنسان تتعلق بما في يد صاحبه، وصاحبه لا يبذله بغير عوض، ففي شرع البيع وتجويزه شرع طريق إلى وصول كل واحد منهما إلى غرضه، ودفع حاجته^(١).

والقرآن يصور اعتراض المشركين على مشروعية البيع، بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥) وقد كان الربا فاشياً فيهم متحكماً بأموالهم، فأبطل الله اعتراضهم وبيّن أن البيع تشريع الله الحلال ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، وعدّ الربا من المواعظ الزاجرة التي ينبغي الانتهاء عما سلف منه: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فالبيع الحلال الذي دعا إليه القرآن ضمن تحريم الربا هو فضل من الله في آية ثانية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٨) وفي مقدمة البيوع الإسلامية: التجارات المشروعة التي تساهم بشكل فعال في النمو الاقتصادي ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩).

إن تشريع البيع والتجارة واردة هنا ضمن استثناء منقطع لأكل الأموال بالباطل،

(١) المغني: ٥٦٠/٣.

فليبان أن التعامل الاقتصادي النافع لا يمكن أن يعد مثل الغصب والسرقة والربا والقمار والظلم وغيرها من التعامل بالباطل .

إنه تعامل اقتصادي يكتسي بصفة التعاون بين الفرقاء، ولا بد من أن ينظم وفق تشريع يجمع بين الخُلُقِيَّة والتشريعية النظامية حتى تلتحم حكمة الحاجة مع (العنصر الأخلاقي) الذي ينبغي أن يلتزم به المسلمون، ولذا فقد زجر القرآن العدوان والظلم عقب التجارة بقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء: ٣٠).

أضف إلى هذا التنويه برحلات قريش التجارية إلى الشام واليمن في الشتاء والصيف، والتعقيب على ذلك بطلب التوحيد منهم لرب البيت العتيق ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

ومثل هذا التشريع وإن كان لا يتطلب مزيداً من المرغبات النفسية والخلقية بسبب حاجة الناس إليه فإن الانحراف عن أخلاقياته من المنهيات التي حذر الله منها في العديد من آياته مثل الربا الذي نتحدث عنه.

٢ - الربا: وهو (الزيادة في أشياء مخصوصة)^(١) من أشد التعامل المحرم في الإسلام بالكتاب والسنة والإجماع، والربا أصبح أساساً بل ومنهجاً في الاقتصاد العالمي الرأسمالي والشيوعي، كما كان تعاملاً واسعاً في الجاهلية، واليهود أكثر الناس وأحرصهم عليه منذ قديم الزمان.

وقد شدد القرآن في تحريمه^(٢) لما فيه من استغلال الحاجات والإثراء الفاحش والتحكم في الاقتصاد بطرق غير مشروعة، وكانت آيات القرآن وما زالت أروع النصوص المقدسة والوضعية وأكثرها إفزاعاً للمرايين، بينما

(١) المصدر السابق.

(٢) الآيات من سورة البقرة: ٢٧٥ - ٢٨١.

رغبت آياته بالإففاق والصدقة وإرجاء المعسر والتخفيف عنه والحث على العمل الشريف تحقيقاً للتكافل الاجتماعي في صورة المادية والنفسية.

فمن التراكيب الزاجرة صورة المرابي المتخبط من المس ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^١ ففيها تشنيع على آكلي الربا بعرضه المنفر لما يرافقه من قبح وشناعة نفسيته، وفساد وإهدار، القيم الروحية المطمئنة.

إنهم لا يقومون ولا يتحركون إلا مثل الممسوسين القلقين الذين يتخبطون في حياتهم ويضطربون في تصرفاتهم مهما أثروا بالأموال وازدادوا بها أكلاً وتصرفاً.

وإن سيطرة التعامل الربوي في أي زمن تشيع مثل هذا التخبط والاضطراب والتخوف، وكثيراً ما أنتجت الأمراض العصبية والخلقية التي تنتهي بصاحبها إلى مس من الجنون وحرص لاهث على ضياع القيم الروحية والخلقية بسبب التكالب على الفوائد المحرمة.

والصورة البيانية القرآنية المرعبة للمرابي متطابقة مع الحقيقة النفسية والواقعة للإنسان الذي يتعامل بالربا، فيحقق مزيداً من الاستغلال الرأسمالي على حساب الجهود البشرية المكثفة، والتمويل الجانح الأناني.

ولا يمكن أن يخفف من بلاء الربا ونتائجه الاقتصادية والروحية والنفسية ما كان يقوله المرابون قديماً وحديثاً ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾^٢ إذ شتان بين عائدات البيع المشروع وعملياته التجارية التي تقتضي مهارة وجهداً شخصياً تجري في أمور طبيعية تحقق المنافع للفرد والمجتمع، وبين الربا الذي لا يخطو أية خطوة إلا بضمان الربح الحرام والتحكم في النظام الاقتصادي لمصلحة فرد أو جماعة محددة مهما أفسدت أو ضيعت.

ويزيد هنا تشنيع القرآن على المرابي تعبيره (بالأكل)، وكما ورد ذلك

في كثير من الأحاديث النبوية الصحيحة . فالتعامل به لا يخص الناحية المالية وحدها وإنما تسري مفسده إلى النفس البشرية كما يسري الأكل إليها فيحطمها تحطيماً .

وكذلك قوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ تتم الزجر القارع والتهديد الشديد، ولكنها تفتح باب التوبة والإقلاع بشروط ومواصفات فمن اتعظ بذلك فله رأس ماله وما سلف من تعامله الربوي، ولكن من عاد فإن انتقام الله لاحق به فهو من أصحاب النار خالداً فيها .

وهو تهديد أولى يحرك مشاعر التخوف ويعمقه في القلوب لكي ترتدع وتنزجر .

ويبلغ القرآن ذروتي التهديد في بُعد يحرص عليه المرابي أكثر من أي بُعد آخر، وهو النماء الفاحش للأموال الربوية والتكثير المحرم فهو عند الله مال غير مبارك لأنه يذهب ببركته وقد يتلفه كله ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ .

وهو تعبير مؤثر في جانبيه السلبي بالمحق والإيجابي بزيادة الخير والبركة في الصدقات ولكن جو المحق والأثرة السائد يقتضي أن يعقب القرآن بكراهية الله للذين يحلون الربا وكفرهم وتأثيرهم، فالاعتبار العملي هو المعول عليه في مثل هذا التعامل الآثم .

والذروة الأخرى في الحرب المعلنة من الله ورسوله وقد أعلنه رسول الله ﷺ على آل المغيرة في مكة المكرمة إذا لم يذروا الربا والتعامل فيه . ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ .

إنها حرب رهيبة مفزعة معروفة العاقبة تجاه الإنسان الممسوس المتخبط، حرب تدمر الاقتصاد والنفوس، وتطفئ على السعادة والرخاء وتقضي

على الظلم والجشع والطغيان، وكثيراً ما كان يولد الاستعمار العسكري والغزو الفكري. فهل في العربية أو غيرها تعبير زاجر قارع مثل إعلان الحرب الإلهية؟ وهل يمكن للطمأنينة والاستقرار أن يشيع في أمة آذنها الله بهذه الحرب المعنوية والمادية؟.

ومن التراكيب الحاتئة بإيحاءاتها وظلالها في الربا نفسه: النداء الإلهي للمؤمنين ﴿يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ...﴾ ثم قبول توبة المرابي إن اكتفى برأس ماله وحده من غير أن يظلم أو يظلم ﴿وَإِنْ تُبْتَغُوا فَلََكُمْ رُدُّهُنَّ أَمْوَالُكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، وأخيراً إثارة المشاعر النفسية في تقوى الله والرجوع إليه وإيفائه ما كسب ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمَ مَا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وهذه المعاني الثلاثة السمحة في تعبيرها، الموحية بظلال المحبة والرضا المقترنة بعنفوان القدرة والغضب تسمح للناس أن ينطلقوا في تعاملهم من منطلقات الإيمان والتقوى والتوبة والرجوع إلى الله والوفاء بالحساب في العدل الإلهي يوم الحساب. إنها تراكيب في غاية الدقة والاتساق اللفظي والمعنوي.

فالمؤمن يردعه إيمانه وتقواه عن الربا وإن فعله حيناً فإن الإيمان والتقوى يدفعانه إلى التوبة والقناعة بماله الحلال وحده... وليس الأمر قاصراً على دنياه وإنما لا بد من أن يلحظ أو يتأمل آخرته فيتقي يوم رجوعه إليه حيث يتم فيه عرض الكسب والجزاء والعمل والحساب تماماً كما كان يقوم به في دنياه....

وتراكيب أخرى في النص نفسه تعلن مباركة الله للصدقات وإنمائها بصراحة حاتئة، وظلال وارقة ندية.

ولفظة (يربي) في موضوع (الربا) تصريح بأن الإكثار والزيادة محققة

مما (يربيه) الله من الصدقات وتدفع المرابي المستغل إلى أن يتشوف إلى (نماء) الله في صدقاته ومحقه سواء...

وفي نص آخر: يتخذ القرآن الأسلوب ذاته في المؤثرات النفسية بالترغيب والترهيب... ونوجز الكلام عليها:

● فهو يصور جشعهم الواقعي في أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وكأنه مرض يتفاقم شره يوماً بعد يوم وكمية بعد كمية... ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٢) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ (آل عمران: ١٣٠ - ١٣٢).

وهذا هو التاريخ والواقع ينبئان بالشر المستطير، فقد عرف أن دولاً إسلامية عجزت عن سداد فوائد ديونها المتراكمة والتي أصبحت أضعافاً مضاعفة من رأس المال ففتحت على نفسها باباً واسعاً للاستعمار العسكري والفكري....

وما تزال دول إسلامية وغير إسلامية تثن من مضاعفة الفوائد والديون وتستجدي الدول المرابية أو الدائنة لجدولة استحقاقاتها أو التخفيف عنها. فقد بلغت تلك الديون في بعضها ١٠٠٠٪ أو تزيد.

وواضح أن تحريم الربا واقع بين الخطاب الإيماني في مقدمته والتعقيب عليه بالمؤثرات النفسية من المرغبات ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والزاجرات ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ثم الأمر بطاعة الله والرسول والمصارعة إلى مغفرة الله والجنة، وأخيراً الحض على الإنفاق في السراء والضراء...

● وإثارة مسألة الربا وتحريمه سبقت العهد المدني فقد نبّهت الآيات المكية إلى الزجر عنه ولكن بيان القرآن وضعه ضمن مسألتي (التكافل

الاجتماعي) والإيمان بأن (الرازق) هو الله بسطاً وقلة ومنعاً، يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٧) فَتَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبٍّ لَّيْرُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم: ٣٧ - ٣٩).

فإيتاء ذي القربى والمساكين وابن السبيل حق لهم وليس منة وتفضلاً سواء كان بطريق الزكاة أو بطريق الإنفاق الواجب. وما دام ذلك كذلك كان مثل هذا التكافل الاجتماعي (حقاً) و(واجباً). ليس لاختيار الإنسان في الالتزام به دخل سوى ما يؤكد الله على مضاعفة الأجر وارتقاء الحياة المعاشية والأخلاقية بين المسلمين.

والمال الذي ينمو عند الناس بالتعامل المادي ومنه الربا لا يزيد عند الله وإن كان مظهره المادي في زيادة مطردة، أما المال الذي يزكى به فهو المضعف عند الله ما دام يريد به صاحبه وجهه ورضاه.

إن القرآن يطرح للناس (قيمة) مالية جديدة لم يعرفوها سابقاً ولا لاحقاً فنمو المال وقلته ليس نتيجة للتعامل الاقتصادي المتقدم وحده وإنما هو نتيجة لتوزيعه في فئات اجتماعية محتاجة إليه حتى يزكو عند الله مثل ما زكا عند الناس وأفادوا منه.

أما التراكيب الموحية بالجمال: المعنوي واللفظي، فالآيات غنية بها، ولو أننا قرأنا النص مقطوعاً لأدركنا ذلك، وأشار إلى أبرزها: يريدون وجه الله - أولئك هم المفلحون - فلا يربو عند الله - فأولئك هم المضعفون... .

● والأقدم من ذلك ما بيته الآيات من صفات اليهود الربوية، فللربا تاريخ عريق في التعامل اليهودي قبل البعثة وأثناءها واليهود يتوهمون أنهم غير مذنبين بالمراباة مع العرب وغيرهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ

سَبِيلٌ... ﴿٧٥﴾. (آل عمران: ٧٥).

وواضح هنا إبراز صفة الأمية بالعرب لا لأن غالبيتهم أميون وحسب، وإنما لتمرير التحايل أو التلاعب اليهودي في كتابة الدين مقداراً وأجلاً وصفة مع العرب الأميين.

ولا ريب أن الجشع والحرص على الإثراء المحرم دافع كبير على التعامل بالربا الذي اشتهروا به عبر الأجيال مستغلين الأزمات الاقتصادية العالمية، والضرورات الفردية.

وهذه الصفة السرطانية النامية تحدث القرآن عنها ضمن صفاتهم القديمة الحديثة ﴿فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (١١٠) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٠، ١٦١).

● إن الآية تصرح بتحريم الربا في الشريعة اليهودية كتحرим الظلم والصد عن سبيل الله وأكلهم أموال الناس بالباطل...

فالله يعلن أنهم قد نهوا عن الربا ولكنهم يأخذونه، ويفضلون أخذه من غيرهم وبخاصة من العرب الأميين...

وتحرير الاقتصاد من الربا عموماً والربا اليهودي خصوصاً يؤذن بقيام مجتمع إسلامي راشد في حياته المادية والمعنوية، فاليهود وجميع المتعاملين بالربا موصوفون بالكفر وقد أعد الله للكافرين عذاباً أليماً.

مما سبق نستنتج أن تشريع الربا اكتسب بالأخلاقية الرادعة التي يقصد منه تقنين فقهي بقدر ما قصد منه تربية الفرد والمجتمع على نظام خلو منه متحرر من أثقاله ومشكلاته.

٣ - المديانة: وآيتها أطول الآيات وأكثرها تفصيلاً وإيضاحاً^(١)، وفيها مسائل عن التجارة والبيع والرهن والإشهاد والكتابة . . .

والذين ضرورة اقتصادية ومالية قد ينشأ عنه مشكلات سياسية واجتماعية وفكرية، وهو قضية العالم الكبرى اليوم كما كانت قضيته الحساسة في العالم القديم.

وغالباً ما يقع بين غني وفقير أو أقل غنى وفقراً، وقوي وضعيف أو أقل قوة وضعفاً، ويستغل في كثير من الأحيان لمصالح شخصية وقومية وأطماع مادية وفكرية.

وقد عرضت آية المديانة بطولها قضية الدين وما يلحق به أو يستلزمه، بأسلوب التوجيه والإرشاد، وأمرت المتعاملين بمعاملات مؤجلة كتابته مقداراً وأجلاً ونوعاً، ثم نظمت أمور الدائن والمدين وكتابة الدين والإشهاد عليه، ووثقته بالإجراءات الظاهرة أو بالأمانة، واستثنت التجارة المنجزة في عدم كتابتها ولكن مع الإشهاد عليها.

وكذلك صرحت في الآية الثانية بالرهن المقبوضة ضماناً واستيثاقاً إلا في حالات الأمن بين المتدائنين . . .

ومن المعروف أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير رهنها قوتاً لأهله^(٢).

والتأمل في هذه الآية يلهم أموراً كثيرة. منها:

١ - التصريح بالحكمة في كتابة الدين والإشهاد عليه مهما كان مقداره ﴿ذَلِكَم أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَا تَرْتَابُونَ﴾ . . . ﴿أَن تَصِلَ

(١) هي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة، والآية بعدها أيضاً.

(٢) الحديث في تفسير ابن كثير وهو من الصحاح.

إِحْدَهُمَا فَتُذَكَّرُ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى ﴿...﴾

٢ - سياق الآية وسباقها، فقد سبقها آيات الربا المحرم والطلب في إنظار المعسر أو التصديق عليه، وتبعها آيات التكليف الشرعي بما يطاق وهي خاتمة (البقرة) التي ورد في خصوصيتها أحاديث متعددة.

٣ - ربط وثيقة الدين بالمؤثرات الإيمانية حتى تحفظ الحقوق في القلوب ولا يدخلها تحايل أو تلاعب... .

فالخطاب في أولها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾... ﴿يشير عاطفة الإيمان القوية.

والكاتب يكتب كما علمه الله... . فالله قد علمه الكتابة بما خلق من قدرات التعلم.

والدائن يملي الحق ويتقي الله ربه... . ويبعث فيه التقوى له بقول الدين كما هو من غير زيادة ولا استغلال.

والجميع يتقون الله، وهو يعلمهم، والله بكل شيء عليم. فلا يتصرفون إلا في إطار التقوى وعلم الله تعالى بكل شيء.

والمدين يؤدي ما عليه من الدين وليتق الله ربه. فيسدد دينه كاملاً من غير أن ينقص منه شيئاً بدافع التقوى، ولا يضار كاتب ولا شهيد فإن المضارة فسوق وخروج عن طاعة الله.

والشاهد يدلي بشهادته ولا يكتمها، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم. فهو يؤدي الشهادة على وجهها ليسلم قلبه من الإثم وينجو من عقوبة الله.

٤ - وعقب آية الدين تصريح بأن المال لله، فله ما في السموات والأرض، وإعلان بأن الله يعلم الظاهر والخفي ويحاسب على ذلك. وهو تعقيب ضروري يوجه الدائن والمدين وجميع ما يتعلق بهما إلى إنجاح عملية

الدين وتحريك القوى الاقتصادية على أفضل وجه يحقق الخير والنفع وإيصال الحقوق وانتظام التعامل النظيف.

ثانياً: التشريع الجنائي :

لم يعرف مجتمع من المجتمعات سلم من التعديات الجنائية والمحافظة على الضرورات الإنسانية مثل ما عرف به المجتمع الإسلامي إبان نزول القرآن وبعده .

فلم ترتكب حوادث التعدي على الأرواح والأموال والأعراض بأرقام كبيرة بل كانت نادرة جداً، ومعدومة بالقياس إلى أي مجتمع آخر. كانت مثل هذه التعديات في النهب والغصب والسلب فاشية وعامة، ضمن المجتمع القبلي أو العشائري .

وكانت الآيات القرآنية تفرع أسماع وقلوب الناس وتحذرهم من مغبة الوقوع في الفساد والإفساد، وتبني مجتمعهم على الطهر والسلام والأمان الذي ينبغي أن يستقر في حياتهم وأحوالهم .

وسنقتصر على مسألتين :

١ - " تشريع القذف : وهو رمي المحصنات^(١) بالفاحشة من غير دليل شرعي ، والقاذف مجرد من الحصانة المدنية غير مقبول الشهاد فاسق . . . وكفى بذلك زجراً وردعاً . وقد فصله القرآن بعض الشيء فللزواج اللعان ثم التفريق ولغيره الجلد ثمانون جلدة ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النور : ٤ ، ٥) .

(١) أجمع المسلمون على أن المحصنات والمحصنين سواء، وكذلك الإجماع في المراد من (الرمي). وانظر تفصيل الحكم في كتب الفقه .

وقد لعنوا في آية أخرى في الدنيا والآخرة وتشهد عليهم أعضاؤهم ويوفيهم حسابهم يوم الحساب والجزاء ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يَمْيِزُ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ (النور: ٢٣ - ٢٥).

ولا بد من أن نلاحظ أن (القذف) كغيره من مسائل التشريع وقع في المجتمع المسلم، وهي أمور عملية معاناة حية نزل حكمها إبان أو عقب حدوثها.

فقد جاءت مسألة القذف مقدمة لقصة الإفك وخاتمة لها، فالآيات الأولى قدمت للقصة الشائنة، والآية الأخيرة ختمت أحداثها بالزواج البيانية والعقوبات المعنوية.

وقد تجمع في الآية الأخيرة من المؤثرات النفسية ما لم يتجمع في سائر الآيات. وهل هناك أخوف من اللعن الأبدي والعذاب العظيم في الدنيا والآخرة؟ إن القاذف تشهد عليه نفسه وتتهمه أعضاؤه فهل يمكن أن ينكر شهادتها أو ينكر البدن أعضائه؟.

إنه مشهد مؤثر أخاذ، فريد في رهبته وبشاعته.

ومن الأسرار البيانية أن تركيب (يرمون المحصنات) في الآيات لم يصرح بـ (الزنا) ولا بغيره، وإن أجمع العلماء على أنه المراد...

وأن (الرمي) حركة مادية شديدة في الأصل (ومن المجاز - قولنا -: رماه بالفاحشة)^(١)، (وفي التعبير عن التفوه بما قالوا في حقهن بالرمي المنبئ عن

(١) أساس البلاغة.

صلابة الآلة، وإيلام المرمي، وبعده عن الرامي، إيدان بشدة تأثيره فيهن، وكونه رجماً بالغيب...^(١).

ولفظه (المحصنات) تدل على نزاهتهن بالوضع اللغوي فهن العفاف عما رمين به. ووصفهن (بالغافلات) في الآية الأخيرة، (بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها ولا من مقدماتها أصلاً ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس في المحصنات، أي السليمات الصدور، النقيات القلوب عن كل سوء - وكذلك - المؤمنات: المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به من الواجبات، والمحظورات وغيرها، إيماناً حقيقياً تفصيلاً...^(٢).

● ٢ - في قتل الأولاد: إن للدماء حرمة عظيمة في الإسلام لا تعدلها حرمة أخرى، والعمل على حياتها إحياء للناس جميعاً فما بالناس بحياة فلذات الأكباد من بنين وبنات؟.

وعمدت بعض القبائل على وأد بناتها وقتل أبنائها خشية العار والفقر أو بسبب العار والفقر.. وهو انحراف بالفطر الأبوية لا يمكن أن يكون عند جميع القبائل والآباء.

١ - التزيين الشيطاني: فقد زينت الشياطين لكثير من المشركين قتل أولادهم فأمرتهم أن يهلكوهم وأن يخلطوا عليهم دينهم ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٧).

وبعد ثلاث آيات يعلن القرآن خسران قتلة الأولاد سفهاً فإنهم ضلوا ولم يهتدوا ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ

(١)، (٢) أبو السعود في تفسيره.

اللَّهُ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ فَعَضَلُوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾.

٢ - القتل من إملاق: إن ضيق ذات اليد دفع بعضهم إلى قتل ولده، فلم يجد ما يأكله فكيف يطعم ولده ما دامت (قيمة) التضحية معدومة عنده؟ إنه لا يؤمن أن وفرة الرزق وقلة من الله فلا يقلله معيشة ولد ولا يكثره فقدانه. فالله يرزق الوالد والولد ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام: ١٥١).

٣ - القتل خشية الإملاق: إنهم الآن ليسوا فقراء وإنما يخشون الفقر أو أن يكون الولد سبباً فيه، وفي هذه الحالة إن قتله جريمة كبيرة تتضاعف بشاعتها ويعظم قبحها، ذلك لأن الله تكفل برزقهم قبل رزق آبائهم، فكيف يعمدون إلى قتلهم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَتْ خِطَاءً كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٣١).

٤ - القتل بالوَاد: وهو المقصود بالقتل السابق في تصوير نفسي حاقد يحتقر حياته وما بشر به من ولادة الأنثى، ويحيره ضعفها هل هو موقف الإبقاء على حياة الهون أم إهلاكها وهي حية تنسم الحياة، وكلاهما موقف مزر بإنسانية النفس وانحراف العاطفة الأبوية. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩) (١).

إن هاتين الآيتين تظهران الحالة النفسية المرهقة الغضوبية المغتمة الحزينة، وحركة الاختفاء من القوم من سوء ما بشر به، والحيرة فيما يصير إليه ولده وصفت أدق وأعمق تعبير ووصف، ورسمت بسياقهما صورة منكرة لعادات الجاهلية وسوء حكمها في ألفاظ موحية بظلالها قوية بدلالاتها.

(١) وقريب منها آية الزخرف: ١٧.

سمات في لغة التشريع القرآني :

أشرت إلى شيء من صفات الطلاوة والدقة التي تميّزت بها اللغة التشريعية في القرآن وأهمية ذلك في القدرة على البيان التشريعي في التغيير الاجتماعي والسلوكي العام. ومن خلال الآيات والتراكيب القرآنية التي قدمتها كنماذج للبيان القرآني المتميز يمكن القول: إن التشريع القرآني المستقل لم يزد على (٥٠٠) آية، أما الأحكام التي يمكن استنتاجها من القصص القرآني ومن التشريع السماوي للديانات السماوية السابقة فيه، فهي تشمل معظم الآيات القرآنية، وذلك بمقتضى القواعد الأصولية التي منها: تشريع من قبلنا هل هو تشريع لنا...؟.

وعلى هذا فإن التشريع القرآني يؤخذ به من أغراض قرآنية متعددة: من المشهد الديني، والحوار الأخروي وقصص الأنبياء وغيرهم من الرجال الصالحين وأقوامهم، وأخيراً من سيرة الرسول ﷺ في القرآن، وبخاصة ذلك التشريع العالمي الذي ينه إلى العلاقات الخارجية بالدولة الإسلامية، وتنظيم المعاهدات وإبرام الاتفاقات الدولية...

وهذه وغيرها كانت مصادر ثرة للفقهاء الإسلامي استنتج المفسرون والفقهاء منها مسائل عملية وعقدية وعبادية كما استنتج علماء الأصول من مجموعها الأدلة التشريعية الفرعية.

ولذا فإن لغة التشريع تتصف بالصفات التالية:

١ - إن التركيب اللغوي يأخذ أحياناً أسلوب القصة أو الحوار أو المشهد وما يستلزمه من خصائص أسلوبية في اختيار الصور الفنية التي تتسق مع الغرض الهام للنص.

٢ - وضوح البيان ودقته والوصول إلى المعاني من أقرب الألفاظ المنتقاة، والتراكيب الموجزة أو المفصلة حسب المسائل المعالجة.

٣ - يغلب على لغة التشريع المستقل طول الآية عن نظائرها، وهذوء جرسها وإيقاعها ونفسها المديد الذي يزيد البيان القرآني وضوحاً وجلالاً.

٤ - وخلوّه من الصور الفنية وألوان البديع والترزين اللفظي عموماً ما عدا التراكيب التي هي جزء من مشهد أو حوار أو قصة كما سبق، وبالمقابل غناه بالمؤثرات النفسية بالترغيب والترهيب وبخاصة في مقدمة الآية وخاتمتها.

٥ - الجمع بين اللغة الشخصية، أو الكلام عن إنسان أو فئة معينة، وبين دلالة التعميم المعنوية التي تستفاد من النماذج البشرية المطروحة. مثلاً: خطابات الله للرسول ﷺ وذكر اسم زيد، وأسماء الحوادث والأمكنة والأشخاص....

٦ - اختيار الألفاظ والتراكيب الملهمة بالحياة والقادرة على التأثير مهما كانت صلتها بالتاريخ المغرق أو المعاصر للتنزيل. والواقعة موقعها المتعين الذي يصعب الاستبدال بها لفظة أو تركيباً آخر.

٧ - الابتعاد عن الألفاظ والتراكيب المبتذلة والمعقدة أو المتكلفة والموهمة والمصنفة تصنيفاً قانونياً وانتقاء أدقها معنى، وأوضحها بياناً، وأصفاها لفظاً وتعبيراً، وأحكمها تلاؤماً وانسجاماً.

٨ - تحملها ظلالاً من الصراع التشريعي والعقدي، والمعاناة الطويلة في قيام المجتمع المسلم الذي عزف عن أعراف الجاهلية والتمس حياته من مناهل التشريع القرآني في لغته المتميزة.

يقول (الظلال) في مقدمة تفسير آية المداينة: وإن الإنسان ليقف في عجب وفي إعجاب، أمام التعبير التشريعي في القرآن - حيث تتجلى الدقة العجيبة في الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته، وحيث يربط التشريع بالوجدان الديني ربطاً لطيف المدخل، عميق الإيحاء، قوي التأثير، دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية، وحيث كل المؤثرات

المحتملة في موقف طرفي التعاقد وموقف الشهود والكتاب، فينفي هذه المؤثرات كلها، ويحتاط لكل احتمال من احتمالاتها... ثم يقول: إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه، بل هو أوضح وأقوى، لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد....

ولكن فنية النظم والتركيب لا بد أن تهبط جمالياً لدى الفقهاء والقانونيين حين يستخدمون اللغة والمصطلحات الخاصة بهم. أما القرآن فقد تألفت تراكيبه التشريعية بياناً رفيعاً ودقة علمية وطلاوة جميلة.

يقول الرافي^(١): ... وعلى أنا لم نعرف بليغاً من البلغاء تعاطى الكلام في باب الشرع، وتقرير النظر، وتبيين الأحكام، ونصب الأدلة، وإقامة الأصول، والاحتجاج لها، والرد على خلافها، إلا جاء بكلام نازل عن طبقة كلامه في غير هذه الأبواب، وأنت قد تصيب له في غيرها اللفظ الحر، والأسلوب الرائع، والصنعة المحكمة، والبيان العجيب، والمعرض الحسن، فإذا صرت إلى ضروب من تلك المعاني، وقفت ثمة على شيء كثير من اللفظ المستكره والمعنى المستغلق، والسياق المضطرب، والأسلوب المتهافت، والعبارات المبتذلة...

ويعلل ذلك بقوله: وإنما وقع للبلغاء هذا النقص من جهة التركيب، إذ ليس في كلامهم روح كروح النظم في القرآن، ولا هذه الروح مما تطوعه قوى الخلق... ثم يقول: وإنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضي في وصفه، حتى لا ترى في اللغة كلها أدل على غرضك، وأجمع لما في نفسك، وأبين لهذه الحقيقة غير كلمة الإعجاز.

(١) في إعجاز القرآن: ٢٨٠ ط/٨ المكتبة التجارية الكبرى ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م.

جماليات في التناسق القرآني

التناسق مفهوماً:

يقصد بالتناسق : التناسب بين المفردات والآيات والصور القرآنية تناسباً لفظياً ومعنوياً في التركيب القرآني وفواصله، حتى يجعل منه نسيجاً واحداً أو بناءً متحد الأركان والأبعاد والجماليات.

ويقصد بالتناسب اللفظي ما تقع عليه الأذن والنفس من جرس صوتي يشيع في ألفاظه وآيه، وبالمعنوي: الاتساق في المعنى والصورة في التركيب الواحد، وبينه وبين سائر التراكيب، والسورة الواحدة والصور الأخرى... وبينه العلماء والبلاغيون بوحدة البناء القرآني من حيث مفرداته وتراكيبه وسوره ويعتبرون ذلك إعجازاً بيانياً واضح المعالم قوي الأسر بالغ الإعجاب ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

وإن توزيع القرآن فيما يزيد عن (٧٧) ألف مفردة وتنزيله خلال ثلاثة وعشرين عاماً من حياة البعثة النبوية لا يقلل من الإشادة بالاتساق الفني والانسجام التركيبي واللفظي بين أجزائه.

وكذلك فإن تقابل الموضوعات القرآنية وتضادها ضمن سورة واحدة، وتعدد هذه الموضوعات في طوال السور ومتوسطه خاصة لم يضعف من متابعة الأسرار الظاهرة والخفية في ربط المفردات القرآنية بعضها ببعض في وحدة (فنية) سامية الأداء، رفيعة المعاني رائعة العطاء، علوية المصدر.

إنه المعجزة البانية التي اكتملت فيه جمال النبوة اللفظية وجرسه

الفريدة بالجمال الفكري المعنوي، والجمال الخلقي السائد في الكلمة الموحية والقصة المؤثرة والتشريع الخالد....

فأعمق القضايا العقلية والمسائل المبدئية، وأكثرها تعقيداً وتشابكاً، وأوسعها شمولاً وعموماً تعرض بأجلى التراكيب في القرآن وبأوضح الألفاظ في آيه وسوره.

وأروع الألفاظ والأساليب وأغنى المفردات والجمل وأنصع الكلمات وأصفها وأبدع الصور والمشاهد تلتزم بالفكر القرآني الهادف وبالمبدئية الراقية، والأغراض المعنوية البانية.

وإذا كانت هذه وعاء جميلاً وجذاباً لمثل هذه الأفكار والمبادئ فإن أي التحام لا يمكن أن يقع بالصيغة والمنهج والأسلوب الذي وقع في القرآن.

فالكمال المعنوي والصيغة اللفظية، اتسقا مفردة أو تركيباً أو آية قرآنية، وكانا وما زالا المعجزة البيانية الرائعة وأفحمت العرب الأبياء وجعلتهم يستلهمون من أفكاره وأسلوبه ما يغني أفكارهم وأساليبهم.

وإن الدراسات الفنية والبلاغية عبر القرون الطويلة وحتى الزمن الحاضر تجلّي مزيداً من الأسرار القرآنية اللفظية والمعنوية الجامعة، وتقيم على مستوى العرب والمسلمين والإنسانية أقوى المناهج النظامية وأعدل القيم الفكرية والخلقية وأنسب الحاجات الاجتماعية والإنسانية. إنه كلمات الله وكتابه وبيانه ودستوره ﴿كَتَبَ أَحْكَمَتْ أَيْنُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

التناسب وعلم الجمال

أولاً: التناسب هو الجمال:

يقول أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م)، في: رسالة في الجمال: يكمن الجمال في التنسيق البنائي لعالم مواجه في مظهره الأكمل، وهو بهذا يقترب

من مقياس أفلاطون الذي يعني به: الانسجام والمقياس ولكن أرسطو أكثر تحديداً له حيث يعينه في: النسق والمقدار.

وفي كلا المفهومين للجمال تسام له عن المفاهيم المتدنية المنحطة، ويبلغ أفلاطون الذروة في سمو الجمالي فيقول: الجمال هو بهاء الحق والخير. . . بينما ينه أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠ م) إلى تحديد الجمال بالعدد والصور الخالصة والنظام، فجمال الكائنات في تناسبها وقياسها، ويعلل ذلك بقوله: لأن الحياة صورة، والصورة جمال. . . .

ويشير فيما بعد توماس الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م) إلى الجمال في أنه: انسجام شيء مستحب، وإلى الاكتفاء الأقصى، والانشراح الكامل للذوق والعقل على السواء.

ويربط هؤلاء الفلاسفة اليونان الجمال والحب بالجمال والحب المطلق وهو الله سبحانه وتعالى، ولذا يسمى الفلاسفة الجماليون عصرهم بالعصر الاعتقادي.

ويتدرج أفلاطون حوالي (٤٢٧ - ٣٤٧ ق م)، في الحب أو الجمال الاعتقادي بمراحل مادية حتى يصل إلى الجماليات الروحية، وذلك أن المبتدئ يحاول أولاً أن يحب جسداً جميلاً، ومن ثم أن يستلهم هذا الحب ليحب جميع الأجساد الجميلة، ويستشعر العاشق فيما بعد، بطلان حب مقتصر على الأشكال المحسوسة وانجذابه بروح من يحب، وعندما تتجلى له ضالة قيمة هذا الغشاء الجسدي، يدرك أن عليه الرفع عن الأشكال المحسوسة لبلوغ المشاغل الروحية: أي السلوك الإنساني، وليس هذا شيئاً بعد فينبغي له أن يتجاوز حب الحكمة الأخلاقية نفسه إلى الحكمة المطلقة. . . . وتبدو الغاية النهائية كأنها ثمرة كشف، فينجلي السر أخيراً مضاءً أمام المحب الذي تيسر له أن ينتظر حتى ذلك الحين. . . . وهنا نحظى برؤية الجمال المطلق، السني، الشامل بذاته وفي ذاته، ونلامس أنموذج النماذج، ومثال المثل. . . .

فانطلاقاً من الجمال يكون كل ما هو جميل، جميلاً، وهذا يعني انعكاس الجمال المطلق على الجماليات المحسوسة والمادية التي يستطيع الفنانون تمثيله بفردياتهم الجزئية والمحابية في أعمال جمالية.

ويمكن تلخيص هذه المراحل: حب الأشكال المحسوسة، وحب النفوس، واكتساب العلم، وبلوغ المثل الأعلى، وبعبارة أخرى: فإن وجوه الجمال أربعة هي: الجسدي، الأخلاقي، الذهني، المطلق....

وهذا يعني: أن الأجسام البدائية تتوضع في خشونتها في الأسفل، وبعدها: الأفعال والتصرفات والحوادث والحركات في كل ما تسمو به على الجسم، وتليها النفوس الحقيقية، فجواهر الأجسام، فجواهر الأفعال، فجواهر النفوس.... وفوق هذه الجواهر تكمن المعارف الخالصة النظرية، الذهنية المتخلصة من كل قرينة أخلاقية، وتنبت في النهاية، الصور المتوجة بالمثل الأصيلة التي يسميها المحدثون: القيم، فيتحصل لنا بهذه الطريقة مثل ثلاثة: الحق، والخير، والجمال.....

ويؤكد كل من أفلاطون وسقراط في معظم كتبهما ونظريتهما على هذه التطلعات الروحية التي تستلهم جمالها من الجمال المطلق (الله)....

ويتربع (الشعر) المرتبة الأولى في التفكير الأفلاطوني بشرط أن تتحد فيه الفنية إلى نوع من الإلهام السامي، والفلسفة تشكل النبع الأعلى الأشد خصباً وإغناءً للشعر، وتلعب الموسيقى الصوتية والآلية دوراً جوهرياً في الدولة.... وكذلك فإن أرسطو خلفه يوضح أن الجمال لا يطلب من الحقيقة الواقعية الراهنة، ولا من عرضية الحاضر الأبدي، لأن الجمال أسمى من الحقيقة، والشعر ألصق بالحقيقة من التاريخ.... وإن جمال البث الشعري العامر المنتظم، المنسق، واستيعاب الشاعر العميق، المباشر الحدسي يجعلان من الشعر أولى المعارف. ثم يتحدث عن الجمال الموسيقي باعتباره فناً جمالياً متقدماً.

ومهما يكن من أمر فإن (الذوق) وحده هو الذي يكشف عن هذه الجماليات ويتعرف إليها ويقدرها قدرها^(١).

وإذا كان لا بد من تعقيب على ما سبق فنقول:

١ - السمو بالجمال المادي أو الأرضي إلى الجمال الروحي والمعرفة النفسية ثم التعرف على جماليات الخالق والاطمئنان إليه والسعادة والتلذذ بمعرفته مسألة أفلاطونية وأرسطاليسية لا تعاب من الوجهة الجمالية الحقبة والذوقية الصادقة.

٢ - إن الموجودات الأرضية بما فيها الإنسان مظهر من الجماليات الإلهية التي نتأمل فيها التناسق في الخلق، والتناسب في الصنع، والإبداع في التكوين، مما يتذوقه الإدراك والوجدان، وهي ليست مسألة كهنوتية وإنما هي مسألة دينية وفلسفية تتصل أعمق الاتصال بالخالق ذي الجلال والجمال المتصف بالأسماء الحسنى.

٣ - ولكن المراحل التي يتدرج فيها الإنسان للوصول إلى الجمال المطلق هي أقرب إلى الفلسفة الأفلاطونية منها إلى الحياة الواقعية، فكثير من الناس لا يمر بهذه المراحل الدنيا إلى العليا، والبعض الآخر قد يقف عند مرحلة قبل أخرى، وبخاصة أولئك الذي يتمسحون بالنظرية الأفلاطونية الجمالية فيبقون في مراحلها الدنيا ولا يقدرّون على السمو إلى الأعلى.

٤ - ويتفق كثير من الجمالين وفلاسفتهم أن النظرية الأفلاطونية هي أقرب إلى التوهم والخيال، ويتساءل بعضهم عن الفكرة التي تكونها بشكل ملموس عن الجمال ذاته، ويعتبرونها مجرد (تبجح عبر المطلق) و(شيء من العبث) و(زهو بالغ الخيال) وذلك حين نريد أن نتمثل صورة (الله)، لأن فكرة الجمال في ذاته، تختلط تماماً بهذه الصورة الإلهية.

(١) المقتبسات في التعاريف والمراحل من: علم الجمال: الفصل الأول: ١٩. وفي هويسمان.

٥ - وإذا بدا أن شبيهاً ما بين النظرية الأفلاطونية في الجمال وبين مذاهب صوفية متفلسفة في العصور الإسلامية المتأخرة فإن مثل هذه المصدرة يونانية أو هندية تلقي أضواءً كاشفة على جهالة المأخوذين بهذه النظرية وأمثالها من المسلمين، وتوضح التبعية الوجدانية والفكرية للدخيل من الأفكار والوجدانات.

٦ - ولا ريب أن الشعر في مقدمة (الفنون الجميلة) لأنه أقرب إلى السمو العاطفي وأدنى إلى الجماليات الروحية، وذلك بشرطيه السابقين.

ولكن ما معنى تحديده بالشعر ما دامت الخواطر والصور الشعرية ماثلة في النثر الفني الرائع؟ قد يكون الشعر متميزاً عن النثر بصور شعرية وموسيقى وإيقاع لا نعثر على نظيره في النثر، ولكن ماذا لو أن نصاً نثرياً تجمعت فيه جماليات الشعر وزادت عليه روعة البيان وسمو الفكر وإيقاعاً وجرساً في النظم كالقرآن الكريم؟

إن آية واحدة توحى بتتبع الكمال الخلقي والسمو الأدبي في نماذج من القيم والفضائل جمعت ذلك كله، وصيغت بأسلوب متميز مؤثر رابط بالله هي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

إن في الآية تناسباً عددياً وتناسقاً بين القيم وأمر الله ووعظه، ونهيه، وانسجاماً بين أول الآية وفاصلتها، بين أمر الله بها والتذكّر الضروري، ثم بين إيقاعها والآيات السابقة واللاحقة وجرسها الصوتي...^(١)...

ودلالة التناسب أو التناسق في مفهوم الجمال لا تبدو بهذه السهولة واليسر لدى فلاسفة العصور الوسطى والحديثة. وسنأتي على ذكرها فيما بعد.

(١) انظر شيئاً من جمالياتها في: الإنقان: فصل الإيجاز: ٥٤/٢. للسيوطي.

ثانياً: الجمال نسبي:

ولكن نظرية تضرب صفحاً عن مفهوم التناسب إلى ما عرف بالجمال النسبي الذي قال به ديكرات (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) وليبنز (١٤١٦ - ١٧١٦ م) وتزعمه (كانت) (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) حتى نسب إليه فكان يسمى: علم الجمال الكانتي، وبمقتضى هذه النظرية فإن للجمال الهندي شفاهاً غليظة ومتفخخة، وله أنف مسطح وعريض، وهو في (البيرو) ذو آذان كبيرة، وفي البلدان الأخرى: ذو أسنان حمر أو سود... حتى إن بعض رجال هذه النظرية يتساءلون: ما هو الجمال؟ ويجيبون: هذا ما لن يعرف أحد عنه شيئاً، إنه يتغير مع البلدان... ويفلسف (كانت) ذلك بالأساس الجمالي الذي يكمن في انسجام الفهم والمخيلة بفضل حرية تحرك هذه الأخيرة، وفضلاً عن ذلك فإن العبقرية المبدعة للأفكار الفنية والتي بدونها قد لا يرى النور أي صنيع فني، تكمن هي نفسها في هذه «الدوزنة» المتفرقة بين الفهم والمخيلة، ونظرية الانسجام الذاتي هذه تفسر جميع الخواطر الجمالية لدى (كانت). ويبدو أن الجمال الكانتي ونظريته تعتمد على مصدرية (الذوق) الذاتي، وأن المشهد المذهل - مشهد الانسجام الكوني الغريب - مرآة لانسجامنا الداخلي الخاص «فالانسجام الكوني الغريب يمتد منا إلى الأشياء، ومنها إلينا... وإن الخاصة الكانتية الحقيقية تكمن في (الذوق) الذي لا يعتبر عنده حكماً في الشعور وحسب وإنما هو أيضاً شعور بالحكم... والجميل هو ما يسرنا بصورة شاملة وبدون توهم...»

أقول: وربما اقتبس الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي ذلك فقال:

أيها المشتكي وما بك داء كن جميلاً تر الوجود جميلاً

وقد طغت هذه النظرية على رقعة واسعة من عالمنا المعاصر وفي بعض

الفترات... ولكننا نرى من الضروري التعقيب بما يلي:

١ - إن ذوقية أية جماعة حضرية أو جبلية أو بدوية، في الإحساس

بالجمال يرجع إليها وحدها، فقد لا يقبل بمثله ولا بمثل مقاييسه جماعة أخرى حتى وإن تشابهت البيئات والأجناس واللغات. وهذا تصور واقعي نلاحظه لدى هذه الجماعات المختلفة.

٢ - ومع هذا التصور الواقعي نجد أنه لا بد من حد أدنى للجمال النسبي عند هذه الجماعة أو تلك فإذا انحرفت أو تضخمت فوق المستوى الأدنى فإن ذلك يعد قبحاً ودمامة، وعلى هذا فإن لكل جماعة تصوراً للجمال وآخر للقبح . . .

٣ - إن الذوق الإنساني العام يتذوق (التناسب) في كل موجود مادي وفكري، وإن حداً أدنى يعد جمالاً عند جميع الشعوب وعامة الناس، وما دونه فهو القباحة، وهذا يعني التعرض بالإنكار على الجمال المطلق الذي عرفه فلاسفة اليونان الاعتقاديون . . .

وكذلك اعتبار (القيم) الفكرية والخلقية متأرجحة في إطار نسبي ذوقي وشخصي. وربما يمس هذا من قريب أو بعيد الإعجاز القرآني باعتباره بياناً فذاً لا يمكن الإتيان بمثله أو بمثل بعضه، وكذلك الآثار الفنية العالمية الأخرى.

ثالثاً: الجمال الفكري والمادي:

فالجمال في رأي هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) هو بروز الفكرة المحسوس، والفكرة هي مضمون الفن، والتصوير المحسوس التخيلي شكله، وهوينشد عقلانية الواقع الداخلية، ويصل إلى مستوى الذهن المطلق، والمراحل التي تشكل معالم الفكر البشري في طلب المطلق هي: الفن والدين والفلسفة . . . ويدّعي أن الفن مرّ بمراحل ثلاث عبر القرون القديمة: الرمزية وتحققت في الفن المعماري، والكلاسيكية وشاعت في النحت، أما الرومانتيكية فقد انتشرت في فنون الرسم والموسيقى والشعر . . .

وشدد هيغل على صفة الفن الذهنية الذي بين أن شأنه في ذلك شأن الدين والفلسفة، وهيغل الذي يعلي من شأن الفكر يجعل الدين والفلسفة في مرحلة دونية وفي صراع دائم مع الفلسفة.

وهكذا فإنه يعلن (موت) الفن وعداءه للدين حسب قول (كروتشه) فالفن في أسمى تخصيص له إنما هو بالنسبة لنا ماضٍ وسيظل ماضياً، وستمكن الماركسية المعروفة بأيدلوجيتها الملحدة والمادية، وبفضل هيغل أحد زعمائها المستترين أن تسيطر على الخصائص المادية أو المصالح السياسية... حتى قال كروتشه هذا: إن كل جمالية (هيغل) تتلخص في إطراء جنائزي للفن.

بينما يركز (شوبنهاور) (١٧٨٨ - ١٨٦٠ م) فيلسوف الألم، على أن لكل شيء جماله الخاص غير أن هناك تدرجاً يقودنا من المادة إلى الحياة، ومن الكائنات الحية إلى الإنسان، فإن الجمال البشري يمثل التوضيح الأكمل على مستوى أسمى درجة يتيسر له بلوغها... ويحتل الشعر عنده مكانة فوق الفنون التصويرية جميعها، لأن موضوعه الخاص هو فكرة الإنسان... (فالانجاء المادي والتطوري متغلغل في الجمالية حتى تصل إلى كمالها في الإنسان)...

وهذان الفيلسوفان اللذان يتمحوران حول الإنسان حتى يعتبرانه مركز الكون ينحدران به وبفنه وجمالياته إلى المستويات المادية، تارة بجعل فنه (دونياً) حيث تنشط الماركسية المادية، وتارة أخرى بتدرج الإنسان من المادة أو الكائنات الحية السفلى.

إن هذه النظرات المغرقة في المادية الصرفة أو المادية الجدلية فيما بعد تزيل من حسابها الجماليات الدينية فكرية مبدئية كانت أو جامعة للفكر والبيان الأدبي، وتسقط ذلك كله في أتون الماديات حتى وإن قالت ببروز الأفكار المحسوسة أحياناً.

وهو انحراف كبير وورم سرطان في تأليه الإنسان من ناحية وماديته

الطاغية من ناحية ثانية، أعلن العالم عن خسارته وإفلاسه وتطلعاته الروحية وهو غارق في المادية.

رابعاً: الجمال مادي وآفاق روحية:

وعلى الرغم من طغيان المادة والزخم الصناعي، ونشوء جماليات سفلية تتمثل في (انتاج الصناعات الفنية) فإن مؤلفات كثيرة تشيد بعودة الجمال والفن إلى إطارهما الروحي.

وإذا كان سريان الاتجاه المادي الجمالي وأحياناً الانطباعي المنحط عاماً ثم تقلص الروح الجمالية التي تألقت في العصور السابقة وبقيت آثارها الفنية الخالدة حتى اليوم، فإن تطلعات جمالي الروحية تتنامى وقتاً بعد وقت، وتحاول العودة إلى مفاهيم جمالية قديمة ولكن بنتاج فني حديث وآثار جامعة بين القديم والجديد مستفيدة من التقدم التقني المتسارع.

وفي مقدمة الجمالين (بول سوريو) في كتابه: الجمال العقلي، كان أستاذاً في جامعتي ليل ونانسي قبل عام ١٩١٨ ثم السوربون، و(جون وسكين) (١٨١٩ - ١٩٠٠) المعجب بالآثار القديمة والمشغوف بالجمال الذي يعدّه كشف المدركات الإلهية، وهو شعور خاص يحملنا على الوقوع في الذهول أمام شيء طبيعي لا تكفيه الحساسية أو الفهم العابر... وهذا يعني إدراكاً تصوّفاً ونظرة غائية للطبيعة....

ونمرّ أمام (نيتشه) المتشائم الذي يعتبر قسماً كبيراً من تفكيره الفلسفي ضمن نظرية التشاؤم الجمالي الرومانسي، إلى ألمع شخصية حديثة سبقت الإشارة إليها وهو (كروتشيه) (١٨٦٦ - ١٩٥٢) الذي (يعتبر أكبر جمالي أجنبي في القرن العشرين)... وقد بين طول حياته المديدة الموسومة بنشر العديد من المؤلفات أن علم الجمال هو (علم اللغة العام) أو (علم التعبير) بفضل توازٍ (جمالي - نحوي) ويقول: ينبغي على علم اللغة أن يذوب في علم الجمال عند مستوى من التحضير العلمي، وإنه ليذوب فيه بالفعل دون إبقاء رسوبات...

وتترافق معه نظرتان جماليتان مع اللمعات الروحية الاستثنائية: نفسانية الفنون التصويرية، والاجتماعية الجمالية، وهما من التراث الجمالي الفرنسي غالباً.

علماء المسلمين والتناسب:

عنيت طائفة من علماء المسلمين وأدبائهم بالتناسب القرآني باعتباره يتصل بالتفسير وبالبلاغة معاً. واتخذوه علماً منفرداً، أو تابعاً للتفسير وفنون البلاغة.

وفي كل دراسة متأملة يتابع العلماء والأدباء الكشف عن أبعاد الاتجاه الفني والروح الجمالية من خلال القرآن ويتبينون منه أسراراً إعجازية ترتبط بالجمالية بأوثق رباط.

وبتقدم علم الجمال وميادينه والحاجة إليه تتطور هذه الدراسات لتبرز العناصر الجمالية والصور الفنية القرآنية الرائعة التي تتفوق بالأفكار والظلال، والمؤثرات الفنية المختلفة.

وكان للجرس في اللفظة والتركيب أثر كبير في إبراز الآيات القرآنية جمالياً، وقد سرى فيها الجرس الصوتي المتناسق، وأشار إليه علماؤنا الأقدمون ضمن الخصائص الجمالية، ونوهوا بها، أو بكثير منها في دراستهم. يقول ابن القيم: التناسب وهو: ترتيب المعاني التي تتلاءم ولا تتنافر. ثم يقول: والقرآن العظيم كله متناسب لا تنافر فيه، ولا تباين...^(١).

ونوجز الكلام على أشهرهم^(٢):

(١) الفوائد إلى علوم القرآن: ٢٨٧.

(٢) اختصرت ترجمتهم من كتب التراجم ومن: الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره. د. محمد أحمد يوسف القاسم ط/١ ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م. دار المطبوعات الدولية، القاهرة.

١ - عبدالله بن زياد النيسابوري (ولد ٢٨٨ هـ)، أول من تكلم في استخراج المناسبات... ونقل عنه، أنه إذا قرئ عليه الآية كان يقول: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة.

٢ - الفخر الرازي أبو عبدالله محمد بن عمر (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) في تفسيره: مفاتيح الغيب... الذي حوى خلاصة من علوم عصره، ويقول عند قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِّن مِّثْلِهِ...﴾ إن القرآن هكذا رتب على حد ما أنزله الله تعالى على رسوله بخلاف قول كثير من أهل الحديث، إنه نظم على هذا الترتيب في أيام عثمان، فلذلك صح التحدي مرة بسورة، ومرة بكل القرآن... ولا تكاد آية أو آيات أو سورة في تفسيره إلا ويشير إلى مناسبتها وارتباطها.

٣ - برهان الدين إبراهيم البقاعي (ولد ٨٠٩ - هـ) في البقاع، وكتابه: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الذي ضمنه من معارفه الكبيرة في أصول العربية، يقول في أهمية المناسبة: للإعجاز طريقان: أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب... ثم يذكر أنه لا وقف تام في كتاب الله، ولا على آخر سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فهي متصلة بالفاتحة كاتصالها بالقلق، بل أشد^(١).

٤ - جلال الدين السيوطي: عبدالرحمن بن محمد (ولد ٨٤٩ هـ) خزانة العلم والأدب واللغة، والحديث في جمع موسوعي كبير، في (٥٠٠) كتاب، وكتابه: تناسق الدرر في تناسب السور (مخطوط) يتحدث فيه عن تناسب السور فقط كما هو ظاهر من عنوانه، وذكر شيئاً منه في كتابه: الإتيان في علوم القرآن. يقول في المقدمة: وكنت أولاً سميت (نتائج الفكر في تناسب

(١) المقدمة ملخصاً.

السور) لكونه من منتجات فكري، كما أشرت إليه، ثم عدلت وسميته (تناسق الدرر في تناسب السور) لأنه أنسب بالمبنى وأزيد بالجناس. ويرى السيوطي أن ترتيب القرآن توقيفي في السور والآيات ما عدا سورتي (الأنفال والتوبة)، ويقول في المقدمة: واستقر التوقيف في العرضة الأخيرة على القراءات العثمانية....

٥ - عبدالله محمد الصديق الغماري: معاصر، في كتابه: جواهر البيان في تناسب سور القرآن (١٧٠) صفحة، ويذكر أن ربط السورة بالسورة يتناول جهات ثلاث: تناسبهما في الموضوع وهو الأصل، وتناسب بين فاتحة السورة والتي قبلها كالحواميم، وتناسب فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها مثل: ﴿وَادْبَرْ الْأُنْجُورِ... وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾. ويوجد نوع رابع وهو: مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها^(١). وكتب أخرى اهتمت بالتفسير قبل كل شيء ومعه ربط الآيات والسور، منها: تفسير المنار، وتفسير القرآن الكريم: للشيخ محمود شلتوت، والنبأ العظيم: د. محمد عبدالله دراز، وأخيراً: الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره. د. محمد أحمد يوسف القاسم.

٦ - وتبرز في هذه السمة التناسقية شخصية (الرافعي) وكتاباته الثرة عن الأعجاز القرآني، الذي يعزو التناسب فيه إلى (روح التركيب) في النظم القرآني. يقول: ... وهذه الروح التي أوأنا إليها، لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه، وخرج مما يطيقه الناس، ولولاها لم يكن بحيث هو، كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النظم، فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة، هي صفة إعجازه في جملة التركيب، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به

(١) ص: ١٧.

من جهات الخطاب : كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال، إلى نحوها مما يدور عليه^(١).

٧ - أما صياغة التناسب ضمن نظرية قرآنية متكاملة وهي التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، فقد أخذ (التناسق الفني) المساحة الكبرى من كتابه ونظريته، وحدد معظمه فيها. وذكر ألواناً ودرجات من التناسق (اهتدى إليها بعض الباحثين من قبل، ومنها ما لم يمسه أحد حتى الآن...) ثم عرض الألوان الأولى، وفصل المواضع الأخرى التي يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد تصويرها، وأهمية المفردة القرآنية أحياناً في الاستقلال برسم صورة شاحصة، والمقابلات الدقيقة بين الصور التي ترسمها التعبيرات، ويقف طويلاً عند مسألتين: الإيقاع الجرسى المتعدد الأنواع، المتناسق مع الجو البياني وبضمنه الفواصل والقوافي، ثم توافر أدق مظاهر التناسق الفني في الصور والمشاهد، وتقسيم الأجزاء على الرقعة المعروضة، ويتحدث هنا عن ناحيتين: وحدة الرسم بين أجزاء الصورة، ضمن إطارها المتناسب، وفي إيقاعها الخاص، وكذلك عن المدة المقررة لبقاء المشهد سريعاً خاطفاً أو بطيئاً وثيداً، متخذاً اللفظ المخيل للتكرار، أو النسق اللفظي كالتفصيل بعد الإجمال، أو الموازنة بين صورتين متقابلتين، ويختتم كلامه بقوله: وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق من التناسق والاتساق، فمن نظم بديع إلى سرد عذب، إلى معنى مترابط، إلى نسق متسلسل، إلى لفظ معبر، إلى تعبير مصور، إلى تصوير مشخص، إلى تخيل مجسم، إلى موسيقى منغمة، إلى اتساق في الأجزاء، إلى تناسق في الإطار، إلى توافق في الجرس، إلى افتنان في الإخراج.

وبهذا كله يتم الإبداع، ويتحقق الإعجاز^(٢).

(١) إعجاز القرآن: الرفاعي: ٢٨٠.

(٢) أكثر (الظلال) من بيان التناسب في السورة الواحدة.

أسباب في التناسب القرآني :

أشرت عند ترجمة أعلام التناسب إلى شيء من الأصول التي كانوا يعتمدونها ويتخذونها منطلقات يستخرجونها من القرآن بدافع تأملاتهم ونظراتهم الأدبية والفنية، ويستخدمون له علوماً شرعية ولغوية حتى أفادوا من دراساتهم الأدبية والفنية لتكوين (نظرية) جمالية عامة لها قواعدها وأبعادها وتأثيراتها ونماذجها الجمالية .

ويغلب على هذه الدواعي ارتباطها بالذوقية الفردية أكثر من تقنين علمي قانوني ورياضي، وذلك على الرغم مما وصفه بعضهم بعلم المناسبة، فالمسائل الفنية عموماً والأدبية خصوصاً تخضع لمنطق الوجدان وذوقه الذي لا يعتبر ملكة أو قدرة مبدعة إلا بالشفافية النفسية والرهافة الشعورية الخلقية، وقد زودت بالمعارف واغنت بالثقافة العامة والخاصة .

فالتناسب أو المناسبة مثل التناسق بين أجزاء الكلام واتساقه وربط بعضه ببعض برابط معنوي ولفظي . . .

وسأوجز ما أوجزه السيوطي في كتابه: الانقان، ثم أعقب على كلامه . . . فقد ذكر أن العلماء يعنون به للكشف عن رابط عام بين الآي أو رابط خاص: عقلي أو حسي أو خيالي، أو غيره من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب أو المسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه، ثم يقول: وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف، ويشبهه عندئذ بالبناء المحكم المتلائم الأجزاء . . . ثم يقسم التناسب إلى :

١ - ظاهر الارتباط ويفسره بأن كلمه متعلق ببعضه ببعض، ولا بد له من إتمام، ويقول عنه: إنه واضح، ومثله: إذا كانت الآية الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل، وهذا القسم لا كلام فيه . . . ولوضوحه لا يأتي عليه بأمثلة وشواهد . . .

٢ - خفي الارتباط: ويظهر منه أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به، ويقسم هذا النوع إلى:

أ - سياق العطف بأي حرف من حروفه (المشركة) في الحكم، وعندئذ فلا بد أن يكون بين المعطوفين جهة جامعة. كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ (الحديد: ٤)، وقوله: ﴿يَقِصُّ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٥)، ويعلله بالتضاد بين القبض والبسط، والولوج والخروج، والنزول والعروج. وشبه التضاد بين السماء والأرض، ويشبهه: ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة... ثم يقول: وقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً ليكون باعثاً على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه ليعلم عظم الأمر والناهي. ويضرب مثلاً بسور كاملة كسورة البقرة والنساء والمائدة... ولكنه لم يصرح بالمناسبة ولا التناسب فيها.

ب - السياق الخالي من العطف: وهذا لا بد له من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهي كما قال: قرائن معنوية تؤذن بالربط... ثم يذكر أسبابه الثلاثة وهي: التنظير، والمضادة، والاستطراد وتوابعه...

١ - "التنظير: وينسبه إلى الفهم العقلي ويقول: فإن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء، كقوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ...﴾ (الأنفال: ٥) عقب قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا...﴾، فإنه تعالى أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير أو للقتال وهم كارهون، ويقول موضحاً: والقصد أن كراحتهم لما فعله من قسمة الغنائم ككراحتهم للخروج، وقد تبين في الخروج

الخير من الظفر والنصر والغنيمة، وعزَّ الإسلام، فكذا يكون فيما فعله من القسمة، فليطيعوا ما أمروا به ويتركوا هوى أنفسهم.

٢ - المضادة: ويكتفي بالتمثيل عليها من غير تعريف، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...﴾ (البقرة: ٦) فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن، وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان، فلما أكمل وصف المؤمنين عقب بحديث الكافرين، فبينهما جامع وهمي، ويسمى بالتضاد من هذا الوجه، ويذكر حكمته بقوله: التشويق والثبوت على الأول، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء...

٣ - الاستطراد: ويمثل له، بقوله: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تِكْمٍ وَرِدْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ٢٦) وينقل عن الزمخشري قوله: هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوات وخصف الورق عليهما (آدم وحواء) إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس... وإشعاراً بأن السترباب عظيم من أبواب التقوى... ثم يذكر أنواعاً منه:

أ - حسن التخلص: ويعرفه: أن ينتقل مما ابتدء به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاصاً دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما، ويمثل له بسورة الأعراف التي ذكر فيها الأنبياء والقرون الماضية والأمم السالفة، ثم ذكر موسى إلى أن قص حكاية السبعين رجلاً ودعائه لهم ولسائر أمته بقوله: ﴿وَأَكْتَبْنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وجوابه تعالى عنه، ثم التخلص بمناقب سيد المرسلين بعد التخلص لأمته بقوله: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ...﴾ من صفاتهم كيت وكيت، وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، وأخذ في صفاته الكريمة، وفضائله... ثم ذكر سوراً أخرى مثل: الشعراء والكهف.

ب - الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع مفصلاً بهذا كقوله

في سورة (ص) بعد ذكر الأشياء: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (الآية: ٤٩) فإن هذا القرآن نوع من الذكر، لما انتهى من ذكر الأنبياء وهو نوع من التنزيل أراد أن يذكر نوعاً آخر وهو ذكر الجنة وأهلها، ثم لما فرغ قال: ﴿هَذَا وَاتَّكِ لِلطَّالِعِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ (الآية: ٥٥) فذكر النار....

ج - حسن المطلب: ونقل عن الزنجاني والطبي تعريفه: وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ثم ذكر آيات أخرى تخفى مناسبتها واختلف المفسرون فيها.

٤ - "المناسبة في فواتح السور وخواتمها: ويمثل لها بسورة القصص حيث بدأت بأمر موسى ونصرته وقوله: ﴿فَلَنَ أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾، وخروجه من وطنه، وختمت بأمر النبي ﷺ ألا يكون ظهيراً للكافرين، وتسليته عن إخراجهم من مكة، ووعدته بالعودة إليها لقوله في أول السورة: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ...﴾، ونقل عن الزمخشري التناسب في سورة (المؤمنون) فقد جاء في فاتحتها ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وأورد في خاتمتها ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ثم يقول: فستان بين الفاتحة والخاتمة.

ونقل عن الكرمانى مثله في سورة (ص) وقال: بدأها بالذكر وختمها به في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، وفي سورة (ن) بدأها بقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ وختمها بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَجُنُودٌ﴾.

٥ - "المناسبة في السور القرآنية: مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها، حتى إن منها ما يظهر تعلقها به لفظاً في ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ﴿لَا يَلْفِ قَرِيشٍ﴾ قال الأخفش: اتصالهما من باب ﴿فَالنَّقْطَةُءَالْفِرْعَوْنَ﴾ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوٌّ وَحَرَزَانًا﴾ (القصص: ٨). ونقل عن الكواشي المناسبة بين أول المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وبين خاتمة (النساء) الذي ذكر الله فيها الأمر بالتوحيد والعدل بين العباد....

وكافتتاح سورة (البقرة) ﴿الْمَ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴿وسورة (الفاتحة) قبلها بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه هو الكتاب... ثم يذكر لطائف سورة (الكوثر) أنها كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر فيها في مقابلة البخل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة «فصل» أي دم عليها، وفي مقابلة الرياء «لربك» أي لا لإرضاء الناس، وفي مقابلة (منع الماعون): «وانحر» وأراد به التصديق بلحم الأضاحي... وكأنه استنتج فيما بعد أسباباً عامة توضح أن القرآن كله توقيفي: ومنها: سبب الحروف الأولى كما في الحواميم، والثاني: لموافقة السورة لآخر ما قبلها كما سبق بين الفاتحة والبقرة، والثالث: للتوازن في اللفظ كآخر (تبت) وأول (الإخلاص). والرابع: المشابهة بين الجمل في السورتين كـ (الضحى) و (ألم نشرح...) ثم ذكر المناسبة بين السور الأربع الطوال: (البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة).

من لطائف المناسبات وعجائبها:

وبنّه كثير من العلماء إلى التأمل في (المقطعات) من الحروف التي افتتح الله بها بعض السور القرآنية، ويربطون بينها وبين آيات السورة من ناحية وبينها وبين الإعجاز القرآني من ناحية ثانية.

١ - "المناسبة بين الحروف والقرآن: يقول السيوطي: إن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن، كقوله: ﴿الْمَ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴿(البقرة)﴾ ﴿الْمَ ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ ﴿(آل عمران)﴾ ﴿الْمَصَّ ١﴾ كُنْتُ أَنْزِلُ إِلَيْكَ ﴿(الأعراف)﴾ ﴿الرَّ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴿(يونس)﴾ ﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿(طه)﴾

﴿طَسَمَ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴿الشعراء﴾ و ﴿القصص﴾ ﴿يَس﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿يَس﴾، ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿صَ﴾، ﴿حَمَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴿غافر، الجاثية، الأحقاف﴾، ﴿قَّ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ﴿قَ﴾. ويستثنى من ذلك ثلاث سور: (العنكبوت والروم ونَّ)

٢ - "المناسبة بين الحروف وسورها: يقول السيوطي في اختصاص كل واحدة بما بدئت به حتى لم يكن لترد (آلم) موضع (آلر) ولا (حم) في موضع (طس): إن كل سورة بدئت بحرف منها فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها، فلو وضع (قَ) موضع (نَّ) لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله. وسورة (قَ) بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف من ذكر القرآن، والخلق، وتكرير القول، ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد والرقيب والسائق، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، والقلب، والقرون، والتنقيب في البلاد، وتشقق الأرض، وحقوق الوعيد، وغير ذلك.

وقد تكرر في سورة يونس من الكلام الواقع فيها (آلر) مثناً كلمة أو أكثر، فلهذا افتتحت بـ (آلر).

واشتملت سورة (صَ) على خصومات متعددة: فأولها: خصومة النبي ﷺ مع الكفار، وقولهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ ثم اختصاص الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصاص الملأ الأعلى، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم، ثم في شأن بنيه وإغوائهم.

و(آلم) جمعت المخارج الثلاثة: الحلق واللسان والشفيتين على ترتيبها، وذلك إشارة إلى البداية التي هي بدء الخلق، والنهاية التي هي بدء المعاد، والوسط الذي هو المعاش، من التشريع بالأوامر والنواهي، وكل سورة افتتحت بها فهي مشتملة على الأمور الثلاثة.

وسورة (الأعراف) زيد فيها (الصاد) على (آلم) لما فيها من شرح القصص: قصة آدم فمن بعده من الأنبياء، ولما فيها من ذكر ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ولهذا قال بعضهم معنى (آلمص) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وزيد في الرعد (راء) لأجل قوله: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ ولأجل ذكر (الرعد، والبرق) وغيرهما....

تعقيب على نظرية التناسب القرآني:

لم يقدم السيوطي هنا نظرية مبتكرة في قضية التناسب القرآني وإنما كان يمثل الاتجاه العام لدى العلماء، فقد زاد أمثلة ووضح أسباباً وابتكر حكماً وعللاً في المستوى الذي وصلت إليه هذه القضية، ولكنه إذ استوعب المصادر والمعارف فإنه كان أقدر على تصنيف أسبابه وإيضاح نماذجه التي اقتبس بعضها من كتب التفسير والبلاغة والتناسب التي سبقت عصره وعينت به أعظم العناية.

ولذا فإن من الضروري أن نفيد من استقصائه وإيضاحه وتصنيفه، فقد كان جماعة للعلم والمعرفة والآداب والفنون المختلفة، ولكننا نرى إيراد بعض التنبيهات التي تلقي أضواءً على التناسب لدى السيوطي: في عصره وما قبل عصره.

١ - إن السيوطي وغيره يضعان (التناسب) ضمن (علوم القرآن) أو فرعاً منه، وهو أيضاً (علم) مستقل لدى البقاعي برهان الدين إبراهيم بن عمر (ت ٨٥٥ هـ) وغيره، وهذا وإن أوهن ربطه بالإعجاز القرآني حسب تصنيفه وتقسيمه في (الإتقان)، فإن ربطه بالجمالية واضح في: إحكام البناء وتلاحم الأجزاء وتناسبها كما قيل في تعريفه. والعلمية المستقلة أو التابعة عرفاً تضعف الجانب الدوقي الوجداني في تلمس الجمالية القرآنية باعتبارها (أسباباً) تقنن، ولكن الإشارات الجمالية تلهم أنه لا تعارض بين العلمية والجمالية المتسقتين في التناسب القرآني.

٢ - الإشارات إلى التناسب الجرسى لا تكفي لإبرازه جانباً واضحاً في التعبير الفني القرآني سوى ما ذكره السيوطي عن (التوازن اللفظي) بين سورتي (المسد والإخلاص)، ولكنه إذ شرح إلى حد ما الجمال الجرسى في القرآن ضمن كلامه عن الفاصلة القرآنية فإن التركيز على التناسب (المعنوي) أو (الموضوعي) بين الآيات والسور يقلل هنا من أهمية الجرس الصوتي والإيقاع الفاصلي الذي يعتبر ركناً في جمالية القرآن وتناسقه.

٣ - التعليقات الواردة في التناسب بين الحروف المقطعة وسائر السور التابعة لها تدل على عمق في الفهم الفني للقرآن الكريم، وحين تتبعها العلماء بصبر كبير فإنهم وجدوا (لطائف) و (عجائب) في تناسب بعضها ببعض، وهو كشف أدبي وعددي أو ما يشبهه متقدم على النظرات الحديثة التي تنوّه بالإعجاز العددي للقرآن الذي لم يكتمل في كثير من صورته^(١).

وإن ما آثرت أعلام معاصرة من مثل هذا الإعجاز لم يلتزم بعضه بالأمانة العلمية فنسب ذلك إلى نفسه وحدها وإلى عبقريته الفنية بمفردها، فلم يعترف بأن للمسلمين جولات موفقة في هذا الميدان البكر.

وعلمائنا الأقدمون اجتازوا فيه مرحلة طيبة موفقة ناجحة. ولكن يصعب أحياناً أن يتم (التطابق) بين العلة أو الحكمة وبين التمثيل أو الشاهد. فمثلاً إذا صح أن معظم كلمات سورة (ص) فيها حرف (الصاد) وأن أكثر من مئتي كلمة فيها حروف (آل) من سورة (يونس) فكيف نطبق ذلك على سورة

(١) نعم نجد معان قرآنية متوازنة العدد مثل: (الدنيا والآخرة) فقد وردت كل منهما ١١٥ مرة، و (الملائكة والشياطين) لكل منهما ٦٨ مرة، ولفظة (اعبدوا) للناس جميعاً وللمسلمين وللأقوام السابقة... والموضوع كما أشرت يستوعب إحصاء ودراسة جماعية وموضوعية في ألوان جمالية مبدعة، ويستحق من الدارسين - وقد بدأها بعضهم - مزيداً من الجهد والتفرغ.

(مريم) المفتحة بقوله ﴿كهيعص﴾، وسورة (الشعراء) المفتحة بقوله ﴿طسم﴾، وسورة (الشورى) المفتحة بقوله ﴿حم﴾ ﴿عسق﴾؟.

٤ - وأخيراً: فما ذكر من التعليل في قوله ﴿آل﴾ حسب مخارجها وتطبيق ذلك على موضوعات القرآن هو اجتهاد خاص بالسور التي تبدأ بها، وكذلك إكمالها في قوله ﴿آلمص﴾ و﴿آلمر﴾، فإن سوراً أخرى مثل: (المائدة والأنفال والنساء والتوبة والحج والنور) احتوت على هذه الموضوعات نفسها وربما زاد بعضها أموراً أخرى، ولكنها لم تفتح بمثل ما افتتحت به السور في الحروف المقطعة السابقة، ثم إننا لسنا جازمين تماماً أن التناسب في سور أخرى والتي بدئت بحروف مقطعة مخالفة، لم تتضمن تلك السور الموضوعات نفسها، وتحتاج القضية إلى مزيد من الدرس.

ولكن لا بد لي من أن أنوه بالنظرة التأملية الجمالية في تناسق القرآن لدى علمائنا، وإبرازها في حدود (علمية) و(سببية) تضيف عليها جمالاً علمياً أو علماً جمالياً في البيان القرآني.

وقد فتحت هذه النظرة الثاقبة آفاقاً جديدة من التناسق الجمالي في الدراسات الحديثة الأدبية الجادة، فتنوعت صوره وتلونّت أبعاده حتى أضحت قاعدة فنية ترى بوضوح في النسيج القرآني المتلاحم، وفي بنائه المحكم.

* * *

القرآن والسنة يوجهان إلى التناسب

في مقاصد القرآن الكريم:

القرآن الكريم (حياة) المسلمين و (ذكرهم) و (روحهم) و (نورهم) و (شفائهم) و (موعظتهم) و (ذكر مبارك) و (حكمة بالغة).

هو (وحي الله) و (قول فصل) و (بصائر للناس) و (بيان لهم) و (علم حق) و (أحسن الحديث) (بشير، نذير) (مجيد) و (عزيز) و (فرقان).

إنه (كتاب عزيز) و (بلاغ للناس) و (تذكرة) و (العروة الوثقى) و (حبلى الله المتين) (قرآن عجب) (في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة)

وأسماء وصفات أخرى تدل بمجموعها على (مقاصده وأهدافه) التي يمكن إجمالها في: (الهداية والتربية القرآنية) (هدى للمتقين) و ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١).

ويمكن تفريع هذه الهداية المقصد الأعظم إلى: هداية العقائد الصحيحة، وهداية العبادات المشروعة، وهداية الفضائل النفسية والاجتماعية، وهداية النظم والتشريع لجميع نواحي الحياة.

وعلى هذا فإن الهداية تعني تربية الفرد والمجتمع تربية فكرية وشعورية وجسمية ونظامية، وتنشئهم بشخصية قرآنية مقتدية بالرسول عليه الصلاة والسلام الذي كان خلقه القرآن، وبالجيل القرآني تلامذته وتربيته.

وما دامت المقاصد واضحة في القرآن، ومعلنة في آيه فإن (التناسب) مسألة ضرورية لتحقيق هذه المقاصد تحقيقاً تصورياً وعملياً وجمالياً.

إن تحديد أهدافه الكبرى والصغرى يعني بالضرورة أن تتسق (أغراضه) و(معانيه) و(موضوعاته) مع هذه الأهداف، وإلا فكيف ينتزل كتاب معجز من الله خال من التآلف والانسجام مع وضوح الغايات وتحديدها؟.

فالقرآن بناء محكم الأركان شامخ الذرى رحب المجال غزير العطاء، صاغته كلمات الله بجمالية وجلالية فذة، وأدبية فنية رائعة... إنه (نسيج) متآلف متلاحم ينبض بالحياة ويمنح الحياة، ويزخر بالسمو الفكري والخلقي، ويهدي إليه، ويتحدى جميع البشر ببيانه وعلمه وتربيته وتشريعته ووجوه إعجازه.

١ - القرآن الكريم ينبه إلى تناسب آيه وسوره:

فتصرح آية مكية بإحكام الآيات القرآنية وبتفصيلها من الله ﴿كَتَبَ أَحْكَمَتْ أَيْتُهُمْ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (هود: ١) فالقرآن وصف بإحكام الآيات وتفصيلها، وواضح أن القرآن لم يصرح بالسور وإن كان يفهم ذلك ضمناً، وهذا يعني بالتأكيد أن الإحكام والتفصيل هنا ينصب على الآيات والسور المكية صراحة، ويصح أن يسري ذلك على سائر القرآن وهو (خير ما توصف به الجملة القرآنية، فهي بناء قد أحكمت لبناته، ونسقت أدق تنسيق، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع أخواتها، حتى صار من العسير بل من المستحيل، أن تغير في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغني فيها عن لفظ، أو أن تزيد فيها شيئاً، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة في القرآن، أن ترجع بعد طول المطاف إليها، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعاني، غير هذه الألفاظ، وكأنما ضاقت اللغة، فلم تجد فيها، وهي بحر خضم، ما تؤدي به تلك المعاني غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء.

والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي، فتصوره بألفاظها، لتلقيه في النفس حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى، ظاهراً فيه المهم والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، وإلا اختل وانهار^(١).

وآية مكية أخرى توضح تشابه القرآن وتأثيره في القلوب ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ نَقَّشَ غُرْمَهُ جُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لُومٌ هَٰذَا﴾ (الزمر: ٢٣) فالقرآن يشبه بعضه بعضاً ولا اختلاف فيه ولا تضاد بين آياته.

يقول الرازي: ... كتاب منزّه عن التناقض... ومثل هذا الكتاب إذا خلا من التناقض كان ذلك من المعجزات... ثم نقل عن ابن عباس أنه يشبه بعضه بعضاً كما سبق، ثم يعدد وجوه التشابه ويذكر منها: أن كل ما فيه من الآيات والبيانات فإنه يقوي بعضها بعضاً، ويؤكد بعضها بعضاً...

وآية مدنية تنبه إلى استواء سور القرآن وآياته، واستقامة موضوعاته ومعانيه بعضها مع بعض ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، والربط بين تدبر القرآن واستوائه يوضح التنبيه القرآني لمواضع التناسب فيه. وهذا يعني أن القرآن المدني مثل المكي أحكمت آياته وتماسك بنيانه، وتوحد نسيجه.

يضاف إلى ما سبق أن (نجوماً) قصيرة وطويلة كانت تنزل على رسول الله ﷺ، وأن سوراً مكية ومدنية من طوال المفصل ومتوسطه وقصيره كانت تنزل دفعة واحدة، مما يدل على وحدتها وتناسب آياتها، فمن غير

(١) د. بدوي. السابق: ١٠٥.

المعقول أن ينزل نجم قرآني واحد، وفي موضوع واحد، ولكن في آيات متقطعة. وكذلك فإن من الأسلوب المتنافر أن تتعدد أغراض سورة واحدة ومن ثم تتعارض تعارضاً يؤدي إلى انقطاع صلاتها وانعدام ارتباطها، وقد أنزلها الله دفعة واحدة، فهل يعقل أن تنقطع هذه الصلات والارتباطات بين أغراضها؟.

وقد عدّ السيوطي إحدى عشرة سورة نزلت كل منها مرة واحدة وهي: (الفاتحة، والإخلاص، والكوثر، وتبت، ولم يكن، والنصر، والمعوذتان) (نزلتا معاً)، ومنه في السور الطوال: (المرسلات، والصف، وأخيراً سورة الأنعام)^(١).

وإذا تأملنا في هذه السور نجد المكي يغلب المدني، والسور القصيرة أكثر من الطويلة، وأن (المعوذتين) في موضوع واحد، وأن قصار السور كل منها في قضية محددة، وهذا يعني أيضاً أن طوالها لا بد أن تكون موضوعاتها متناسبة إن تعددت هذه الموضوعات.

وإذا تتبعنا مادة (سورة) في القرآن نجد التصريح بنزولها في العهد المكي والمدني في الطوال والقصار على السواء... وقد وردت هذه المادة تسع مرات صرحت فيها الآيات بنزول (السورة)، وإن كان من المحقق أن بعضها نزل نجوماً.

فالتحدي القرآني يتمثل في سورة واحدة لا يمكن الإتيان بمثله. ففي آيتين إحداهما مكية والأخرى مدنية تصرح بهذا التحدي. يقول الله في السورة المدنية: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣) ويقول في السورة المكية: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

(١) الإتيان: ٣٨/١.

صَلِّقِينَ ﴿ (يونس: ٣٨).

وفي آية واحدة كررت (السورة) مرتين يصرح بالإحكام في أحدها ويذكر فيها القتال وموقف مرضى القلوب منه بارتياح الناظر وغشية الميت ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ﴿ (محمد: ٢٠).

وفي مطلع سورة النور يقول الله فيها: ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَاهَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النور: ١) إننا نلاحظ الربط بين إنزال هذه السورة وفرضها وبين إنزال الله فيها آيات بينات. فسورة النور وحدة في موضوعها كلها وإن اختلفت مرات النزول. . . . فأما قصة الإفك ففيها سبع عشر آية يرجح أنها نزلت دفعة واحدة. . . .

ولكن سورة التوبة وحدها ذكر الله لفظه (السورة) في أربع آيات تبين جميعها مواقف المنافقين من الجهاد والصدقات والأعمال الإسلامية الهامة، ويصرح بعضها بالمنافقين، وبعضها بصفاتهم من الغنى والاستهزاء والرجس والتخوف على الأنفس والأموال ويجمع بينها كلها التصريح بإنزال سورة فيهم ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَخَبِيرٌ بِمَا تَحْذَرُونَ ﴾ (٦٤) و ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجْهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ (٨٦)، و ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (١٢٤) و ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ

قُلُوبِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾.

ومما سبق نستنتج:

١ - التحدي بالسورة الواحدة من سور القرآن لا يقع أو لا يمكن أن يقع إلا إذا كانت السورة مكتملة البناء متناسقة الآيات، متآزرة المعاني معجزة البيان وإلا فكيف يصح التحدي في سورة مقطعة متنافرة ضعيفة؟.

٢ - إن إطلاق اسم (السورة) على طائفة من القرآن لها بداية وخاتمة قديم منذ العهد المكي واستمر إلى العهد المدني، وهذا يعني وجود سور كاملة سواء نزلت دفعة واحدة كما سبق أو منجمة حسب الوقائع والحاجات.

٣ - (السورة) في (التوبة) تتحدث آياتها عن المنافقين الذين نزلت فيهم سورة مستقلة منفردة هي سورة المنافقين وكان نزولها قبل التوبة على الراجح، وعلى هذا فإن التأكيد على إنزال سورة فيهم يدل على السورة الكاملة أو جزء منها.

٤ - إن التناسب في آيات السورة الواحدة قد نبّه إليه القرآن بنزول سور كاملة دفعة واحدة أو بتوجيه الأنظار إلى بيان الحكمة من الأحكام التشريعية، أو بالتصريح بنزول سورة أو بعضها في موضوعات التحدي وفرض التشريع ومعالجة الفئات المنحرفة المتظاهرة بالإسلام.

هذا من حيث النظرة العامة للسور والآيات، أما من حيث التدبر في نصوصها فإن كثيراً من الآيات تنبه تصريحاً إلى الحكمة من الحكم، وإلى بيان الحكم في المسألة، أو المسائل....

(تأمل الصلة القوية بين هاتين الآيتين، وهي صلة الربط بين الحكم وحكمته في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ وَالْحَرْبُ وَالْعَبْدُ وَالْعَبْدُ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَائْتِباعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾. ويصف الكتاب ثم يحبب في اتباعه مبغضاً إلى النفوس صورة منكربه، فيقول:

﴿الْمَ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾. ويعقب توحيد الله بدلائل هذا التوحيد في قوله: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١١٣﴾﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١٤﴾﴾ (١).

ويتضح هذا أكثر في معظم آيات الشريعة العقدي والعبادي والمالي والجنائي والخلقي (٢) حين نعمم مصطلح الشريعة.

٢ - توجيه الرسول ﷺ إلى التناسب:

فقد كانت توجيهات الرسول القولية والعملية المباشرة وغير المباشرة تلهم التأمل في تناسق الآيات القرآنية.

(١) د. بدوي. السابق: ٢٣٣.

(٢) انظر مثلاً: آيات الصلاة والزكاة، والحج، والصوم، والمداينة، والربا، وتحريم الخمر، وصيد المحرم، وقتل النفس بغير حق...

نقل ابن حجر أنه لا خلاف في أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله تعالى، وعلى ذلك نقلته الأمة عن نبيها ﷺ، ويقول: وأما ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكوساً فالمراد أن يقرأ من آخر السورة إلى أولها، وكان جماعة يصنعون ذلك في القصيدة من الشعر مبالغة في حفظها، وتذليلاً للسانه على سردها، فمنع السلف ذلك في القرآن فهو حرام فيه^(١)، وصرح بعضهم أن ذلك ينافي الإعجاز القرآني.

ونقل أيضاً عن أحمد وأصحاب السنن حديث ابن عباس في عدم الفصل بين سورتي (الأنفال والتوبة)، وعن عثمان قوله: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما ينزل السورة ذات العدد، فإذا نزل عليه شيء - يعني منها - دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا... إلى أن يقول: وكانت (الأنفال) قصتها شبيهة بها^(٢).

وزاد في (المصاحف): وإذا أنزل عليه الآية يقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا^(٣)...

إن في تعيين موضع الآية أو الآيات في السورة دليلاً على ترتيب السورة التوقيفي الذي يلهم ربط الآيات بما قبلها ربطاً معنوياً وجمالياً.

وفي الحديث السابق ما يشير إلى هذا الربط المتلائم بين آيات السورة فالرسول يأمر أن يحدد موضع الآيات الجديدة في السورة التي تحتوي على الموضوعات المعينة، وكذلك قول عثمان رضي الله عنه بالشبه بين سورتي (الأنفال والتوبة) حتى إنه لم يفصل بينهما.

(وقال البغوي: وكان رسول الله ﷺ يلقي أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو عليه الآن في مصاحفنا بتوقيف

(١) فتح الباري: ٤٠/٩.

(٢) (٣) ص: ٣٩.

(٢) المصدر السابق: ٤٢/٩.

جبريل إياه على ذلك وإعلامه عند نزول كل آية : إن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا... (١).

ومن التوجيهات العملية ما نقله السيوطي من الصحاح والسنن أن رسول الله ﷺ كان يقرأ سوراً عديدة في صلاته كسورة (البقرة، وآل عمران، والنساء)، في حديث حذيفة، و(الأعراف) في صحيح البخاري، أنه قرأها في المغرب، و(قد أفلح)، روى النسائي أنه قرأها... (والروم) روى الطبراني أنه قرأها في الصبح، و(آلم تنزيل)، و(هل أتى على الإنسان)، روى الشيخان أنه كان يقرأها في صبح الجمعة، (ق)، في صحيح مسلم أنه كان يقرأها في الخطبة، و(الرحمن)، في المستدرك وغيره، أنه كان يقرأها مع (ق)، في العيد، و(الجمعة والمنافقون)، في مسلم أنه كان يقرأ بهما في صلاة الجمعة، و(الصف)، في المستدرك، عن عبدالله بن سلام أنه ﷺ قرأها حين أنزلت حتى ختمها في سور شتى من المفصل (٢).

وفي البخاري أنه ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ: (قل هو الله أحد، والمعوذتين)...

إن سوراً عديدة كان الرسول ﷺ يقرأ بها وبخاصة في الصلوات الجهرية، والمسلمون يتابعونه فتترسخ هذه السور في أذهانهم فيحفظونها سماعاً من رسول الله ﷺ، ويتأملون بها في صلواتهم فتزيدهم خشوعاً.

ومن ناحية ثانية فقد كان الرسول ﷺ يختار سوراً معينة يقرأها في أوقات وأيام مخصوصة لما فيها من العظات والعبر التي تتلاءم معها، مثلاً: السور التي كان يقرأ بها في (الجمعة) و(العيد)، وفي (الصبح) و(المغرب)، وفيها إشارات إلى وحدة موضوعها أو تناسبها ضمن الإطار الوعظي.

ومن الآيات التي ورد نص في تعيينها قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

(٢) السابق: ٦٢/١.

(١) وانظر الإنشقاق: ٢٦٣/١.

وَالْإِحْسَنَ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ
يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ فقد أخرج أحمد بإسناد حسن عن عثمان
ابن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذا شخص ببصره ثم صوبه
ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة».
وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا...﴾ قال عثمان لابن
الزبير وقد سأله عنها فقال عثمان: يابن أخي لا أغير شيئاً من مكانه.

وعن عمر من حديث مسلم قال: ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما
سألته عن الكلاله حتى طعن بأصبعه في صدري، وقال: تكفيك آية (الصيف)
التي في آخر سورة (النساء) ^(١).

وآخر آية نزلت على الرسول ﷺ قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فأمره جبريل أن يضعها بين
آيتي الربا والدَّيْنِ ^(٢).

وكانت صحف الصحابة مرتبة على ذلك، ففي حديث عائشة حين
سألها العراقي عن مصحفها قال يوسف بن ماهك: فأخرجت له المصحف
وأملت عليه أي السور ^(٣).

وحديث زيد بن ثابت المشهور في جمع الصحف، يقول فيه: فتبعت
القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال ^(٤).

(١) وأحمد ٣٨/١ مختصراً، وقوله: تكفيك آية الصيف... أي أنها نزلت في
الصيف. ابن كثير في تفسيرها.

(٢) ٦٤، ٦٢/١. وانظر تخريجه.

(٣) البخاري: فضائل القرآن. تأليف القرآن: (٤٩٩٣).

(٤) البخاري في المصدر السابق: ٤٩٨٦.

وتدل نصوص أخرى أن الترتيب التوقيفي لم يقتصر على الآيات وحدها وإنما تناول ترتيب السور بعضها مع بعض أيضاً. ففي حديث ابن مسعود كان يقول: في (بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء): إنهم من العتاق الأول، وهن من تلادي^(١). وترتيبها في المصحف هو الترتيب المذكور ذاته.

ونقل ابن حجر عن أحمد وأبي داود وغيرهما عن أوس بن أبي أوس حذيفة الثقفي قال: كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف، فذكر الحديث، وفيه، فقال لنا رسول الله ﷺ: طرأ علي حزبي من القرآن، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه قال: فسألنا رسول الله ﷺ: «كيف تحزبون القرآن؟» قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من (ق) حتى نختم...»^(٢).

ويقول السيوطي: ومما يدل على أنه توقيفي، كون (الحواميم) رتبت ولاء، وكذا (الطواسين)، ولم ترتب (المسبحات) ولاء، بل فصل بين سورها، وفصل بين (طسم) الشعراء، و(طسم) القصص، بـ(طس)، مع أنها أقصر منها، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت (المسبحات) ولاء، وأخرت (طس) عن القصص... ثم يقول: والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا (براءة) و(الأنفال)^(٣).

ونصوص وأقوال أخرى تنبه إلى الترتيب والتناسق القرآني الذي يقصد منه التأمل في آيه وسوره لتأكيد الإعجاز والكشف عن جماليات التناسق والانسجام بينها.

ونقل السيوطي عن أحمد حديث وائلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال:

(١) البخاري في المصدر السابق: ٤٩٩٤.

(٢) فتح الباري: ٤٢/٩.

(٣) الإتيقان: ٦٥/١ والجمهور على أن ترتيب السور اجتهادي.

«أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل».

وقال بعض السلف: في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس ودبابيج ورياض. فميادينه: ما افتتح بـ (آلم)، وبساتينه: ما افتتح (آلمر)، ومقاصيره: الحامدات، وعرائسه: المسبحات، ودبابيجه (آل عمران)، ورياضه: المفصل^(١).

إن هذا التصنيف الجمالي يجلي رواء كل مجموعة لتأملات الجمالية الخاصة، وينوّه بالنظرات الرائعة فيما بينها من التلاحم المعنوي والتناسب الجمالي، ويدل على حسّ مرهف يستوعب أبعاد الحسن في القرآن معنى وبياناً. إنها رؤى عميقة في الأفكار وجمالياتها معاً.

التناسق الصوتي والتناسب اللفظي والترتيلي:

فقد تذوق العرب الألحان بفطرتهم، واستعملوا (الحداء) لأسفارهم وتأثروا بالقرآن لما فيه من عمق المعنى وصدقه وحلاوة اللفظ ودقته وطلاوته وإيقاعه. وكان الشعر العربي الموزون المقفى أثمن شيء يحرصون عليه، وأمتع كلام تسمعه آذانهم وتستطيعه قلوبهم، فجعلوا القرآن منه جرساً وإيقاعاً. وانفعلوا بهما مثل ما انفعلوا بمعانيه ومضامينه.

ووصف أدباؤهم الألحان أنها مراد السمع ومرتع النفس، وربيع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكتيب، وأنس الوحيد وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذ به مجامع النفس....

ونقل عن أفلاطون قوله، ألا ترى أن أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان فاستراحت لها أنفسهم وليس من

(١) الإتقان: ٥٨/١.

أحد كائناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ويعجبه طنين رأسه . . ولو لم يكن له من فضل الصوت إلا أنه ليس في الأرض لذة تكتسب من مأكّل أو ملبس أو مشرب أو نكاح أو صيد إلّا وفيه معاناة على البدن وتعب على الجوارح لكفى . وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خير الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب حتى إن البهائم لتحنّ إلى الصوت وتعرف فضله . . . والنحل أطرب الحيوان كله إلى الغناء وإن أفرأخها لستنزّل بمثل الرّجل والصوت الحسن^(١).

ومن الإحساس الشخصي والتأثر الفردي المبالغ فيه ما كان يخص (شوبنهور) (١٧٨٨ - ١٨٦٠) الموسيقى بقوله: ولكن فوق جميع هذه الصور الفنية التي تعبر عن مثل المادة، والحياة والإنسانية، تكمن صورة الصور، مثال المثل، الفن الذي يمتزج بالكون نفسه: الموسيقى. فالعالم موسيقى مجسّدة، بقدر ما هو إرادة مجسّدة. ويضيف بهذه التأثيرية الفردية المغرقة: بأن في الموسيقى شيئاً صميمياً يتأبى على الوصف، وهي لذلك تمرّ بنا كأنها صورة حية مألوفة . . . إنها بالنسبة لنا مفهومة تماماً، وفي الوقت نفسه غير قابلة للتفسير . . . وهي لا تعبر عن المثل فقط بل إنها موازاة لها^(٢).

وكان ابن الأثير سبق إلى القول: ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل ويميل إليه، ويكره صوت الغراب وينفر منه؟ والألفاظ على هذا المجرى، فلفظ: المزنّة أو الديمة حسنة يستلذها السمع، ومألوفة الاستعمال، ولفظة: البعاق يكرهها السمع، وهي نادرة الاستعمال، مع أن الألفاظ الثلاثة من صفات المطر، . . .

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد: الياقوتة الثانية في الألحان واختلاف الناس فيه: ٨٨/٤.

(٢) دني هويسمان: علم الجمال: ٧٨.

ويقول: ومن يبلغ به جهله ألا يفرّق بين لفظة: الغصن، ولفظة: العُسلوج، وبين لفظة: المدامة، ولفظة: الإسْفَنط، وبين لفظة: السيف، ولفظة: الخنْشَليل، وبين لفظة: الأسد ولفظة: الفدوكس، فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب، ولا يجاوب بجواب، بل يترك شأنه...

ويقول: كل عارف بأسرار الكلام من أي لغة كانت من اللغات يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائعة، يلذها السمع، ولا ينبو عنها الطبع خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع^(١).

ولا ريب أن هذا عائد إلى (الاتفاقات الصوتية) بين الحروف والكلمات، ينشأ منها (التجانس) الموسيقي البديع. وكذلك فإن (التوافق) بين هذه الحروف والكلمات تؤدي إلى التناسب فيما بينها تناسباً ملائماً للأذن وللعين، ترتاح له النفس والوجدان

أما إذا (تنافرت) الكلمات والحروف، فلم تعد كل منها ملائمة للأخرى فإن الاضطراب الموسيقي وعدم التسلسل الوزني الرتيب يخل بجماليات الألفاظ والتراكيب.

والإيقاع فرع من التأليف الموسيقي ونسجه، وعرفه أهل الصنعة: نظم حركات الألحان وأزمنة مداتها الصوتية في طرائق موزونة تصاحب اللحن بدقات مختلفة بالكيفية وبالكمية وذلك حفظاً له من التفكك والانطلاق^(٢).

ويقولون^(٣): إن الإيقاع على فترات مألوفة متساوية.. ظاهرة مألوفة في طبيعة الإنسان نفسه، فبين ضربات القلب انتظام، وبين وحدات التنفس انتظام. وبين النوم واليقظة انتظام، ومن الواضح أن هذا الإيقاع الفطري فينا هو ما يجعلنا نتوقعه في مدركاتنا، ونستريح إذا وجدناه.. ويصيبنا القلق إذا

(١) المثل السائر: منتقاة من: ٢١٩/١-٢٢٢.

(٢) الموسوعة العربية الميسرة. (٣) الفن الإسلامي: ١٠٨، ١٠٩.

فقدناه.. ومن هنا كان الوزن في الشعر، وكانت «السيمترية» في العمارة والتوازن الإيقاعي في التصوير والموسيقى.. فالإنسان جزء من الطبيعة، وخاضع لقوانينها، وتفاعله مع بيئته، هو المصدر- المباشر أو غير المباشر- لكل خبرة.. كما أن البيئة هي الأصل الذي تنبعث منه تلك الصدمات والمقاومات والمساعدات والاتزان التي تكون الصورة حينما تتلاقى مع طاقات الكائن الحي على نحو ملائم.. والخاصية الأولى التي إذا توافرت في العالم المحيط بنا، أمكن قيام الصور الفنية إنما هي الإيقاع Rhythm.. وما من شك أننا لو نظرنا إلى ضروب الإيقاع في الطبيعة لوجدنا أنها وثيقة الصلة بشروط بقاء الإنسان نفسه.. وهكذا أصبح الإيقاع ضرورة بيولوجية لحياة الإنسان، وأصبح كل عمل يؤديه لا بد أن يكون خاضعاً لنوع من الإيقاع.. فهو في أثناء عمله يقطع ويدق ويسحق وينقر ويشكل، وكلها تمثل سلسلة من الإيقاعات، فيها مشاركة لإيقاعات الطبيعة.. ولا بد أن تكون هناك إيقاعات كبرى هي الإيقاعات الكونية، وإيقاعات صغرى هي الإيقاعات اليومية، وهي جزء من الإيقاع الكبير، تخضع للنظام الرتيب نفسه الذي يميز هذا الوجود.. ومعنى ذلك أن وراء الإيقاع في كل عمل فني يكمن، كطبقة في أعماق اللاشعور، ذلك النموذج الأصلي لعلاقات الكائن الحي ببيئته.

وإن كل عنصر من عناصر العمل الفني: كالخط واللون والنور والظل وملامس السطوح والحيز.. لا بد أن يحقق نوعاً من الإيقاع في ذاته ومع سائر العناصر الأخرى التي تُكوِّن وحدة العمل الفني.

والإيقاع في الفن الإسلامي يعتمد على التماثل والتناظر والتبادل، كما يعتمد على الخط اللين والهندسي، وتعدد المساحات في توزيعها وتنوعها.. والإيقاع الخطي متراقص يوحى بالمسرة.

ونقلوا عن أرسطو أقدم من تحدث في التناسب الموسيقي والإيقاعي: نحب الإيقاع الموسيقي، لأنه خليط من عناصر متنافرة تتقابل فيما بينها تبعاً

لنسب معينة، وهذه النسب تمت بطبيعتها إلى النظام، والنظام مستحب مادياً منا، ويعقب (هويسمان) على قوله: إيقاع، انسجام، قياس أو تناسب، كل ذلك مرده في النهاية إلى النظام^(١).

وقد أدرك الجماليون الغربيون قيمة (القرآن) الجمالية من حيث الجرس والإيقاع، ونوهوا بهذه القيمة في كثير من الأحيان.

يقول سوربو: ... ويؤلف القرآن مجموعة الآيات التي تحدد الديانة الإسلامية، والتي تعتبر قيمتها الجمالية، من حيث مناخها الغنائي العام، وإيقاعها الموسيقي المؤثر في صلب النشاط الثقافي...^(٢).

وصرح علماء البلاغة الأقدمون بالتناسب اللفظي الصوتي الفريد في القرآن بحيث أنه لا يمكن أن توضع كلمة بدل اللفظة القرآنية حتى وإن كانت تلك اللفظة من المترادفات في المعنى فإنها لا تؤدي دقة ولا مقدار المعنى ذاته، وتركيب حروفها لا يفي بالغرض الصوتي في سياق الجملة القرآنية ولا تنسجم مع التركيب القرآني في جرسه الداخلية أو الإيقاع المطلوب في فاصلة الآية.

يقول الجاحظ^(٣): وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن (الجوع) إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر؟ والناس لا يذكرون (السَّغْب)، ويذكرون (الجوع) في حال القدرة والسلامة.

وكذلك ذُكِرَ (المطر) فلا نجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة، وأكثرُ الخاصّة لا يفصلون بين ذكر (المطر)، وذُكِرَ الغيث.

(١) هويسمان: علم الجمال: ٤٤، ٤٥.

(٢) إتيان سوريد: الجمالية عبر العصور: ١٧٢.

(٣) البيان والتبيين: ٤٠/١.

ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذَكَرَ (الأبصار) لم يقل: (الأسماع)، وإذا ذكر (سبع سموات)، لم يقل: (الأرضين)، ألا تراه لا يجمع (الأرض) على (أرضين)، ولا (السمع) على أسماع؟ والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يَفْقِدُونَ من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال^(١).

ونوه اللغويون والبلاغيون باللفظة القرآنية في دقتها المعنوية والصوتية وبخاصة في (الترادف) الذي سيأتي جملة منه.

وقد جلى الرافعي فيما تناوله من هذه المفردات ومناسبتها الجرسية للجملة القرآنية:

لا جرم أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يُجزىء واحد منها في موضعه عن الآخر إن أريد شرطُ الفصاحة؛ لأن لكل لفظ صوتاً ربما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه والذي تُساق له الجملة، وربما اختلف وكان غيره بذلك أشبه.

فلا بد في مثل نظم القرآن من إخطار معاني الجمل وانتزاع جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تَبْدُ لفظة، ولا تتخلف كلمة؛ ثم استعمال أَسْمَها رَجْماً بالمعنى، وأفصحها في الدلالة عليه، وأبلغها في التصوير، وأحسنها في النسق، وأبدعها سناء، وأكثرها غناء، وأصفها رونقاً وماء، ثم اطراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه وما تضمن من أنواع الدلالة ووجوه التأويل ثم إحكامه على أن لا مراجعة فيه ولا تسامح، وعلى العصمة من السهو والخطأ في الكلمة وفي الحرف من الكلمة، حتى يجيء ما هو كأنه صيغ جملة واحدة في نفس واحد وقد أديرت معانيها على ألفاظ في لغات العرب المختلفة فلبستها مرة واحدة، وذلك ولا ريب مما يفوت كل فوٍ في الصناعة، ولا يدعى من الخلق فرد ولا جماعة.

(١) إعجاز القرآن: ٢٥٧، ٢٥٨، مختصراً.

ثم يقول: ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيء بعضها لبعض، ويساند بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مُساوقةً لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذب ولا تُساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة .

وإن جمالية التناسق الكلامي الموسيقي تتآلف مع العقل والقلب معاً، ومدى تأثيرها في النفس لأعمق من أي شيء.

وهكذا كان التناسب القرآني في جرسه وإيقاعه معجزة جرسية مثل ما كان في بيانه وتشريع آدابه .
وسنفضل الكلام فيه .

خاصية التناسب الترتيلي :

فعلى الرغم من أن القرآن نزل بالعربية وبيانها وعلى أساليب لسانها فإن له قراءة خاصة به، وأحكاماً (تجويدية) يتلى بها وفق الطريقة الثابتة عن رسول الله ﷺ، وهذا ما يعرف بالترتيل أو التجويد الذي يختص بأنه قابل للتنغيم والصوت الحسن اللذين ثبتا للقرآن وحده من سائر النثر العربي الفني .

وبادئ ذي بدء ينبغي أن نتحرر في الترتيل من التلحين على أساس

موسيقي عام يستدعي الإيقاع والدوزنة والمقامات الموسيقية في أية (صيغة) موسيقية، فالظاهرة الموسيقية للقرآن كما قال الرافي: هي أن كل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية لا يرون في الفن العربي بجملته شيئاً يعدل هذا التناسب الذي هو طبيعي في كلمات القرآن، وأصوات حروفها وما منهم من يستطيع أن يغتمز من ذلك حرفاً واحداً، ويعلو القرآن على الموسيقى أنه مع هذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقى^(١).

وكانت محاولات (مرفوضة) بإخضاع القرآن كله أو نصوص منه إلى (التأليف) الموسيقي على نظام الصيغ الموسيقية والخطط أو (النوتات) في بناء القرآن لحناً موسيقياً بحتاً.

ومثله ما نسمع من (استغراق) بعض القراء في مراعاة الألحان التي كانت تطفئ عند التلاوة على أي اعتبار معنوي وإعجازي في القرآن، حتى إنهم كانوا يرتبون الألحان ترتيباً قرآنياً أو يرتبون القرآن ترتيباً لحنياً يفقده روعة الفكر وعظمة المحتوى وسمو المضمون بالقياس إلى طغيان الأسلوب النغمي واللحني عليه.

لقد غفلوا عن أنه علم، وفن، وتدريب، ومدارس أمينة موثوقة. فلحنوا ومططوا وتغالوا فيما لا تجوز فيه المغالاة.

ولكن هذا الطغيان اللحني الموسيقي المرفوض أيضاً لا يمنع من تلاوة القرآن بخاصيته، تلاوة مرتلة مجودة يأتي التنغيم الصوتي طبيعياً ناشئاً عن مخارج الحروف اللينة والثقيلة والمهموسة والقلقلة، تماماً مثل ما ينشأ عن المدد والمقدرة بالحركات الصوتية وسائر الأحكام التجويدية في نسبها وتناسبها المقررة من أحوال الميم الساكنة والنون الساكنة والتنوين وما يستلزم

(١) إعجاز القرآن: ٢٤٣ حاشية.

ذلك كله من الغنة والاسترسال أو الضغط والقلب والتماثل، والتقارب، والتخفيف والتسهيل، والقرآن بترتيبه المتفرد كان وما يزال يلهم تناسب كلماته وتراكيبه وتناسقها بحيث تأتلف فيما بينها من ناحية وتأتلف مع شيء من التنعيم الصوتي من ناحية أخرى سواء كان ذلك من خلال الكلمة والجملة القرآنية أو في فاصلة الآية وخاتمتها.

يقول الرافعي في هذه المزية الجرسية: فلما قرئ عليهم (العرب) القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة ألقاناً لغوية رائعة، كأنها لا تتلفها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقعها، فلم يفهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى إن من عارضه منهم، كمسيلمة، جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً، أو باباً منه، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها في دقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها، ثم يقول:

وأنت تتبين ذلك إذا أنشأت تُرْتَلُّ قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن، مما تُرَاعَى فيه أحكامُ القراءة وطُرُقُ الأداء، فإنك لا بد ظاهرٌ بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن، بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكَّرتَ الكلامَ وغيرته، فأخرجته من صفة الفصاحة، وجردته من زينة الأسلوب، وأطفأتَ رواءه؛ وأنضبت مائه، لأنك تزنه على أوزانٍ لم يتسقَ عليها في كل جهاته. فلا تعد أن تظهرَ من عيبه ما لم يكن يعيبه إذا أنت أرسلته في نهجه وأخذته على جملته.

وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد. ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق؛ والتفشي والتكرير، وغير ذلك.

ثم يقول: فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة؛ لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس؛ وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم، لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه، لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان؛ وعلى هذا وحده يؤول الأثر الوارد أن في الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً، لأنه يجنب هذا الكمال اللغوي ما يُعدُّ نقصاً منه إذا لم تجتمع أسباب الأداء في أصوات الحروف ومخارجها، وإنما التمام الجامع لهذه الأسباب صفاء الصوت، وتنوع طباقته، واستقامة وزنه على كل حرف.

ثم يضرب أمثلة منها:

وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجاً سرياً، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقاً وأخفها تركيباً، إذ تراه قد هيأ لها أسباباً عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات، فلم يُجرها في نظمه إلا وقد وُجد ذلك فيها، كقوله: ﴿لَيْسْتَ خَلِيفَتُهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات؛ إذ تُنطق على أربعة مقاطع، وقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع وقد تكررت فيها الياء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة الكلمة كلها.

وهذا إنما هو الألفاظ المركبة التي ترجع عند تجريدها من المزيادات إلى الأصول الثلاثية أو الرباعية، أما أن تكون اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه في القرآن شيء، لأنه مما لا وجه للعدوبة فيه، إلا ما كان من اسمٍ غُربٌ ولم يكن في الأصل عربياً: كإبراهيم، وإسماعيل، وطالوت، وجالوت، ونحوها؛ ولا يجيء به مع ذلك إلا أن يتخلله المدُّ كما ترى؛ فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان.

وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة «ضَيْرَى» من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾^(١) ومع ذلك فإن حسننها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه؛ ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها؛ فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم، مفصلة كلها على الياء؛ فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بناتٍ لله مع أولادهم البنات فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾^(٢) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى فكانت غرابة اللفظة أشدَّ الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصوّر في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى؛ وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكّنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية.

وإن تعجب فعجبٌ نظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه على ما قبلها، إذ هي مقطعان: أحدهما مدٌّ ثقیل، والآخر مدٌّ خفيف، وقد جاءت عقب غنتين

(١) جائزة. وانظر كلام ابن الأثير في المثل السائر ٢٢٩/١، وسبقت الإشارة إليها.

في «إذن» و«قسمة» وإحداهما خفيفة حادة، والأخرى ثقيلة متفشية، فكأنها بذلك ليست إلا مجاورةً صوتيةً لتقطيع موسيقي. وهذا معنى رابع للثلاثة التي عدناها آنفاً، أما خامس هذه المعاني، فهو أن الكلمة التي جمعت المعاني الأربعة على غرابتها، إنما هي أربعة أحرف أيضاً.

ثم الكلمات التي يُظن أنها زائدة في القرآن كما يقول النحاة، فإن فيه من ذلك أحرفاً: كقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا أَجَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾^(١) فإن النحاة يقولون إن «ما» في الآية الأولى و«أن» في الثانية، زائدتان، أي في الإعراب. فيظن من لا بصرَ له أنهما كذلك في النظم وقيس عليه، مع أن في هذه الزيادة لوناً من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته: فإن المراد بالآية الأولى، تصويرُ لين النبي ﷺ لقومه، وإن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المد في «ما» وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تُشعر بانعطاف وعناية لا يُبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها (وهو لفظ رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى ونبه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبعي في بلاغة الآية كما ترى.

ونظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر وكأنها صُبَّت على الجملة - صباً - إنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعاً ولم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مُرادفها: كللفظة (اللَّب) فإنها لم ترد إلا مجموعة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وقوله: ﴿وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابِ﴾ ونحوهما ولم تجيء فيه مفردة، بل

(١) الضمير في «ألقاه» لقميص يوسف، وفي «وجهه» ليعقوب عليهما السلام.

جاء في مكانها (القلب)، وذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهياً معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة؛ تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها؛ نصباً أو رفعاً، أو جرّاً؛ فأسقطها من نظمه بته، على سعة ما بين أوله وآخره، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة، وهذا على أن فيه لفظة (الجب)، وهي في وزنها ونطقها، لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة.

وكذلك لفظة (الكوب)، استعملت فيه مجموعة ولم يأت بها مفردة لأنه لا يتهياً فيها ما يجعلها في النطق من الظهور والرقّة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ (أكواب) الذي هو الجمع.

و(الأرجاء) لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعاً وترك المفرد - وهو الرجا: أي الجانب - لعله لفظه، وأنه لا يسوغ في نظمه كما ترى.

وعكس ذلك لفظة (الأرض)؛ فإنها لم ترد فيه إلا مفردة، فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة في كل موضع منه؛ ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة وذهب بها، حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدةً طويلة، وهي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ولم يقل: وسبع أرضين؛ لهذه الجسأة التي تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالاً، فتأمل - رعاك الله - ذلك الوضع البياني، واعتبر مواقع النظم، وانظر هل تتلاحق هذه الأسباب الدقيقة أو تيسر مادتها الفكرية لأحد من الناس فيما يتعاطاه من الصناعة، أو بتكلفة من القول، وإن استقصى فيه الذرائع، وبالغ الأسباب، وأحكم ما قبله وما وراءه.

ومن الألفاظ لفظة (الآجر) وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة وسائرهما نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المد في صوت ولا تركيب على قاعدة

نظم القرآن، فلما احتاج إليها لفظها ولفظ مرادفها وهو (القرمذ)^(١) وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما، ثم أخرج معناها بالطف عبارة وأرقها وأعذبها، وساقها في بيان مكشوف يفيض الصبح، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنْ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ فانظر، هل تجد في سرّ الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع أو أبدع من هذا؟ وأي عربي فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ولا يملكه حسّه ولا يسوّغه حقيقة نفسه ولا يجنّ به جنوناً ولا يقول آمنت بالله ربّاً وبمحمد نبياً وبالقرآن معجزة؟^(٢) وتأمل كيف عبّر عن الأجر بقوله: ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنْ عَلَى الطِّينِ﴾ وانظر موقع هذه القلقلة التي هي في الدال من قوله: ﴿فَأَوْقَدْ﴾ وما يتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه، وكأنما تنتزع النفس انتزاعاً.

وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة فحسب. ولكن ما ترمي إليه إعجاز آخر؛ فإنها تحقر شأن فرعون، وتصف ضلاله، وتسفه رأيه، إذ طمع أن يبلغ الأسباب أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سلماً، إلا شيئاً يصنعه هامان من الطين...^(٣)

(١) وهو في العامة (الطوب) أي الطين المحرق الذي يبنى به. وانظر ابن الأثير في المثل السائر ٢٥٩/١.

(٢) الجمهور على أن القرآن دليل النبوة، وهو الحق الذي لا ريب فيه ولكن من المتكلمين من لا يرى ذلك، كأبي إسحق النظام، فإنه قال: إن الله لم يجعل القرآن دليلاً على النبوة وعلى هذا الأصل بنى قوله: إن الإعجاز كان بالصرقة - كما تقدم في موضعه - فما أصبح ما نقلناه ثمة من قول الجاحظ فيه: لو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي قاس عليه، كان أمره على الخلاف.

(٣) في التعبير حكمة أخرى جليلة: وتلك أن فرعون يريد أن يبني صرحاً يبلغ به السماء فعبر بالإيقاد على الطين تهكماً على فرعون، لأن البناء في مثل هذا لا يزال يرتفع بلا نهاية، وإعداد الأجر يجب أن يكون كذلك مستمراً باستمرار الإيقاد على الطين، ثم =

وما يشدُّ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز؛ حتى إنك لو تدبرت الآيات التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة، وهي بالطبع مظنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز؛ فإنك ترى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه، لنظم حروفه ومكانه من النطق في الجملة: أو لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئاً فيما ليس فيه شيء.

تأمل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَءَ أَيُّمٍ مُّفَصَّلَتٍ﴾ فإنها خمسة أسماء، أخفها في اللفظ «الطوفان» والجراد والدم» وأثقلها «القمل والضفادع» فقدم «الطوفان» لمكان المدّين فيها؛ حتى يأنس اللسان بخفتها؛ ثم الجراد وفيها كذلك مد؛ ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه؛ ثم جيء بلفظة (الدم) آخرأ، وهي أخف الخمسة وأقلها حروفاً؛ ليسرّع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب.

وأنت فهمما قلّبت هذه الأسماء الخمسة، فإنك لا ترى لها فصاحة إلا في هذا الوضع؛ لو قدّمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر، ولأعتك أن تجيء منها بنظم فصيح، ثم لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة وقطّعت دون غايتها. ثم لخرّجت الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء؛ ليس يظهر أخفها من أثقلها؛ فانظر كيف يكون الإعجاز فيها ليس فيه إعجاز بطبيعته^(١).

وبهذا الذي قدمناه ونحوه مما أمسكنا عنه ولم نستقص في أمثله لأنه

= تشعر العبارة أن النتيجة لا شيء، فكأنه لم يخرج لا بناء ولا مبنياً به، وما هو إلا البدء والاستمرار في البدء.

(١) وانظر كلام ابن الأثير في المثل السائر ٢١٨/١، فهو متقارب هنا والأمثلة السابقة.

أمرٌ مُطرد، تعرف أن القرآن إنما أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع ولن تستوي هذه الطريقة إلا بكل ما فيه على جهته ووضعِه فكل كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه... أهـ.

إن الرافي - وقد أطلنا الاقتباس منه - أحسّ بتناسق الترتيل من خلال روحه المؤمنة وكتب عن صوتياته وإيقاعه من شفافية نفسه الفنانة، فقدم نماذج جمالية رائعة متفاعلة مع وجدانه المرهف وقلمه العربي الأصيل، وبيانه الأدبي المتألق.

ألوان من الأداء الصوتي الجمالي للقرآن:

مما لا ريب فيه أن لأداء الكلمة أو الجملة القرآنية ضوابط وموازن لفظية في قراءتها لا ينبغي تجاوزها، فللحروف صفات، ومدات، ومخارج وحركات، وللتركيب القرآني صفات ومدات ومخارج وحركات تتسق كلها في قواعد مضبوطة وقوانين ثابتة.

ومع هذا الضبط المبدئي يمكن أن تأخذ اللفظة أو التركيب صيغاً مرنة إلى حد قريب تدنو فيه من قوانينها الثابتة، وهذا ما كان يعنيه القراء من أشكال القراءة: في الحدر، والتدوير والترتيل.

ومن تعدد القراءة الواحدة تنشأ (ألوان) أو صيغ من الصوتيات المتناسقة مع كل طريقة فيها ضمن القراءة الواحدة.

ومن تعدد القراءات يأخذ (التلوين) الأدائي طرائق متعددة يختلف حسب اختصاص كل قراءة وأدائها على الوجه المحفوظ والثابت.

ويصح علمياً وجرسياً أن تؤدي آية واحدة بألوان من الأداء الفني المشروع الملتزم، ثم الآية الثانية، فالثالثة وهكذا إلى نهاية النص أو السورة حتى تكتمل لدينا جمل صوتية وافرة بمقاديرها وحدودها تعبر عن تناسق في هذه الألوان والصيغ، في عدد ضخم من الهيئات الأدائية الرائعة.

ومن المعلوم أن التلوين الموسيقي أصلاً هو طرح (صيغ) موسيقية متعددة تعمل على تكوين بناء موسيقي في ألوان متناسبة مع الموضوع والجو والتصوير. وتوضح الصيغة البنائية للنص أو القطعة تناسباً خاصاً في مداتها وأصواتها وإيقاعاتها على وجه تأتلف في الكمية والكيفية.

وربما كان تقسيم القرآن إلى سور ثم آيات مختلفة في الطول والإيقاع والفاصلة، يلهم - باعتباره ينبوعاً جمالياً رائعاً - بأثر واضح، وأهمية قصوى في تلوين جرسى ترتيلي متعدد.

ومن ناحية ثانية فقد يتشابه لون أو (صيغة) في سورة أو يتقارب أو يتناظر مع لون أو صيغة في سورة أخرى وفق المعنى والجو والصورة الملائمة. حتى إن سورة واحدة تختلف ألوانها الصوتية بين نجم وآخر ونص متقدم ونص متأخر، وفي النهاية نحصل على سورة متفردة في شخصيتها المعنوية والجرسية وإن بدا أن لوناً أو ألواناً من التقارب أو التشابه بين نجوم هذه السورة باعتبارها (وحدة) جمالية وبين سورة أخرى تتحدث عن الأغراض والموضوعات ذاتها.

ونؤكد على أن (علم التجويد) عموماً في مدّاته وصفات حروفه وعلاقات بعضها ببعض، ثم حالات الوقف وما ينشأ عنه من همس وقلقلة أو مد قصير ومتوسط وطويل يغني الصيغ الصوتية وفق نسق علمي متصل النسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

وكذلك التكوين الجرسى المشار إليه والذي ينشأ من تعدد القراءات المتواترة بين خطف المد، ومد المخطوف، وتغيير في بنية اللفظة من المفرد إلى الجمع، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن إيراد اللفظة على وجوه صحيحة أخرى، يزيد في غنى هذه الأشكال والأساليب الصوتية إلى المستويات الشاملة لفن جرسى إيقاعي لا يعرف له نظير في الشعر والنثر معاً.

وأفصل شيئاً عن: الإمالة، والتفخيم والترقيق، والمدود، وتخفيف

الهمزة^(١)، لكثرة ورودها في القرآن، وعلاقاتها الصميمية بالصوتيات القرآنية.

١ - الإمالة :

وعرفها العلماء: أن ينحو القارئ بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء كثيراً وسموه: بالمحض، أو قليلاً وسموه: التقليل والتلطيف، ويقولون: كلاهما جائز، وإن جنح بعضهم إلى التلطيف. وقد أمال القراء العشر سوى ابن كثير، واختلف العلماء فيما يمال وما لا يمال. فحمزة والكسائي وخلف أمالوا كل ألف منقلبة عن ياء حيث وقعت في القرآن في اسم، أو فعل، كالهدي، والهوى، والفتى، والعمى، والزنا، وأتى، وأبى، وسعى، ويخشى، ويرضى، واجتنبى، واشترى، ومثوى، ومأوى، وأدنى، وأزكى.

وكذلك أمالوا كل ألف تأنث على فُعلى: كطوبى، وبشرى، وقصوى، والقربى، والأنثى، والدنيا، وإحدى، وذكرى، وسيما، وضيضى، وموتى، ومرضى، والسلوى، والتقوى.

والحقوا بذلك: موسى، وعيسى، ويحيى.

وكل ما رسم بالمصحف بالياء نحو: بلى، ومتى، ويا أسفى، ويا ويلتى، ويا حسرتى. ما عدا: حتى، وإلى، وعلى، ولدى، ومازكى، فلم تمل بحال.

وأمالوا رؤوس الآي من إحدى عشرة سورة جاءت على نسق واحد: وهي: طه، والنجم، وسأل، والقيامة، والنازعات، وعبس، والأعلى، والشمس، والليل، والضحي، والعلق... ووافق على هذه السور أبو عمرو، وورش.

(١) أخذ معظمها من الإتقان: ٩٣/١ - ١٠١.

وأمال الكسائي وأبو عمرو كل ألف بعدها راء متطرفة مجرورة نحو:
الدار، والنار، والقهار، والغفار، والنهار، والديار، والكفار، والإبكار،
وبقنطار، وأبصارهم، وأوبارها، وأشعارها. . . .

وأمال الكسائي أيضاً هاء التأنيث وما قبلها وقفاً مطلقاً بعد خمسة عشر
حرفاً منها: الفاء كخليفة ورأفة، والجيم: كوليعة، ولجة، والثاء: كشلاثة
وخبيثة، والواو: كقسوة والمردة، والميم: كرحمة ونعمة. . .

وكذلك أمالوا كثيراً من فواتح الحروف المقطعة مثل (آل) و(طه)
و(يس) و(طسم) و(طس) و(حم).

ولا ريب أن الإمالة تغني الكلمة بشفافية وحنو ولين وإنسيابية لها وقع
جمالي خاص.

٢ - التثقيل والتفخيم:

فقد نقل العلماء بسندهم عن ابن عباس قوله: نزل القرآن بالتثقيل
والتفخيم، نحو قوله: الجمعة. وقال محمد بن مقاتل: سمعت عماراً يقول:
عذراً، ونذراً، والصدفين. . . ويؤيده قول أبي عبيدة: إن أهل الحجاز
يفخمون الكلام كله إلا حرفاً واحداً، هو عشرة، فإنهم يحزمونه، وأهل نجد
يتركون التفخيم في الكلام إلا هذا الحرف فإنهم يقولونه: عشرة، بالكسر.

ومن الحروف المفخمة كما ذكر علماء التجويد ما جمعه من الحروف
بقولهم (خص ضغط قط) وهي حروف الاستعلاء. وما عداها فهي: المرققة
أو المستفلة.

وكذلك أحوال (الراء) المفخمة عندما تكون مفتوحة أو مضمومة أو
ساكنة وما قبلها مفتوح أو مضموم مثل: الرّحمن، روح، البرّ.

والقلقلة: وهي خمسة حروف ساكنة جمعوها بقولهم (قطب جد) مثل:
أحد، تَبْدُون.

وإن أسلوبها الجرسى يقتضي جمعاً صوتياً ونبرة ضخمة، وإيقاعاً شديداً ثقيلاً، وأداءً ترتيلياً ضخماً.

٣ - مدود قرآنية:

وهي تلك المدود الخاصة بتلاوة القرآن الكريم التي يقرأ بها وحده، ولا أعني المدود المشهورة مثل المتصل والمنفصل والعارض للسكون واللازم والصلة الكبرى... فهذه وإن اختص بها القرآن ويمد بعضها على أوجه: القصر والتوسط والطول فإن مدوداً أخرى تعتمد عليها قراءات ثابتة أيضاً.

وهذه وتلك تجعل اللفظة أو الجملة القرآنية ذات نفس مديد صوتي وإيقاعي تزيد من طلاوتها وجمالها وأثرهما. ومن هذه المدود:

أ - مد الحجز: وهو مد يفصل بين الهمزتين فيخففهما، وذلك في نحو: آنذرتهم، ألقى عليه الذكر، آنت قلت للناس، إذا.

ب - مد العدل: وهو في كل حرف مشدد، وقبله حرف مدّ لين، نحو: الضالّين، وذلك لأنه يعدل حركة أي يقوم مقامها في الحجز بين الساكنين.

ج - مد الروم: وهو تليين الهمزة من غير إخفاء أو تحقيق، وذلك في نحو: ها أنتم، فيشار إلى الهمزة فلا تخفى ولا تترك أصلاً.

د - مد الفرق: وهو المد الذي يفرق بين الاستفهام والخبر، في مثل قوله تعالى: الآن....

٤ - تخفيف الهمزة:

وهو منطبق عربي لدى معظم القبائل وبخاصة قریش وأهل الحجاز الذين هم أكثر تخفيفاً. وفي تسهيل الهمزات ليونة لحرف الهمز نفسه، إذ إنه - كما يقولون - أثقل الحروف نطقاً وأبعدها مخرجاً. وفي التسهيل جمال الانسياب والطلاوة ما فيه.

أ - الإبدال: أن تبدل الهمزة الساكنة حرف مد من جنس حركة ما

قبلها، فتبدل (ألفاً) بعد الفتح، نحو: وامر أهلك، و (واواً) بعد الضم، نحو: يؤمنون، و (ياءً) بعد الكسر، نحو: جيت

ب - النقل لحركته إلى الساكن قبله فيسقط، مثل: قد أفلح، بفتح الدال.

ولا أريد أن أطيل وأستقصي فإن (علم التجويد) المصدر الحق في كيفية تلاوة القرآن بالهيئة الصحيحة الثابتة يغني عن الإطالة والاستقصاء. وما دام القرآن يمكن أن يقرأ بالسبع والعشر كما نقل بالتواتر عن رسول الله ﷺ فإن ألواناً أخرى من الجرس الصوتي تعطينا (صيغاً) ترتيلية لا نعهد لها في قراءة ثانية.

إن جمالية التخفيف والمد والإمالة، وجلالية التفخيم والاستعلاء تبوىء الترتيل القرآني منازل صوتية وإيقاعية ينفرد بها عن أي كتاب سماوي وأرضي آخر.

وهذا مما يثري القرآن بألوان كثيرة من الصيغ الجرسية الخاصة ويزيد في تناسقه الصوتي الذي تبلغ آثاره في النفس والوجدان ما لا يبلغه كلام آخر خال من مثل هذا النسيج الجرسى المنفرد.

إلهامات صوتية في المكي والمدني:

يفرق العلماء بين المكي والمدني بفروق معنوية ولفظية وموضوعية، وإن لم تكن هذه قواعد كلية محددة، فهي فروق أغلبية روعي فيها مقتضى الحال ومستلزمات الدعوة الإسلامية، وقيام الأنظمة في ظل السياسة الجديدة.

ويهمنا هنا أن نبين آثار هذه الفروق أو بعضها في الطبيعة الصوتية ولونها المميز، وخصائص كلٍّ، في إيجاز.

ونستبق القول إن اللون الجرسى لأية أو لسورة لا بد أن يتسق مع

المشهد أو الموضوع بحيث يتيمان (وحدة) جمالية بينهما موضوعاً ومعنى .
حتى إن السورة الواحدة قد تحتوي على أكثر من لون واحد من الصيغ
الجرسية المتناسبة مع معانيها بغض النظر عن كونها مدنية أو مكية، فسورة
(الواقعة) المكية مثلاً تقدم عدداً من الإيقاعات، وألواناً أقل من الصيغ
الصوتية .:

فالفاصلة في الآيات الثلاث هي التاء المصمّطة، وتعبقها فاصلة قوية
هي المد القصير، ثم تتخير السورة فواصل أخرى تتناسب مع الأصناف
الثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون السابقون .

فاختارت للأولى عدداً من الفواصل أكثر من الثانية، بينما التزمت الثانية
بفاصلة واحدة هي النون والميم المسبوقتان بحرف المد... وهكذا استقر
الحال إلى نهاية السورة ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ .
والمقطع الأول من السورة خير شاهد على ذلك: ﴿إِذَا وَقَعَتِ
الْوَاقِعَةُ ... لَخِثِّ الْعَظِيمِ﴾ (١ - ٤٦) .

إنها ونظراءها مثل: الحاقة، القارعة، الغاشية، نماذج للمكي في
سماته اللفظية والمعنوية، وهي إذ تشترك جميعها بالموضوعات والعناوين
الواحدة، والمطالع المتماثلة، والآيات القصيرة؛ فإن (الواقعة) تفترق
بشخصية خاصة باعتبارها تصنف مصائر الناس إلى أصناف، ومثل هذا يتطلب
استقصاء في التقسيم والسمات الخاصة لكل قسم .

ولذا فقد تنوّعت الفاصلة وحافظت الآية على قصرها وإيجازها وجرسها
القوي الأسر مثل أية سورة مكية أخرى، بينما التزمت سائر السور بفاصلة
واحدة أو اثنتين حسب الموضوع أو المشهد المعالج .

إنها جميعاً ذات وتيرة شديدة غالباً، قوية التركيب، فخمة، مؤثرة،
قارعة، مصورة، مثيرة للانفعالات الوجدانية تعتمد على موجاتها القصيرة في
الفخامة والتأثير .

وقصر الآية والموجة والإيحاء والتصوير والإثارة السابقة ولجميع السور المكية، تلف السورة كلها وبخاصة في مشهد الواقعة، وفي مصير أصحاب الشمال.

أما في وصف أصحاب اليمين والسابقين فتخف الشدة وتلين الوتيرة حتى تبرز أحوالهم وهم يتمتعون بوارف الظلال وماء من معين، وفاكهة كثيرة... وعلى سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين....

وهذا يعني متابعة الجرس والإيقاع لطبيعة الآية المكية ومعناها لتحقيق اتزان في الجوانب المعنوية واللفظية والجرسية في مثل هذه السور القصيرة والمتوسطة. وقد قالوا: إن المفصل^(١) نزل بمكة وذلك بداية من سورة (الحجرات) إلى سورة (الناس)، مع ما يتخلله من سور مدنية مثل: (النصر والمجادلة والحشر والممتحنة والصف)....

بينما تطول الآية بنفس أعمق في سورة (إبراهيم، والحجر)، وبنفس أكثر طولاً وأقل شدة في سور مثل: (الإسراء والكهف والأنعام والأعراف) المكيات، حتى تقترب من الآيات والسور المدنية، وغالباً تنحو منحى (جلالياً) في قوة وعلوية متميزة.

وتسلك السور والآيات المدنية في معظمها الأطناب والتفصيل والتوضيح والشرح والحوار الهادئ وتقرير التشريع ودقائقه بعيدة عن الشدة والعنف مراعية في ذلك اختلاف البيئة والناس. ففي عباراتها لين وتسامح، وطلاوة، ونعومة، تتميز بصوتية رخية ندية، ورحابة في المقاطع، وتسلسل في التركيب، وهدهوء في الإيقاع وطول موجاتها، يعين على تأمل الفكر والإدراك ويمنح جماليات هائلة رضية ومتنوعة.

(١) والمفصل: على وزن معظم. سمي بذلك لكثرة الفصل بين سورها لقصرها، وقيل: لقلّة المنسوخ فيها، فقولها فصل.

نماذج من التناسب اللفظي المعنوي والصوتي والتصويري :

لا نتوقع فصلاً كاملاً في النصوص القرآنية فيكون بعضها متناسباً في المعنى، وبعضها الآخر في الجرس، وبعضها الثالث متناسب في التصوير، فقد تكتمل كلها في نص واحد - وهو كثير - فيجمع بينها وحينئذ يبلغ الإعجاز ذروته في التناسب الكلي: المعنوي والصوتي والتصويري، في نص أو مشهد أو حالة أو قصة.

وعندئذ يتسق (التنوع) الجمالي في (وحدة) كبرى يتربع الإعجاز القرآني عليها روحاً علوية وبيانياً فذاً، ومأثرة إلهية كريمة.

والتنوع والوحدة وإن اهتم بهما الفن الإسلامي (أصلاً) على اختلاف في نسب الروعة في توزيعهما فإن مجالتهما التشكيلية والتعبيرية متنوعة مثلاً: تقسيم السطح إلى مساحات ذات أشكال هندسية مختلفة، داخل هذه الأشكال نجد الوحدات الزخرفية المستمدة من العناصر النباتية أو الأشكال الهندسية أو الحيوانية أو الخطية، وقد يجتمع في المساحة الواحدة كل هذه الأنواع الزخرفية، وكل وحدة من الوحدات الزخرفية داخل مساحة هندسية هي كاملة في ذاتها... وهي أيضاً متكاملة مع سائر العناصر التي تجمعها، المساحة الكلية (وكذلك) التناظر الموجود بين الأدب العربي والموسيقي، وبين الفن التشكيلي... ففي الأدب تتضمن القصيدة مشاهد متعددة، وصوراً متقابلة، وقد لا تكون هناك صلة موضوعية بين أجزائها، ومع ذلك فإنها في النهاية تتسق أجزاؤها في وحدة فنية كلية، تثير فينا إحساساً جمالياً، وتدوقاً لهذا اللون الفني^(١)...

ومع هذا فيبقى القرآن متفرداً بأروع الجماليات المعنوية والصوتية والتصويرية ليقيم (وحدة) الإعجاز في آفاق سامية من البهاء الأحدي.

(١) مقتبس من: الفن الإسلامي: أصوله، فلسفته، مدارسه: ٩٨، ٩٩. أبو صالح الألفي. دار المعارف، لبنان ط/٢.

١ - في التناسب اللفظي المعنوي:

وسببه اختيار لفظة أو تركيب قرآني يتسق بمعانيه مع موضوع النص أو المعنى العام وفق ترتيب معين مقصود. وإذا يعد التناسب المعنوي وجهاً من وجوه الظاهرة الجمالية فإن التتبع المعنوي للقرآن مما يثري هذه الظاهرة في كثرة الموضوعات المألوفة والمجهولة التي عرضها، وكان له في كثير منها قصب السبق بإبرازها فكرياً وعلمياً واجتماعياً وتربوياً وقانونياً لا من حيث تعددها وتنوعها وكثرتها ومعالجاتها المشكلات المختلفة وحسب وإنما من حيث تناسق بعضها ببعض، وعرضها بشكل فني رائع. والجملة القرآنية وحدها مضمون فكري ومعنوي متناسق مع تسلسل تركيبها وتناسب ألفاظها.

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. تجد إسماعيل معطوفاً على إبراهيم، فهو كإبيه يرفع القواعد من البيت، ولكن تأخره في الذكر، يوحي بأن دوره في رفع القواعد دور ثانوي، أما الدور الأساسي فقد قام به إبراهيم، (قبل كان إبراهيم يني، وإسماعيل يناوله الحجارة) فنزلت الآية، وكأنما كانت ستنتهي دور إسماعيل لثانويته، ثم ذكرته بعد أن انتهت من تكونها.

ويتم التناسق أيضاً في صفات فئة من الناس تؤدي كل صفة منها إلى الأخرى حيث تمضي الجملة القرآنية، وقد كونت من كلمات قد اختيرت، ثم نسقت في سلك من النظام، فلا ضعف في تأليف، ولا تعقيد في نظم، ولكن حسن تنسيق، ودقة ترتيب، وإحكام في تلازم. واقرأ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ

الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾

(البقرة: ٢ و ٣ و ٤ و ٥) ترى آيات قد التحم نسجها، وارتبط بناء بعضها ببعض، تسلم الجملة إلى أختها، في التثام واتساق، فالجملة الأولى قد وصفت القرآن بالكمال، ووصفته الجملة الثانية، بأنه لا يعلق به الريب، لا في أخباره، ولا في نسبه إلى الله. وفي الجملة التالية جعله هادياً لأولئك الذين يخشون الله ويتقونه، ومضت الآية الثانية تصف هؤلاء الذين ينتفعون بالقرآن، فهم الذين يوقنون بما أنبأهم به من أمور غائبة لا يرونها، ويقومون بواجبهم لله، فيؤدون الصلاة كما يجب أن تؤدي، وواجبهم للمجتمع، فيقدمون من أموالهم ما يساعدون به البائس والمعتز، ولا يتعصبون لرسول دون رسول، بل يؤمنون بما أنزل على محمد، وما أنزل من قبله، ورأس الإيمان وأساسه هو إيمانهم باليوم الآخر، لأن ذلك الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، وينهى عن المنكر والبغي، فلا جرم أن كان أولئك على هدى من ربهم، وكانوا هم المفلحين.

وقد يأخذ التناسق ألواناً من الانتقال في الخطاب والغيبة لإبراز معنى أو صفة أو حالة يقتضيها السياق، مثلاً: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ فالانتقال من الحديث عنهم، إلى الحديث إليهم زيادة في تهديد من قالوا، ومواجهة لهم بالسخط عليهم، والتأنيب لهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ أَيْنُنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١) فقد يكون ظاهر السياق أن يقال: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذي برك حوله ليريه من آياته، إنه هو السميع البصير)، ولكنه عدل عن الغيبة إلى الحضور في وسط الآية، تعظيماً من شأن المسجد الأقصى ومن شأن ما يري الله من آياته.

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ
كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ
أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ، فعندما
جاء الحديث عن زينة السماء الدنيا ، نسب ذلك إلى نفسه صراحة ، لما فيها من
الجمال الذي يبهر نفس رائيه ، والنفع الملموس لهم ، فذكرهم الله بأنه خالق
هذا الجمال ، ومبدع هذه الزينة .

أو يتخذ هيئة تختلف فيها الأزمنة مثل :

استعمال أحد الفعلين : الماضي والمضارع ، موضع صاحبه ، فيأتي
بالمضارع مكان الماضي ؛ لإحضار صورة الفعل أمام السامع ، حتى لكأنه
يشاهده ؛ وليس ذلك مما يثيره الفعل الماضي ، لأن سامعه قد يكتفي بأن
يتخيل فعلاً قد مضى ، وربما لا يستحضر صورته أو تكرره . واقرأ قوله :
﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ ففي (تثير) ما يحضر تلك الصورة الطبيعية ، الدالة على
القدرة الباهرة ، ويستخدم الماضي مكان المضارع إشارة إلى تأكيد وقوع الفعل ،
حتى كأنه قد وقع ، وذلك يكون فيما يستعظم من الأمور . ومن أمثلته قوله
سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُفْخَعُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ
اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ (النمل : ٨٧) وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى
الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف : ٤٧) وقوله تعالى : ﴿ أَتَى
أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل : ١) وقوله
تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنْكُمْ عَنْ آدَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ
سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ غَنَاءٍ أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم : ٢١) وفي الإتيان

بالماضي هنا من إيقاع الرهبة في النفوس ما فيه؛ لأن الفعل كأنه قد تم، والقرآن يتحدث عنه.

ويبدو التناسب المعنوي في روعة التسلسل والترتيب، والاتساق في رسم الشخصيات المختلفة في تعبير متناسق مع نفسية الشخصيات من ناحية، ومتناسق مع تسلسل الأحداث والوقائع المختارة والمطلوبة من ناحية ثانية.

ونحن هنا لا نقصد تلك الشخصيات التي استوفت سورة أو سورتين على الأكثر رسم ملامحها وإبراز سماتها مثل: يوسف وذو القرنين والكهف، وإنما نقصد الشخصيات التي كثر ترادها في القرآن الكريم مثل معظم سير الأنبياء عليهم السلام، فقد تكررت قصة موسى أكثر من ٣٠ مرة وإبراهيم أكثر من ٢٠ مرة...

إن كل (نجم) من القرآن عرض لمثل هذه الشخصيات المتكررة بالمقدار الذي يعين على الهداية والقدوة والاعتبار وأصول الدين والفضائل، وكانت أحداثه متناسبة ووقائعه متناسقة من ناحيتين: من ناحية انسجامها مع سياقها وسباقها باعتبارها شاهداً أو نموذجاً وحيداً على صدق مجريات الأحوال والأمور، ثم من ناحية تناسب فصول هذه القصة بعضها ببعض باعتبارها وحدة تحقق الغرض الديني والفني معاً.

فقد عرض القرآن لشخصيات مختلفة مؤمنة وجاحدة، ضعيفة وذات نفوذ، وكانت عروضه متنوعة بين الطول والقصر والتوسط، ولكن ملامحها وأحياناً دقائق نوازعها وخفاياها تبدو واضحة للعيان ما دام في عرضها عبر ودروس.

إنه مثلاً عرض لفرعون الذي كان يعلن أنه الرب الأعلى، ولاسكندر ذي القرنين الذي عرفه برأيه وصلاحه وإصلاحه، وللوليد بن المغيرة بتفكيره وتديبره وتذوقه لبيان القرآن وجمالياته، وللرسول ﷺ بكل ما في شخصيته من

مزايا من الرحمة واللين والعفو والحرص على هداية قومه وإيثارها على ما سواها، والحكمة والحكمة والصبر... وبكل ما تحمله من نوازع بشرية وإنسانية، تجعل منه إمام الأنبياء والمسلمين ومثلهم الأعلى.

وعرض صوراً سريعة عن الجيل الأول وتضحياتهم وفدائهم وحزمهم في مواجهة الكفر والطغيان، إلى جانب ما عرضه من مسارب الضعف البشري حيث كان.

وأطول العروض نفساً وأكثرها تعدداً شخصية الأنبياء كما سبقت الإشارة إلى بعضها، وهذه الشخصيات وإن اشتركت جميعها في الرسالة والتبليغ والصدق والأمانة والفتانة فإن لكل منها جوانب فردية ظاهرة وخفية، واتجاهات إنسانية قد لا توجد في شخصية أخرى بمثل هذا التجمع والتكوين والصيغة البشرية. ومن أبرز هذه الشخصيات: إبراهيم عليه السلام. إنه نموذج الهدوء، والتسامح والحلم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾.

فها هو ذا في صباه يخلو إلى تأملاته، يبحث عن إلهه:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ
الْأَفْلَهِ ۚ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي
لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوَّامِينَ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا
أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِضُ إِلَيَّ بَرِيءٌ مِّمَّا أَشْرَكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي
فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ
قَالَ اتَّخَذْتُنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَّنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ۖ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا
وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وما يكاد يصل إلى هذا اليقين، حتى يحاول في برٍّ وود أن يهدي إليه أباه، في أحب لفظ وأحياه.

﴿يَتَأْتٍ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ﴿٤٢﴾ يَتَأْتٍ إِنِّي قَدْ
جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَأْتٍ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ
إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَأْتٍ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ .

ولكن أباه ينكر قوله ويغلظ له في القول، ويهدده تهديداً: ﴿قَالَ
أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ .

فلا يخرج هذا العنف عن أدبه الجم، ولا عن طبيعته الودود؛ ولا
يجعله ينفذ يديه من أبيه: ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي
حَفِيًّا﴾ ﴿٤٧﴾ وَأَعَزَّلَكُمْ وَمَادَعُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ
بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ .

ثم ها هو ذا يحطم أصنامهم - ولعله العمل الوحيد العنيف الذي يقوم
به - ولكنه إنما تدفعه إلى هذا رحمة أكبر. عسى أن يؤمن قومه إذا رأوا آلهتهم
جذاداً، وعلموا أنها لا تدفع عن نفسها الأذى. ولقد كادوا يؤمنون فعلاً.
﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ . ولكنهم عادوا فهُمُوا
بإحراقه، وحينئذ ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ .

ولقد اعتزلهم عهداً طويلاً مع النفر الذي آمن معه، ومنهم ابن أخيه
لوط.

وفي كبرته وهرمه يرزقه الله بإسماعيل؛ ولكن يقع له ما يحتم عليه أن
يبعد ابنه وأمه عنه (والقرآن لا يتعرض لهذا الذي وقع) فيغلبه الطبع الرضيُّ
على الحنو الأبوي؛ ويدركه إيمانه بربه، فيدعها بجوار بيته. وهناك ينادي
ذلك النداء الخاشع المنيب:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ثم ما يكاد هذا الطفل يشب، ويصبح فتى، حتى يرى في المنام أنه يذبحه، فيغلبه الإيمان الديني العميق، على الحب الأبوي العميق، ويهم بإطاعة الإشارة، لولا أن يرفق به ربه، فيفديه بذبح عظيم. وهكذا تتكشف الوقائع في القصة والمحاورات عن شخصية مميزة الملامح، واضحة السمات ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾.

٢- في التناسب الصوتي:

إن الظاهرة الصوتية التي تنشأ من تآلف الحروف والكلمات والفواصل القرآنية تبدو واضحة في كل آية ومقطع وسورة. والقرآن وإن أكثر من فاصلة الميم والنون المسبوقتين بالمدود فإن فواصل أخرى في حروف مد ومصمتة قامت بتوزيع جماليات وجلاليات متناسبة مع جو السورة ومشاهدها.

وكذلك فإن الجرس الداخلي والظاهري يوحى بأهمية تأثير الصوت المتناسق، والجملة الصوتية في النفس والوجدان لا من حيث التأثير التغييري وحسب ولكن من حيث التأثير الفني الجمالي أيضاً.

يقول الرافعي: وقد كان منطقُ القوم يجري على أصل من تحقيق الحروف وتفخيمها، ولكن أصوات الحرف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضاً، ويتألف منها شيء مع شيء، فتتداخل خواصها، وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الموسيقي، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يُثير بعضه بعضاً على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده.

ثم يوضح أثر الصوت المتناسب في الانفعال النفسي وتأثره به فيقول:

وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنوع الصوت، بما يخرج فيه مداً أو غنة، أو ليناً أو شدة، وبما يهيء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يحمل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الأطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

ويطبق فكرته النفسية على القرآن فيقول: فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة، لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارتها من أعماق النفس، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم، لتلين قلوبهم، وتهتز عند سماعه، لأنه فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان.

ويؤيد كلامه بالأسرار الجرسية للفواصل القرآنية فيقول: وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب...

ثم يقول: من ذلك: لفظة «النذر» جمع نذير؛ فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً. فضلاً عن جَسَاةِ هذا الحرف ونُبُوهِ في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، فكل ذلك مما يكشف عنه ويُفصِّحُ عن موضعه الثقل فيه؛ ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ فتأمل هذا التركيب. وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حس السمع وتأمل مواضع القلقلة في دال «لقد»، وفي الطاء من «بطشتنا» وهذه

الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تَمَارُوا»، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقلُ الضمة عليه مستخفاً بعد، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة. ثم رَدَّ نظرك في الراء من «تَمَارُوا» فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء «النذر» حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تخفَ عليها ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون «أَنذَرَهُمْ» وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في «النذر».

وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجباً في موقعه والقصد به، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة، ليس منها إلا ما يشبه في الرأي أن يكون قد تقدم فيه النظر وأحكامه الروية وراضه اللسان، وليس منها إلا متخير مقصودٌ إليه من بين الكلم ومن بين الحروف ومن بين الحركات، وأين هذا ونحوه عند تعاطيه ومن أي وجه يلتبس وعلى أي جهة يستطاع، وكيف يأتي للإنسان في مثل تلك الآية وحدها - فضلاً عن القرآن كله - وهو لا يكون إلا عن نظرٍ وصنعة كلامية؟ والبلغ من الناس متى اعتسف هذا الطريق ولم يكن في الكلام إلى سجيته وطبعه فقد خذلته البلاغة واستهلكته الصنعة، وضاق به التصرف وتناثرت أجزاء كلامه من جهاتها، وكلما لجَّ في المكابرة لجَّت البلاغة في الإباء، فمثله كمن يمشي مستديراً ويحسب أنه يتقدم ولأنه - زعم - لم يُحرف وجهه ولم يفتل عن قصده، ولأن نظره ما يزال ثابتاً فيما يستقبله !

وينوع سيد قطب الأمثلة القرآنية في ألوان جرسية وإيقاعية متناسقة مع الموضوع والجو والمشهد، فيقول: في سورة النازعات أسلوبان موسيقيان، وإيقاعان ينسجمان مع جوين فيهما تمام الانسجام:

أولهما: يظهر في هذه المقطوعة، السريعة الحركة، القصيرة الموجة، القوية المبنى، تنسجم مع جو مكهرب، سريع النبض، شديد الارتجاف، على النحو التالي:

﴿وَالنَّارِ عَدَتْ غَرَقًا﴾ ١٦ ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ ١٧ ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا﴾ ١٨ ﴿فَالسَّيِّقَاتِ سَبَقًا﴾ ١٩ ﴿فَالْمُدْرِبَاتِ أَمْرًا﴾ ٢٠ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ ٢١ ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ ٢٢ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ٢٣ ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ ٢٤ ﴿يَقُولُونَ أَيْنَا لَمْرُدُّوْنَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ ٢٥ ﴿أَيْنَا ذَاكُنَا عِظْمًا فَنُخْرَةً﴾ ٢٦ ﴿قَالُوا إِنَّكَ إِذَا كَرَّهْتَ خَاسِرَةٌ﴾ ٢٧ ﴿فَأِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ٢٨ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ .

والثاني يظهر في هذه المقطوعة، الوانية الحركة، الرخية الموجهة، المتوسطة الطول، تنسجم مع الجو القصصي الذي يلي مباشرة في السورة حديث الكرة الخاسرة، والزجرة الواحدة، وحديث الساهرة، على النحو التالي:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ١٥ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ١٦ ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ١٧ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ ١٨ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخُشًى﴾ . . . إلخ .

أظن أننا لسنا في حاجة إلى قواعد موسيقية، ولا إلى اصطلاحات فنية، لندرك الفرق بين الأسلوبين والإيقاعين، فهو واضح لا يخفى، وهو كذلك منسجم في كل حالة مع الجو الذي تطلق فيه الموسيقى. ولهذه الموسيقى وظيفة أساسية في مصاحبة المشهد المعروض، في المرتين الأولى والأخرى. فلنستمع إلى نوع ثالث من هذه الموسيقى. إنها موسيقى الدعاء المتموجة الرخية الطويلة الخاشعة:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ١٩١ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ . . . ﴿رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ .

أو دعاء آخر:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ .

ولسنا كذلك في حاجة إلى قواعد واصطلاحات لنحس أن هذا أسلوب غير الأسلوبين السابقين، منسجم مع الدعاء كل الانسجام، بالتطريب والتموج والاسترسال .

ثم نخاطر فنلقي بلون من الموسيقى المتموجة الطويلة الموجهة - ولكنه لون آخر تماماً - نخاطر فنلقيه هنا اعتماداً على وضوح الفارق بينه وبين اللون الذي مضى .

إن التكوين الموسيقي للجملة هنا يزيد على التموج العمق والسعة، وفيه كذلك هول وشجى . إنها موسيقى الطوفان: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِىْ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ .

إن التكوين الموسيقي للجملة ليذهب طويلاً وعرضاً في عمق وارتفاع، ليشارك في رسم الهول العريض العميق . والمدات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظي اللاية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه واتساقه مع جو المشهد الرهيب العميق .

ونخاطر مرة أخرى، فنعرض لوناً ثالثاً لتموج الموسيقى، مع اختلاف تموجها واتجاهها:

﴿يَتَابَعُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢١﴾ وَأَدْخُلِي حَنَنِي ﴿٢٢﴾. فليرتل القارئ هذه الآيات بصوت مسموع، ليدرك تلك الموسيقى الرخية المتماوجة. إنها تشبه الموجة الرخية في ارتفاعها لقمته وانسائها إلى نهايتها، في هدوء واطمئنان، يتفقان مع جو الطمأنينة في المشهد كله، ولعل لتوازن المد إلى أعلى بالألف، وإلى أسفل بالياء على التوالي، شأناً في هذا التموج.

وتقدم مزيد من بيان التناسق الصوتي، وتناسق الترتيل، والصيغ المختلفة في الجرس القرآني.

ومن السابقين (السيوطي) حيث أتى بنماذج تطبيقه للتناسق الصوتي في حروف الآية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾، وذلك عند التفريق بين جمال وبلاغة الآية وأقوال العرب في المعنى نفسه مثل (القتل أنفى للقتل)...

يقول السيوطي: (من الفروق): اشتمالها على حروف متلائمة لما فيها من الخروج من القاف إلى الصاد، إذ القاف من حروف الاستعلاء، والصاد من حروف الاستعلاء والإطباق، بخلاف الخروج من القاف إلى التاء التي هي حرف منخفض، فهو غير ملائم للقاف، وكذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة، لبعد ما دون طرف اللسان وأقصى الحلق^(١). وليس من العسير أن نشارك في تحليل أي تركيب أو آية قرآنية من الناحية الصوتية. فالقرآن كله شواهد على ذلك، وسنأخذ بجوانب أخرى من التحليل الجرسية عند تفسير سورة الحجر جمالياً، إن شاء الله.

٣- في التناسب التصويري:

إن القدرة الفنية على التعبير عن أغراض القرآن وموضوعاته بالصورة الأدبية الرائعة، هي قدرة الإعجاز البياني الذي يجعل منه وجهاً للظاهرة الجمالية في القرآن الكريم.

(١) الإتيان: ٥٦/٢.

وكل ما ساقه العلماء والأدباء والفنانون من صور قرآنية بلاغية عبر القرون الطويلة وحتى الآن يعتبر نماذج فنية للأداء القرآني في تعبيره عن الطبيعة والكون والإنسان وعن الإلهيات التي تشمل فيما تشمل عليه الغيبات الأرضية والعلوية والأخروية.

والصورة القرآنية التي تأخذ أبعاداً من الصدق الفكري والشعوري والتاريخي والجمالي تعمق بتأثيراتها الوجدانية وطاقاتها النفسية في الأعماق الباطنة للإنسان لتعمل على تغييرها وإصلاحها وهدايتها.

وهي إذ تعبر عن هذا كله بالصوت أو باللغة المصورة المقروءة فإنها تبرز أية لوحة تشكيلية ترسم هذه الأغراض بالدقة والروعة والحركة والزمن الذي ترسمه لغة القرآن وصوره الفذة.

ثم إنها بجرسها العميق والظاهر تضفي عليها جمالاً صوتياً متنسق المسافات دقيق النسب والأبعاد وافر الألوان بديع القسمات رائع التناسب والانسجام، هذا الجمال الجرسى المتناسق مع جمال الصورة لا تكشف عنه الموسيقى وحدها ولا اللوحات التشكيلية بمفردها.

ثم إن القرآن يتميزه في صوره وصوتياته وموضوعاته تتقاصر دونه نصوص فنية أخرى فتعجز عن مساواته أو اللحاق به وإن تمتعت بنسب معينة من الجمال الفني البشري.

١ - ويشير الجرجاني إلى جمالية الصورة القرآنية وتناسقها وأثرها في عدد من فنون البلاغة: كالتشبيه، والمجاز العقلي واللغوي والاستعارات...

● ففي التشبيه التمثيلي: (وهو أن يكون وجه الشبه منتزعا من متعدد) يورد له قول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا... ﴾ الآية كثرت

الجميل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصّلت، وهي وإن كان دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة، ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر من شطر، حتى إنك لو حذف منها جملة واحدة من أي موضع كان أدخل ذلك بالمغزى من التشبيه^(١).

ويذكر في: مواقع التمثيل وتأثيره: وإن كان عظمًا كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر وأبلغ في التنبيه وأجدر بأن يجلي الغيايه (ما أظل من فوق الرأس) ويصير الغاية، ويرى العليل ويشفي الغليل^(٢).

● وفي المجاز العقلي واللغوي: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ وذلك أن المعنى والله أعلم على أن جعل العلم والهدى والحكمة حياة للقلوب، على حد قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا...﴾ ومن الواضح في ذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾. جعل خضرة الأرض ونضرتها وبهجتها بما يظهره الله تعالى فيها من النبات والأنوار والأزهار وعجائب الصنع حياة لها^(٣)...

● و(في المجاز العقلي) وهو (إثبات الفعل لما لا يثبت له): وهذا الضرب من المجاز كثير في القرآن، فمنه قوله تعالى: ﴿تُوتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وقوله: عز اسمه: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا تَرَدَّتْهُمْ إِيْمَانًا﴾

(١) أسرار البلاغة: ٨٧. ط/٥ دار المنار: ١٣٧٢ هـ.

(٢) المصدر السابق: ٩٢ - ٩٦.

(٣) المصدر السابق: ٣٢١.

وفي الأخرى ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ وقوله: ﴿وَأُخْرِجَتْ
الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾. وقوله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَتْهُ
لِبَاسٍ مِمَّتِ﴾ أثبت الفعل في جميع ذلك لما لا يثبت له فعل، إذا رجعنا إلى
المعقول على معنى السبب، وإلا فمعلوم أن النخلة ليست تحدث الأكل،
ولا الآيات توجد العلم في قلب السامع لها، ولا الأرض تخرج الكامن في
بطنها من الأثقال، ولكن إذا حدثت فيها الحركة بقدرة الله ظهر ما كنز منها
وأودع جوفها^(١)...

٢ - ومن أواخر الدراسات البلاغية كتاب: في إعجاز القرآن
البياني^(٢). الذي يقول:

أول ما يسترعي النظر من خصائص التشبيه في القرآن أنه يستمد
عناصره من الطبيعة، وذلك هو سر خلوده، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة،
وسر عمومته للناس جميعاً، يؤثر فيهم لأنهم يدركون عناصره، ويرونها قريبة
منهم، وبين أيديهم، فلا تجد في القرآن تشبيهاً مصنوعاً، يدرك جماله فرد
دون آخر، ويتأثر به إنسان دون إنسان، انظر إليه يجد في السراب وهو
ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعاً، فيغرم مرآها، ويمضون إلى السراب
يظنون ماء، فيسعون إليه، يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم، ولكنهم لا يلبثون
أن تملأ الخيبة قلوبهم، حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد، فلا يجدون شيئاً
مما كانوا يؤملون، إنه يجد في هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة،
تظن مجدية نافعة، وما هي بشيء، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٍ
بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

(١) المصدر السابق: ٣٣٥.

(٢) د. بدوي وقد تقدم، والأمثلة مقتبسة من ص: ١٩٦ - ١٩٨.

ويجد في الحجارة تنبوعاً على الجس ولا تلين، ويشعر عندها المرء بالنبو والجسوة، يجد فيها المثال الملموس لقسوة القلوب، ويُعدها عن أن تلين لجلال الحق، وقوة منطق الصدق، فيقول: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، أو لا ترى أن القسوة عندما تخطر بالذهن، يخطر إلى جوارها الحجارة الجاسية القاسية.

ويجد في هذا الذي يعالج سكرات الموت، فتدور عينه حول عواده في نظرات شاردة تائهة، صورة تخطر بالذهن لدى رؤية هؤلاء الخائفين الفزعين من المضي إلى القتال وأخذهم بنصيب من أعباء الجهاد، فيقول: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

ويجد في الزرع وقد نبت ضئيلاً ضعيفاً، ثم لا يلبث ساقه أن يقوى، بما ينبت حوله من البراعم، فيشتد بها ساعده، ويغلظ، حتى يصبح بهجة الزارع وموضع إعجابه، يجد في ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب محمد، فقد بدأوا قلة ضعافاً، ثم أخذوا في الكثرة والنماء، حتى اشتد ساعدهم، وقوي عضدهم، وصاروا قوة تملأ قلب محمد بهجة، وقلب الكفار حقداً وغيظاً، فقال: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ... وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

فأنت في هذا تراه يتخذ الطبيعة ميداناً يقتبس منها صور تشبيهاته، من نباتها وحيوانها وجمادها، فمما اتخذ مشبهاً به من نبات الأرض العرجون، وأعجاز النخل، والعصف المأكول، والشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة،

والحبة تنبت سبع سنابل، وهشيم المحتظر، والزرع الذي أخرج شطأه. ومما اتخذ مشبهاً به من حيوانها الإنسان في أحوال مختلفة، والعنكبوت، والحمار، والكلب، والفراش، والجراد، والجمال، والأنعام، ومما اتخذ مشبهاً به من جمادها العهن المنفوش، والصيب، والجمال، والحجارة، والرماد، والياقوت، والمرجان، والخشب. ومن ذلك ترى أن القرآن لا يعني بنفاسة المشبه به، وإنما يعني العناية كلها باقتراب الصورتين في النفس، وشدة وضوح الصورة وتأثيرها.

٣ - وأخيراً يعرض: التصوير الفني في القرآن^(١)، صوراً يظهر فيها التناسق الفني في «وحدة» الصورة في الأجزاء والتوزيع والألوان وفي اللمسات القرآنية الدقيقة والعريضة، ويبرز صوراً أخرى في أطرها الجرسية والإيقاعية الوادعة الشفافة والخشنة الصاخبة. وصوراً أخرى تختلف في المدة المقررة لبقاء المشهد معروضاً على الأنظار، فمنها ما هو سريع خاطف ومنها ما هو طويل متراخ...

ثم ينوه بالوسائل المتعددة لإطالة العرض في نماذج قرآنية وخاصة: مشاهد القيامة. ويقول:

أ - مرة تكون الإطالة باللفظ المخيل للتكرار. مثل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

فالخيال هنا يظل يستعرض المشهد المروّع، ويكرر العملية المفزعة؛ وكلما زاد فزعاً وارتياحاً، زاد إقبالاً على التكرار. ذلك أن الهول يشد إليه النفس ويوثقها، كلما همت منه بالفرار!

(١) سيد قطب في أطول فصول الكتاب من ص: ٩٤ - ١١٦، وأمكنة أخرى.

ب - ومرة تكون الإطالة بالنسق اللفظي، كالتفصيل بعد الإجمال، مع عرض الأجزاء بالتفصيل، مثل:

﴿وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُنَّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزُرُونَ﴾.

فهو أولاً: أجمل العذاب: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقطع السياق، ليستريح المشاهد، ويأخذ نفسه ويستعد للتفصيل. ثم أخذ في التفصيل.

وهو ثانياً: حينما بدأ التفصيل بعد الإجمال، بدأ العملية من أول مرحلة، وعلى مهل.. فالذهب والفضة قد صاراً جمعاً لا مثنى، بالإلماع إلى قطعهما الكثيرة؛ وفي هذا تطويل بالكثرة: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ - لا عليهما - ثم ها هي ذي «يحمى عليها» فلنتنظر حتى تُصهر.. لقد صُهرت، فلتبدأ العملية الرهيبة: هذه هي الجباه تُكوى.. لقد فرغوا من الكي في الجنوب. فلتحرك الأجسام للظهور. هذه هي الظهور تكوى.. تمهل. فلم ينته العرض بعد.. هناك التقريع والتأنيب، عند الانصراف المتخيل ليتناول العذاب جماعةً أخرى من الصف الطويل: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزُرُونَ﴾ ج - ومرة تكون الإطالة بتفصيل الحركات وتعددتها، وبالتكرار الذي تخيله الألفاظ معاً:

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رَبِّهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

فهذا مشهد عنيف صاخب، حافل بالحركة المتكررة. هذه ثياب من النار تقطع وتفصل. وهذا حميم يصب من فوق الرؤوس، يصهر به ما في البطون والجلود. وهذه مقامع من حديد. وهذا هو العذاب يشتد، ويتجاوز الطاقة؛ فيهب «الذين كفروا» من الوهج والحميم، والضرب الأليم، يهمون بالخروج من هذا «الغم». وها هم أولاء يُردّون بعنف: «ذوقوا عذاب الحريق!». ويظل الخيال يكرر هذه الصورة من أولى حلقاتها إلى آخرتها، حتى يصل إلى حلقة الخروج ثم الرد العنيف، لبدأ العرض من جديد!

د - مرة تكون الإطالة بوقف حركة المشهد، وإخلائه من كل ما يشعر بالحركة. فهذا «ظالم» يقف يوم القيامة، وكأنما هو واقف وحده على المسرح، يبدى ويعيد في الندم؛ حتى لتهم بأن تقول له: كفى يا أخانا فلا فائدة! مع أن المدة التي يستغرقها قصيرة نسبياً؛ ولكن يخيل إليك أنها طويلة طويلة:

﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ۖ﴾ (٢٧)
 يَوَلِّتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
 وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۖ ﴿٢٩﴾

فهذا الندم الطويل، والتذكر لما مضى، مصحوباً بالنعمة الطويلة الممطوطة، والموسيقى المتموجة المديدة، يخيل إليك الطول، ولو أن اللفظ نسبياً قليل. وإطالة موقف الندم تتسق مع التأثير الوجداني المطلوب.

وشبيه بموقف الندم، موقف الاعتراف. فها هم أولاء جماعة من المجرمين يُسألون. ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٤٢) ﴿فَيَكُونُ الْجَوَابُ: ﴿لَمْ تَكُ مِنْ الْمُصْلِينَ﴾ (٤٣) وَلَمْ تَكُ تَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ (٤٤) ... أَلَيْقِينَ﴾ (٤٧)، وكان حسبهم أن يقولوا: كنا كافرين أو مكذبين ولكن هنا يحسن الاعتراف بالتفصيل.

ووسائل أخرى... ولا ريب أن سعة النظرة الفنية المتأملة جعلت من (قاعدة) التصوير القرآني المتسق، ذات أبعاد جمالية عريضة وعميقة لم تظفر بها الدراسات البلاغية والفنية المتقدمة.

موضوعات جمالية في القرآن الكريم الله ذو الجلال والجمال

تصورات إلهية خاطئة من الوجهة الجمالية

انحرفت فطرة الإنسان عن التوحيد الديني الذي كان الأنبياء يدعون إليه ويلقون من أجله ألوان التعذيب والتنكيل وأحياناً التشريد والقتل، ولكنهم يظفرون فيما بعد بالحق الذي يريدون ويدعون.

فليس ثمة صفاء ووضوح كالتوحيد وليس في العبودية الدينية روحية عقلية كالإيمان به سبحانه وتعالى عما يشركون، لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، ليس كمثله شيء وهو السميع العليم.

دين واحد، إله واحد، معبود فرد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ **اللَّهُ**
الصَّمَدُ ۝٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ ۝٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾

عقيدة الأنبياء وأساس الرسالات وأصل الأصول، ومنطلق الديانات الموحدة من الله عبر القرون والأجيال. ومثل هذه العقيدة النقية المنطقية تستجيب لها الفطرة وتقتضيها، وتؤمن بها وتشوق إليها، وتسمو بها إلى مراتب الإنسانية الكريمة . . .

وإن في مصداقيتها وأحقيتها وكمالها ورفعتها أجمل التصورات وأبهاها، وأبدع الحقائق العلوية وأروعها، وأجلّ الألوهية وأعظمها، فسبحان الله ذي الجلال والجمال.

ومع هذه البدايات النفسية والأوليات الفطرية والجماليات الروحية تنحرف الفطرة إلى ما لا ترضاه ولا تقبله ولا تدين به أو تخضع إليه . وهي في حقيقتها راغبة عنه نافرة منه . متشوفة إلى الملائكة الأعلى رب السموات والأرض . وإن في العلمية الخارقة والنسق الخُلقي العجيب ، والنظام البديع الذي يكشف عنه العلم الحديث كل يوم ، جلاء الروح الجمالية التي تسري في الوجود والإنسان والحياة مظهراً وأثراً لجلال الله وجماله في الذات والصفات والأفعال . وصدق الله حيث يقول: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الملك : ٢٢) .

ومع هذه الحقائق العلمية والدقائق النظامية البديعة يبرز الإلحاد مكشراً عن أنيابه مسوداً في وجهه ضيقاً في مده ، غائباً عن نداء الفطرة غافلاً عن رغباتها وإشراقتها ، يلبس نفسه كساء المذهبية المعاصرة . مثل تلك المذاهب المناظرة التي لم تحقق في موازين القيم والخير والجمالية شيئاً مذكوراً .

﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَى فِطْرَتِهِ لِيَبْدِلَ لِيَخْلُقِ اللَّهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم : ٣٠) .

إن الانحرافات قديمها وحديثها لم تكن انحرافات في الكفر والعقيدة والتصور فحسب وإنما كانت انحرافات في الجمالية العامة : جمالية المبدأ والإيمان والسلوك .

ونتج عنها سلسلة من الأخطاء والتشوهات في الفنون والآداب الإنسانية أو قصور في إبراز جانب منها وإهمال الجوانب الأخرى التي تحتاج إليه البشرية حاجة عقدية وجمالية .

ثم نتج عنها أو معها (سلفية) الأداء الفني ، وشروخ كبيرة في جماليات المعاني والمثل ، فانحط معظمها إلى دركات الحيوانية البهيمية في إطار من الجمالية الخادعة المرفوضة .

والفطرة التي تستجيب للدين تستروح الجمال، وتسرّ به وتضيء حياتها بحسنه وتنفر من القبح، وتنأى عما تستقذره الحواس.

وهي إذ تتأمل مشاهد الطبيعة والجماليات الروحية والمادية تعزف عن مشاهد الجرائم وأشكال الأشياء المتنافرة.

وإذا استجابت النفس للجمال واستروحت له - وهو قد يعتره البلى أو الوهن وينكره بعضهم ويعليه آخرون - فكيف يكون موقفها من الله واهب الجمال ومبدع الكون ذي الجلال والسلطان؟.

﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ (الأعراف: ١٤٣)، ولكنه في جنان الخلد وجمالها ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) وقديماً قال أفلاطون: جمال عجيب، أبدي، غير مولود، ولا قابل للفناء، غير خاضع للانحطاط ولا للازدياد... ذلك هو الجمال الإلهي^(١).

وكان مع أرسطو خلفه ييحثان عن نموذج فذّ في الجمال الشامل، الواجب الوجود، المطلق، الأمثل (الله)^(٢).

وحديثاً كان سيد قطب يقول في التصوير الفني في القرآن: ولهذه الطريقة فضلها ولا شك في أداء الدعوة لكل عقيدة... فوظيفة الفن الأولى هي إثارة الانفعالات الوجدانية، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه^(٣).

ولهذا اتخذ الإنسان القديم بعد فساد فطرته جماليات من الطبيعة والأجرام والتمائيل الفنية فعبدها وطلب منها روحاً ينعم به ومفاتيح يلد بها.

(١) مقتبس من علم الجمال: ٣٢. (٢) المصدر السابق: ٤٢.

(٣) التصوير الفني: ٢٤٢.

وتنوعت الأشكال المعبودة واتسعت في أقطار الأرض، وأخذت زخرفها الهائل في القرن السادس قبل الميلاد.

— فكانت فارس تمجد الشمس والقمر والنجوم وأجرام السماء مثل غيرها، ثم جاء زرادشت، فيقال: إنه دعا إلى التوحيد وأبطل الأصنام وقال: إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في الكون، وأمر بالاتجاه إلى الشمس والنار ساعة الصلاة، لأن النور رمز إلى الإله، وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي: النار والهواء والتراب والماء، وجاء بعده علماء سنوا للزرادشتيين شرائع مختلفة... ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة للعبادات تدرج الناس إلى عبادتها حتى صاروا يعبدونها عيناً، ويبنون لها هياكل ومعابد، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وجهلت الحقيقة ونسي التاريخ^(١).

— وجعلت الهند من البرهمية بوذا مظهراً للآلهة وقلدتها في ذلك البوذية نفسها... وتسرب إلى مناهج العبادة السحر والأوهام على أساس رقيق من الآداب التي ليس فيها الإيمان بالله. فلم تكن البوذية إلا طوقاً لرياضة النفس وقمع الشهوات والتحلي بالفضائل والنجاة من الألم. والحصول على العلم. وإذا كانت البوذية سائدة في الصين فإن البرهمية نظيرتها سادت في الهند. فكثرت التماثيل والآلهة لها، وأصبح كل شيء رائع. وكل شيء جذاب، وكل مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد... فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله، ومنها جبال تجلّى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلّى فيها إله، ومنها نهر (الكونج) الذي خرج من رأس (مهاديو)

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٤٣ نقلاً عن: تاريخ إيران: شاهين مكاريوس: ٢٢١، ومعلوم أن الزرادشتية خلفت الشنوية الفارسية: الخير والشر، والنار والنور...

الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التنازل، وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية...

وارتقت صناعةُ نحت التماثيل في هذا العهد وبلغت أوجها حتى فاق هذا العصر في ذلك العصور الماضية ونصب الملك (هرش) الذي حكم الهند من ٦٠٦ - ٦٤٧ م، تمثالاً ذهبياً لبوذا على منارة تعلو خمسين ذراعاً...^(١).

— وفي القرن نفسه وما بعد حظيت اليونان وخاصة (أثينا) بنصيب ضخم من الفنون التي تجسدت في أشكال وثنية وآلهة متعددة ومتنازعة في معظم الأحيان.

وكانت الفلسفة اليونانية تسير بدفع من المتاحف الوثنية المقامة إلى جانب المدارس الفلسفية المختلفة، وإذ تحاول أن تجرد الإلهيات فيها من التجسيد الجمالي الصرف وتحررها من الماديات الوضعية وترفعها إلى أجواء القيم والحق والجوهر الفرد فإن العقلانية المنطقية والحساسية الجمالية تؤسسان الاتجاه الفلسفي اليوناني في ظلال باهتة أو قوية من الوثنية القائمة التي كانت تعتبر الآلهة لدى جمهور الناس هناك، ولذلك فإن الفلسفة اليونانية تبقى (يونانية) ولا تصير (إسلامية) وإن ترجمها المترجمون واقتبس منها (فلاسفة) مسلمون، وشاعت بعض مصطلحاتها في عصور وعلوم متأخرة.

ومهما يكن من أمر فإن البحث يحاول أن يبرز تطلع اليوناني إلى جمال الآلهة وإن نحتت لها الأصنام وصنعت القصص الخرافية من أجلها.

١ — فيشاغورس (ت ٥٠٧ ق م): كان ينادي بدين جديد جلبه من الشرق مع الآله أورفيوس، وفيه نزعة إلى الزهد لا تتفق مع النزعة الديونيسية بوجه خاص.

(١) مقتبسات من السابق من ص: ٤٦ - ٤٨ عن رحلة هوتن سوتنج.

ويحيط الغموض بشخصية أورفيوس، فهو الإله، أو نبي، أو شاعر، أو موسيقار يفتن بموسيقاه الكائنات من شتى الأصناف. وللنحلة الأورفية رأى في أصل العالم وحقيقة الإنسان. ففي البدء كان الزمان، ونشأ عن الزمان الأثير والعماء، وشكل الزمان بيضة في الأثير تفتحت فخرج منها النور، وانفلقت نصفين أصبح أحدهما السماء والآخر الأرض. وتزوجت جايا (الأرض) أورانوس (السماء) فأنجبا ثلاث بنات وستة بنين. ولكن أورانوس ألقى بالأبناء في نهر تارناروس حين علم بأن أبنائه سيقضون عليه. وغضبت جايا فأنجبت التيتان وهم مرده جابرة، وكرونوس، وريا، وأقيانوس، وتيش، وتمضي الأسطورة فتصور لنا كيف ولد ديونيسوس من زيوس، ثم خطف التيتان الطفل وأكلوه، وكيف أعاد زيوس ديونيسوس، إلى الحياة مرة ثانية، وكيف سلط على التيتان البرق والرعد فأحرقهم وجمع رمادهم وخلق منهم الإنسان فأصبح بذلك مركباً من طبيعتين، طبيعة التيتان وهي طبيعة الشر والإثم، وطبيعة ديونيسوس وهي طبيعة إلهية سامية.

واصطنعت الفيثاغورية النحلة الأورفية وبخاصة نظريتها في النفس ونزعتها السرية.

٢ - وأفلاطون (ت ٣٤٧ ق م): تلميذ سقراط أقام في مدرسته المعبد الموهوب لربات الفنون الذي كان الطلبة يقدمون إليه الأضحية في أوقات معلومة، وبخاصة (لهرمس) إله الحكمة... وكانت (المثل) عنده نماذج ثابتة أزلية يفسر بها وجود الموجودات ومعرفتها، وتدرج عنده حتى تقف عند ثلاثة: الحق والخير والجمال... وأغلقت مدرسته فيما بعد بسبب أنها كانت مهد التعاليم الوثنية في الوقت الذي تغلبت فيه المسيحية وسادت، ثم نزل فلاسفتها في (جند يسابور) في امبراطورية كسرى أنو شروان الفارسي، وأفلاطون: المأدبة وموضوعها: حب الجمال، وفيدون: في خلود الروح...

٣ - وأرسطو (ت ٣٢٢ ق م): المشاء تلميذ أفلاطون الذي كان يبحث

عن العلل الأولى والغايات الأخيرة، وهي ضرب من البحث المنظم حتى عرف بـ (المنطق) ولقب بالمعلم الأول وكان يرى أن المحسوس مركب من مبدأين الهولي والصورة، والقول بأن العالم مادي. فهو يسلم بوجود المادة إلى جانب الصورة، وله فصول في موضوعات مختلفة يطلق عليها اسم ما بعد الطبيعة، والإلهيات، والله هو العلة الغائية التي تجذب، وصورة من غير مادة مثل النفس...

٤ - ومدرسة الاسكندرية: أسسها بطليموس الأول (ت ٢٨٢ ق م) لينافس بها أثينا وكانت مؤسسة ثقافية أشبه بمعهد عال للأبحاث مقره في (المتحف). وهو معبد أو هيكل لربات الفنون (موزايوس) التسع، وهن بنات زيوس ونيموسيني، وهذه التسع هي: ربة التاريخ، والشعر الغنائي، والكوميديا، والتراجيديا، والترانيم، والرقص، والموسيقى، وشعر الغزل، والفلك، والشعر الحماسي. وجعل بطليموس هذا عبادة (الإسكندر) ديناً رسمياً عاماً لإغريق مصر، وهي العبادة التي تطورت إلى عبادة أسرة البطالمة.

٥ - وأفلوطين (ت ٢٧٠ م): وتقوم فلسفته على أن (الواحد) قمة الوجود وأعلى منه، وعن الواحد يصدر العقل، وعن العقل تصدر النفس. وهكذا يبدأ بثالوث متدرج في القيمة على رأسه (الواحد). ومفهومه عنده ليس واضحاً متميزاً، فهو تارة (الله) وتارة أخرى (الخير) وتارة ثالثة (الأول). وأفلوطين يرى أن أول موجود صدر عن الواحد العقل، فاض عنه لأنه صورة من الواحد، أو شبح له ثم يصدر عن العقل النفس التي هي صورة أدنى من العقل...

وواضح أن فلسفته تقوم على نظام (الفيض) الهندي، وعلى (الثالوث) المسيحي بما يحملانه من وثنية متأثرة ومؤثرة. ومن صورها (الجمالية) قوله: ... فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء والضياء ما أبقي له متعجباً بهتاً، فأعلم أنني جزء من أجزاء العالم الفاضل الشريف الإلهي... (وحين) أترقى

بذاتي إلى العالم الإلهي . . . أرى هناك من النور والبهاء ما لا تقدر الألسن على صفته ولا تعيه الأسماع . . .

إنها (صوفية) تقوم على (وثنية مسيحية) كان لها صداها المحبوب مع الأسف لدى بعض المتصوفين المتأخرين من المسلمين . . .

٦ - وأخيراً: فرفويوس (ت ٣٠٥ م): المعروف في العالم العربي الإسلامي بكتابه (إيساغوجي) وباللغة اليونانية (المقدمة إلى مؤلفات سقراط). ومن مؤلفاته التي تغنينا: فلسفة الكهانة. يصور فيه العبادات الدينية في هياكل الوثنيين بحسب ما كانت تمارس عند المصريين والكلدانيين والسرّيان. ومنها: صور الآلهة، وهو يدافع فيه عن الوثنية ويبين أن عبادة الأصنام لا تنطوي على كفر كما يزعم المسيحيون واليهود، لأنها رموز محسوسة تقرب إلى الإله . . . (١).

وليس لنا من تعقيب عليها فهي نفسها تتحدث عن نفسها، وعن انحرافات العقيدة التي نتج عنها جماليات وثنية هابطة مهما اتسقت فنيها وتناسقت أجزاءها، وتسامت مفاهيمها.

وإذا كانت قمم الفكر والفلسفة الذين كانوا مراجع العلم والفن والأدب في الشرق والغرب تنحدر عقولهم إلى وثنيات أو تمزجها بها فإن طغيان العقل اليوناني الذي كان يطمح لمعرفة الإلهيات لم يحظ بنصيب من معرفة كنه الحقيقة الأزلية أو ما يسمى بما وراء الطبيعة.

ولكنه كثيراً ما كان ينحدر في وهاد الوثنيات مهما حاول أن يعلي من شأن فلسفته نظرياً.

(١) مختارات من: المدارس الفلسفية. د. أحمد فؤاد الأهواني. مكتبة مصر ١٩٦٥ م.
وانظر فيه: صورة خرافية لعقيدة اليونان في قصة جوبيتر رب الأرباب مع اسقولا ب إله الطب، و: بروميثيوس إله المعرفة. . .!! وصراعا المشبوب الحقود، في: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: العقاد.

ومهما يكن من أمر التقدم العلمي والفلسفي اليوناني الذي ورثته الحضارة الغربية الحديثة فإن النظرات الإلهية أثرت في جماليات الأشكال المعبودة، كأوثان ومسرحيات، وشعر، وفنون تشكيلية مختلفة.

— وفي اليهودية والنصرانية تشويه للرب ووصفه بما لا يليق به وظهر هذا واضحاً على (الإيقونات) و (المعابد) المسيحية من الوجهة الجمالية فكثير فيها الرموز والصلبان والمجسمات في بيوت العبادة حتى نالت من التقديس ما لم يحظ به الإله الخالق^(١).

ولا نطيل الكلام عليهما ففي القرآن الكريم ضلالاتها وانحرافاتهما وطغيانها وطغيان رجالها مما لا مجال فيه لمزيد. وربما عرضنا لبعضها من خلال الآيات التي نتحدث عنها.

وبقي أن نفصل شيئاً عن أباطيل العرب العقيدية لا من الناحية الفكرية الإيمانية وإنما من ناحية اختيارهم أجمل الأشكال والأوثان للعبادة.

فقد زدنا كتاب: الأصنام: هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) بمعلومات وفيرة عن موقف العرب منها، وكذلك الصحيحان، وسيرة ابن إسحاق، وابن هشام. وأشهرها (مناة) لهذيل وخزاعة، و (اللات) لأهل الطائف وسدنتها من ثقيف، و (هبل) أعظمها من عقيق أحمر على صورة إنسان، وقال أبو سفيان يوم أحد: أعل هبل، فقال الرسول ﷺ: «الله أعلى وأجل»، و (العزى) لأهل مكة وبنوا عليها بيتاً تحيطها ثلاث سمرة كبيرة، وحين قطعها خالد بن الوليد وضرب العزى وقلق رأسها قال رسول الله ﷺ: «تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب». ومن أصنامهم (إساف ونائلة) . . . ولما فتح الرسول مكة وجد حول البيت (٣٦٠) صنماً فجعل يطعن بقوسه في وجوهها وعيونها ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقاً»

(١) انظر: مقدمة خصائص التصور الإسلامي، فصل: تيه وركام: سيد قطب.

(الإسراء: ٨١)^(١)، و(ذو الخلصة) لدوس وخنعم فانطلق إليها جرير بن عبد الله في (١٥٠) فارس فكسرها وحرقتها^(٢) وأصنام أخرى.

إذاً فالجزيرة العربية كانت تعجّ بالوثنيات والعقائد المنحرفة ومنها عبادة الملائكة أنها بنات الله، والجن كما ذكره الكلبي عن بني مليح من خزاعة^(٣)، وعرف بعضهم عبادة الكواكب: كانت حمير تعبد الشمس، وكنانة القمر، وتميم الدبران، ولخم وجذام المشتري، وطيء سهلاً، وقيس الشعري العبور، وأسد عطار^(٤).

وهذه الحماقات والجهالات ذات دلالة جمالية في غالب الأحيان. فمن أخبارها فيما رواه البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر...^(٥).

وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فجعله رباً، وجعل ثلاث أثافيّ لقدره، وإذا ارتحل تركه^(٦).

عبادة وثنية وحسن حجري وآلهة من عقيق ما أحطها عبادة وتصوراً، ولكنها ذات دلالة انتقائية خاصة. وإذ هي بدائية العبادة والجمال فإن جمال البيان العربي وروعة الشعر الجاهلي ينضح بالحسن ويغطي أية جمالية أخرى من حيث المضمون والشكل معاً.



(١) انظرها في الصحيحين.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأصنام: ٣٤.

(٤) طبقات الأمم لصاعد: ٤٣٠.

(٥) المغازي.

(٦) الأصنام السابق: ٣٤ نقلاً عن: خصائص التصور الإسلامي: ٣٥.

أسماء الله الحسنى

وثبت أنها (٩٩) اسماً وثيقها بعضهم على الألف وتزيد^(١). ونجد معظمها في القرآن الكريم وبعضها في صحيح السنة، التي ذكرت لها من الفضائل ما ليس لغيرها. وإن اللوحة الأولى منها تلهم بجمالها وجلالها فهي أسماء (حسنى) كما وردت في صريح القرآن. وهي إذ توحى بذلك في أصلها اللغوي والعقدي فإن آثارها ومستلزماتها تدل على (حسنها) أيضاً وهي .

١ - الله	٢ - الرب	٣ - الإله	٤ - الواحد	٥ - الرحمن
٦ - الرحيم	٧ - الملك	٨ - القدوس	٩ - السلام	١٠ - المؤمن
١١ - المهيمن	١٢ - العزيز	١٣ - الجبار	١٤ - المتكبر	١٥ - الخالق
١٦ - الباري	١٧ - المصور	١٨ - الأول	١٩ - الآخر	٢٠ - الظاهر
٢١ - الباطن	٢٢ - الحيّ	٢٣ - القيوم	٢٤ - العليّ	٢٥ - العظيم
٢٦ - التواب	٢٧ - الحليم	٢٨ - الواسع	٢٩ - الحكيم	٣٠ - الشاكر
٣١ - العليم	٣٢ - الغني	٣٣ - الكريم	٣٤ - العفو	٣٥ - القدير
٣٦ - اللطيف	٣٧ - الخبير	٣٨ - السميع	٣٩ - البصير	٤٠ - المولى
٤١ - النصير	٤٢ - القريب	٤٣ - المجيب	٤٤ - الرقيب	٤٥ - الحسيب
٤٦ - القويّ	٤٧ - الشهيد	٤٨ - الحميد	٤٩ - المجيد	٥٠ - المحيط
٥١ - الحفيظ	٥٢ - الحقّ	٥٣ - المبين	٥٤ - الغفار	٥٥ - القهار

(١) انظر فتح الباري: ٢٢٠/١١ إنها ٤ آلاف اسم، نقلاً عن الرازي .

- ٥٦ - الخلاق ٥٧ - الفتح ٥٨ - الودود ٥٩ - الغفور ٦٠ - الرؤوف
 ٦١ - الشكور ٦٢ - الكبير ٦٣ - المتعال ٦٤ - المقيت ٦٥ - المستعان
 ٦٦ - الوهاب ٦٧ - الخفي ٦٨ - الوارث ٦٩ - الولي ٧٠ - القائم
 ٧١ - القادر ٧٢ - الغالب ٧٣ - القاهر ٧٤ - البر ٧٥ - الحافظ
 ٧٦ - الأحد ٧٧ - الصمد ٧٨ - المليك ٧٩ - المقتدر ٨٠ - الوكيل
 ٨١ - الهادي ٨٢ - الكفيل ٨٣ - الكافي ٨٤ - الأكرم ٨٥ - الأعلى
 ٨٦ - الرزاق ٨٧ - ذو القوة المتين ٨٨ - غافر الذنب ٨٩ - قابل التوب ٩٠ -
 شديد العقاب ٩١ - ذو الطول ٩٢ - رفيع الدرجات ٩٣ - سريع الحساب ٩٤ -
 فاطر السموات ٩٥ - بديع السموات والأرض ٩٦ - نور السموات والأرض
 ٩٧ - مالك الملك ٩٨ ، ٩٩ - ذو الجلال والإكرام^(١).

جلال وأي جلال، جمال وأي جمال، إنها الكمال المطلق الذي يليق بالله تعالى.

سنى ربّاني، وعظمة إلهية يتجمعان في أسماء الله الحسنى وصدق الله العظيم: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

(١) ذكرها الطبري وابن كثير في آخر تفسير (الحشر) مع شرح لبعضها، والشوكاني في تفسيره: ٢٦٨/٢ عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠) مع الروايات المأثورة. وابن حجر في الفتح: ٢١٤/١١ عند حديث: (لله تسعة وتسعون اسماً) (٦٤١٠) في الدعوات باب: لله مائة اسم غير واحد، ثم فصل الكلام عليها من حيث رفعها أو إدراجها، والروايات في تعيينها، وعددها في القرآن ضمن كل سورة فيه، وتعدادها في الآثار وعند بعض العلماء، وهل الاسم هو نفس المسمى، وكونها توقيفية، وأقوال العلماء في تصنيفها ومعانيها، وما ورد فيها من الأحاديث، ومعنى إحصائها، وابن تيمية: ٧١/٦ في الفتاوى: كمالها، ومعانيها، والاختلاف في عددها والأحاديث الواردة فيها ومعنى إحصائها... وانظر في تأويلها. بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار من ص: ٣٩٠ د. عبدالفتاح لاشين، وفي كلام القاضي نظر ويحتاج إلى تعقيب.

١ - الأسماء الجمالية^(١):

وهي تلك التي سمى الله بها نفسه وتتضمن جمالية إلهية خاصة تليق به لا تشبهها جماليات المخلوقات والموجودات الأخرى.

وهي كما نلاحظ أكثر من الأسماء الجلالية التي سيأتي الكلام عليها مما تعيننا على تصور (الله) الإسلامي مبدئياً وجمالياً.

ومنها:

— الرحمن الرحيم: عربيان، من الرحمة، وهي في الأصل رقة في القلب تقتضي التفضل والإحسان، وغايتها إيصال الخير والثواب لمن يشاء من عباده ودفع الشر عنهم أزلاً، أو هي إيصال الخير لهم ودفع الشر عنهم...

وإذا دلت الرحمة لغوياً على رقة القلب في الإنسان المخلوق فليس من الضروري أن يتصف الله الخالق بمثلها فهي رحمة ربانية لا يماثلها رحمت الدنيا وأهلها، وكذلك سائر الأسماء والصفات، كما سَمَّى الله بها ذاته ووصفها به، ويَبَيِّنُها من أفعال إلهية خاصة به لا تُقَدَّرُ بجلاله وجماله (ليس كمثله شيء).

وحسبهما أهمية أنهما من المثنائي السبع، ومن غيرها، وفي كل أمر ذي بال.

ويجدر بنا أن نلاحظ اقترانهما كثيراً وخاصة (الرحمن)، بالقرآن الكريم تعليماً ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾ (الرحمن: ١، ٢) ونزولاً ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (فصلت: ٢)، واتباعاً ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه: ٩٠).

(١) اقتبسنا شيئاً من معانيها من رسالة: أسماء الله الحسنى: الشيخ حسين مخلوف. دار المعارف بمصر تاريخ المقدمة، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م. وانظر معانيها أيضاً على الموازنة في: تفسير ابن كثير عند قوله: هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس، والشوكاني وابن حجر والطبري كما أشرت في التعليق السابق.

– القُدُّوسُ السَّلَامُ: فالقُدُّوسُ المنزَّه عن سمات النقص والعيوب وموجبات الحدوث، أو من تقدست عن الحاجات ذاته وتنزهت عن الآفات صفاته، والسَّلَامُ: ذو السلامة من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله. قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ...﴾ (الحشر: ٢٣).

– الغَفَّارُ الرَّزَّاقُ: فهو مسبل الستر على الذنوب في الدنيا ومتجاوز عن عقوبتها في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: ٨٢). والغفار أبلغ من الغافر لأنه وضع للتكثير ومعناه أنه يغفر الذنب أبداً.

وهو الرزَّاق: المتفضل على عباده بخلق الأرزاق وإيصالها لهم، وقد ارتبطت بالإيمان به ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٣)، ثم إنه ﴿خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ (الحج: ٥٨). ورزقه مادي وبدني وروحي ومعنوي.

– اللَّطِيفُ الْحَلِيمُ: فهو الذي لطفت أفعاله وحسنت، أو الذي لا تدركه الحواس، أو العليم بخفيات الأمور ودقائقها، واقرنت أحياناً بجمال الطبيعة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج: ٦٣).

وهو الحليم الذي لا يعجل بالعقوبة مع غاية الاقتدار، أو الذي لا يستخفه عصيان عاص ولا يستفزّه طغيان طاغ، واقرنت أحياناً بجماليات القول والإنفاق ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٣).

– الشُّكُورُ - الكريم: فهو المثني على المصطفين من عباده، أو الذي

يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل، وأصلها اللغوي مرتبط بجماليات الأشجار كثيرة القضبان في أصلها، ومن الناقه ممثلة الضرع. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر: ٣٤).

وهو الكريم: الكامل الإحسان والإنعام. العفو عن السيئات الغافر الذنوب والعيوب، الجزيل الثواب والنعم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَفٌ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠) ووصف الله به كلامه ﴿إِنَّهُ لَقَرَّءٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٧).

— البرُّ الرؤوف: فهو فاعل البر والإحسان يحسن على عباده بالخير، أو البار الذي لا يصدر عنه القبح قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الطور: ٢٨).

والرؤوف: ذو الرأفة وهي نهاية الرحمة أو المنعطف على المذنبين بالتوبة، وهي مرتبطة بالإيمان ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣) وبالتوبة وتأخير العقوبة وبالهداية وطهارة القلوب، ثم برسول الله ﷺ ﴿يَا الْمُؤْمِنِينَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

— النور - البديع: فهو الظاهر بنفسه المظهر لغيره، أو المظهر لكل ما أراد إخراجا إلى الوجود، هو النور ليس مثله نور. أو منور السموات والأرض ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (النور: ٣٥) ومنه نور الحق والهدى ونور الديانات والكتب السماوية، ونور البصائر والإيمان. وهي على سعة ترددها واستعمالها في القرآن أدل على الجمال النوراني الإلهي ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (النور: ٣٥).

وهو البديع: المبدع للأشياء بلا احتذاء ولا اقتداء. أو الذي لا مثيل له ولا نظير، أو الذي أظهر عجائب صنعته وأظهر غرائب حكمته. وهي خاصة بالله تعالى اقترنت في القرآن بالقدرة الإلهية والتوحيد ﴿يَدْبِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٠١).

وهل يدع هذه المخلوقات عظيمها وصغيرها جليها وخفيها سواه؟.

٢ - الأسماء الجلالية:

وهي تلك التي سَمَّى أو وصف الله بها نفسه في عظمة الذات وجلالها وأزلية الوجود وبقائه مالك الملك ذي الجلال والإكرام.

ومنها:

— المَهِّمَن، العَزِيز: فهو الرقيب الحافظ لكل شيء، المبالغ في المراقبة والحفظ، أو الشاهد على خلقه بما يصدر عنهم من أقوال وأعمال.

وهو العزيز الغالب الذي لا يغلب، فلا ينال جنبه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ﴿الْمُهَيِّمُ الْعَزِيزُ...﴾ (الحشر: ٢٣).

وإذا تعدد اسم (العزيز) في القرآن فإن اسم (المهيمن) لم يطلق سوى مرة واحدة مع أسماء الله في سورة الحشر كما سبق. وفي وصف كلامه تعالى (القرآن) ووظيفته بالنسبة للكتب السماوية ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا﴾ (المائدة: ٤٨).

— الجَبَّار - المتكبر: فهو يقهر عباده على كل ما يريد ويقسرهم عليه، أو المنيع الذي لا ينال، أو المصلح أمور خلقه بما فيه إصلاحهم.

وهو المتكبر بالغ العظمة، أو الذي تكبر عما يوجب نقصاناً، أو المتعالي عن صفات المخلوقات بذاته وصفاته العلية. وهي كمادة لغوية وفيرة باشتقاقاتها في القرآن، ولكنها مع (الجبار) لم يصف بهما الله نفسه إلا مرة واحدة في قوله ﴿الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ (الحشر: ٢٣).

وهما مع أسماء وصفات أخرى من خصائص الوجدانية وسماتها التي بدأها بقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(الحشر: ٢٣).

—القَهَّار، الْحَكَم: فهو الذي قَصَم ظهور الجبابرة وقهرهم بالإذلال والنكبات والإهلاك والإذلال، أو الذي طاحت عند صولته صولة المخلوقين، وبادت عند سطوته قوى الخلائق أجمعين. وأكثر ما تقترن بوحدة الألوهية والربوبية ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (ص: ٦٥)، ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦).

والحكم الذي لا مردَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، فهو ﴿حَازِ الْحَكَمِينَ﴾ له الحكم وإليه المرجع ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْبَلَدَيْنِ﴾ ٧ ﴿لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَكَمِينَ﴾ (التين: ٧، ٨).

— الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ: مضيق الرزق على من شاء وموسَّعه على من أراد بحكمته ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٥) ومنه قابض السحاب وباسطه ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ (الروم: ٤٨).

— الخافض الرَّافِع: الواضع من عصاه، والرافع من تولاه، حقاً وعدلاً، قال تعالى ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١) وقال لعيسى عليه السلام ﴿وَرَافِعَكَ إِلَيَّ...﴾ (آل عمران: ٥٥). ولم يرد (الخافض) في القرآن اسماً لله تعالى وإنما وصف بها القيامة فقال: ﴿لَيْسَ لَوْفَعْنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ ٤ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (الواقعة: ٢، ٣)، ولكنه ورد ضمن الأسماء الحسنى في الحديث الصحيح.

— الْمِعْزُ الْمُذِل: أعزَّ تعالى أوليائه بعظمته ثم غفر لهم برحمته... وأذل أعداءه عدلاً بعضيَانهم وارتكابهم مخالفته، ثم بوأهم دار عقوبته.

والمعزَّ والعزیز مشتقان من العزة يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ

وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿المنافقون: ٨﴾. ويقول: ﴿وَتَعَزُّ مِنْ نَشْأَةٍ وَتُذِلُّ مِنْ نَشْأَةٍ﴾ (آل عمران: ٢٦).

وكذلك فإنهما لم يردا في القرآن بصيغة اسم الفاعل على الرغم من سعة هاتين المادتين فيه.

— العَظِيم، الْجَلِيل: فهو الذي لا تصل العقول إلى عظمته وكنه ذاته، أو الذي ليس لكنه جلاله نهاية، ولا لعظمته بداية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَى الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ٢٥٥) فهو أعظم من كل عظيم.

وَالْجَلِيل: الكامل في ذاته وجميع صفاته، أو العظيم القدر له الجلال والعظمة والكمال، أو الذي يستحق أن يعترف بجلاله وكبريائه الخلق. ولم يذكر هذا الاسم في القرآن بهذه الصيغة ولكنه سبحانه: ﴿لَبَّرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٧٨).

— الْقَوِيُّ، الْمَتِين: فهو الكامل القدرة إلى أقصى الغايات فلا يعجز عن شيء بحال، فلله القوة جميعاً وهو ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد: ٢٥). وَالْمَتِينُ: شديد القوة فلا يضعف بحال عما يريد، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٨).

٣ — أسماء تشتمل على الجمالية والجلالية معاً، أو تشعر باحتمال وجودهما فيها مثل:

الحكيم، الحق، الوكيل، العدل، الخبير، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الخالق، الباري، المصور... ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٤).

إن تحليلها دراسياً كما قدمت يفقدها الكثير أو القليل من حسناتها وبهائتها، ولكن رصفها ونسقها القرآني يبوئها أسمى الكمال، وتزداد روعة وبهاءً في (نظمها) الجمالي والجلالي ضمن الجملة القرآنية الواحدة فكيف

تصورها بعض أفهام المستشرقين والمستغربين بالتعارض أو التناقض المعنوي، والخلل والضعف البياني؟ إنها سقام الذهن وطفولة الذوق وبدائية الفهم.

صفات وأفعال إلهية أخرى:

إن الأسماء الحسنی السابقة تستوعب صفات الله وأفعاله الأخرى جميعها صراحة وضمناً وتلازماً واقتضاءً. فقد صرح القرآن بها لتنبه الحسن الإنساني والعقل والضمير البشري إلى الالتزام بالقيم الجمالية والجلالية التي تنفياً في ظلال الخير والحق والجمال الإلهي. والقرآن - وهو كلام الله - لا بد من أن يستغرق حجماً كبيراً في ذكر صفات الله وأفعاله، وهو باعتباره سفراً يعبر عن جمالية الله وجلاله لا بد من أن تبدو فيه ظاهرة واضحة في أية مناسبة تربوية. وإن مما يسترعي الانتباه بل ويعمق التأمل أن تعرض صفات الله تعالى وأفعاله في بيان قرآني فذ تدنيه جمالياته من مراعاة الصفات والأفعال والأحوال البشرية في مواجهة الخصوم والأعداء، وفي سنى الرضا والبشر والحب في اللقاء مع الأحباب والمتقين.

- فهو ﴿أَهْلُ النَّفْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (المدثر: ٥٦)، وهو دليلهم إلى النجاة والمغفرة ودخول الجنة ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَى تَحَرُّقٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ...﴾ (الصف: ١٠ - ١٣).

والمؤمنون خاصة والناس عامة يحيون في وارف رحمت الله وفضله ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ٤٧)، و... ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (يونس: ٦٠) وفضله ليس للناس وحدهم وإنما هو ﴿ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١) ويتفضل على عباده: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ (الشورى: ٢٦).

ومن مظاهر فضله أنه ﴿لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ﴾ (الحج: ٥٤)، وكتابه ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢)، ... ورزقه البلاد بالغيث ونشره رحمته ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى: ٢٨).

ورزقه العباد والدواب جميعاً ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ...﴾ (هود: ٦) وهو رزق إلهي جم ﴿وَاللَّهُ يُرْزِقُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة: ٢١٢).

ومن فضله ورحمته أنه التَّوَّابُ، واسع المغفرة، الودود، عظيم النعمة الرحمن الرحيم.

فأي جمال معنوي وروحي يرف على القلوب والنفوس من الله وبيان القرآن؟ وأي رضى وسعادة تغمر حياة الإنسان في ظل رحمة الله وفضله؟.

وظلال الأشياء، وأكنان الجبال، والسرايل الواقعة من الحر والبأس... والبر والبحر وتسخير الأرض والحيوان والرياح والنبات وغيرها تنبه الأذهان إلى (منافع) الجمال المطبوع والمصنوع ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ مِنَ الْحَرِّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (النحل: ٨١).

إنه فضل واسع ونعم وفيرة مادية ومعنوية فردية وجماعية ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا...﴾.

— وصفات وأفعال جمالية معبرة وعجيبة:

فالله يصلي على المؤمنين ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ...﴾ (الأحزاب: ٤٣) وهو الوكيل عليهم قائلين ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل

عمران: ١٧٣)، يقترض من أموال المنفقين ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: ١١)، ويخفف عنهم تكاليفه ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨)، ويعلمهم ما لم يعلموا ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥)، ويثبتهم في المواقف العصبية: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: ٢٧) ويدعوهم إلى دار السلام ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يونس: ٢٥)، ويرضى عنهم ويرضون عنه ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح: ١٨)، ويبين آياته ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٢).

وهو السُّبُوح الذي ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحشر: ٢٤) والقريب المجيب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦). يشق الحب والنوى عن النبات. ويخرج النامي منه عن اليابس ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام: ٩٥). إنها صورة بهية لاستمرار الحياة على الإنسان والحيوان مصدرها الله الأحد.

إنه وحده كاشف الصبح ضياءً، وجاعل الليل مستقراً وهدوءاً ومأوى، ومقدر حركة الشمس والقمر بحساب دقيق ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام: ٩٦).

إنها لوحة جمالية تتخللها جلالية مبهرة رسمت فيها ضوء الصبح والليل والشمس والقمر في أبعاد دقيقة محكمة صنعتها قدرة الله. وهو يوالي المؤمنين ويتولاهم وهم يوالونه ويخلصون له ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَكَّلُ

الصَّالِحِينَ ﴿ (الأعراف: ١٩٦). ويتم نوره في السموات والأرض
﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف: ٨).

يحب المؤمنين ويحبونه، وينزل سكينته عليهم، ويشهرهم ويطمئن
قلوبهم، ويصطفى منهم النبيين ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويوفقهم
ويحسن إليهم، ويؤلف بين قلوبهم ويشتري منهم أموالهم وأنفسهم بأن لهم
الجنة يقاتلون ويقتلون. ويورثهم الأرض ويستخلفهم فيها بعد أن أنبتهم منها
نباتاً حسناً...

ما أروع هذا الجمال الذي التحمت فيه المادة والروح، وما أبهى تلك
العلاقة بين الله والناس والمؤمنين. إنها الصلاة والوكالة، والمدانية،
والتسامح، والتعليم، والتثيبت، والدعوة إلى الجنان الوارفة والإفضال والموالة
والتحاب والبشارة...

— صفات وأفعال يبدو فيها جلال العظمة والعلو والجبروت والاقتدار مما
يليق بجلال الله وعظمته وعلوه وجبروته وقدرته:

١ — في الكافرين: فهو للناس عموماً ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (البروج: ١٦)
وشمولاً ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (إبراهيم: ٢٧) ولا يعجزه أحد ﴿وَمَا أَنْتُمْ
بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الشورى: ٣١) ويملي للظالمين ﴿إِنَّمَا نَعْمَلُ لَهُمْ لَيْزَادُوا
إِنَّمَا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران: ١٧٨) ويهددهم ويتوعددهم ﴿وَقُلْ
لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ (١٢١) وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (هود:
١٢١، ١٢٢) ويذكرهم بمصائر الجاحدين السابقين ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مَثَلِ
أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾
(يونس: ١٠٢) الذين أهلكتهم القدرة الإلهية على حين غرة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرَغُوا مِنَّا
أَوْتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٤، ٤٥)، فقد استدرجهم الله وأملى لهم ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا

بَعَايِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨١﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٢﴾
 (الأعراف: ١٨٢، ١٨٣)، ومهما أبرموا فلن ينفعهم إبراهيم ولن يغفل عنه ربهم ﴿١٨٢﴾
 أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ
 يَكْتُمُونَ ﴿٧٩﴾ (الزخرف: ٧٩، ٨٠) ومكرهم إلى بوار ﴿٧٩﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرًا
 اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ (آل عمران: ٥٤)، وكيدهم إلى خسران ﴿٥٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ
 كَيْدًا ﴿٥٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿٦٦﴾ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤِدًا ﴿١٥﴾ (الطارق: ١٥) ﴿١٥﴾ وَأَنَّ اللَّهَ
 مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ (الأنفال: ١٨)، وخداعهم وخداع المنافقين مرصود
 ومرفوض ﴿١٨﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ... ﴿النساء: ١٤٢﴾
 فالرسل تكتب خداعهم ومكرهم ﴿١٨﴾ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُمُونَ مَا
 تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ (يونس: ٢١) فينتقم منهم في الدنيا والآخرة ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ
 بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿السجدة: ٢٢﴾
 ﴿اليس الله يعزير ذي الأنقام﴾ (الزمر: ٣٧).

إِذَا فَهَمَ يَسْتَحِقُونَ خَتَمَ الْقُلُوبَ وَطَبَعَ الْأَسْمَاعَ وَالْأَبْصَارَ ﴿٧﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى
 قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةٌ ﴿البقرة: ٧﴾ فَقَدْ ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى
 قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ... ﴿النحل: ١٠٨﴾ فَقُلُوبُهُمْ لَا تَفْقَهُ
 وَأَذَانُهُمْ لَا تَسْمَعُ وَعَيْنُهُمْ لَا تَبْصُرُ ﴿٢٣﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الْبُكْمُ
 الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ
 مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ (الأنفال: ٢٢، ٢٣)، حتى وإن كان الرسول ﷺ يُسْمِعُهُمْ آيَاتِهِ أَوْ
 يَرِيهِمْ إِيَّاهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ
 الضَّمُّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ

كَانُوا لَا يَتَّبِعُونَ ﴿ (يونس: ٤٢، ٤٣)، واحتجوا أَن قلوبهم في أكنة مما يدعوهم إليه. ولكن الله يردعهم ويقول: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين: ١٤). وكان طبعها باتباع أهوائهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (محمد: ١٦)، فزاعوا عن الحق ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (الصف: ٥) وكفروا فطبع على قلوبهم ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ (النساء: ١٥٥)، وأحصى الله عليهم أعمالهم ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ (المجادلة: ٦) ثم يرجعون إليه ﴿ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس: ٤٦)، وحسبهم شهادة كبرى ﴿ قُلْ أَى شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ (الأنعام: ١٩)، وشاهداً أعظم وأحكم ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سبا: ٤٧).

٢ - في جهاد المؤمنين ونصرهم: عرضت سور عدة للجهاد من خلال غزوات بدر وأحد والأحزاب وتبوك... وكان تأييد الله لهم بجنوده وتثبيت قلوبهم بالاعتصام به من أهم الوسائل المعنوية لنصرهم وفوزهم.

﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (آل عمران: ١٣)، وكانت (أحد) دروساً عظيمة للمجاهدين خاصة والمؤمنين عامة فسقط منهم الشهداء وخسروا جولة عسكرية لأن الله جعلها عملية ابتلاء وتمحيص ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤١) ثم ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وكانت (أحد) حلقة خاصة في سلسلة النصر الإلهي للمؤمنين سبقتها انتصارات بدر الكبرى وتبعتها الأحزاب وحنين وتبوك، فكانت (بدر) نصراً عزيزاً من الله وحققاً منه ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ

الْكَافِرِينَ ﴿ (الأنفال: ٧) فأمد المؤمنين بالملائكة ﴿ بُشِّرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿ (الأنفال: ١٠) وربط على قلوبهم وثبت أقدامهم وألقى الرعب في المشركين وكأن الله قتلهم ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (١٧) ﴿ (الأنفال: ١٧، ١٨) ...

وفي (الأحزاب) بعدها، أرسل الله جنوده على الكافرين ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴿ (الأحزاب: ٩) والله وحده عصمهم من السوء ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿ (الأحزاب: ١٧) ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمِنَ الْأَخْيَارِ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿ (الأحزاب: ٢٥)، أما بنو قريظة الذين ظاهروا الأحزاب فكانت نتيجةهم القتل والأسر ووراثه الأرض والديار والأموال ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿ (الأحزاب: ٢٦، ٢٧).

٣ - في تدمير الحضارات المنحرفة: وتطور هذه القضية حول قواعد من القدرة والحكمة الإلهية، ومخالفة السنن الكونية العامة. فانتشار الترف والفسق يحق عليها القول ﴿ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿ (الإسراء: ١٦) وتزيين المفاسد والغمس فيها ﴿ وَفَيَضَّنَاهُمْ قُرْنَاءَ فَرِيقٍ هُم مَّابِينَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿ (فصلت: ٢٥) وانتشار الجرائم ﴿ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (الروم: ٤٧).

وإهمال المسؤوليات العامة والانشغال بالرخاء والسعة والشور

يأخذهم الله بها بغته ﴿ فَفُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٤٥)، ثم ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٠)، وأولئك الشياطين من الجن والإنس يحركهم الإغواء والضلال ويؤخرهم الله ويحصي عليهم أعمالهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٢﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴾ (مريم: ٨٣)، (٨٤). وصراع الحق والباطل لا بد من نصر الحق وأهله وإهلاك الباطل وشيعته ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَأْمُنُنَا لِلْعِبَادِ إِنَّا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّا جُنْدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الصفات: ١٧١ - ١٧٣).

وهكذا فإن تدبير الله ذي الجلال يُشيع الهلع والرعب ويزيد في الخشية والرغبة ويشعر بضعف الإنسان والمخلوقات، ويؤذن بالجبروت الرباني الذي لا مردّ لقضائه وسلطانه. حتى إن مثل هذه الآيات المخوفة كانت تزلزل قلوب المشركين وتجعلهم يفكرون في مصائبهم ويتأثرون من جلال ربهم منفعلين بالبيان القرآني المروع.

العلماء المسلمون وكمالية الله تعالى:

يغلب على العلماء إبراز الجانب (الجلالي) لله تعالى لبعث الخشية والرغبة في تربية النفوس، وإذا نحا بعضهم إلى إبراز الجانب الجمالي فقلما يذكر ذلك بصراحة القول والتصنيف.

وكان علماء الكلام أسبق من غيرهم وأقدر لإبراز هذا الجانب بينما نجد علماء الأخلاق والصوفية ينوهون بشكل أوضح بالجانب الجمالي لله تعالى.

ولا ريب أن العظمة الإلهية وهيبه أسمائه وصفاته وأفعاله تروع الألباب وتهيمن على النفوس، وتربط خلقية الإنسان الضعيف الصغير بالكون العظيم وبالأجرام السماوية الهائلة ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (غافر: ٥٧).

إن خلق الإنسان وخلق السموات والأرض يشتركان في الإعجاز الدقيق والنظام المتناسق والقدرة الفائقة، فكلاهما معجز ودقيق ومتناسق، ولكن خلق السموات والأرض يبدو للعيان أكبر ووجودهما أعظم ورؤيتهما أفخم.

وهذه قاعدة أساسية في التصور الإلهي فإن كثيراً من أسماء الله وصفاته وأفعاله تنبه إلى العلوية والجلالية حسب ما عرفنا من أسمائه الحسنى، ووفق ما وصف الله بها نفسه من خلال القرآن والسنة.

ولكن إلى جانب ذلك هناك كثير من الأسماء والصفات والأفعال ذات دلالات جمالية صريحة وضمنية من الرحمة والحب والجمال واللفظ والبر والإحسان والسلام، والحنان، والمنان، وبديع السموات والأرض...

وهذه أيضاً قاعدة عريضة في التصور الإلهي فلا يمكن أن نتصور الذات الإلهية إلا بها، ولا صفاته إلا منها، ولا أفعاله إلا إليها.

١ - الأكملية والأنورية: فما من عالم إلا وينوه بكمال الله تعالى واتصافه بصفات الكمال المشروعة وتنزيهه عن صفات النقصان، وكمال الله يقتضي وصفه بصفات الجلال والكمال، وأن نوره فيه من العظمة والشفافية ما يليق بكماله.

وينوه ابن تيمية بكمالية الله تعالى وصفاته الذاتية كالسمع والبصر والحياة والقدرة والعلم والكلام، ومنها الصفات الخبرية، كالوجه واليدين والعينين والغضب والرضا، والصفات الفعلية كالضحك والنزول والاستواء، بمقدمتين... ويقول:

(أحدهما) أن يعلم أن الكمال ثابت لله، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تعالى، يستحقه بنفسه المقدسة، وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه؛ فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز، وإن هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية

والبراهين اليقينية، مع دلالة السمع على ذلك.

ودلالة القرآن على الأمور (نوعان):

أحدهما: خبر الله الصادق، فما أخبر الله ورسوله به فهو حق كما أخبر الله به.

والثاني: دلالة القرآن بضرب الأمثال وبيان الأدلة العقلية الدالة على المطلوب. فهذه دلالة شرعية عقلية، فهي «شرعية» لأن الشرع دل عليها، وأرشد إليها؛ و«عقلية» لأنها تعلم صحتها بالعقل. ولا يقال: إنها لم تعلم إلا بمجرد الخبر.

وإذا أخبر الله تعالى بالشيء، ودل عليه بالدلالات العقلية: صار مدلولاً عليه بخبره. ومدلولاً عليه بدليله العقلي الذي يعلم به، فيصير ثابتاً بالسمع والعقل، وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمى «الدلالة الشرعية».

وثبوت «معنى الكمال» قد دل عليه القرآن بعبارات متنوعة، دالة على معاني متضمنة لهذا المعنى. فما في القرآن من إثبات الحمد له، وتفصيل محامده، وإن له المثل الأعلى، وإثبات معاني أسمائه، ونحو ذلك: كله دال على هذا المعنى.

وقد ثبت لفظ «الكامل» فيما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ إن «الصمد» هو المستحق للكمال، وهو السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحكم الذي قد كمل في حكمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الشريف الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه وتعالى.

وهذه صفة لا تنبغي إلا له، ليس له كفؤ ولا كمثل شيء. وهكذا سائر

صفات الكمال، ولم يعلم أحد من الأمة نازع في هذا المعنى؛ بل هذا المعنى مستقر في فطر الناس؛ بل هم مفسطرون عليه، فإنهم كما أنهم مفسطرون على الإقرار بالخالق؛ فإنهم مفسطرون على أنه أجل وأكبر، وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء.

ثم يؤكد على الجانب الجمالي لكمالية الله تعالى ويقول: ... وكذلك إذا قال نفاة الصفات المعلومة بالشرع أو بالعقل مع الشرع كالرضا والغضب والفرح ونحو ذلك... قيل لهم: هذه بمنزلة الإرادة والسمع والبصر والكلام، فما لزم في أحدهما لزم في الآخر مثله...

ثم يقول: ... وأما الغضب مع الرضا والبغض مع الحب فهو أكمل ممن لا يكون منه إلا الرضا والحب دون البغض والغضب، للأمور المذمومة التي تستحق أن تدم وتبغض، ولهذا كان اتصافه بأن يعطي ويمنع، ويخفف ويرفع ويعز ويذل، أكمل من اتصافه بمجرد الإعطاء والإعزاز والرفع، لأن الفعل الآخر - حيث تقتضي الحكمة ذلك - أكمل مما لا يفعل إلا أحد النوعين ويخل بالآخر في المحل المناسب له...

ويقول عن الصفات الملازمة للذات: كان ذلك أبلغ في الكمال من جواز التفريق بينهما، فإنه لو جاز وجوده بدون صفات الكمال، لم يكن الكمال واجباً له بل ممكناً له، وحينئذ يفتقر في ثبوتها إلى غيره، وذلك نقص ممتنع عليه... فعلم أن التلازم بين الذات وصفات الكمال، هو كمال الكمال.

ثم يقرر حسن أسمائه تعالى بعيدة عن النقص حتى في حال الإخبار عنه... يقول: ... وأسماء الله ليس فيها ما يدل على نقص ولا حدوث، بل فيها الأحسن الذي يدل على الكمال، وهي التي يدعى بها... وأما في الأسماء المأثورة فما من اسم إلا ويدل على معنى حسن...^(١).

(١) منتقاة من الفتاوى: ٧١/٦ - ١٥٦.

ويقول ابن القيم عن اسم (الله) أنه: دال على جميع الأسماء
الحسنى، والصفات العليا... وصفات الإلهية هي صفات الكمال، المتزهة
عن التشبيه والمثال وعن العيوب والنقائص...

ثم يذكر بعض دلالة اسم (الله) كونه مألوهاً معبوداً، تألهه الخلائق
محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم
لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنتين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته
ورحمانيته، وملكه مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن
ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد،
ولا حكيم في أفعاله.

ثم يقول: وصفات الجلال والجمال أخص باسم (الله)، وصفات الفعل
والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة،
وتدبير أمر الخليقة أخص باسم (الرب).

وصفات الإحسان والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف:
أخص باسم (الرحمن)...

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع،
والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم ونحوها، أخص باسم (الملك)^(١).

وتثبت الأكملية في تنظيم الخالق وحسن النظر العقلي: فالمخلوقات
والمأمورات كلها تدل على الصفات وحقائق الأسماء الحسنى وهي شواهداها.
وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها فهي تدل عقلاً وحساً وفطرة ونظراً واعتباراً.
والنور الإلهي الذي جعله لعبده ويلقيه إليه، ويودعه في سره هو الذي يبصره
بشواهد صفاته، فكلما قوي هذا النور في قلب العبد كان بصره بالصفات أتم
وأكمل، وكذلك بالتفكير الصحيح، وهما يدلان على إثبات صفات الكمال

(١) مدارج السالكين: ٣٢/١ - ٣٤.

ونعوت الجلال، وأما فكر مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة فإنما يعطي صاحبه نفيها وتعطيلها، وينضاف إلى نور البصيرة، حياة القلب بحسن النظر، فلا بد من الأمرين، فإنه إن غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار لم يحصل له الاستدلال على الصفات، وإن حصل له الاعتبار من غير تعظيم الخالق سبحانه لم يستفد به إثبات الصفات، فإذا اجتمع له تعظيم الخالق وحسن النظر في صنعه أثمر له إثبات صفات كماله، وقد أثبت سبحانه هذين الطريقين فقال في الأول: ﴿سَرُّهُمْ أَيْتَنَافِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣) وقال في الثاني: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣) فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسمائه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به، وما لا يفعله ولا يأمر به. مثال ذلك أن اسمه (الحميد) سبحانه يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر... واسمه (الملك) يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه، من قدرته وتدبيره وعطاؤه ومنعه، وثوابه وعقابه وبثّ رسله، وإعلام عبيده بمراسيمه وعهوده إليهم... فمتى قام بالعبد تعظيم الحق جل جلاله، وحسن النظر في الشواهد، والتبصر والاعتبار بها صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قبله له.

ثم تحصل له فيما بعد أنوار الجلال والجمال، وذلك عند الشعور بمشهد القيومية الدائم، وعندئذ تفيض أنوار المعرفة والمعاملة والصدق والإخلاص والمحبة من قلبه كما يفيض نور الشمس عن جرمها، فيغرق في الأنوار كما يغرق راكب البحر في البحر... ثم يرجو أن يستغرق قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحق ومحو وجوده الطبيعي ويبقى له وجود قلبي روحاني ملكي فيبقى قلبه سابحاً في بحر من أنوار آثار الجلال... ثم يرقيه الله سبحانه فيشهد أنوار الإكرام بعد ما شهد أنوار الجلال، فيستغرق في نور من أنوار أشعة الجمال^(١)...

(١) المصدر السابق: ٣/٣٥٦ - ٣٥٨ و ٣٨٢ مختصراً.

٢ - العلماء وجماليات الأسماء والصفات والأفعال أشرت إلى شيء من هذه الجماليات في القرآن الكريم وموقف العلماء المسلمين منها وأورد فيما يلي صفات وأفعالاً أخرى في الحديث النبوي باعتباره مفسراً للقرآن الكريم، وبيان ذلك من خلال شرح هذه الأحاديث.

وفي المقدمة، نسوق حديثاً أساسياً في هذا الجانب هو ما رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبير بَطَر الحق وغمط الناس^(١).

يقول النووي في شرح الحديث: اختلفوا في معناه، فقيل إن معناه أن كل أمره سبحانه وتعالى حسن جميل، وله الأسماء الحسنى، وصفات الجمال والكمال، وقيل: جميل بمعنى مجمل، ككريم وسميع بمعنى: مكرم ومسمع. وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله معناه: جليل، وحكى الخطابي أنه بمعنى ذي النور والبهجة: أي مالكهما، وقيل: معناه جميل الأفعال بكم باللطف والنظر إليكم، يكلفكم السير من العمل ويعين عليه، ويثيب عليه الجزيل ويشكر عليه... ثم يقول: والمختار جواز إطلاقه على الله تعالى، ومن العلماء من منعه، وبعد أن عرض لورود اسم (الجميل) في خبر الآحاد قال: وقد اختلف أهل السنة في تسمية الله تعالى، ووصفه من أوصاف الكمال والجلال والمدح بما لم يرد به الشرع ولا منعه، فأجازه طائفة ومنعه آخرون إلا أن يرد به شرع مقطوع به من نص كتاب الله، أو سنة متواترة، أو إجماع على إطلاقه، فإن ورد خبر واحد فقد اختلفوا فيه، فأجازه طائفة، وقالوا: الدعاء به والثناء من باب العمل، وذلك جائز بخبر الواحد...

(١) مسلم بلفظه: الإيمان، تحريم الكبر: ٨٩/٢ بشرح النووي، وأحمد: ١٣٣/٤، ١٣٤ بالفاظ قريبة.

وقال القاضي: والصواب جوازه لاشتماله على العمل، ولقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

ولكن لا مانع من شمول الجمال لذاته وأمره وأفعاله وتشريعه... وجواز إطلاقه على الله ما دام ثبت بالسنة الصحيحة نصاً، وبالقرآن الكريم دلالة، وكذلك الأحاديث الصحيحة التي تصرح: بالفرح والضحك والرحمة وغيرها من الجماليات الإلهية.

ففي أحاديث الفرح تشرق معاني الرضا الإلهي على التائبين وقبولهم، والله (يفرح) لتوبتهم و (يسر) بأديبتهم أشد فرحاً وسروراً من الضال في مفازة هو وناقته.

فقد روى عبدالله بن مسعود وغيره عن رسول الله ﷺ قال: لَلَّهْ أَشَدُّ فَرَحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دويّة مهلكة معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أَشَدُّ فَرَحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده^(١). قال المازري: المراد هنا أن الله تعالى يرضى توبة عبده أشد مما يرضى واجد ضالته بالفلاة، فعبّر عن الرضا بالفرح تأكيداً لمعنى الرضا في نفس السامع ومبالغة في تقريرة^(٢). وقال الخطّابي: إن الله أَرْضَى بالتوبة وأقبل لها، والفرح الذي يتعارفه الناس بينهم غير جائز على الله تعالى... وقال ابن فورك: الفرّح في اللغة السرور، ويطلق على البطر... وعلى الرضا، فإن كل من يسرّ بشيء ويرضى به يقال في حقه: فرح به،.... وقال القرطبي: هذا مثل قصد به بيان سرعة

(١) لفظ مسلم في التوبة: ٦١/١٧ بشرح النووي وانظر رواياته الأخرى فيه، ورواه البخاري بالفاظ قريبة، في الدعوات (٦٣٠٨).

(٢) النووي السابق.

قبول الله توبة عبده التائب، وأن الله يقبل عليه بمغفرة، ويعامله معاملة من يفرح بعمله... ثم يقول: لكن الفرح له عندنا ثمرة وفائدة؛ وهو الإقبال على الشيء المفروح به، وإحلاله المحل الأعلى، وهذا هو الذي يصح في حقه تعالى، فعبّر عن ثمرة الفرح بالفرح على طريقة العرب في تسمية الشيء باسم ما جاوره أو كان منه بسبب^(١)...

وعلى كل حال فإن إطلاق الرسول عليه الصلاة والسلام على الله (الفرح) في هذه الحالة ينبغي أن يعلم أنه فرح يليق بالله تعالى، وهو في ذروة الجماليات الإلهية^(٢).

ويقول ابن القيم: والقصد أن هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته وما يليق بعز جلاله... ثم يصور شيئاً من آثار هذا الفرح فيقول: ... فعلم سيده ما في قلبه (التائب)، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه، ومكان الشدة عليه رحمة به، وأبدله بالعقوبة عفواً، وبالمنع عطاءً، وبالمؤاخاة حلاًماً... فكيف يكون فرحه به، وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه، وفتح طريق البر والإحسان والجود التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة^(٣).

إنه جمال يسمو بالأرواح إلى مدارجها العليا وأكرم به من سمو إلهي عظيم.

وفي أحاديث الرحمة أقدس معاني الرحمانية الموزعة على أهل الأرض جميعاً لم يخل منها إنسان ولا دابة.

(١) ابن حجر في الفتح: ١٠٦/١١، ومن المعروف أن مذهب أهل السنة والجماعة

شمول هذه الصفة على ما يليق به تعالى.

(٢) وهذا واضح من مذهب السلف الصالح.

(٣) المدارج: ٢٠٩/١ - ٢١١ منتقاة.

ففي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته بطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر ألا تطرحه. فقال: لَّه أرحم بعباده من هذه بولدها^(١).

إن هذه الأم وقد خشيت على ولدها أو ولد غيرها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتأخذه وتلصقه بطنها وترضعه، أنموذج الرحمة والحنان وأمثلة الشفقة والعطف، ولكن الله أرحم بعباده منها وأشفق عليهم سبحانه وتعالى أرحم الراحمين.

يقول ابن حجر: وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فرض أنه فيه رحمة ما حتى يقصد لأجلها، فالله سبحانه وتعالى أرحم منه، فليقصد العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة^(٢)...

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: جعل الله الرحمة في مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه^(٣).

ونقل ابن حجر^(٤) رواية عطاء: فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها

(١) هذا لفظ البخاري في الأدب (٥٩٩٩) ولمسلم قريب منه في التوبة: سعة رحمة الله تعالى: ٦٨/١٧ بشرح النووي.

(٢) الفتح: ٤٣١/١٠.

(٣) هذا لفظ البخاري في الأدب (٦٠٠٠) ولمسلم قريب منه.

(٤) الفتح: ٤٣٣/١٠.

تعطف الوحش على ولدها. . . وفي حديث سلمان: فيها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض. ووقع في آخر حديث سعيد المقبري في الرقاق: فلو يعلم الكافر بكل ما عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة.

ويقول ابن القيم: (وأخبر الله عبده التائب في عهده) أنه أجود الأجودين وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة. . . ثم يقول: وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء، فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به^(١). . .

وفي أحاديث (الضحك) من العباد في حالات عديدة ما يليق بالذات الإلهية وبنه إلى جمالية روحية راضية.

ففي البخاري من حديث أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: مَنْ يَضُمُّ - أو يضيف - هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله، فقالت: ما عندنا إلا قوتٌ صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيات طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها، فأطفأته فجعلاً يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَفسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

(١) المدارج: ٢١١/١، ٢١٤، منتقاة.

(٢) مناقب الأنصار باب: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٣٧٩٨)، والنسائي في المناسك.

إنها صورة رائعة في جمالية الإيثار تقتضي الإعجاب أو الضحك من الله تعالى . . .

وفي مسند أحمد من حديث أبي رزين قال: قال رسول الله ﷺ: «ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره، قال: قلت يا رسول الله، أو يضحك الرب عز وجل؟ قال: نعم، لن نعدم من رب يضحك خيراً^(١)».

ويضحك الله إلى: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صفوا للقتال^(٢) . . .

ويعدد ابن القيم حالات أخرى لضحك^(٣) الله:

حين يأتي العبد من عبوديته بأعظم ما يحبه، فيضحك سبحانه فرحاً ورضاً.

كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه، ومضاجعة حبيبه إلى خدمته يتلو آياته ويتملقه.

ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو، فأقبل إليهم، وباع نفسه لله، ولقاهم نحره، حتى قتل في محبته ورضاه.

ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سرّاً حيث لا يراه إلا الله الذي أعطاه. فيضحك إليه فرحاً به وبقدومه عليه.

ثم يعقب: وليس في إثبات هذه الصفات محذور البتة، فإنه (فرح) ليس كمثله شيء، و(ضحك) ليس كمثله شيء، وحكمه حكم رضاه ومحبته، وإرادته وسائر صفاته، فالباب باب واحد: لا تمثيل ولا تعطيل.

(١) المسند: ١١/٤، ١٢. (٢) المسند: ٨٠/٣.

(٣) المدارج: ٢١٦/١. وانظر الفتاوي: ٩٢/٦ - ٩٤.

أليس في مثل هذه الصفات الإلهية ما يلهم بجمالها، ثم بجمال العلاقة بين الله وعباده المؤمنين؟ وهل كان رسول الله ﷺ يصورها إلا من خلال تجليات القرآن المنزل على الرسول الحبيب؟.

وحسب (الضحك) الإلهي عملاً أو صفة جمالية أن الله قدمه على الإبكاء والإماتة والإحياء فقال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ (النجم: ٤٣، ٤٤).

فسبحان الله يضحك من عباده وعباده، ويضحكهم، ويفرح لتوبتهم وإنابتهم ويرحمهم رحمة عامة واسعة شاملة.

العلماء وجلالة الأسماء والصفات والأفعال: ويتفق العلماء على تفسير الجلال بالعظمة والعزة والرفعة.

يقول الرازي: الجلال بمعنى العظمة، غير أن العظمة أصلها في القوة، والجلال في الفعل، فهو عظيم لا يسعه عقل ضعيف فجعل أن يسعه كل فرض معقول. وعند تفسير ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٧) قال: فالجلال مرتب على فناء الغير، والإكرام على بقاءه تعالى، فيبقى الفرد وقد عزَّ أن يحدَّ أمره بفناء من عداه وما عداه.

ويقول ابن كثير عند تفسير الآية الأخيرة من «الرحمن»: ذي العظمة والكبرياء، وكذلك ذكره الطبري منقولاً عن ابن عباس.

وأبو السعود: ذو الاستغناء المطلق والفضل التام.

ويفرق ابن القيم بين عدد من الألفاظ الموهمة بالجلالية لتحديد معناها.

فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون. والرهبنة: إمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

والوجل: رجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته.

والهبة: مخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة.

والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

ثم يقول: فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهبة للمحبين، والإجلال للمقربين^(١).

ويقول الفيروزبادي في «البصائر»^(٢) (ت ٨١٧ هـ): الجلالة: عظم القدر، والجلال - بغير هاء - التناهي في ذلك، وخُصَّ بوصفه تعالى، فقيل: ذو الجلال والإكرام، ولم يستعمل في غيره، والجليل: العظيم القدر في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، ووصفه به إما لخلقه الأشياء العظيمة المستدل بها عليه، أو لأنه - تعالى - يجلّ عن الإحاطة به، أو لأنه يجلّ عن إدراك الحواس.

ويصور سيد قطب شمول الجلالية الكون المنظور كله في الظلال: (وتطوى صفحة الخلق الفاني، وتتوارى أشباح الخلائق جميعاً ويفرغ المجال من كل حي، ويتجلى وجه الكريم الباقي، متفرداً بالبقاء، متفرداً بالجلال، وتستقر في الحسّ حقيقة البقاء، وهو يشهد ظلال الفناء.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

وفي ظل هذا النص القرآني تخفت الأنفاس، وتخضع الأصوات، وتسكن الجوارح... وظلّ الفناء يشمل كل حي، ويطوي كل حركة، ويغمر

(١) هو: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي ت: محمد علي النجار القاهرة ١٣٨٥. والكلام السابق من: ٣٨٥/٤.

(٢) المدارج السابق: ٥١٣/١.

آفاق السموات والأرض... وجلال الوجه الكريم الباقي يظل النفوس والجوارح، والزمان والمكان، ويغمر الوجود كله بالجلال والوقار.

ولا يملك التعبير البشري أن يصور الموقف، ولا يملك أن يزيد شيئاً على النص القرآني الذي يسكب في الجوانح السكون الخاشع، والجلال الغامر، والصمت الرهيب، والذي رسم مشهد الفناء الخاوي، وسكون الموت المخيم بلا حركة، ولا نامة في هذا الكون الذي كان حافلاً بالحركة والحياة، ويرسم في الوقت ذاته حقيقة البقاء الدائم ويطبعها في الحس البشري الذي لا يعرف في تجاربه صورة للبقاء الدائم، ولكنه يدركها بعمق في ذلك النص القرآني العجيب.

ونستتج مما سبق:

١ - الجلال: هي العظمة المستغنية المتفضلة المقرونة بالحب ومنها أو تقتضيها العزة والرفعة الإلهية.

٢ - أن الصفات الأخرى كالخوف والوجل، والخشية والرهبة والهيبة آثار لتعظيم الله تعالى، ثم إنها (منزلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به: أشدهم له تعظيماً وإجلالاً)^(١).

وفي القرآن والسنة كثير من الأسماء والصفات والأفعال الجلالية سبق بعضها من مثل: المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، القاهر، العلي، الكبير، العظيم، الملك، الديان، القوي، القدير، الغالب، العاصم...

ومما ورد في السنة النبوية توجيه بلزوم ذي الجلال وعدم مفارقه والإلحاح به، ما رواه ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَلْظُوا بِيَاذا الجلال والإكرام»^(٢).

(١) المدارج: ٢/٤٩٥.

(٢) أحمد: ١٧٧/٤ والترمذي في الدعوات.

وإذا غلبت معاني العظمة والهيبة على (الجلالية) الإلهية فإنها لا تخلو في مضمونها من الرحمة والمحبة والإشفاق.

فقد أقسم الله بعزته وجلاله أن يغفر للمستغفرين، قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبّادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم قال الربّ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(١).

ورفع الإسلام الحب الجلالي الخالص لله إلى مرتبة عظمى في الآخرة، فقد روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابّون بجلالي، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»^(٢).

وكان أبو إدريس الخولاني يقول - لمعاذ بن جبل: والله إني - لأحبك من جلال الله. قال معاذ: آله، قال معاذ: فإن من المتحابّين في الله في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله^(٣).

أما الشفاعة الكبرى للرسول عليه الصلاة والسلام يوم القيامة فتقرن باستثاناه من الله أن تعمّ شفاعته كل من اعتقد بالتوحيد وحده.

فقد روى أنس بن مالك حديثاً طويلاً... ومنه: ... ثم آخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقُلْ يُسمع، وسل تعط، واشفّع تشفّع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله^(٤).

وكان رسول الله يتعوذ من أمور تتعلق بعظمة الله ورحمته ويعلمها

(١) أحمد: ٢٩/٣.

(٢) مسلم: فضل الحب في الله تعالى: ١٢٣/١٦ بشرح النووي.

(٣) أحمد: ٢٢٩/٥.

(٤) البخاري: التوحيد (٧٥١٠).

أصحابه (كما يعلمهم السورة من القرآن)^(١). فقد روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «عُودُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، عُودُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، عُودُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، عُودُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»^(٢).

ومن تعظيم المسلم ربه أن يكبره ذكراً، ويحمده كثيراً وينزّهه عن النظير بكرة وأصيلاً. قال ابن عمر: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، فقال رسول الله: من القائل كلمة كذا وكذا؟ قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. قال: عجبت لها، فُتِحَتْ لها أبواب السماء. قال ابن عمر: فما تركنهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك^(٣).

ومن ذكر الرسول المأثور ودعائه عقب الصلاة قوله: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد^(٤).

وما أجمع وأجمل وأجل ذكره المأثور: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام^(٥).

ومن ناحية أخرى فإن القرآن يعرفنا بصور من الجمالية (الملحدة) المنحرفة عن الله تعالى: فقد ترك الجاهليون أسماء الحسنى وألحدوا بها. ولكنهم لم يغفلوا عن محتواها الجمالي والجلالي معاً.

فالتوت ألسنتهم بأسماء الله وحرّفوا منها أسماءً لآلهتهم المتناثرة هنا وهناك، وذكر الطبري^(٦) أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسَمَوْا بها آلهتهم

(١) مسلم السابق: في التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم: ٨٩/٥.

(٢) مسلم السابق: ٨٨/٥.

(٣) مسلم السابق: ٩٧/٥. (٤) مسلم السابق: ٩٠/٥.

(٥) مسلم السابق: ٨٩/٥، ٩٠. وفي روايات: ذا الجلال والإكرام.

(٦) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها: (اللات)، اشتقاقاً منهم لها من اسم (الله) الذي هو الله، وسموا بعضها (العزى)، اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو (العزیز) . . .

وهكذا يمكن استنتاج تطلع الإنسان مؤمناً كان أو مشركاً إلى معبود يتصف بصفات الجمال والجلال حتى وإن كان إلهاً مزيفاً مصطنعاً.

أما القرآن الكريم فقد بلغ تصويره لله تعالى غاية الكمال وكمال الكمال كما قال ابن تيمية .

يقول ابن القيم جامعاً بين الجلالية والجمالية^(١):

من أعز أنواع المعرفة، معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواصّ الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه، ليس كمثله شيء في سائر صفاته . . . ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال .

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعاً، والقوة جميعاً، والجلود كله، والإحسان كله، والعلم كله، والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي ﷺ في دعاء الطائف: أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة .

وقال عبدالله بن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، فهو سبحانه نور السموات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره .

ومن أسمائه الحسنی: الجمیل . . . وجماله سبحانه على أربع مراتب:

(١) الفوائد: فصل جمال الله عز وجل: ٢٣٤ - ٢٣٦ . وانظر أنواع الجمال التي يحبها الله من عباده: ٢٤٠ .

جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال وجمال الأسماء، فأسماءه كلها حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة، وأما جمال الذات، وما هو عليه فأمر لا يدركه سواء ولا يعلمه غيره... فإن ذلك الجمال مصون عن الأغيار محجوب بستر الرءاء والإزار، قال رسول الله ﷺ فيما يحكي عنه: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري...».

ومن هذا المعنى يفهم بعض معاني جمال ذاته، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات، فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات...

وهو سبحانه غني عن كل ما سواه بكل وجه، وما سواه فقير إليه بكل وجه، والعبد مفتقر إليه لذاته في الأسباب والغايات... انتهى.

وإن تأسيس الإسلام على التصور الصحيح للألوهية في الجلال والجمال يعين على فهم المسائل الفرعية للإسلام في العقيدة والعبادة والنظام والسلوك، ويلهم بالروح الإبداعية في كل وقفة جمالية في الفكر والبيان والحكمة والقدرة والإبداع الإلهي.

حتى إنه يمكننا استنتاج قاعدة فكرية وجمالية قوية الأساس رحبة البعد، كثيرة العطاء، متغلغلة في الوجود الكوني والحضور الإنساني.

وهي أن صورها وعروضها الأدبية والفنية في القرآن العظيم توحى بالجمال الجلالى وبالجلال الجمالى، التي تأخذ بمجامع النفس وقواها الفكرية والشعورية، وتبهرها عظمة الجلال وشفافية الجمال، ومن ثم تحقق منافع معنوية ومادية لا حدود لها.

في روائع الآيات الجمالية:

عرض القرآن كثيراً من أسماء الله وصفاته وأفعاله الحسنى بأروع

الأساليب وأجمل الصور البيانية للدلالة على جمالها وجلالها وكمالها.

فهي باعتبارها تتصل بالله تعالى أكمل الأسماء والصفات والأفعال، هكذا يقتضي العقل والمنطق والحس، فإذا كان الخلق جميلاً ورائعاً فإن الخالق أجمل وأبدع، وإذا كان جليلاً وعظيماً فالمصور أجل وأعظم، والآيات القرآنية باعتبارها بياناً معجزاً وأسلوباً فذاً تليق بكمالية أسماء الله وصفاته وأفعاله الحسنى، فقد عبرت عن جمالها بجمال اللغة، وعن جلالها بجلال الألفاظ والكلمات.

ولذا فإن العقل والحس يشعان بجمالية الاسم والمسمى، والصفة والموصوف، والفعل والفاعل. تماماً كما يشعر بها ذو البيان والصنعة البلاغية، فيكشف عنها الأسرار الجمالية المبدعة.

ذلك لأن الذات الإلهية وما يتصل بها لم تعرض في معظمها عروضاً فلسفية مجردة أو بأشكال منطقية جافة وإنما عرضت بأروع الأساليب وأجمل الصور البيانية كما أشرت.

فقد اتخذ القرآن القصة، والحوار، ومشاهد الطبيعة والقيامة والتاريخ، والإنسان منابع أو أساليب للتعبير عن الألوهية الحقة بما يقنع ويبهز ويهيج، حتى يدفع المؤمنين إلى الالتزام بالعبودية في التصور والقول والعمل. والصيغ اللفظية من منابعها المتعددة لا بد من أن تؤدي بدقة وجمال منسقين أعمق التعبير وأحسنه في قضية التوحيد وما يتصل بها من صفات وأفعال.

وعرضت الآيات قدرة الله وحكمته وبديع خلقه في (ألوان) جمالية وجلالية مختلفة من الأمطار، والثمرات، والجبال، والناس، والدواب والأنعام ووصفت جميعها في مشهد كوني رائع يكشف العلماء عن إعجازه العلمي والبياني:

﴿الْقُرْآنُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۚ وَمِنَ النَّاسِ

وَالذَّوَابِ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٧﴾ (فاطر: ٢٧ ، ٢٨).

وعلم الله المطلق في الغيب والشهادة أعظم من أن تحيط به البحار مداً والأشجار أقلاماً:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾. (الكهف: ١٠٩).

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانَفِذَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (لقمان: ٢٧).

وصور الرعاية الإلهية والنعم الوفيرة والرحمة الربانية والنظام الكوني العجيب، والخلق المبهر والقدرة المعجزة تتجلى في كثير من الآيات بألوان متنوعة من الحسن والبهاء، منها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِي السَّحَابَ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاقِرُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (النور: ٤٣ - ٤٥). إنه دفع السحب بالرياح وانزال المطر من السحاب والبرد كالجبال، وسنا البرق الخاطف، وتقلب الليل والنهار. وخلق الإنسان والحيوان من ماء... تتجلى فيها صور الرعاية والإنعام الإلهية في السماء وإحياء المخلوقات في الأرض. وهكذا تتسق المخلوقات السماوية والأرضية في مشهد جمالي رائع.

وصورتان أخريان: في الأولى المهتدي، وفي الثانية: الضال، فالله الهادي لمن أراد الهداية، والمضل لمن أراد الإضلال...

إن الهداية نور وإحياء وانسراح للصدر، والضلالة ظلمة وإماتة وضيق
ورجس:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ
صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ . (الأنعام : ١٢٥).

نفس مؤمنة تنفعل بمشاعر الطمأنينة والرضا.

ونفس ضالة تنفعل بمشاعر الضيق والمشقة.

إنهما في الجمال البياني أصدق تعبير وأبهاء عن أثر الهداية والضلالة
في النفوس. ف سبحانه الله الخالق الرحيم، الهادي العليم، المنعم القادر،
العزیز الحكيم^(١).

في الآثار العقدية والسلوكية والجمالية:

يشير بعض العلماء والمربين المسلمين إلى أهمية الجانب الجمالي
والجلالي لأسماء الله وصفاته وأفعاله التي يتصف بها في بناء الشخصية
المسلمة من جميع جوانبها: العقلية والعاطفية والسلوكية، فالله تعالى ذو
الجلال والجمال، وقد ثبت هذا في القرآن والسنة ولدى العلماء على اختلاف
اختصاصاتهم.

وتبدو هذه الأهمية: بالآثار الفكرية العقدية، وبالسلوك الإنساني
المستقيم، وأخيراً بالتصور الجمالي في تربية المسلم.

١ - الآثار الفكرية العقدية: فلا يصح مطلقاً إنكار صفات الله تعالى
وأفعاله، لأنه إنكار للقرآن والسنة اللذين قررا وجوبها عليه واتصافها به، كما

(١) أما الجمالية والجلالية في مشاهد القيامة فكانت الدراسات البيانية القديمة والحديثة تغني
عن تناولها وإن كانت تمتد كل حين وكل دارس بمزيد من العطاء.

لا يجوز تعطيلها أيضاً عن متعلقاتها في آفاق النفس والكون والوجود الدنيوي والأخروي، وهي إذ تؤدي إلى الأثر السلوكي والجمالي فإنها تعطينا قاعدة فكرية للأبعاد والمستويات الجمالية في الكون. فالمؤمن الذي يعرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله يحبه لا محاله. ويقتضي ذلك التخلق بصفاته وأفعاله. فالله عفو يحب العفو، ويحب المغفرة ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر على بال، وهو سبحانه الحميد المجيد، ومن آثارهما مغفرة الزلات وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات والمسامحة على الجنایات مع كمال القدرة على استيفاء الحق...

وكل اسم له تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسم (القدير) عن التعبد باسم (الحليم، الرحيم)، أو يحجبه عبودية اسم (المعطي) عن عبودية اسم (النافع)، أو عبودية اسمه (الرحيم والعفو والغفور) عن اسمه (المنتقم) أو التعبد بأسماء (التودد، والبر، واللطف، والإحسان) عن أسماء (العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء) ونحو ذلك.

وهكذا فإن (الله الخالق العالم الرحيم، اللطيف، الخبير، القوي، المتين، المهيمن...) إلى آخر صفاته وأفعاله، أساس عظيم في التصور العقدي للمسلم.

٢ - الآثار الخلقية والسلوكية: فهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو (عليم) يحب كل عليم، (جواد) يحب كل جواد (وتر) يحب الوتر، (جميل يحب الجمال) (عفو) يحب العفو وأهله، (حيي) يحب الحياء وأهله (بر) يحب الأبرار (شكور) يحب الشاكرين، (صبور) يحب الصابرين، (حليم) يحب أهل الحلم^(١)...

(١) مختارات من المدارج: ٤١٩/١، ٤٢٠ و ١٧/٣.

ومن ناحية ثانية فالمسلم يرى ربه (الكمال المطلق) و (المثل الأعلى) فيتبعه في صفاته وأفعاله فيصبح المسلم عالماً قادراً رحيماً جواداً كريماً قوياً صبوراً عزيزاً مقتدراً

وكذلك يحب نشر السلام والأمن والطمأنينة والعطف على الناس والبر بهم وإكرامهم، وقد ورد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وذو السلطان، وحامل القرآن، غير الغالي فيه والجافي عنه^(١)، وكان ابن مسعود يقول: أظؤبيا ذا الجلال والإكرام^(٢).

٣ - التصور الجمالي: ونبه ابن القيم وغيره إلى مطالعة (القلب) لأسماء الله وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها، ومشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الظاهرة والباطنة فإنها داعية إلى محبته.

وتقدم معنا قوله: ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته . . .

وهو كما يقول من أجل المشاهد لأن بالأسماء الحسنی معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً ومثل هذا المشهد من أجل المعارف وأشرفها.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكماً ومصالح، وأسماءه حسنى، ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره قدره، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ (الأنعام: ٩١)، وقال في حق من جاوز عليه التسوية بين المختلفين كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ

(١) نقله ابن كثير عن الإمام أحمد.

(٢) تقدم رفعه، وقد ينسب إليه، انظر ابن كثير في تفسير الآية الأخيرة من سورة الرحمن.

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿الجمالية: (٢١)﴾^(١).

● فمن اسمه (الجميل) وأسمائه وصفاته وأفعاله الحسنى يشع جمال الكون والإنسان والخلقة، ومن جمال الكون والإنسان والخلقة واتقان صنعتها ندرك أسماء الله وصفاته وأفعاله الحسنى.

● ومنه جمال العقائد والفضائل والمشاعر.

● وجمال الأرواح، وجمال الأشواق، وجمال الأحوال.

● ويتنزّه عن القبح، وفعل القبيح، والعبث، والشر، وينهى عباده أن يكونوا من المقبوحين.

● أليس في الحق جمال، وفي الباطل قبح؟ ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ (الشورى: ٢٤).

● ألم يحرم الله «الفواحش» ما ظهر منها وما بطن لأنها من المستقبحات: مشاهدة وسلوكاً وتصوراً؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ...﴾ (الأعراف: ٣٣).

● فكيف لا يبدو المؤمن نظيفاً جميلاً: جمال المظهر وجمال المخبر في عمله وفكره وذوقه وحياته؟.

● وإذا حرّمها لسوئها وقبحها فكيف يأمر بها وهو ذو الجلال والجمال، وخالق الحسن والبهاء، ومشرع الحلال والطيبات؟ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٨).

(١) مقتبس من المدارج: ٤١٩/١ و ١٧/٣. وانظر تتمته فيه.

● وهل يجد إنسان أي إنسان متعة أو لذة في طعام الميتة والدم والهالكة وما أكل السبع؟.

● إنها وأمثالها من «الخبائث» تذكرنا بقبح آكلي لحوم البشر في أبشع صورة متعذرة ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢).

● ثم ألم يحل «الطيبات» ويدعونا إلى الانتفاع بها «مالاً» و«زينة» و«ريشاً» و«طعاماً» وقال: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا﴾ (البقرة: ١٦٨)؟.

● وفي الزواج ألم يرغبنا به متعة جسدية، وجمالاً نفسياً، وسكناً قلبياً، وذرية طيبة ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (الكهف: ٤٦) ومودة ورحمة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١)؟.

● ألا يحب الله أن يرى أثر نعمته على عبده، نظيفاً، مصلحاً شأنه، فكيف يحرم عليه زينته في الدنيا والآخرة ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢).

● فسبحان من أحل الطيب وحرم الخبيث.
وجمّل للناس الحلال وقبح عليهم الحرام.
وأبهج القلوب وزينها بالإيمان.
ونور العقول بالمعارف والعلوم.
وهدى الفطر إلى صراطه المستقيم.
إنه ولي المؤمنين، ومبدع الخلائق أجمعين



الإنسان بين الإبداع الإلهي والإبداع البشري

في الإبداع الإلهي :

أولاً: لونا من الجماليات :

إن الطبيعة الطينية للإنسان ليست كأي جبلة في الخلق والتكوين، فهي خلاصة التربة لأنها ﴿مِنْ سُكَّالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢) و﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦) و﴿كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن: ١٤).

وربما اشتركت أحياء أخرى في أصل الطينية أو على الأعم الترابية، ولكن أياً من هذه الأحياء لم يصل إلى ما وصلت إليه طينية الإنسان من الجمالية القرآنية.

١ - الملائكة وطينية الإنسان: فالملائكة خلقت من نور الله، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وفي خلقهم من نوره جمال رباني وملائكي تقصر عنه جماليات كثيرة، ومع هذا نجد في سورة واحدة (الحجر) تكرار الخلق الإنساني الطيني ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦ - ٢٨). والتأمل في الآية الثانية منهما ينه إلى أن الصلصال الإنساني لا يخلو من جمال معين ما دامت الإرادة الإلهية صنعت هذا الإنسان من الطين وأخبر الله ملائكته بذلك ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٨) وقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (ص: ٧١) فالملائكة «النورانية» يقول الله لهم سأخلق الإنسان من «الطين» أو «التراب» وليس من «الذهب»، أو «الفضة»، أو

«النور» أو من أي أصل ومعدن آخر.

فالتراب منبت الإنسان والحيوان والنبات، ومنه الجبال الراسية والسهول
الفسيحة وأعماق البحار والبحيرات والأنهار، وهو أصل الطبيعة الحية وما
تكسوها من ألوان الحسن والبهاء . . .

والطين المادة العجينية التي يستثمرها الفنان لإبداع جماليات لا
تحصى، فهو مع الصخور أصل الفنون التشكيلية الحية القادرة على التشكل
بأشكال شتى وصور مختلفة لا تنتهي .

ويؤيد هذا ما لفت القرآن إليه من أنه مادة الإعجاز الإلهي عبر القرون
وفي أيدي أنبيائه .

فمن أعظم معجزات عيسى عليه السلام عمل الطين كهيئة الطير ثم
يصير طيراً حياً بإذن الله، وقد أعلنها لقومه صراحة فقال: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ
مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ (آل عمران:
٤٩).

وهي من أجل نعم الله عليه ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي
عَلَيْكَ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِي...﴾ (المائدة: ١١٠).

إن الطين أو التراب ليسا جميلين بطبيعتهما ولكن قدرتهما الفائقة على
صناعات ومجسمات جمالية يجعل منهما أصل الجمال ومادته الأولى .

وحسبهما أن نشأ منهما خلق الإنسان الأول، ثم تكون بدنه من أهم
عناصره، ثم يكون إليه ماله ومصيره .

ويتساءل الرازي بقوله: إن هذا النظم (خطاب الله للملائكة من سورة
ص) إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين، كما إذا قيل: أنا متخذ
سواراً من ذهب، فهذا إنما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة . . .

ويجيب عنه: كأنه سبحانه وصف لهم «الملائكة» أولاً أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية. فلما قال: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ فكأنه قال: ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات...

٢ - الإتيان وطينية الإنسان: فقد خلق الله الجان من مارج من نار فهو من الإتيان، وخلق الملائكة من نوره فهو من الإتيان، وخلق السموات والأرض وما بينهما من أصول محكمة تناسب الحياة والإحياء، فالهواء والماء والنبات والطير والجبال، والثمار والمطعمات والمشروبات والمشمومات، وعالم الغيب والشهادة كل ذلك خلق متقن كما صرحت به آيات كثيرة تقدم بعضها...

ولكن القرآن جمع بين الإتيان في كل مخلوق وبين خلق الإنسان بداية من الطين وعطفه عليها ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ...﴾ (السجدة: ٧).

فطينية الإنسان مجموع من التراب والماء بنسب دقيقة تحقق ثلاث أغراض: الأول دقة التشخيص الإنساني الأول في ملامحه الظاهرة والخفية في صورة آدم عليه السلام، والثاني: لمسات الجمال في التكوين الشخصي بحيث يهيء الطين أجمل الخلق وأبهاء حسناً ونضارة. والثالث: استعداد هذا التكوين الطيني وحده لقبول النفخة الإلهية من روحه وانتعاشه بها وتطلع أشواقه الشفافة إلى بارئه.

وإذا عدنا إلى (سياق) هذه الآية فإننا نلاحظ مجموعة من المعاني تتسق مع الإتيان الإلهي عموماً ثم مع بدء الخلق الإنساني من طين.

● فالقرآن منزل من الله لا ريب فيه.

● والله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام.

● واستوى على العرش بما يليق به وبعرشه.

● ويدبّر الأمر من السماء إلى الأرض بحكمته وعلمه المطلق.

● وأخيراً: إن كل هذه المخلوقات صغيرها وكبيرها من تدبير الله وإتقان خلقه، ومنها هذا الإنسان الذي بدأ خلقه من طين ومن ثم تطوره ونفخ الروح فيه وتزويده بمنافذ العالم الخارجي من السمع والأبصار...

وواضح هنا أن هذه الآيات تدور في معان ثلاثة: الخلق والتدبير والإتقان. وكلها صور جمالية في المشهد الكوني العظيم.

يقول سيد قطب في الظلال: ومن إحسانه في الخلق بدء خلق هذا الإنسان من طين... وأن الطين كان المرحلة السابقة لنفخ الحياة فيها بأمر الله...

وتؤكد السنة النبوية إتقان الصنعة الإنسانية وجمالها في حسن التكوين الترابي أو الطيني، فقد تجمع أديم الأرض كله في خلقه، وامتزج فيه أصول البشرية كلها على اختلاف أجناسها وأعراقها وألوانها... وجاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من أديم الأرض كلها، فخرجت ذريته على حسب ذلك منهم الأبيض والأسود والأسمر والأحمر، ومنهم بين ذلك، ومنهم السهل والخبث والطيب»^(١).

يقول ابن حجر: ومما لم يذكر البخاري ما رواه الترمذي والنسائي والبخاري وصححه ابن حبان من طريق سعيد المقبري وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً: أن الله خلق آدم من تراب فجعله طيناً ثم تركه... حتى إذا كان صلصالاً كالفخار كان إبليس يمرّ به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم، ثم نفخ الله فيه من روحه^(٢)...

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک: التفسير: ٢/٢٦١ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: حديث صحيح.

(٢) فتح الباري: أحاديث الأنبياء: ٦/٣٦٤. وانظر الترمذي: تفسير المعوذتين: ٣٣٦٨.

وفي صحيح البخاري ما يدل على تميز آدم بالطول مثلاً فقد «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً...»^(١).

«خلطة» طينية خاصة تَمَّت من قبضة الخالق، وسَوِّت بصورة إنسان بلامحه وأعضائه فكانت (شخصية) الإنسان التي لم تكن لغيره ثم بقيت مدة لا يعلمها إلا الله حتى استحقت هذه الشخصية نفخة روحية من روح الله... أي جمال إلهي زينته يد القدرة الربانية في تشكيل أجمل مخلوق في الوجود؟ ثم لتحقيق أمر عظيم فيما بعد؟.

وصورة آدم طيناً كانت سوية جميلة كاملة كما أشارت إليها الأحاديث النبوية، فقد ورد عن الرسول ﷺ قوله: «خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً...»^(٢). وفي رواية «على صورة الرحمن» أي على صفته من العلم والحياة والسمع والبصر وغير ذلك... وقال (التوربتشي)... والطبقة الأخرى يرون الإضافة فيها إضافة تكريم وتشريف، وذلك أن الله خلق آدم على صورة لم يشاكلها شيء من الصور في الجمال والكمال وكثرة ما احتوت عليه من الفوائد الجميلة.

وقال (الطبيي): تأويل الخطابي في هذا المقام حسن يجب المصير إليه، لأن قوله: طوله، بيان لقوله على صورته كأنه قيل خلق آدم على ما عرف من صورته الحسنة وهيبته من الجمال والكمال وطول القامة^(٣)...

ومهما فسر أو أول الحديث فإنه ولا ريب دليل واضح على جمال الصورة وحسن الهيئة وتفردّها من بين سائر المخلوقات الأخرى، وصرح بها علماؤنا استدلالاً واستنتاجاً من النصوص الواردة في ذلك.

(١) أحاديث الأنبياء: ٣٣٢٦ باب خلق آدم وذريته.

(٢) أحمد: الفتح الرباني: ما جاء في خلق آدم: ٢٠/٢٨.

(٣) المصدر السابق: ٣٣٣/١٩.

وكيف لا يكون ذلك وقد أودع الله فيه من روحه وأورثه من خلافته؟.

وإن هذه الجمالية مستمرة في ذرية آدم بعد أن سَوَّته القدرة والحكمة الإلهية في أحسن تقويم. ولكن حديثاً آخر يقول فيه الرسول ﷺ: «لما خلق الله عز وجل آدم تركه ما شاء الله أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر إليه فلما رآه أجوف عرف أنه خَلَقَ لا يتمالك...».

فآدم «الطين» أصبح في مرحلة من خلقه صلصالاً كالفخار، صاحب جوف فعرف إبليس أنه لا يملك نفسه ولا يحبسها عن الشهوات، فهو غير متماسك أبداً وغير معصوم دائماً... وهذه سمة من سمات الطين وبخاصة إذا كان أجوف لا يقدر على الرياح وعوارض الطبيعة^(١).

وإذا وازنا بين (خلق) الإنسان هنا وما يتبعه من عدم التماسك، وبين ما قال عنه إبليس نفسه في الحديث السابق: لقد خلقت لأمر عظيم، أدركنا سمة أخرى من سمات الإنسان «الروح» في تعميره الكون ووراثته ومسئوليته. وحينئذ نتابع هذين الحديثين والنصوص القرآنية الأخرى في أن الإنسان مخلوق (مركب) من عنصر الأرض ومن عنصر الروح، وبذلك يفترق عن سائر الأحياء لا من حيث التكوين الجوهري وحسب وإنما من حيث جمالية الجسم والروح أيضاً.

ثانياً: تسويات جمالية:

صرح القرآن بتسويتين - على الأقل - في خلق الإنسان مما لم يقع مثله أو نظيره في أي مخلوق آخر.

١ - تسوية طينية ترابية: وهي الأولى وتتضح فيها معالم (الشخص) الإنساني وملامحه الظاهرة والخفية، فالصورة الظاهرة صورة إنسان، والنسب بين أجزاء هذه الصورة نسب إنسانية، والإعداد للحياة ولنفخ الروح الإلهي

(١) أحمد: الفتح الرباني: ٢٨/٢٠.

إعداد لأول إنسان يحيا في ظل الجمال الإلهي ومن صنعه الذي أتقن كل شيء.

والمراحل الكبرى في هذا الخلق هي قبضة من تراب الأرض، ثم مزجها بالماء وجعلها خلطة طينية لينة ثم يبسها وصلصلتها كلما نفرت أو دخل إليها الهواء... فيما بعد.

وهي تسوية سابقة على أية تسوية... يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ﴾ (ص: ٧١، ٧٢). ويقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٨، ٢٩). وهي مراحل في علم الله وحكمته وتدبيره، يتضح فيها (التسوية) قبل نفخ الروح وجعله إنساناً حياً، وهما يصرحان بالأصل الطيني والصلصالي الناشئين عن التراب والأرض.

● فالتراب هو مجموعة التربة التي (تغطي سطح الأرض من الرواسب الصخرية المتحللة،... والتربة الزراعية هي الطبقة التي تغطي جزءاً كبيراً من سطح الأرض، وتصلح بحكم تركيبها، وفي الظروف الجوية الملائمة لنمو النباتات، ويتراوح سمكها بين ربع متر وبضعة أمتار، وتتكون من خليط من نواتج الصخور المتفتتة كالحصا، والرمل، والطين، والدبال (المزيج) الناتج من انحلال واندماج البقايا العضوية النباتية والحيوانية المتخلفة بالأرض، والأحياء الدقيقة، والديدان الأرضية، ويضاف إلى كل هذا ما تحتجزه التربة بين حبيباتها من ماء وهواء يسميان بالمحلول الأرضي والماء الأرضي...»^(١).

(١) الموسوعة العربية الميسرة مادة: تربة، مختصراً.

وربما تلقى هذه الحقائق أضواءً على (اختيار) لفظة (الإنبات) للإنسان تماماً مثل استعمالها لأنواع الشجر وألوان النبات والزهر.

فالله تعالى خص بها نشأة مريم عليها السلام لكرامتها عنده وذلك حين كفلها زكريا عليه السلام فكانت تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام واحد كما نقله الرازي عن بعضهم . . . وهي في نبات الدين كانت تنبت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة ﴿فَنَقَّبَلْهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُكُمْ أَنَّى لَافٍ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٧) وإنبات مريم في الدين والدنيا ينسجم مع الرزق الدائم عندها ثم ينسجم مع خاتمة الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وكذلك فقد عرض القرآن «إنبات الإنسان» في معرض إنعام الله على الإنسان نعماً كبرى ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا . . .﴾ (نوح: ١٥ - ١٨).

ومن الناحية الجمالية فإن «إنبات الإنسان» صورة لنعمة سيقَّت ضمن جماليات علوية وأرضية: السموات طباق، والقمر نور، والشمس ضياء والأرض بساط . . .

إلى جانب إشعاره أن تطور الجنين أشبه بنمو النبات، فالتربة التي يستنبت منها الزرع ليست أبعد من الإنسان الذي أنشأه الله من الأرض إنشاءً، حتى بعد جعله من النطفة والعلقة والمضغة، فبين الإنسان والنبات وجوه متعددة كالخفاء والتطور والرعاية وفي مقدمتها الإنبات الأول من الأرض . . . ويحدد علم الأحياء والكيمياء العضوية أنواعاً من عناصر الأرض التي تدخل في تركيب جسم الإنسان وهي حوالي (٢٢) عنصراً كالاتي:

١ - الأكسجين (O) وهيدروجين (H) على شكل ماء بنسبة ٦٥ - ٧٠٪ من وزن الجسم.

٢ - كربون.

٣ - أكسجين (O). وتكون أساس المركبات العضوية مثل السكريات، والدهن والبروتينات والفيتامينات والمهرمونات والخمائر.

٤ - مواد جافة مقسمة على النحو التالي:

أ - سبع مواد هي: الكلور (Cl) والكبريت (S) والفوسفور (P) والمغنيسيوم (Mg) والكالسيوم (Ca) والبوتاسيوم (K) والصوديوم (Na) وتشكل ٦٠ - ٨٠ من المواد الجافة.

ب - سبع مواد أخرى بنسبة أقل: الحديد (Fe) والنحاس (Cu) واليود (I) والمنغنيز (Mn) والكوبالت (Co) والتوتياء (Zn) والمولبيديوم (Mo).

ج - ٦ عناصر بكميات قليلة: الفلور (F) والألمنيوم (Al) والبور (B) والسيليونيوم (Se) والكاديوم (Cd) والكروم (Cr)^(١).

إنها نسب دقيقة صالحة لتمثيل عملية التسوية والتكوين فيما بعد، حتى إنه لو زادت أو نقصت مواد أو عناصر عن واقعها المرسوم له لاختل نظام التكوين البدني للإنسان.

● الطين: وينتج من خلط التربة أو تراب الأرض مع الماء. ومن الطين ينتج الحمأ المسنون، والصلصال كالفخار. . .

إن القبضة الإلهية من تراب الأرض تدل على تقدير حكيم في قبولها مقدراً معيناً من الماء، كما يدل على توازن العناصر الأرضية وتكاملها في

(١) مقتبس: معجزة خلق الإنسان بين الطب والقرآن. د. نبيه عبدالرحمن عثمان، من سلسلة دعوة الحق: ص ٢٥، العدد: ٥٠.

صناعة الجسم الإنساني. ويقرر القرآن أن أصل الإنسان من تراب ﴿حَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ ومن الطين ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ و﴿طِينٍ لَّازِبٍ﴾ و﴿مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ و﴿صَلَّصَلِ كَالْفَخَّارِ﴾

وقد ثبت أن الماء مهم جداً في تكوين جسم الإنسان ويساوي ١/٣ وزنه. ويساعد الماء على إذابة الغذاء وإيصاله إلى جميع أجزاء الجسم، ويساعد على عملية التخلص من الفضلات. ويدخل في تركيب الخلية فإما أن يكون متحداً اتحاداً كيمائياً كما في السيتوبلازم أو منتشراً بجزيئاتها.

ومهما قيل في دقة نسب العناصر الأرضية والمائية في الخلطة الطينية فإن هذا التكوين البدني للإنسان لا يساوي عشرين فرنكاً فرنسياً، وأنه على كثرة الماء فيه والممتزج بالعناصر الخاصة السابقة نستطيع أن نكون منه مسماراً واحداً ورأس عود ثقاب من الكبريت، وطلاي جدار من مادة الكلوس، وهذه العناصر لا تساوي من الناحية المادية شيئاً

وعظمة الإنسان الحقيقية ليس في صورته المادية وإنما هي بروحه الربانية وقلبه المؤمن وعمله الزاكي

والمعجزة الإلهية هي تسوية الإنسان الطيني أو الترابي من هذه الأخلاط قبل أن ينفخ فيه من روحه، وتبقى هذه التسوية مستمرة في جسم الإنسان إلى الآن، موزعة بأحكام تنسيق وأبداع خلق مهما اختلفت أعضاؤه وحواسه وعضلاته وعظامه، وأعصابه

إنها معجزة في البدء، ومعجزة في الحاضر والمستقبل، وتسوية جمالية طينية وتسوية جمالية في كل جيل وكل إنسان

وصدق الله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه):

(٥٥).

إنها (تصوير) الله (المصوّر) فقد أصبحت لآدم (صورة) الإنسان السوي

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ (الأعراف: ١١).

٢ - التسوية الحية: وقد تمت في الإنسان الأول بعد أن نفخ الله فيه من روحه واستوى حياً مديد القامة فارع الجسم قوي البنية يمشي على رجليه ولا يستغني عن يديه، يمد ببصره هنا وهناك ويحس بالجمال الخالد في وجدانه المرهف مما يشاهده أو يتلقفه بإحساسه الشفاف متأثراً مبتهجاً.

إنه ممتلىء بالحياة والحيوية ومشاعر الشباب ونشاطاته، مقدر مفكر ناظر باحث، متعلم من الله ما علمه، معلم أبناءه ما تعلم، مؤهل لأعظم وراثته في الحياة وأجل خلافة عن الله، إنه أبو البشر آدم الذي وهبه الله خصائصه الإنسانية كلها، مثل ما وهبها إلى ذريته... وهكذا إلى أن تقضي هذه الدنيا وما عليها...

والقدرة الإلهية والصنعة الحكيمة واضحتان في هذا الخلق، وقد نوّه الله به في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩).

وجمال التصوير وبدع التكوين ظاهر أيضاً في هذا الإيجاد، وقد صرح به ضمن النعم الكثيرة الجليلة، والفضل الواسع الشامل ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر: ٦٤).

يقول الظلال: فأما الإنسان ذاته فمن حسن صورته هذه الهيئة المتفردة بين سائر الأحياء، وهذا الاكتمال من ناحية الأجهزة لأداء وظائفه جميعها في يسر ودقة... ثم يقول: ولو رحنا نبحت دقة التكوين الإنساني، وتناسق أجزائه ووظائفه... لوقفنا أمام كل عضو صغير، بل أمام كل خلية مفردة، في هذا الكيان الدقيق العجيب....

ثم يضرب مثلاً لهذه الدقة العجيبة بفكّ الأسنان من الناحية الآلية البحتة فيقول: إن هذا الفك من الدقة بحيث إن بروز واحد على عشرة من المليمتر في اللثة أو في اللسان، يزحم اللثة واللسان، وبرز مثل هذا الحجم في ضرس أو سن يجعله يصطك بما يقابله ويحتك، ووجود ورقة كورقة السيجارة بين الفكين العلوي والسفلي يجعلها تتأثر بضغط الفكين عليها، فتظهر فيها علامات الضغط لأنها من الدقة بحيث يلتقيان تماماً ليمضغ الفك ويطحن ما هو في سمك ورقة السيجارة

والتسوية الإلهية المبدعة يتعدد بيانها في كتاب الله، فقد سواه بشراً كاملاً سواً بعد أن خلقه من غير أن يعدد مراحلہ ﴿سَبَّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الذي خلق فسوّى) (الأعلى: ١، ٢) وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿(الإنفطار: ٧، ٨)، ثم بعد أن خلقه نطفة وعلقة ﴿الْمَلِكُ نُطْفَةٍ مِّن مَّيِّمَتِي﴾ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿(القيامة: ٣٧، ٣٨). أو بعد أن كان نطفة وتراباً ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ (الكهف: ٣٧)، أو بعد الخلق الطيني الأول والنطفة الإنسانية ﴿وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿(٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِيَّ﴾ (السجدة: ٧ - ٩).

حتى إننا نستخلص من هذه التسوية إبداع الله في طورين:

الأول: إبداع في أصل الخلق والإيجاد أيًا كانت المرحلة التي تم فيها الخلق والإيجاد، فهو خلق سويّ مبدع حسن التصوير والتكوين.

الثاني: إبداع مرحلي، ففي جميع مراحل التنشئة إبداع وتسوية وبخاصة بعد مرحلة النطفة والعلقة ونفخ الروح والرجولة. وصدق الله العظيم الحكيم: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤).

وهكذا أصبح الإنسان إنسان الطين والروح فاكسب بذلك قيمة خاصة لم تتسن لأي مخلوق آخر.

● فالطين المسوي مادة ترابية مخصصة، بنسب من عناصر معينة قد لا تشبهها مادة أخرى ولا عناصر ثانية. فهو أصل الإنسان الأول ثم أضحي نسله من خلاصة العناصر الترابية الطينية في أطواره المتتابعة الدقيقة المطردة الأخرى حين يصير نطفة وعلقة ومضغة

● وهو (قيمة) متميزة بروحه لا تعدلها في استوائها وفضلها أية قيمة أخرى، فصار الإنسان بها إنساناً، وافترق عن (الأحياء) جميعاً، وحق له بذلك استقبال النبوة، وارتقاء العقل والمعرفة، وتقديم البناء الحضاري، وقبل هذا وذاك قيمة الروح الإلهية التي أضحت أسمى قيم الوجود كله.

● وهو جمالية لما أودع الله فيه من أنظمة بدنية تجمع الدقة والتناسب والترابط بين أعضائه وأجهزته من ناحية وبين القوى الروحية والمراكز الفكرية والجمالية من ناحية أخرى، فهو في أحسن تقويم وأحسن تصوير وأجمل نموذج من المخلوقات وأرقى نوع من الأنواع.

● وهو مركز إشعاع الجمال واحتضانه وتقبله. فقد أودع الله فيه ذوقاً يميز فيه بين الحسن والقبيح، وملكة تحكم على الأشياء بالدامة والوسامة، وهي خاصة إنسانية تختلف ضُموراً ونمواً وشفافية بين إنسان وآخر مثل اختلافها بين تقدير الشيء الجميل أو القبيح وتقويمه جمالياً.

● والإشعاع والاحتضان الجمالي في الإنسان لا يغني عن كون الشيء نفسه متناسقاً منتظماً دقيقاً بهياً أو متنافراً فوضوياً عبثياً دميماً. وهو وإن كان نسبياً بين جماعة وجماعة وزمن وآخر فإن أبسط المقاييس العامة متفق على جمالها وقبحها سواء كانت من أدنى المستويات أو من وسطها وأرفعها.

● والجمالية وإن قصرتها نظريات أو مدارس على الأشياء المحسنة والمادية فإن كثيراً من المواد الجمالية تشملها، مثل شمولها الجماليات

المعنوية: جمالية الروح والقيم والمثل، وقد تعبر الريشة أو الكلمة بشكلها ومضمونها عن هذه الجماليات المعنوية.

إن جمالية المشاعر والعواطف لدى الأب والأم أزخم بالحيوية والرضا من كثير من جماليات العلاقات الأخرى، وإن استشعار المؤمن بجمال عقيدته، وبهاء مخلوقات الله، وتفيؤ ظلالها في ملكوت السموات والأرض وصولاً بها إلى جمالية الله الباري المصور القدوس السلام، يضيف على الجمالية أبعاداً وآفاقاً رحبة تشترك في تذوقها الحواس والأفكار والتطلعات الروحية... وهي المجال الأرحب في التصورات الجمالية غير المحدودة التي يتعامل معها المؤمن بفكره وإحساسه ووجدانه.

ثالثاً: إبداع إلهي بين المشهود والغيبى:

إن تصور حقيقة تاريخية أو علمية أو دينية بأبعادها الموثوقة وجوانبها الصحيحة من طبيعة من عمل الفكر والعقل حتى يضعها في معيارها الحقيقي حين يكون هذا المعيار في حدود المعقول أو المحسوس، أو المقطوع به من الخير اليقيني.

وحين يمتد الخيال إليها فيزيئها ويجمّلها بأن يضيف عليها جماليات لا تخرجها عن حقيقتها ولا عن مصداقيتها فهذا من العمل الفني الذي يكسوها روعةً وبهاءً تثير في الحس الوجداني مختلف المشاعر الجميلة.

وكثير من الصور المشهودة في القرآن كانت ذات أصل عريق في الوجود، قديم في الخلق، بعيد الأغوار عن معرفة الإنسان العامة.

وإذ يقررها القرآن نماذج من حقائق الوجود فإنه يحق للخيال أن يتملأها باعتبارها حدثاً إنسانياً ليست له حدود ولا قيود ولا ضوابط يقف عندها.

وعندئذ تصبح لوحاتها مشهداً معانياً لأصل غيبى لا يدركه الإنسان بمعارفه، أو تصبح أحداث اللوحة حقيقة قرآنية ماثلة للعيان مشهودة للناظر، وفي الوقت ذاته تستدعي قواه الخيالية المتعددة لتفسير جوانب منها أو لتحديد

أمور مطلقة فيها، وبالدقة لإضافة أطر من الجمال الرائع عليها.

وهذا ما نلاحظه في تلك الصور القرآنية لعالم القيامة ومشاهدها التي يعرضها القرآن في لوحات فنية معجزة جامعة بين الحقيقة والخيال.

حقيقة لأن أحداث القيامة وأشخاصها وأعمالها ومصائرهم ونعيمها وعذابها تعرض بالبيان القرآني الفذ المؤثر الذي يبلغ النفوس والقلوب فيحرك لواعجها ويثير انتباهها ويجعلها كأنها منظورة للعين مشاهدة للبصيرة مسموعة للأذن....

وخيالية لأنها تدع فرصة كبيرة للخيال أن يتملى طبيعتها وحقيقتها، ويرسم - فيما عدا التي لا نص فيها - من الخيال صوراً أو يتمم هذه الصور بإبداعية بشرية وروعة خيالية، ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. والمشهد الرهيب العجيب الفريد الذي يجمع بين الحقيقة القرآنية والخيال البشري الفني هو مشهد الذرّ وعالم الأرواح.

الذرّ هم آلاف الملايين من الناس من بدء الخليقة حتى قيام الساعة باختلاف ألوانهم وأجناسهم وبلادهم وألسنتهم وأشكالهم وأجيالهم. وأرواحهم وهي من علم الله في يد خالقها قبل أن تخلق، وقبل أن تتلبس أجسادها في دار الدنيا في أشخاص إنسانية، هذان عالمان أو عالم واحد من عالم الغيب في وجود غيبي، وعملية وأحداث غيبية.... يعرضها القرآن حقيقة من حقائق الوجود أو ما قبل الوجود كأنها وقعت من قريب، حية شاخصة للعيان بكل أبعادها وأجزائها.

وهي بحقيقتها ومصادقيتها تفرض على الخيال أن يحتضن صورتها ليضفي عليها جمالية فنية إلى جمال الحقيقة، فكيف يتصور الخيال مثل هذه الحقيقة في روعتها وجلالها حين يحاول أن يرسمها بريشته إن جاز له ذلك؟.

أرواح هائلة وناس هم الذرّ بأعيانهم وخصائصهم الإنسانية لا يحصون عدداً واقفون أمام العظمة الربانية يعقدون مع الله أقدم وأغرب ميثاق

وأجله في أخطر قضية فكرية وجدانية هي الربانية والوحدانية. ثم إقرار هذه الأرواح والذّر بهذه القضية. . . .

كيف حدث هذا الميثاق وكيف تجمعت هذه الأرواح والذّراري في وقت ومكان واحد إن كان ثمة زمان ومكان؟ وكيف بلغ الله ميثاقه وبم سمعوا وأجابوا وشهدوا؟ وبأي جهاز فهموا ووعوا؟.

إن هذا قد حدث فعلاً وحقيقة، كما صوّره القرآن وبيّنه الرسول عليه الصلاة والسلام وكان من نتائجه فريقان حقيقيان واقعان: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وإن في حدوثه إعجازاً إلهياً وإبداعاً ربانياً، وفي تصويره إعجازاً بيانياً وقولاً محكماً يستوعب قضية (الفطرة البشرية) بالنسبة إلى التوحيد المركوز فيها، وانقسام الناس فيما بعد إلى مؤمنين وكافرين بعد أن اجتالتهم شياطين الإنس والجن. . . .

وإذ يبدو في قدم سحيق من الوجود وتعاقب أجيال البشر عليها فيما بعد فإن العرض القرآني لها يثير في النفس أجمل الأخيلة وأعجبها لأنها صورة فريدة من الاتصال الإلهي بالعالم الإنساني قاطبة ممثلاً في هذا الذر العاقل العجيب بين يدي الرحمن، وهذا الحوار الذي تمّ بشكل ميثاق وإقرار في الفطرة والبيان. . . . كل ذلك يعرضه القرآن ليذكره الرسول ﷺ حياً شاخصاً (إذ) أخذ الله ميثاق بني آدم من ظهورهم. . . . إنه مشهد غيبي متجدد يطلب القرآن أن يذكره الرسول ﷺ ويذكر به قومه وبخاصة أولئك الصحابة الذين كانوا يتناولون الذرية ويقول أحدهم: يا رسول الله: أليسوا أبناء المشركين؟ فيقول لهم الرسول ﷺ: «إن خياركم أبناء المشركين إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها. . . .» كما نقله ابن كثير في سبب النزول.

لقد ذكر الله ذلك كله بصدق الحقيقة وروعة التعبير ورهبة الخيال في هذه الآيات ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣).

وفسره الحديث النبوي برواياته المتعددة والصحيحة، ومنها: قول الرسول ﷺ فيما يرويه أنس بن مالك: يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي^(١).

ورواية أحمد^(٢) عن ابن عباس عن النبي ﷺ: قال: إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فشرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا... الْمُبْطِلُونَ﴾. قال ابن كثير: رواه النسائي في كتاب التفسير...

وإذا سبق لآدم لوان من الإبداع الجمالي: في خلقه من طين على صورته ونفخ الروح فيه، ومن ثم تعليمه الأسماء كلها وسجود الملائكة له بأمر الله فإن لواناً من الجمال (الجلالي) يبدو في مشهد الذر الآدمي من عالم الأرواح.

إنه يروعننا بالقدرة الإلهية القادرة مثل ما يروعننا بالتواصل الإلهي الذري في إشهاد الفطر البشرية بأصالة التوحيد وتعمق هذه الروعة في نفوسنا: أن (العلم) يقرر أن الناسلات - كما ينقل سيد قطب في الظلال - وهي خلايا

(١) انظر الحديث بتمامه في البخاري: الرقاق. صفة الجنة والنار (٦٥٥٧) ومسلم في المنافقين...

(٢) انظر: الفتح الرباني: ٢٩/٢٠ وروايات متعددة متقاربة. وانظر روايات أخرى في: أبي داود والترمذي وابن جرير الطبري عند تفسير الآية: لابن كثير.

الوراثة التي تحفظ سجل (الإنسان) وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب، إن هذه الناسلات التي تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر وتكمن فيها خصائصهم كلها، لا يزيد حجمها على سم^٣، أو ما يساوي ملء قمع من أقماع الخياطة

إنها ولا شك من معجزات القرآن العلمية القديمة والمعاصرة وتشهد بالحقبة الربانية العلوية مثل شهادتها بالبيان المعجز وفي جمالية أو فنية أغرب من أي تصور وخيال .

رابعاً: الوسائط الناقلة للجماليات:

إن إبداع الخلق الإلهي للإنسان متوزع في كل خلية ونسيج وحاسة وعصب، وهذه على إبداع خلقها تقوم بعملها وبالمهمة المناطة بها على خير نظام وأدقه .

وأخص بالذكر هنا وسائل النقل للجماليات من المحيط الخارجي إلى الجهاز العصبي، ومنه إلى العالم الخارجي، ولا بد لهذه الوسائل أن تكون مبرأة من العيوب الخلقية والمرضية، حتى تستطيع القيام بمهمتها الدقيقة والهامة .

ومن ناحية ثانية فإنها (وسائل) نقل فقط فهي تنقل المسموعات والمشمومات والمرثيات والملموسات والذوقيات والإشارات والذبذبات إلى الجهاز العصبي ليقوم هذا بتفسيرها وتحديدها وإعطاء الحكم عليها من البرودة والسخونة والنعومة والخشونة والشدة والضعف، وضالة الحجم وكثافته وضحامته .

وإذ تحس بكل هذا فإنها لا تستطيع أن تفسره جمالياً أو تعطيه قيمة جمالية فهذا ليس من وظيفتها ولا عن طبيعة عملها، حتى تلك المراكز العصبية الحسية والحركية والفكرية فيمكنها أن تحده بالحدود المحسنة من طول

وقصر ورخاوة وصلابة، وطعوم حلوة وحررة وحامضة وذكاء وحافظة. . ولكنها لا تحكم عليه بالجمال والقبح. . . .

فالحاسة الجمالية هي غير هذه وتلك، وتفسيرها للجماليات مسألة لم تخضع لعلم التشريح ولا لعلم وظائف الأعضاء. . والحكم الجمالي أو الحكم على الشيء بالجمال أو القبح ناتج عن طبيعة وتكوين الأشياء المعروضة الخارجية وموقف الغريزة أو الملكة الذوقية منها في النفس البشرية. ومع هذا فإننا نقتصر الآن على بيان شيء من الإبداع في وسائط النقل من الحواس والجهاز العصبي، ومن ثم نعرض إلى الإبداع الإلهي في الملكة الجمالية الإنسانية. وسنتحدث عن جهازين جماليين: أولهما: الوسيلة الناقلة، والثانية: الأجهزة المركزية المفسرة والحاكمة.

١ - الحواس:

وهي خمس، أما الحاسة السادسة فلا تخضع للمقاييس والوظائف التي تعمل فيها الحواس المعروفة والموجودة لدى كل إنسان تقريباً، لأنها (استشفاف) أو (تخاطر) نابع من قدرة على رؤية أو إدراك حوادث معينة دون استخدام الحواس، والانتقال عن بعد للخواطر والوجدانات والخبرات الشعورية، ومن عقل إلى عقل على سبيل الوهلة وبغير الوسائل الحية المعروفة، وقد استغلت أحياناً أسوأ استغلال^(١).

وعموماً فإن أهمية هذه الحواس متشعبة: فهي حسية وعقلية ووجدانية فلولا العين لم تعرف جماليات المشاهد، ولولا الأذن لما أدركت الأصوات والألحان الجميلة، ولولا اللسان وما يحيط به لم تميز أنواع المطعومات، ولولا الأنف وما يتصل به لم تدرك الروائح الذكية والمنفرة، ولولا حاسة الجلد

(١) انظر الموسوعة العربية الميسرة المواد: الحاسة السادسة، استشفاف، تخاطر.

المتشيرة في أعضاء الجسم وبخاصة اليدين لم تفسر جماليات الملمس وخشونته .

فالحواس وسائط نقل للأشياء الموجودة في العالم الخارجي، أو هي منافذ للجهاز العصبي يطل منها على هذا العالم ليقوم بتفسيره والحكم عليه مادياً وحسياً وليس تفسيراً أو حكماً جمالياً، أو هكذا كما نعلم من وظائفه ومهامه الظاهرة.

وأثبت علماء النفس أنه ليس في العقل شيء لم يكن أولاً في الحواس، وأن تربيتها تربية للعقل فلا عجب إذا دعاها (ملتن) الشاعر الإنكليزي (ت ١٦٧٤ م): أبواب المعرفة الخمسة. والأيدي والحواس هي المعلم الأول للطفل، ولقد نادى بهذا المبدأ (روسو) حيث قال: إن أقدامنا وأيدينا وأعيننا هي أول من يعلمنا الفلسفة، وحثّ على هذا المبدأ (بستالوتزي، وفروبل، وسبنسر) من قادة التربية.

فالحواس مفاتيح العقل وهي الطرق الموصلة إليه، وكلما كانت العناية بتربية الحواس تامة كان لهذه التربية أثر كبير في الحياة العقلية للإنسان، فبغير الإدراكات الحسية الواضحة لا يمكن تكوين صور ذهنية واضحة في النفس.

ولو عنيّا بتربية الحواس وتهذيبها ما كنت ترى الرجل ينظر إلى الصورة فلا يمكنه أن يرى ما فيها من آيات الجمال أو يسمع الطيور تغني وتغرد فلا يشعر بسجعها وتغريدها، أو يسمع الموسيقى فلا يميز الضوضاء من العذب منها، أو يرى الشيء فلا يمكنه الحكم عليه، أو يقدره فيخطيء التقدير، أو يختبره بيده أو نظره فلا يستطيع أن يعرفه معرفة صحيحة.^(١)

(١) من روح التربية والتعليم: ٢٥٥، ٢٥٦ باختصار د. محمد عطية الإبراشي: عيسى البابي الحلبي.

● حاسة البصر^(١): وهي مع حاسة السمع والفؤاد أكثر الحواس وروداً في القرآن الكريم. والإبصار يتم بواسطة النور الذي تبلغ سرعته (٣٠٠,٠٠٠ كم) في الثانية، وبواسطة العين يستطيع الإنسان التعرف على المحيط الخارجي من حيث شكله وألوانه وأبعاده، ودرجة إضاءته. وهي تزن ٤٨ غ تقريباً، ومن أقسامها: العدسة البلورية وهي أعظم وأدق وأعجب عدسة في هذا الكون، وتمتد وتقلص حسب مسافة الأجسام أو الضوء الداخل إلى العين.

وهناك سوائل شفافة (غير الدمع) لها خاصية انكسار الضوء عند مروره خلالها، وتمر عبر (٣٠) قناة، وعدد الأوردة (١٢) وريداً مائياً. وللعين (١٤٠) مليون عصب، وحوالي (٦ - ٧) ملايين مزولي، وهذه كلها موجودة في الشبكية في العين الواحدة أي يبلغ مجموع الأعضاء المستقبلية للنور في العين حوالي (٣٠٠) مليون عنصر...

وأفضل قليلاً على تمييز العين للألوان المختلفة... فالضوء يتحلل عادة إلى سبعة ألوان وهي ألوان الطيف الشمسي: الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي، ومن مزيج هذه الألوان يتكون اللون الأبيض. ولكل لون طول موجة غير طول موجة اللون الآخر، فطول موجة اللون الأحمر (٦٢٠ - ٧٦٠) ميلي ميكرون، وتنتهي بالبنفسجي وطول الموجة (٣٩٠ - ٣٤٠) ميلي ميكرون.

إن العين تميز ما بين هذه الحدود حوالي (١٢٨) لون أساسي، ووجد أن لكل لون عدداً من اهتزازات الموجات، وأصغر التوترات هي اللون الأحمر حيث تبلغ (٧٨٠) مليون مليون هزة في الثانية، وكل توتر يصيب العين يولد فيها إحساساً معيناً باللون... وهكذا فإن الألوان في تواترها التي لا حد لها

(١) المعلومات التشريحية في الحواس مقتبسة من: معجزة خلق الإنسان بين الطب والقرآن د. نبيه عبدالرحمن عثمان سلسلة دعوة الحق: ٥٠ باختصار شديد. وانظر مراجعه في ذلك.

بين اللون الأحمر والبنفسجي تؤلف عدداً لا نهائياً من طيوف الألوان المرئية. . .

ومن المعلوم أنه لا توجد القدرة على تمييز الألوان في جميع المخلوقات، فلا توجد المخاريط في عيون الحيوانات الليلية مثل الخفاش، وتوجد العصيات وحدها، وفي الحيوانات النهارية مثل: الطيور والدجاج توجد المخاريط وحدها. . .

وصدق الله المنعم ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الملك: ٢٣).

● حاسة السمع: وهي من أهم الحواس الإنسانية في القرآن الكريم. . . وقد استطاع العلم الحديث أن يفسر كيف تنتقل الذبذبات الصوتية وكيف تستقبلها، وتركيب الأذن التشريحي، ولكنه ما زال صامتاً عن إدراك الخلايا العصبية الصوت وتفهيمه وتمييزه. وتبلغ سرعة الصوت (٣٤٠) مليون في الثانية، ويختلف باختلاف كثافة المادة، فسرعة الصوت في الماء أسرع من الهواء حيث تصل إلى (١٤٣٥) مليون في الثانية، وفي المواد الصلبة أسرع من ذلك. . . وأثبت العلم الحديث أن الأذن تسمع إذا كانت الاهتزازات في معدل يتراوح بين (١٦ - ٢٠٠٠٠) هزة في الثانية، وتستطيع الأذن التمييز بين (١٥٠٠) لحن إذا بقيت الشدة ثابتة، كما تستطيع التمييز بين (٣٢٥) صوتاً إذا بقي اللحن وعدد الاهتزازات ثابتاً، وأن تميز ما بين (٣٤) ألف لحن مختلف الشدة والتوتر والاهتزاز. وقدرة الأذن في تمييز الأصوات شيء مدهش وعجيب.

ومن جهاز السمع ما يسمى بعضو (كورتى) في الأذن الداخلية ويضم ما يقرب من (١٠٠,٠٠٠) خلية سمعية تتصل بها ألياف عصبية دقيقة تتجمع وتكون العصب السمعي، بالإضافة إلى أن وظيفة الأذن الداخلية الهامة وهي حفظ التوازن وذلك عن طريق قنوات. . . وتتصل بها ألياف عصبية إلى

المخيخ... وبواسطة السمع يتفاهم الناس ويتعلم الإنسان النطق ويرتقي في سلم المعرفة وتتفرع اللغات وتتباين اللهجات وتنوع الشعوب. ﴿وَمَنْ أَيْدِيهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنْدَكُمُ وَالْوَنَكُمَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الروم: ٢٢).

● حاسة الشم: والأنف عضو الشم فيه ثلاثة أغلفة بعضها فوق بعض، مغلفة بغشا مخاطي ومن فائدتها تسخين الهواء أثناء مروره فيه. وتتوزع ألياف العصب الشمي، وفيها خلاياها، ويوجد لكل خلية شمية (٦ - ٨) أهداب وفوقها سائل مخاطي، فإذا وصلت الروائح إلى تلك المنطقة تحللت في السائل. فالروائح تتحلل إلى المواد المكونة لها وإلى شكل هندسي يناسبها بعد ذوبانها في الأهداب... والروائح الأساسية سبعة وبقية الروائح مزيج منها بنسب متفاوتة، ولكل منها مساحة خاصة في منطقة الشم، ومنها تنتقل الإشارات إلى المخ عبر عصب الشم. ولا يتم الإحساس بالرائحة إلا إذا بلغت نسبة التركيز فيها خمسة أجزاء من (١٠٠) مليون من الغرام / سم^٣. وما يزال العلم يكتشف الجديد عن علاقة الروائح بالتركيب الكيماوي للمادة، وعلاقة الرائحة بالروح حيث إن للروائح تأثيرات روحية مهمة، وكيف تفهم الخلايا العصبية الروائح وتميز بينها...

وثبت علمياً أن الرائحة تشترك في إثارة شهية الطعام وتحريك الدوافع الجنسية، وذلك لارتباط الشم في مناطق مختلفة في المخ.

● حاسة الذوق: وهي كثيرة الاستعمال في القرآن الكريم. واللسان مركز الإحساس بالذوق، الذي يستطيع التمييز بين ستة أنواع: الحلو والمر والمالح والحامض، والطعم المعدني والقاعدي، ويتفرع من هذه مذاقات كثيرة جداً... ويوجد كل نوع من المذاق في منطقة محددة في اللسان، وفي البراعم الذوقية ترقد الخلايا الذوقية ولها أهداب تحس بالذوق، ويوجد خلايا تحيط بالبرعم الذوقي وخلايا أخرى بجانبه. وهذه البراعم المنتشرة في

حليمات اللسان على ثلاثة أنواع، وتصل أحياناً في الحلمة الواحدة إلى (٢٥٠) برعم ذوقي، ويقدر عدد هذه البراعم حوالي (٩٠٠٠) برعم ذوقي، كما يوجد (١٧) عضلة في اللسان للحركة و٦ أعصاب لنقل الحس إلى المخ... ومن أجل فوائد اللسان: النطق والذوق ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ (البقرة: ٨، ٩).

● حاسة اللمس: والجلد المحيط بالجسم درع الحماية والدفاع، ومن وظائفه أيضاً تكييف الجسم والمحافظة على حرارته بما لديه من أجهزة تكييف وهي غدد العرق، وورد مرات عديدة في القرآن وبخاصة في مشاهد يوم القيامة....

وثبت أن الجراثيم المنتشرة على سطح الجلد لا تستطيع أن تنفذ من خلاله بسبب وجود الطبقة الجلدية الشحمية وغيرها من الطبقات... وتمر في الجلد شبكات من الشعيرات الدموية ومنها يستمد الجلد غذاءه والأكسجين وتكسب الجلد لونه الوردي الجميل فيضيف على الجسم رونقاً ولمسة جمال، ومن الدم يستمد الجلد الماء والأملاح وهي مكونات العرق الذي يحافظ على درجة ثابتة للجسم.

وفي الجلد تكمن مناطق الإحساس بأنواعه وهي: الحس بالحرارة والبرودة والألم والضغط، وتمييز الأشياء، وهذه آيات تنطق بعظمة الخالق وإبداعه.

وانتشار الأعصاب تحت الجلد شيء مذهل، وتنتهي هذه الأعصاب بأجسام خاصة يختص كل منها بنوع خاص من الإحساس، وهي إما على شكل دوائر متحدة المركز، أو على شكل سلاسل، ويبلغ عددها حوالي ٣ - ٥ ملايين جهاز إحساس بالألم، و ٢٠٠,٠٠٠ جهاز إحساس بالحر، و ٥٠٠,٠٠٠ جهاز إحساس باللمس والضغط.... وتتوزع شدة الإحساس وضعفه في الجسم عموماً حسب أهمية العضو، فالشفتان والأعضاء التناسلية،

والعدسية البلورية والقرنية أشد ما تكون، أما أخمص القدم فهو ضعيف الإحساس.

وحاسة اللمس خاصة إبداع في الخلق، إنها نعمة كبرى على الإنسان في تمييز الأشياء نعومة وخشونة وإن كان الإنسان مغمض العينين.

هذه وظيفة الجلد في الدنيا أما وظيفته في الآخرة فهي الشهادة بالحق على صاحبه والقول بالحق أمام خالقه وما أخشاها من شهادة، وأبلغه من بيان... ﴿وَقَالُوا لِمَ لَكُمْ لِحُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ (فصلت: ٢١).

٢ - الأعصاب:

إن الجهاز العصبي ومراكزه الأساسية: المخ والمخيخ والجذع المخي والنخاع الشوكي آيات في الإعجاز الخلقي، وهي كما يبدو تفسر الإشارات وتميز الأشياء إلى جانب أهميتها الفكرية والشعورية والحركية والحسية،...

وسنجد الكلام على الأعصاب التي مرت إشارات لها في الحواس، وكذلك الكلام في أعصاب المراكز العصبية وإن كانت هذه غاية في الأهمية حتى لا نخرج عن مسألة التوصيل أو النقل إليها، فالأعصاب وهي وسائط النقل نوعان: الأول: الأعصاب الإرادية وهذه تسيطر على العضلات الإرادية فيستطيع الإنسان أن يتحكم في حركتها مثل عضلات اليد والساق، والثاني: الأعصاب اللاإرادية، وهذه تغذي العضلات اللاإرادية، أو التي لا تخضع في عملها لإرادتنا ورغبتنا وإنما هي تحت تأثير عوامل فسيولوجية ونفسية وبيولوجية، مثل عضلة القلب والتنفس والبلع....

والجهاز المسيطر على هذه الأعضاء هو الجهاز السمبتاوي الذي يزيد من تنبها مثل: زيادة ضربات القلب، وزيادة حركة التنفس، وتبطء المعدة وانقباض الشرايين، وزيادة السكر وإفراز العرق... وجهاز آخر هو الباراسمبتاوي وهو يعاكس الأول وينشط أثناء النوم فيبطئ القلب، ويزيد من

الهضم وتقل الإفرازات وتخف حركة التنفس، وتقل كمية السكر في الدم.

● في المخ: يوجد في المخ ملايين الألياف العصبية الصادرة والواردة، وهي مراكز حيوية غاية في الأهمية لتنظيم جسم الإنسان ويهيمن المخ على الجسم بواسطة (٨٦) عصباً منها (٢٤) عصباً في الرأس وهي مزدوجة في الجانبين بالإضافة إلى الأعصاب السمبتاوية والباراسمبتاوية.

● في الحبل الشوكي: وهو داخل العمود الفقري الذي يخرج من بين فقراته (٣١) عصباً مختلطاً للحس والحركة معاً، ويعتبر الحبل الشوكي طريق مواصلات لأعقد شبكة اتصال عرفت حتى الآن حيث إن الألياف الدقيقة والتي لا يتجاوز قطرها (٢٠) ميكرونًا تتجمع معاً لتكون حزمًا. وهذا العدد الضخم من الألياف تجتمع لتتقل الأوامر القادمة من كل الجسم، فمنها ما يصعد إلى أعلى مستقيماً إلى المخ، ومنها ما يتصالب كعلامة الضرب X.

● وفي المخيخ: ٢٠ قسماً و ٦ جسور تصل بينه وبين بقية أجزاء الجهاز الهضمي المركزي، فالجسران العلويان يصلان بين المخيخ والمخ، وينقلان الإشارات من المخيخ إلى الخارج، والأربعة السفلى من الخارج إلى المخيخ، وتتكون هذه الجسور من آلاف الآلاف الألياف العصبية.

● وللإحساس عدة أنواع فهناك الإحساس بالألم، والإحساس بالحرارة، والإحساس باللمس ومعرفة الأشياء، وكل نوع منها له أعصابه التي تنقل الإشارات الكهربائية من الجلد أو العضلات أو الأعضاء الداخلية عبر الحبل الشوكي إلى المخ

وقد رت عدد الإشارات التي تصل إلى الجهاز العصبي كل ثانية بمئة مليون إشارة قادمة من الأعضاء الحسية.

إن وسائط النقل الظاهرة والخفية تعين على إدراك الجماليات في الوجود الخارجي كما تعين على بقاء الإنسان حياً متأثراً مؤثراً فاعلاً ومنفعلاً إلى ما شاء الله .

والإبداع الإلهي في الجهاز العصبي يعم الأجهزة الأخرى: كالجهاز الدوري، وجهاز التنفس، والجهاز الهضمي، والجهاز البولي، والغدد الصماء....

لقد أبدع الخالق الإنسان من أجهزة ونسج وعظام وعضلات متعددة ومعقدة، ونسّق فيما بينها فكانت متوازنة متشابكة متداخلة. وبعضها بلغ في الدقة منتهاها، وبعضها بلغ من الأهمية أعلاها، وربط ذلك كله بإحكام الصنعة والتصميم، وبحكمة الرعاية والعناية وطلب منا أن نتأمل في أنفسنا لنذكر أسرارها العضوية والمعنوية ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١). وهو إبداع جمالي يستقبل ويرسل ويفسر فكان خلق الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ و﴿فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ و﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

خامساً: القدرة الجمالية بين العمل التفسيري والإعجاز الإلهي:

تقدم معنا:

أن الوسائط الناقلة للجماليات هي الحواس التي تستعين بها القدرة الجمالية في تفسير وتمييز ألوان الجماليات المختلفة. وأن هذه الوسائط قد تفسر وحدها بعض المحسّات ذات الصلة القريبة بالإدراك الجمالي، مثلاً: الإحساس بالنعومة واللين، والذوقيات المختلفة من الحلاوة والمرارة.

ولكن يبدو أن القدرة الجمالية شيء آخر أو إضافي عن القدرات الحسية، مع أنهما مترابطتان ولا يستغنيان عن بعضهما.

وسنعالج مسألتين شاملتين: التفسير الإنساني للجمال، والإعجاز الإلهي فيه، وبتعبير آخر نسأل: كيف يفسّر الإنسان الجمال؟ وما مدى الإعجاز الإلهي في القدرة الجمالية؟.

أ" - تفسيرات في العمل (الإحساس) الجمالي:

يستطيع كل متأمل بنفسه وبالعالم الخارجي أن يضع صفات يفسر بها

القدرة الجمالية تقترب من الدقة والشمول بقدر نفاذ تأمله الباطني وطبيعة اتصاله بالعالم الخارجي . وأقدم بعضها فيما يلي :

١ - التفسيرات الجمالية من خصائص الذوقية للإنسان : فمن العسير أن نقنع أن للحيوان قدرة (تفسيرية) جمالية في تمييز الأشياء، وتحميل حواسه وجهازه المركزي وظائف جمالية، فالتركيبة الحسية والمعنوية للإنسان تختلف عن الحيوان وفي مقدمتها القدرة العقلية واللغوية والجمالية . ولا ندري إذا كان لاكتساء الطير مثلاً بالريش الجميل وتغريده بأعذب الأصوات، وتدله الحيوان الوحشي في مشيته، وجمال الغزلان في طرفها وقوامها، أثر في تزيين الأنثى لتأليف الأسرة والجماعة وبقاء النوع، وإذا وقع هذا أو بعضه لنوع من الطير والوحش والحيوان فكيف يتم التزاوج بين سائرها وقد خلق بعضها في أقبح صورة وشكل؟ وهل لنا أن نفترض أن أنواع الحشرات القبيحة والحيوان الدميم هو في مستوى معين من الجمال بالنسبة إلى أفراد بعضه مع بعض؟ .

إن التفسير الجمالي للحيوان يحتاج إلى مزيد من البحث وقد اخفقت كثير من النظرات الجمالية بالنسبة للإنسان الذي يبدو أنه خاصة من خصائصه الشعورية والمكتسبة . لأن (الإحساس الأدبي، مثل العقل، يمكن تنميته بالتعليم والنظام والإرادة)^(١) . فكيف بتفسيره لدى الحيوان؟ .

٢ - القدرة الجمالية عامة : فالعالم والجاهل، والأديب والشاعر والفنان، والمهني أو الصناعي يشتركون في الكينونة الجمالية، والإحساس بالجمال موجود في الإنسان البدائي مثلما هو موجود في أكثر الناس تمدناً ويظل تذوق الجمال كامناً في معظم الأفراد وإن تذوق الجمال يكشف عن نفسه في ابتداع الجمال وتأمله معاً، والإحساس بالجمال

(١) كارليل: الإنسان ذلك المجهول: ١٠٥ - ١٠٩، مقتبساً: الهيئة العامة للكتاب القاهرة - بيروت ١٩٧٣ م .

لا ينمو من تلقاء ذاته، إنه كائن في شعورنا ولكن بحالة خمول، ويظل فعّالاً في حقب وظروف معينة^(١).

٣ - القدرة الجمالية مختلفة السعة والفعالية: فهي إذ تتسع بتوفر الثقافة والبيئة وممارسة الأعمال الجمالية، وتضمر أو تخبو بفقدانها أو ضعفها لدى الأشخاص والجماعات فإنها تختلف لدى الشخص الواحد في حالات من الصحة والمرض وقوة الحواس وضعفها والحالات النفسية والمعاشية والمزاجية.

فقد نشر هنجرلاند، بحثاً في مجلة (الاستطيقا عام ١٩٥٧م) تناول فيه الطبيعة السيكولوجية لخبرة التذوق في الفنون الشكلية فقال: إن هذه الخبرة تتلخص في القصد إلى إقامة توترات معينة ثم العمل على إزالتها، وفُسر أن التذوق الجمالي يبدأ بإقامة توترات عن قصد وإرادة ثم ينتهي بمحاولة الشخص التخلص من هذا التوتر^(٢). ولا بد أن تكون هذه التوترات مختلفة في شدتها وحساسيتها وسعتها.

٤ - التفسيرات الجمالية مركبة: فهي تتم غالباً بتداخل أو تلاحم عمليتين: في طبيعة الإنسان نفسه وما جبل عليه من قوى شخصية فردية، وما اكتسبه من معارف وممارسات، ثم من المادة نفسها من حيث تناسق أجزائها وألوانها وظلالها... وقد تبدو هذه ثانوية في بعض الأحيان، فإن الولد لا يحس بدمامة والدته وكذلك فإنه لا يشعر بقبح معلمته.

وفسرت^(٣) أنها مثل النشاط العقلي تعتمد على حالات تركيبية، ووظيفة معينة للجسم، وهي حالات تنتج من التركيب الداخلي لأنسجتنا وعقولنا، وكذلك من عوامل أثرت فينا إبان نمونا.

(١) كارليل: الإنسان ذلك المجهول: ١٠٥ - ١٠٩، مقتبساً: الهيئة العامة للكتاب القاهرة - بيروت ١٩٧٣ م.

(٢) أخذ من: دراسات نفسية في الفن: ١٨، د. مصطفى سويف، القاهرة ط/١ ١٩٨٣ م.

(٣) الإنسان ذلك المجهول السابق.

٢ - الإعجاز الإلهي :

تعدّ (القدرة الجمالية) وتفسيراتها السابقة ملامح في الإعجاز الخلقي الإبداعي لواهب الجمال والجلال، ونزيد عليها الأمور التالية :

١ - التكوين والنمو: فأجهزة الإحساس والإدراك في الكائن الإنساني في غاية من الدقة والتعقيد كما تقدم معنا بدءاً من الخلية العصبية وتكوين الحاسة ونهاية بالمراكز العصبية العامة، وإن قابليتها للنمو وقدرتها على الإنساع والعمق تتحققان في نوعية التربية والرعاية، مما يوضح أنها ليست قوالب جامدة ولا ثابتة.

٢ - الفردية والديمومة: إن لكل فرد قدرة جمالية خاصة به. والفروق الفردية بين واحد وآخر تبدو في كثير من الأحيان متقاربة وبسيطة، ولكنها تبدو باتساعها وطولها بين كبار الذواقين بأجهزتهم العصبية البالغة التعقيد وبين صغارهم ومن الصنف الأول تبدع عبقرياتهم ألواناً جمالية خالدة.

يضاف إليه أن اتجاه هذه القدرة للون دون آخر كثيراً ما يرتبط بالكيان الفردي الخاص، ولكن تتحكم أحياناً ظروف وأحوال في مسيرة الإنسان الفنية. وعلى هذا فإن القدرات الجمالية غير المحدودة ذات الطابع الشخصي تجلي الإعجاز الإلهي فيها. ومن ناحية أخرى فإن الخلية العصبية وحدها باقية بقاء حياة الإنسان فلا تموت ولا تتجدد مثل أية خلية أخرى، وإذا كان متوسط عمر الإنسان (٦٠) عاماً أو أقل بقليل فإن استيعاب الخلايا العصبية جميع الأحداث والتقلبات والأزمات والمتاعب إلى جانب القضايا والمسائل التي تحتاج إلى تفكير وتقدير وتدبير، يكشف عن قدرة عجيبة لاستمرارها ونشاطها اللذين نلمسهما من التكوين الخلقي الخاص.

٣ - الإحساس الجمالي العام: فقدرة الإنسان يمكن أن تطوف في مجالات كثيرة وتتملاها. وهي كامنة وظاهرة في كل موجود: في الله، في

الطبيعة والكون، في النفس، في الجماليات البشرية المصنوعة، في الآثار الأدبية الخالدة.

ولتصور عالمنا خلواً من جمالياته السماوية والأرضية، والبشرية والطبيعية فكيف يبدو في دمايته وقتامه وجفوته؟.

ولتخيل كوكبنا ماحلاً قاحلاً لا ينبض فيه رواء الحسن ولا يسري فيه تناسق الخلق واتساقه، ولا جماليات روحية ومعنوية. فكيف تؤول حياة الإنسان؟.

إنه قد يعتادها ويألف معها في نوع من التعايش الضروري، والعلاقات المادية، ولكنه يفقد بهاءها ورونقها مثل ما يفقد تطلعاته الجمالية.

وفي مقدمة الإحساس الجمالي العام ما له صلة بجمال الله وكتابه اللذين يتعرف عليهما الإنسان من خلال تأملاته ونظراته. وهو قدرة ونعمة ربانية عميقة الأثر بالغة المنافع.

٤ - مكانها وعملها المجهولان: فالحواس تنقل الإحساسات والجماليات من الخارج إلى الجهاز المركزي، ومنه إليها، ومثلها جماليات اللغة، والتذوق الأدبي والفني عموماً.

ومن المعلوم (تشريحيًا) أن لكل حاسة مركزاً في الدماغ، وللغة مركزها اللغوي، فهل كل مركز فيه مختص بالتفسير الحسي والجمالي معاً، بمعنى أن المراثيات واللمسيات والمسموعات . . . واللغويات تدرك في مراكزها إدراكاً حسيًا وجماليًا؟ وبتعبير آخر هل حاسة العين مثلاً تنقل الإحساس التابع لها فتفسره تفسيراً حسيًا وهو الإحساس بالرؤيا، وفي الوقت ذاته تفسيراً أو إدراكاً جماليًا؟.

إن الواقع يستبعد ذلك. فكل فرد سليم النظر يدرك حجم الأشياء وطولها وشكلها وبعدها (المجسمات، والمسطحات، والمسافات) لا يفترق واحد عن الآخر، ولكن لا يدركها الكل جماليًا في المستوى والحسن ذاته،

لذا فإن الحواس ليست مراكز جمالية. والمركز اللغوي ليس مكاناً للذوق الأدبي. و(التوترات) المقصودة التي تحدثنا عنها سابقاً لا يعرف مكانها ولا كيفية حدوثها ولا تفسيرها فهو أحد الألغاز الخلقية المعجزة. ولكن إذا تعطلت الحواس، أو ضعفت واحدة منها فإنها تؤثر على تعطيل أو ضعف الإدراك الجمالي.

(أما كيف تترتب المعاني في النفس، وتنظم على قضية العقل، فذلك في الألغاز المستسرة، التي تستعصي على الكشف، وتدق عن العلم. يقول الدكتور خالص جلبي كنجو: كيف يتم التفكير والإدراك والتخيل وتركيب الكلمات والجمل والأفكار وربط كل هذا بعضه إلى بعض بحيث يخرج الكلام منسجماً متوازناً يهدف إلى معنى؟ إن هذا يقف الطب حتى الآن عن الإجابة عليه. ثم كيف يستخدم الإنسان الأسماء حتى يتفاهم مع غيره على الشيء الذي يريده أيضاً معجزة من المعجزات. ثم كيف ينتقل هذا الأمر من عالم الماديات المحسوسة إلى عالم الروح والفكر حيث يتم التعبير بالأشياء المجردة؟ الحق يقال إننا درسنا عمومات الطب من أوله إلى آخره، ومع ذلك لم نستطع حتى الآن أن نفقه هذه الأسرار^(١).

ولكن هذه القدرة المجهولة موضعاً وعملاً تتأثر بالوراثة والبيئة كالمزول والمدرسة والمجتمع إلى جانب التكوين الذاتي الفردي للإنسان^(٢).

٥ - الإدراك الجمالي عملية معقدة: إن عدم معرفتنا بكيفية الإحساس الجمالي، وميكانيكية العمل الإدراكي لألوانه لا تؤدي بنا إلى إغفال (التفسيرات الجمالية المركبة) وإنما تنبهنا إلى عملية ذهنية وعاطفية متشابكة في الإدراك التفصيلي للجمال، بينما هي تقوم على الومضة أو الخطفة السريعة في الإدراك المجمل والعام.

(١) من أساليب البيان في القرآن الكريم: ٦، محمد علي أبو حمدة نقلاً عن: الطب في محراب الإيمان: ١٤٢/١.

(٢) انظر مثلاً: الشخصية الفنية د. محمود البسيوني، ومشكلة الفن د. زكريا إبراهيم.

والفطرة الإنسانية السوية يمكن أن تفرق بداهة بين الحسن والقبح والوضاءة والقتامة، وهذا لون من الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان الذي يدرك في خبطة سريعة الأشياء إدراكاً حسيّاً وجمالياً في وقت واحد. وفصل علماء النفس والتربية الجانب أو العوامل الظاهرة في الإدراك.

فهو عموماً، و(الجمالي) خصوصاً (ليس عملية بسيطة، إذ تتدخل الذاكرة والمخيلة وإدراك العلاقات في تأويل ما ندرك وكذلك فإن العقل يضيف ويحذف وينظم ويؤول ما يتأثر من انطباعات حسية)^(١).

يضاف إليه ما يختص كل فرد من فروق فردية في الإدراك والانطباع والشعور والميول والمعتقدات، والمستوى الثقافي العام والخاص، والبيئة العلمية كالمدرسة، والاجتماعية كالبيت والمجتمع. . . .

وهذه وغيرها توضح التفسيرات الإدراكية عموماً والجمالية خصوصاً، وهي على تشابكها وتعقدها سر من أسرار الله في خلق الإنسان لا يحيط به ولا يعرف كنهه ولا حقيقته. وكم في الإنسان من أسرار إلهية، وكم في تكوينه النفسي من عجائب وخصائص معجزة. تبارك الله أحسن الخالقين.



في الإبداع البشري (من خلال القرآن الكريم):

نُبّهت آيات إلى معظم الخامات والمواد الأولية التي تعد أساساً للحرف والصناعات والأعمال الإنشائية الكبرى، وقد وقع هذا خلال الكلام على هذه الصناعات والإنشاءات، والمشروعات العمرانية المتميزة.

وأشار بعض علمائنا إلى ضروب منها ضمن العلوم القرآنية، في الطب والهندسة والفلك والصحة والرياضيات إلى جانب العلوم الشرعية كالعقائد والعبادات والتشريع، ومنهم (أبو بكر ابن العربي، والسيوطي،

(١) أصول علم النفس: ١٩٨، د. أحمد عزت راجح ط/١٠ ١٩٧٦م المكتب المصري الحديث، وانظر خاصة النظرية الجشتاليتية في تفسير الإدراك.

والمرسي....) وصرح القرآن بنعمتها وفائدتها ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء: ١٢٩) فقد ربطت بين الخلود الديني والازدهار أو التفوق الصناعي.

فمن أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها ولا يمكن الاستغناء عنها في أي إبداع صناعي بشري:

الخيطة في قوله: ﴿وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ...﴾ (الأعراف: ٢٢).

والحدادة في قوله: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ...﴾ (الكهف: ٩٦)، وقوله: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ...﴾ (سبا: ١٠).

والبناء في آيات: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا...﴾ (الكهف: ٢١)، وقوله: ﴿أَفَمَنْ أَتَسَسَّ بِنَيْكِنُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْكَ اللَّهُ وَرِضْوَانٍ...﴾ (التوبة: ١٠٩) وغيرها.

والنجازة في قوله: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا...﴾ (هود: ٣٧).

والغزل في قوله: ﴿كَأَلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا...﴾ (النحل: ٩٢).

والفلاحة في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ...﴾ (الواقعة: ٦٣).

والصيد في آيات: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ...﴾ (المائدة: ٩٤)، وقوله: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ...﴾ (المائدة: ٩٦) وغيرها.

والغوص في قوله: ﴿كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ...﴾ (ص: ٣٧) وتستخرج منه أنواع الحلية المعروفة في العالم.

والصياغة في قوله: ﴿وَأَتَّخِذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا...﴾ (الأعراف: ١٤٨).

والزجاجة في قوله: ﴿صَرَخَ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ...﴾ (النمل: ٤٤)، وقوله: ﴿أَلَمْصَبَّاحُ فِي زُجَاجَةٍ...﴾ (النور: ٣٥).

والفخارة في قوله: ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنْ عَلَى الطِّينِ...﴾ (القصص: ٣٨).

والملاحة في قوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ...﴾ (الكهف: ٧٩).

والصبغة في قوله: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ...﴾ (البقرة: ١٣٨)، وقوله: ﴿وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ...﴾ (فاطر: ٢٧).

والحجارة في قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا...﴾ (الشعراء: ١٤٩).

ويعمم كل من ابن العربي والسيوطي أن في القرآن ما لا يحصى من العلوم ولا يعلمها إلا الله تعالى. يقول السيوطي في ذلك: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى...^(١).

أولاً: سفينة نوح عليه السلام:

هي (فُلْكَ) بالمصطلح القرآني فيما عدا آية واحدة^(٢)، ومن أبرز صفاته: الضخامة، والقوة، والتنظيم الهندسي. وكان نوح عليه السلام نجاراً ماهراً بالنجارة كما تشير آيات صناعة الفلك يستلهم عمله الفذ هذا من تأييد الله ورعايته ووحيه، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ (المؤمنون: ٢٧).

(١) انظر الإتيان: فصل: العلوم المستنبطة من القرآن: ١٢٥/٢ - ١٣٠، والكلام السابق نقله السيوطي عن المرسى مختصراً. وفي بعضه نظر. وانظر التفاسير والدراسات الحديثة مثل: تفسير طنطاوي جوهرى و: القرآن ينبوع العلم والعرفان: علي فكري. (٢) العنكبوت: ١٥.

وتشير بعض الأحاديث والآثار إلى تخطيط زراعي وصناعي في صناعة السفينة فقد ﴿كان نوحٌ ۞ مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم حتى كان آخر زمانه، وغرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطفها، وجعل يعملها سفينة...﴾^(١).

ومجموع الآيات في صنع السفينة تدل على أنها متميزة عن سفن أخرى كما أسلفت بالسعة والضخامة، حيث أمر نوح أن يجعل سَفَرُها من كل زوجين اثنين. فهي قد اتسعت إلى استيعاب مخلوقات إنسية وحيوانية ونباتية كثيرة. وذكروا أقوالاً في مساحتها من ٨٠ ذراعاً طولاً و ٥٠ ذراعاً عرضاً إلى ٣٠٠ ذراع طولاً بعرض ٥٠ وارتفاع ٣٠ ذراعاً.

وهي متميزة أيضاً بقوتها التي صمدت في وجه التيارات المائية والأمواج العاتية ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ...﴾ (هود: ٤٢) وقيل: إن نوحاً جعل يهيء عتاد الفلك من الخشب والحديد والقار وغيرها...^(٢).

والآية: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَاجِ وَدُسِّرَ﴾ (القمر: ١٣) تصرح بالخشب والحديد (الألواح) و (المسامير) الحديدية في تقويتها وتمتينها. ثم إنه قد روعي في صناعتها أحوال الركاب والسفر وطبائعهم لثلاث تغطي فئة على أخرى ولا يستعدي حيوان على حيوان، فقد قيل إنه جعلها من (ثلاث طبقات: سفلى ووسطى وعليا)^(٣).

فالسفينة ليست مجرد (شحن) متراكم للركاب والبضاعة من غير نظام ولا إبداع فهي ذات بطون ثلاث: (فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع

(١) الهيثمي في الزوائد: باب في ذكر نوح عليه السلام: ٢٠٠/٨، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه موسى بن يعقوب الزمعي، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه ابن المديني، وبقية رجاله ثقات، وانظره في تفسير الطبري في سورة هود: ٣٨.
(٢)، (٣) ابن الأثير في الكامل: ٣٩/١ والطبري عند تفسير سورة هود، وانظر تضعيفه لبعض الروايات بقوله: (فيما يزعمون - كما تزعم أهل التوراة...).

والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وفي البطن الأعلى جلس هو ومن كان معه مع ما احتاجوا إليه من الزاد... (١).

إن الآثار التاريخية القديمة والمصادر الدينية القديمة والخاتمة تنوّه بصناعة متميّزة (ربما) لأول فلك يصنعه الإنسان بمثل هذه السعة والقوة والنظام.

ولذا فقد تكرر ذكره ووصفه في القرآن كثيراً متجنباً الأرقام والمقادير التي ليس لذكرها فائدة كبيرة، (وإن أمثال هذه المباحث لا تعجب الرازي وعلى حد قوله: فلا حاجة إلى معرفتها ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلاً وكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح، ويقول: والذي نعلمه أنه كان في السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه، ولما يحتاجون إليه، ولحصول زوجين من كل حيوان، لأن هذا القدر مذكور في القرآن...).

وهذا القدر القرآني الصحيح ينبه إلى إبداع بشري ونبوي يستحق أن يخلّد في كتاب الله.

ثانياً: الحجر وبناء المدن:

إن (مدائن صالح) صورة عريقة من صور المعمار المدني القديم، فعبّر تاريخها المتوسط كانت آثارها الصخرية ماثلة للعيان، ومعابدها المنتشرة هنا وهناك لم تؤثر فيها عوادي الدهر ولا كر الأيام، وهي من عبر التاريخ الماضية والخالدة.

ومدائن صالح أو (الحجر) مدينة من مدن النبط القديمة المهمة كانت (قاعدة) اليمامة، تقع على شريان التجارة في العالم القديم، وهي (EGRA) = (HEGRA) التي أشار إليها (سترابو) في أثناء حديثه عن حملة

(١) الرازي في تفسيره عند قوله: ﴿ويصنع الفلك...﴾ (هود: ٣٨).

(أوليوس غالوس) وقد عثر على خمس كتابات في (مدائن صالح) خرج بعض الباحثين من دراستها إلى أن الحجر اسمها القديم (حجرا) (هجرا) . . . وذكر (ابن حبيب) أن قوم ثمود نزلوا الحجر . . . (نزلها) قوم صالح النبي عليه السلام .

وعثر الباحثون على قبور من بقايا قبور الحجر القديمة، نقشت مداخلها وجدرانها بنقوش تدل على حذق ومهارة، ولا سيما المقبرة . . . التي تألفت من غرف نحتت في الصخور، ولبعضها دروب وطرق توصل بعضها ببعض . . . ومن هذه المقابر الموضع المعروف بـ (قصر البنت)، وقد نحت في داخل تل، ويعد من أغنى تلك المقابر من الناحية الفنية، وله مدخل خارجي ارتفاعه عشرون متراً، وقد زين بالزخارف والنقوش . . .

ويعد الموضع المعروف بـ (ديوان) من الآثار القيمة الباقية من (الحجر)، وقد عمل في جبل (إثلب)، وهو معبد يذكرنا بمعابد (بطرا)، وهو على قاعة ذات زوايا مربعة، عرضها عشرة أمتار، وعمقها اثنا عشر متراً، وارتفاعها ثمانية أمتار . . . وعلى كل جانب من مدخله عمود من حجر، جعلت زواياه مربعة، ويوصل إلى هذا المدخل مدرج، وهناك معبد آخر صغير يقع على مسافة (١٥٠ م) إلى الجنوب من جبل (إثلب) . . . (١).

يقول د. عبد الوهاب نجار^(٢): . . . (فيها) بيت الملك، وهو بيت ذو حجرات به ردهة كبيرة، وهو منقور في الصخر، والمكان الذي فيه ديارهم يعرف إلى اليوم بـ (فج الناقة)

وأهم أنقاضها اليوم (تعرف بقصر البنت، وقبر الباشا، والقلعة، والبرج) . . .

(١) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٥٥/٣ - ٥٧، بتصرف بسيط. دار العلم للملايين، بيروت ط/١ ١٩٦٩ م، وانظر مراجعه في الحاشية.

(٢) قصص الأنبياء: ٥٩ الحلبي.

والقرآن قد كرر قصة النبي صالح عليه السلام، وركز في كل مرة على مدينة قومه المحصنة بالجبال وفي أعماقها.

ونبه قريشاً والجاحدين إلى الاعتبار بأهلها ومصائرهم، فالمدينة في طريقهم التجارية وإلى جوارهم في المسكن والمعاش، ولكن وجومها وصرامة هيئتها وجلادة طبيعتها، وقوة بنائها تبعث في النفس الهية والهلع وتثير فيها المخاوف الغيبية المروعة، إنها دائماً تذكر بالقدرة الأقوى، والعظمة الأسمى يقول الله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَا ءَامِنِينَ﴾ (١٤٦) ... أَلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (الشعراء: ١٤٦ - ١٥٩).

ثالثاً: سد مأرب الزراعي:

وهو معلم بارز في القطر اليمني قريب من مدينة صنعاء، ظهرت في تشييده روعة التصميم وقوة البناء والغرض العملي الزراعي. وكان له أثر واضح في تقدم الزراعة وتطور الاقتصاد في اليمن، على الرغم من تصدع أو تهدم جوانب منه عبر العصور.

ولقد أظهر العرب الجنوبيون مقدرة كبيرة في الاستفادة من الأمطار ومن مياه الينابيع والأنهار لاستعمالها في الإرواء والشرب والسقي، وتحكم مهندس الإرواء عندهم في الماء وسيطر عليه لكيلا يذهب هباء، فاستخدم لضبطه الأبواب والفتحات والحواجز والرحاب، ونوع في المجاري وفي مسایل المياه، ليستفيد من الماء قدر إمكانه فلا يفلت منه شيء.

واستبد سد مأرب من بين سائر السدود في جزيرة العرب بالاسم والذكر، ونال مكانة كبيرة في كتب التفسير والسير والأخبار، ولذكر القرآن لـ (سيل العرم) نصيب كبير في توجيه أنظار علماء التفسير واللغة والأخبار إليه. . . . وهو من أهم السدود التي أقيمت في اليمن وفي جزيرة العرب. . . . وتأتي السيول إلى السد من أماكن عديدة، من (ذمار) و (جهران) و (الحدي) و (حولان). . . . فتسير المياه حتى تنتهي إلى وادي (أذنة) ثم تدخل منخفضاً

من الأرض واسعاً، هو حوض هذا السد تدخر مياه الأمطار فيه، وله سدود وأبواب لحجز المياه وحبسها، أو لتصرفها حسب الحاجة

ولا توجد لدينا نصوص عن أول رجل أقام هذا السد، وعن العهد الذي تم فيه البناء . . . ويرى (كلاس) أن عهده يعود إلى السنة السبعمئة قبل الميلاد، وقد بقي قائماً يؤدي واجبه إلى حوالي السنة (٥٧٥) بعد الميلاد. ويظهر من بعض الكتابات المحفورة على جدران المسند أن جملة تحسينات وتعميرات أدخلت عليه في أوقات مختلفة قبل الميلاد وبعدها، وآخرها هو إصلاح (أبرهة) له الذي تم أثر تصدعه سنة (٥٤٢ م)، ويظهر أن تصدعاً آخر وقع للسد في أيام طفولة الرسول ﷺ وذلك حوالي (٥٧٥ م) لم يكن من الممكن التغلب عليه بسبب التدهور الاقتصادي، وإرتباك الأوضاع السياسية في اليمن حينذاك . . . وتحولت بذلك الأرضون الخصبة التي كانت تروى بمائه والتي كانت واسعة إلى موات، غطتها الطبيعة بطبقة من الرمال والأتربة . . . وإلى جانبه أقيمت سدود أخرى أقل أهمية .

وقد استخدمت في بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخور، وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض، وتثبت وتتماسك وتكون كأنها قطعة صلبة واحدة، ونحتت الصخور، بحيث صارت تتداخل بعض في بعض . . . وتكون كأنها صخرة واحدة، وقد وجد أن بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان أسطوانية من المعدن المكون من الرصاص والنحاس، يبلغ طول الواحد منها حوالي (١٦ سم)، وقطرها حوالي (٣,٥ سم)، وذلك بصب المعدن في ثقب الحجر، فإذا جمد وصار على شكل (مسمار) يوضع الحجر المطابق الذي صمم ليكون فوقه في موضعه بإدخال (المسمار) في الثقب المعمول في الجهة السفلى من ذلك الحجر، وبذلك يرتبط الحجران بعضهما ببعض برابط قوي محكم. أما المادة التي استعملت لربط الأحجار فهي من أحسن أنواع الجبس، وقد تصلب هذا الجبس الذي طليت به واجهات السد أيضاً حتى صار كأصلب أنواع الإسمنت.

وأقام المهندسون أبواباً لدخول المياه منها وخروجها، كما أنشأوا فتحات لتقسيم المياه وتوزيعها على المجاري والسواقي، تفتح وتقفل بحسب حاجة المزارع والأماكن إلى المياه، ولا يزال بعض جدر السد قائماً، وآثار السواقي والمجاري التي كانت تجري فيها المياه من الحوض باقية، وهي تدل على مهارة مهندسي الري في ذلك العهد، وعلى براعتهم في كيفية الاستفادة من الأرض ومن الطبيعة لخدمة الإنسان^(١).

(وعلى ذلك نستنتج أن هذا السد العملاق ظل شامخاً يخزن المياه للري ما يزيد على ١٣٠٠ عام من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن السادس الميلادي، حيث انهار وتهدم أمام جبروت سيل العرم الذي اجتاح السد العجوز الذي كان قد مر بثلاث تصدعات حسبما تذكر النصوص التي عثر عليها بين أنقاض السد، ...).

وفي إحدى عمليات الترميم والصيانة المسماة بالترميم الكبير الذي قام به الملك شرحبيل يعفر سنة ٤٥٠ م احتاج الملك إلى تشغيل وتوظيف حوالي (٢٠٠٠٠ عامل) (...)^(٢).

(وأنه مبني من التراب والحجارة ينتهي أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوهما طبقة من الحصى كالرصيف يمنع من انجراف التراب عند تدفق المياه... ولو قطعنا السد قطعاً عرضياً لوجدنا القطاع في شكل حائط يقف في طريق السيل كالجبل المستعرض فيصده عن المسير... وقد شيّده البناء الأوائل على مضيق جبلي قريب من مأرب على وادي (أذنة) والذي يعلو حوالي (١١٠٠ م) عن سطح البحر...)^(٣).

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام السابق: ٧/٢٠٠ و ٢٠٩-٢١٢ باختصار.
وانظر مراجعه في الحاشية. راجع: مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: د. عبدالعليم عبدالرحمن ص: ١٩٥.

(٢) والكلام مقتبس من ص: ١٩٩ و ٢٣٠.

(٣) المصدر السابق: ٢١١.

(لقد بني هذا السد العتيد في ذلك الممر الضيق المسمى بالفلج الأيمن الذي يبلغ عرض بنائه (٢٥٠ م) تقريباً ليدل على عظمة الإنسان وكفاءته في استخدام الموارد الطبيعية المتاحة له...) (١) -

إنه سد نوّه القرآن بازدهار جنّاته وزراعته ونظام ريّه وإحكام صنعه. وأصبح في العصر الحديث مركزاً هاماً للبحث الأثري لدى الغربيين تقديراً لمهارة المهندسين الأقدمين في بناء السدود.

وإنه في التوجيه القرآني عبرة للإنسان في كل زمان ومكان.

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ... أَلْكَفُورُ﴾ (سبأ:

١٥ - ١٧).

رابعاً: سد ذي القرنين (٢):

وهو من أعظم السدود في العصر القديم، أقامه ذو القرنين المعروف بـ (كوروش) العيلامي الأكمني (الأخميني)، مؤسس المملكة الفارسية وله الفتوحات الواسعة، أعظم ملك فارسي بين عامي ٥٣٩ ق. م و ٥٢٩ ق. م، وهو غير سور الصين العظيم المبني بالطين والحجارة في أقصى المشرق، وغير سد مأرب المبني بالحجارة أيضاً لتخزين المياه ومن ثم للإفادة منها زراعة وسقياً.

وهو الآن في جبل القوقاز ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي كما تشير الوثائق الجغرافية والتاريخية، لا يستطيع أحد أن يتسلق فوق ظهره، أو ينقبه كما صرحت بذلك آيات الكهف الأخيرة.

وبعد (١٠٠٠ عام) من بناء ذي القرنين للسد في مضيق (داريال) أمر

(١) المصدر السابق: ١٩٩.

(٢) اعتمدنا بالدرجة الأولى على: مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: د. عبد العليم عبدالرحمن خضري أماكن متفرقة. دار الشروق ط/١ ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م قارن بما ذكره المفسرون والمؤرخون.

(أنوشروان) ببناء جدار من الحجر بين مياه بحر قزوين بعرض الشريط الساحلي حتى التحم الجدار تماماً بجبال القوقاز، وبذلك عاد لسد قورش الحديدي مفعوله مرة أخرى....

ثم دخل المسلمون قريباً منه في عهد عمر بن الخطاب (٢٢ هـ/٦٤٤ م).. ولم تنته الدولة الأموية إلا وكان حكم الإسلام قد استقر في الإقليم الذي يحيط بموقع السد، من جميع الجهات، واستمر الحكم الإسلامي عليها حتى ضعف أواخر العصر العباسي حين كان العالم الإسلامي مشغولاً يقاوم الغزو الصليبي للشام، فاكسح السلاجقة إقليم التركستان وخوارزم وإيران سنة ١٠٧٢ م واستولوا على جنوب جبال القوقاز.

في الوقت الذي خرج منهم (المغول) وأفسدوا في الأرض كما هو مشهور في التاريخ. وفي سنة ١٨٥٩ م كانت روسيا قد فرغت من حروب القرم مع تركيا وفرنسا وانكلترا، فابتلعت هذا الإقليم مع ما استولت عليه من أقاليم إسلامية أخرى وذلك نتيجة مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ م الذي حصلت روسيا بموجبه عليه بشكل نهائي.

ويصرح القرآن بتفصيلات محددة عن بنائه، فهو قد بنى في مكان جبلي شاهق الارتفاع، شديد التضرس، قائم كجدارين شامخين على جانبيه في مضيق جبلي يعرف بمضيق (داريال) مرسوم في جميع الخرائط الإسلامية والروسية في جمهورية (جورجيا)....

وقد استخدمت في تشييد السد (زبر الحديد) قطعه الكبيرة، وأفرغ عليه النحاس المنصهر وهو القَطْر المذاب، مما يبعد عنه أن يكون قد شيد بالحجارة كتلك السدود الأخرى.

وكتل الحديد الهائلة والمخلوطة بالنحاس موجودة في جبال القوقاز وفي مضيق داريال الجبلي وقائمة لكل من أراد أن يراها، تظهر قدرة الإنسان القديم وإبداعه الهندسي المعماري.

وقد أقيم لإيقاف زحف القبائل المتوحشة والبدائية عبر جبال القوقاز إلى شمال مملكة فارس وغرب آسيا. ولم يكن لحجز مياه السيول والفيضان مثل السدود الزراعية المعروفة. وهي قبائل شرسة مثل: البلوج والبرهوائي، وقبائل هندية أخرى كانت تعيش في بيئة صحراوية قاسية، كما ألمح إلى ذلك القرآن الكريم.

وقد عرف الفرس في العصر الأكميني (الأخميني) ومنهم ذو القرنين، بمهارتهم في فن العمارة والبناء، يشهد بذلك كل ما اكتشفه علماء الآثار هناك من أبنية تدل على عظمة التصميم الهندسي، ودقة اختيار المواد الخام، وتطويعها للغرض الإنشائي المنشود. . . . ومن ينظر إلى مقبرة كوروش، ودارا الأول، واكرسيس الأول، يدرك عمق تأثير المعمار الفارسي بما يحيط به من أنماط في مصر واليونان وبابل. . . . وأن ما شيده كوروش نفسه في (بازار) رغم تهدمه، صورة من الروعة والجمال ترسم ملامح الفن الفارسي الأخميني منذ أربعة وعشرين قرناً. وفي مقدمتها الآثار الحجرية والدرج والأعمدة وتماثيل الحيوانات المجسمة، وبقايا البناء الذي خلد فيه كوروش ذكرى انتصاراته على الشعوب المختلفة، ومنها سده العظيم الذي خلده القرآن على مدى القرون.

وتشير الدراسات الحديثة إلى أنه يمكن تصور عدد العاملين في هذا السد حوالي (١٠٠٤٤٦) عامل، وهذا العدد يمكنه بالفعل إنجاز العمل في سد ثغرة (داريال) لمدة عشر سنوات تقريباً.

كما تشير إلى وفرة المواد الخام في منطقة أذربيجان وأرمينية كالحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ والكبريت وكذلك الفحم والخشب اللازمان لصهر الحديد.

يضاف إليه توفر العدد اللازم من حيوانات الجر والحمل، فالإقليم غني بالثروة الرعوية والحيوانية، وهي كافية لرعي الماعز والضأن على الهضاب، والأبقار والمواشي في السهول.

وأودية هذا الإقليم الكبير مزدحمة بغابات الأشجار المثمرة، وفي مناطق العراء كانت زراعة البطاطا والشمندر السكري من أهم حرف السكان في العصور القديمة.

مما يؤكد قدرة الإقليم على إطعام العمال والمهندسين دون أن يحدث نقص في إمدادات الغذاء.

وهكذا فإن الإبداع البشري صنع سداً حديدياً نحاسياً رهيباً استغرق قرابة عشر سنوات... موجود فعلاً في فتحة (داريال) بجبال القوقاز التي كانت القبائل المتوحشة تغير منها على مناطق جنوب القوقاز وشرق البحر الأسود وغرب بحر قزوين.

وهو لهذا أشبه بجدار أو حصن لحماية السكان الأمنين.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبِيًّا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ... وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف: ٩٢ - ٩٨).

خامساً: كرسي سليمان عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ (ص: ٣٤).

ذكروا (أن نبي الله سليمان عليه السلام أمر الشياطين باتخاذ كرسي يقعد عليه للقضاء، وأمر أن يعمل بديعاً مهولاً بحيث لو رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وبهت، قيل: فعملوا له كرسيّاً من أنياب الفيلة، وفصصوه بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وأنواع الجواهر، وحفوه بأربع نخلات من الذهب، شماريخها الياقوت الأحمر، والزمرد الأخضر على رأس نخلتين؛ منها: طاووسان من ذهب، وعلى رأس الأخيرتين نسران من ذهب، بعضها مقابل بعض، وجعلوا من جانب الكرسي أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر، وقد عقدوا على النخلات أشجار الكرم من الذهب الأحمر، واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر، بحيث يظل عريش

الكروم والنخل الكرسي، وقالوا: وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى، فيستدير الكرسي، ورجله فيها، ويدور دوران الرحي المسرعة. ثم تناول حمامة من ذهب قائمة على عمود من جوهر من أعمدة الكرسي، التوراة، فتفتحها لسليمان فيقرأها على الناس، ويدعوهم إلى فصل القضاء. . . . قال معاوية لوهب بن منبه: ما الذي كان يدير ذلك الكرسي؟ قال: بلبان من ذهب. . . . وقالوا: فإذا دار الكرسي بسط الأسدان أيديهما، ويضربان الأرض بأذنايهما، وينشر النسران والطاووسان أجنحتهما فتفزع منه الشهود، ويداخلهم من ذلك رعب شديد، فلا يشهدون إلا بالحق. . . .^(١)

ومثل هذا الوصف العجيب المدهش يجعله معلماً للعظمة في الملك والنبوة اللتين من مناقب سليمان عليه السلام، وربما يشعر بعمل الخيال في وصفه أكثر من الحقيقة الواقعة. وليس بين أيدينا وثيقة مقبولة عنه.

ومهما يكن من أمر فقد روعي فيه:

١ - روعة الهندسة الفنية والتصميم الهادف فهو أشبه بمكتب وكرسي دوارين يقومان على وسائل آلية مساعدة لعمل القاضي، في أسفله أسطوانات أو بكرات تدير الكرسي الضخم.

٢ - جلالية الفن وجماليته: فهو من أنياب الفيلة، وأحجار الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعلى جانبيه تماثيل ذهبية لأسود ضخمة، وتزيين جمالي ظلاله من أشجار النخل والكروم.

٣ - هذه وتلك يقصد منها انبهار نفسي للمتخاضمين، وعون على قول الحق ودفع الظلم وشهادة الزور، وهو وإن لم يعمل بأيدي بشرية وحدها كما تقول

(١) الثعلبي: عرائس المجالس: ٢٧٢. والمعرف أن أخباره ليست بذلك.

الرواية بأنه من عمل الشياطين، فإنه عمل للناس ولإدراكاتهم الإبداعية والجمالية الباهرة.

سادساً: الصرح الزجاجي:

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل: ٤٤).

هو قصر أو بركة ماء اتخذ من قوارير، فقد (أمر سليمان الشياطين فعملته له من زجاج كأنه الماء بياضاً، ثم أرسل الماء تحته، ووضع سريره فيه فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ليربها ملكاً (بلقيس) هو أعز من ملكها...^(١)).

والقرآن صرح بأنه: صرح، وممرد من قوارير (زجاج مملس)، ولصفائه كأنه لجة ماء... وهي صفات صناعية وهندسية قصد منها إظهار جماليات رائعة لم يسبق مثلها بين صنائع الملوك.

والرواية التي ينقلها (الرازي) في تفسيره قريبة مما سبق مع بعض التفاصيل الأخرى، يقول: روي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها (بلقيس) فبنى له على طريقها قصر (أو صحن دار) من زجاج أبيض كالماء بياضاً، ثم أرسل الماء تحته، وألقى فيه السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعكف عليه الإنس والجن والطير...

أما رواية ابن الأثير فهي أكثرها تفصيلاً مع شيء من التغيير. يقول: ... فبنوا له صرحاً من قوارير خضر، وجعلوا له طوابق من قوارير بيض، فبقي كأنه الماء، وجعلوا تحت الطوابق صور دواب البحر من السمك وغيره...^(٢).

(٢) الكامل في التاريخ: ١/١٣٢.

(١) فتح الباري: ٨/٥٠٤.

وأياً ما كانت صفة القصر ومواده مما لم يثبت فيه خبر فإن تعاون الإنس والجن والطير حسب ما تقوله الرواية قادر على إنتاج شكل فني يجمع بين الحسن والعظمة في عمل فني وصناعي مبدع.

سابعاً: قصر بلقيس بنت هداد وعرشها:

وبلقيس هذه ملكة اليمن (٣٣٠ - ٣٤٥) ومن تابعتها، وذلك بعد زوجها الأول (عمر) الذي حكم اليمن (٣٢٠ - ٣٣٠) وعرف عند العرب بناسر أو ياسر النعم، ثم تزوجت بسليمان عليه السلام على الأرجح.

وذكروا في صفة القصر رواية عن الشعبي قال: روى أن بلقيس لما ملكت أمرت ببناء قصر فحمل إليها (٥٠٠) أسطوانة من رخام، طول كل أسطوانة (٥٠) ذراعاً، فأمرت به، فنصبت على تل قريب من مدينة صنعاء، وجعلت بين كل أسطوانتين عشرة أذرع، ثم جعلت فيها سقفاً منظومة بالواح الرخام، وألحم بعضها إلى بعض بالرصاص، حتى صارت كأنها لوح واحد، ثم بنت فوق ذلك قصراً مربعاً من آجر، وجص، في كل زاوية من زواياه قبة من ذهب، مشرفة في الهواء، وفيما بين ذلك مجالس حيطانها من ذهب، وفضة مرصعة بألوان الجواهر المربعة، وجعلت فيه: أي في باب ذلك القصر مما يلي المدينة برجاً من الرخام الأبيض والأخضر والأحمر، وفي جوانبه حجر لحجابها ونوابها وحراسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم^(١).

والوصف السابق على إمكان وقوعه، وبالشكل الأفخم مما وصف به، وبالخامات المعدنية المدعمة، لا تؤيده رواية موثوقة، ومع ذلك فإن (القصر) برز فيه عنصران في المقدررة العمرانية:

١ - فخامة البناء من حيث أسطواناته وزواياه الذهبية وجدرانه المنضدة بالجواهر...

(١) قصص الأنبياء: عرائس المجالس: الثعلبي أحمد بن إبراهيم ت: ٤٢٧، ط / عيسى البابلي الحلبي ص: ٢٧٩.

٢ - إحكام الصنع: فدعائمه الأسطوانات الرخامية، المسقوفة بألواح هائلة من الرخام المتلاحمة بالرصاص....

والقرآن لم يشير إليه إلا ضمن (الكلية) التي صرح فيها بقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ...﴾، ومن خلال أحداث قصة (الهدهد) الذي كان قصر بلقيس محوراً، وموقعها.

صفة عرشها:

كان مقدمه من ذهب مفصص باليواقيت الحمراء، والزمرّد الأخضر، ومؤخره من فضة مكلّل بألوان الجواهر، وله أربع قوائم: قائمة من ياقوت أحمر، وقائمة من ياقوت أخضر، وقائمة من زمرّد أخضر، وقائمة من در أصفر، وصفائح السرير من الذهب، وعليه ٧٠ بيتاً، وعلى كلّ بيت باب مغلق، وكان طوله (٨٠) ذراعاً في (٨٠) ذراعاً في الهواء^(١)، ويقول ابن كثير^(٢): كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلي الباهر.

قال ابن عباس: وكان من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ، ولابن أبي حاتم قال: حسن الصنعة غالي الثمن، سرير من ذهب، وصفحته مرمول بالياقوت، طوله (٨٠) ذراعاً، وعرضه (٤٠)^(٣).

ومهما قيل في وصف عرشها، فإنه قطعة ضخمة من المعادن والأحجار الكريمة الموجودة بكثرة في اليمن، صنعتها عقول وأيد ماهرة تنبىء عن قدرة بشرية متفوقة. ألم يقل القرآن في وصفه ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل: ٢٣)؟!.



(١) قصص الأنبياء: عرائس المجالس: الثعلبي أحمد بن إبراهيم ت: ٤٢٧، ط/ عيسى البابي الحلبي ص: ٢٧٩. والمعروف أن أخباره ليست بذلك.

(٢) قصص الأنبياء: ٢٩١/٢. دار الكتب الحديثة ط/ ٢ ت: د. مصطفى عبد الواحد.

(٣) فتح الباري: ٥٠٤/٨.

في جماليات ما دون الإنسان

لقد سبق القرآن إلى عرض صور لحيوانات وحشرات وطيور ونبات وجماد ضمن طريقتيه الجمالية الرائعة من التجسيم والتشخيص والحوار النابض بالحياة، الممتلئ بفيض من المعاني الفكرية والايحاءات الجمالية، وأبان في ذلك عن جماليات وجلاليات ليس لها نظير في أي سجل آخر.

إنه أوضح لها منافع ضرورية وأخرى جمالية، ثم نوعها إلى جمالية الرؤية والسمع واللمس، والشم... المحسنة، وجمالية معنوية وروحية تفوقها وتسمو عليها. وفي كليتهما تلبي حاجات ذوقية بهيجة لدى الإنسان. وهكذا أثار في عرضه قضيتين هامتين:

١ - جمالية المخلوقات الأخرى التي تنبئ أن الإنسان وحده ليس (محمور) الجمال والإتقان والتسوية.

٢ - الإدراك الإيماني بواسطة النماذج المعروضة التي أضفى القرآن عليها من روعة بيانه وعمق إعجازه.

الطعام والماء ضرورة وجمال

الضرورات أولاً:

فلا يشك أحد في ضرورة الطعام والماء ودورهما في قوام الحياة عموماً والحياة الجمالية خصوصاً.

والبؤس والجوع والعوز لا تؤثر سلباً على البدن كخلايا وحواس ونسج وعظام، ووسائل نقل واتصال ومنافذ على العالم الخارجي وحسب وإنما يشمل تأثيرها الكبير الملكات الجمالية والإحساس بروائع الحسن والبهاء، فلا بد أن تتحرر من هذه الضرورات لتعيش في آفاق جمالية رائعة.

وأي وجدان جمالي يمكن أن ينشط إذا لم تلَب حاجات المرء

الأساسية؟ وهل تفتّح حيويه الحسّ الجمالي في أناس أو بيئة يتضورون جوعاً وبؤساً وعوزاً؟.

هذا بالنسبة للطعام وضرورته لحياة البدن وأجهزته المختلفة فما بالك بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، فلا يصبر على فقدان الماء وإن تحامل على نفسه في الصبر على فقدان الطعام.

والمذاهب الاجتماعية قديماً وحديثاً تحاول أن تتلمس نظاماً يقضي على الفقر والبؤس وتقيم نوعاً من العدالة الاجتماعية، وفي مقدمتها تأمين الحاجات الأساسية من الطعام الضروري والماء النظيف والمسكن البسيط.

والجوع مشكلة إنسانية عالمية، وضحاياه يزدادون عاماً بعد عام مثل زيادة ضحايا التخممة والبطر، والبحث عن موارد الطعام والماء أخطر مسؤولية ينبغي أن يتحملها المجتمع الإنساني كله. فمن حق الجائع أن يطعم، والعاري أن يكسى والمريض أن يعالج، والإنسان أياً كان أن يوصل إليه الماء. (فالمسلمون شركاء في ثلاث: الكلا والماء والنار)^(١).

وهذه وإن كانت حاجات مادية لا يستغني عنها مجتمع فإن آثارها النفسية والاجتماعية والعلمية والأدبية والفنية تغلغل في بنيته الحضارية.

والقرآن ينبّه إلى تعميم هذه الحاجات ولا يضع لها قيوداً على تملكها سوى ما يتصل بتنظيمها وإيصالها إلى أصحابها من غير تكلفة ولا تعويض.

وإن من أهم الترغيب لآدم في خلوده في الجنة أنه لا يذوق فيها ما يذوقه أناس أحياناً من الجوع والعري والعطش في الأرض ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ (طه: ١١٨ - ١١٩) فمتى يعيش الإنسان على هذه الأرض وكأنه في جنة السماء فلا يجوع ولا يعرى ولا يظمأ ولا يشقى...؟.

وإن أخطر مدمر للحضارة تغلغل الجوع والخوف في أبنائها المعاندين

(١) أبو داود في البيوع وقال: السيوطي في الجامع الصغير: رواه أحمد وحسنه.

الجاهدين بعد الرغد والأمن، فكان هذا مثلاً قرآنياً وسنة كونية صالحة لكل زمان ومكان وحضارة ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢).

وهو واحد من الابتلاءات الكبرى التي لا يقدر عليها الإنسان، فلن يصبر على الجوع والخوف... دائماً، ولذا كان الابتلاء ببعض الجوع، والخوف وبشيء منه... وليس بجميعه ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ شَيْئًا مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ...﴾ (البقرة: ١٥٥).

ومن هذا الشيء الجوعي ما يناله المسلم في بعض العبادات كالصوم والرياضات الشرعية المسموح بها، مثل: مواجهة الأعداء والجهاد في سبيل الله.

وكذلك فإن الماء قوام الحياة: للإنسان والحيوان والنبات والأشياء، وهو بمثابة (إنشار) البلد الميت وإحيائه ما دام بقدر كفاية الحاجة وسد الضرورة ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَاهُ بِلَدَةٍ مَيِّتَةٍ﴾ (الزخرف: ١١)، ومثلها إحياء الأرض كلها بشيء من الماء بعد أن آلت إلى اليبس والجفاف والموت ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾ (البقرة: ١٦٤) فالماء بمقدار ضرورة حية للإنسان والأرض...

وهذه الضرورة لها ميزانها الثقيل في أعمال الإنسان فلا يمنع منها أحد من البشر، ولا أحد ذو حياة مهما كان جنسه ونوعه وربما كانت وحدها سبباً في نجاة من النار ودخول الجنة.

فقد صح عن الرسول ﷺ من رواية أبي هريرة قوله: بينا رجلٌ يمشي اشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه

ثم أَمْسَكْهُ بفيه ثم رَفَى فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «في كلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(١).

وواضح أن هذه الحاجة ليست خاصة بالإنسان، فالبهائم كلها حتى الكلاب وما دونها لها حق الحياة والماء ولا تمنع منه إطلاقاً، هو حق يكافأ عليه بأجزل المكافأة والثواب. هو شكر الله له وثناؤه عليه وقبول عمله ومغفرته... أنه جانب إنساني عام من توجيهات الرسول عليه الصلاة والسلام.

وإن في منع هذه الحاجة أسوأ العواقب وأوخم النتائج، فليس من التطوع الخيري وإنما هو من الواجب الإنساني، فقد ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام أن من أهل النار امرأة... فإذا (هي) تَخَذَشُ هَرَّةً قَالَ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسْتَهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً^(٢).

وفي حديث ابن عمر في الموضوع ذاته: عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، قَالَ، فَقَالُوا... - والله أعلم - لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حَتَّى حَبَسْتِهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ^(٣).

في الماء والطعام حضارة وجمال:

تهتم مجتمعاتُ بفنون الأُطعمة والأشربة وتعدّها مع طرق تحضيرها وتناولها وعروضها من جوانب الحضارة المادية، وتتخذ ذلك كله في بيئات جمالية تساعد على (تذوق) أهم الحواس الإنسانية بألوانها البديعة.

ولا ريب أن الإغراق في مثل هذه الطرق والمبالغة في التفنن المائدي يشغل المرء عن قضايا الهامة ومسؤولياته الخطيرة في الحياة ويجعل منه أداة

(١) البخاري: المساقاة: باب فضل سقي الماء (٢٣٦٣). انظر آراء العلماء في سقي

الكلاب وغيرها مما لا يحترم في فتح الباري: ٤٢/٥.

(٢) البخاري في السابق (٢٣٦٤). (٣) البخاري في السابق (٢٣٦٥).

أو وسيلة لخدمة بطنه وما حوى مهما تلبست لباساً جمالياً، كما يجعل منها (أهدافه) القريبه والبعيدة. والقرآن يلفت انتباهنا إلى أهمية الجانب الجمالي في الطعام والماء.

● الماء شراب وسقي وطعام: فالماء في آيات عدة: (شراب) وبخاصة شراب أهل الجنة، وذلك ليضفي عليه جمالاً أكثر من حاجة الإنسان إليه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٠، ١١).

فالماء نوعان: شراب للإنسان بنفسه أو بما يضاف له من أنواع الفاكهة والثمار والمطاعم، ونوع تسقى منه الشجر والزرع.

فهو هنا إذاً يزيد عن ضرورة الإنسان منه ومما ينبت، وذلك بتعداد أصناف الزرع والزيتون والنخيل والأعنان، ثم (كل الثمرات) فإنه ينوّه بخاصيتها الجمالية الإبداعية في المذاق والرؤية والرائحة. ولذلك فإنها مجال كبير وآية عظيمة للتأمل والتفكير ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

● الماء طهور مبارك: ومثلها آيات أخرى تشير أو تصرح برغد العيش ووفرة المياه على شكل ينابيع أو مياه جوفية سلكت بطون الأرض، وتصفه بـ (الطهور) و (المبارك)، وما يعقب نزوله من (اخضرار) الأرض، و (نبات شتى) و (نبات كل شيء) و (حدايق ذات بهجة)، وانباته (من كل زوج كريم) و (من كل زوج بهيج)، يكسو (الماء) صفة جمالية بطبيعته وآثاره في الأرض، ثم بتأثيره الممرعة المخصبة، وجمال صورته وألوانه وطعومه.

وأي طهور وبركة أعظم وأجمل من هذه (الثروة المائية) التي قد لا تعدلها ثروة أخرى؟.

● الماء المنهمر الشّجاج وطعامه: وهو أمطار مدرارة وابلّة تغيث العباد

والبلاد وتحيلها إلى بساتين وجنات وأرزاق كثيرة مختلفة فيعم الخير وينتشر الرخاء ويقبل الناس على مواسم الفضل والعطاء.

فماذا يمكن أن نتصور بلداً أو أرضاً هطلت عليها قُرب المياه مثل ما صورتها الآيات القرآنية؟ إنها لوحة حية ازدانت بالحَب المختلف والنبات المتفرق والجنات المجتمعة الكثيفة.

لوحة ناطقة بالجمال صورة وتعبيراً موحية بالحسن مضموناً ولفظاً ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا...﴾ (النبا: ١٤ - ١٧). فالسحب معصرات، والماء ثجاج، والبساتين جنات ألفاف... وهي بجمالها متناسقة مع لوحة كونية كبرى (سبقتها)، رسم فيها النهار المعاش، والسبع الطباق، والشمس السراج الوهاج...

● الماء المصبوب وخيراته: وربما كانت لوحته أوسع مساحة وأطول نفساً، وأغنى موضوعاً وأوضح هدفاً من آية لوحة أو مشهد آخر ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْيَدْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَرَبَوْنَا وَنَخَلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلًّا ﴿٣٠﴾ وَفِكَهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَعَالِكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ﴾ (عبس: ٢٤ - ٣٢). إنها تسع آيات قصيرات من حيث طولها، غنية من حيث معانيها وأجزائها، قوية من حيث تأثيرها وفعاليتها.

فالمطر ينسكب من السماء انسكاباً، فتتشقق الأرض من انهماره تشقّقاً، وتنبت من كل شيء يمكن أن تنبت الأرض ويتصوره الإنسان...

الحبوب المختلفة، والكروم الممتدة، والخضار الغضة والبساتين المشجرة: الزيتون أكلاً ودهناً، والنخل حلاوة وطعماً، والفواكه ألواناً، وطعام الحيوان أنواعاً...

هذه وغيرها ليست طعاماً ولا فاكهة ولا غذاءً وحسب وإنما هي متعة (لنا) للإنسان والحيوان، وطبيعة بديعة الحسن والجمال والبهاء. إنه مشهد غني

بالموجودات السماوية والأرضية تبرز فيه قصة الطعام غذاء ومتعة وقد مرّ
بمراحل وأطوار متعددة وأثمر ثماراً متنوعة، وأنبت نباتاً مختلفاً وصنع حقائق
وجنات غلباً.

وإنه مشهد لا يتجدد في بلد معين ولا أرض خاصة فهو منتشر في كل بلد
وكل أرض، ولذا فإنه مجال التأمل ومدار النظر، فلينظر الإنسان إلى دقيق
القدرة وجمالها، وعظيم النعمة وبهائها والعطاء الوافر ومعطيه، فقد أبدعته قدرة
الخالق وجمّلته حكمته الإلهية، . . . وجعلته (متاعاً) إلى حين، يتضمن اللذة
والمتعة والبهجة. كل ذلك في اختيار الألفاظ وتناسقها وروعيتها.

● ألوان وألوان: ففي الآيات: للجبال أنواع، وللناس أجناس، وللدواب
والطير أصناف، وللحشرات والحيوان أمم، وكلها في التعبير القرآني (ألوان)،
وهي لفظة فنية لها ظلالها الجمالية كما هو واضح.

وهذه (الألوان) ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة بـ (ألوان) الطعام والمياه
على اختلافها وتنوعها وجمالياتها.

وقد جمع معظمها بقوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهُا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهُ...﴾ فاطر: ٢٧، ٢٨.

وفي بدء هذه الآية قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا...﴾ فقد منح الله الماء قوة الإنبات والإخراج، وهو
وإن كان ماءً واحداً يسقي أرضاً واحدة فإن ثمراتها تختلف أشكالها وطعومها
ورائحتها، فهي مختلفة الألوان ومتنوعة المتعة واللذة والبهجة، وتلك صفة من
صفات ثمار الجنة ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا لَهُا هَذَا الَّذِي رُزِقُوا
مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُّتَشَبِهًا...﴾ (البقرة: ٢٥). وكأن آية الدنيا تقبس إعجاز ثمراتها
وألوانها وطعومها من ثمرات الجنة وألوانها وطعومها. ولذلك فإن كثيراً من

الآيات تصفها (بالجنات) . . . ولكن شتان بين هذه وتلك .

إن (تلوين) كل نوع من الثمار بلونها وأحياناً تلوين كل ثمرة باللون نفسه بنسب ضئيلة في الكثافة والنصاعة وفي أشكال وحجوم متنوعة يضيفي عليها بهاء متموجاً يغري العين بالنظر أكثر مما يغري الفم بالطعام .

وآية ثانية تربط بين (الينابيع) في الأرض وألوان (الزرع) لا في طور أو مرحلة واحدة وإنما في مراحل: البذر والإنبات والهِيج واليبس والتفتت، وفي كل مرحلة يتلون الزرع بألوان خاصة ويختلف بأشكال متعددة، إنها قصة أخرى من قصص النبات وحياته إن فيها عبرة لأولي الألباب .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٢١) .

والنظرة الجمالية الأولى في هذه الآية وما قبلها، عرض هذه الألوان الثمرية والنباتية والجبليّة و . . . في إطارين بداية وختاماً:
فالإطار البدئي هو (ألم تر) فهي ألوان مرئية بالعين والقلب، بالبصر والبصيرة تتملاها العين وينفعل بها القلب وتتغلغل في الوجدان .

والإطار الختامي هو (للعالمين - يتفكرون - لذكرى لأولي الألباب . . .) يلهم بالعلم والفكر والعبرة مع سريان الروح الجمالية في كل جزئية فيها .

والنظرة الجمالية الأخرى في هذه الآية أيضاً هي تناسق ألوان الزرع وتطور مراحلها وتأثيراته الوجدانية مع جمالية القرآن التي تتأثر منه القلوب والجلود وتلين بتلاوته وسماعه، فقد قال الله عنها بعد آية واحدة ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ نَقَّشَ غُرْمَهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ . . .﴾ (الزمر: ٢٣) .

وأخيراً فإن (الألوان) وما فيها من إحياءات جمالية تشمل جميع ما

خلق الله وسخر في الأرض ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ﴾ (النحل: ١٣).

إنها على سعتها وشمولها وزخمة ألوانها (تتمات) أو (أجزاء) من آيات
مرت بنا تتحدث عن الماء شرباً وسقياً وطعاماً، وتعقبها آيات تتحدث عن
البحر مأكلاً طرياً وحلية نادرة وفلكاً مواخر فيه

إنها على سعتها وشمولها وزخمة ألوانها (لنا) للقلوب المتفتحة والنفوس
الشفافة، هي للمؤمنين الذين يمدهم إيمانهم بكل خير وحق وجمال.
إنها لنا طعام وماء وجمال.

إنها لنا إحساس ومشاعر ووجدان.
إنها لنا لنعلم ونتفكر ونتذكر ونشكر.

من كل زوج بهيج . . . من كل زوج كريم

وإذا كانت الزوجية أو الثنائية إحدى السنن الكونية الشاملة لجميع
الخلق ولكل شيء فإن الخالق المبدع ييشها في كل الموجودات المعلومة
﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (الذاريات: ٤٩) وغير المعلومة ﴿سُبْحَنَ
الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾
(يس: ٣٦).

فهي حقيقة علمية كشف العلم الحديث عنها في الإنسان والحيوان
والنبات والكهرباء والمغناطيس، والتفاعلات الكيميائية، وأخيراً وليس آخراً في
نظام الذرة بشحنتيها الموجبة والسالبة، حيث تحمل (الإلكترونات) السالبة
الطائفة شحنة سالبة، وتحتوي (البروتونات) الساكنة في النواة، شحنة موجبة،
وهكذا يحدث التوازن بين الشحنتين الثنائيتين المتقابلتين فلا تنفجر الذرة
على نفسها، وتوازنها يتوازن الكون كله.

ولاحظ العلماء ألوفاً من الثنائيات النجمية . . . تتألف من نجمين

مرتبطين متزاوجين... يشد بعضهما بعضاً، ويرتبط به، ويطوفان معاً.
﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا...﴾^(١).

من كل زوج بهيج:

وهي أيضاً حقيقة جمالية نبّه القرآن إلى حسننها في مجالات عدة:

● في زوجية الإنسان: ... ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ ﴿٣٨﴾ فجعل منه الزوجين الذكرو والأنثى ﴿القيامة: ٣٨، ٣٩﴾ فالعلاقة واضحة بين الخلق والتسوية والثنائية.

● في زوجية النبات: ... ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى...﴾ (طه: ٥٣) فالإشارة معبرة في إنزال الأمطار وإخراج الله به أزواجاً نباتاً مختلف الألوان، شتى الأنواع.

● وفيما نعلم ولا نعلم من كل شيء في الأرض ويطون البحار وأجواء السماء من أصغر الموجودات إلى أضخمها، ومن أكثرها تألقاً وسنى إلى أدناها حسناً وجمالاً...

فالزوجية تعني جمالياً: التناسب بين اثنين من الموجودات والمخلوقات، تناسباً يشي بقرب صفات الأول للثاني وتمازج سماتهما بحيث يثمران أو يتوازنان وينسجمان.

وقد أعلن القرآن جمالية النبات في أزواجها، وبهجتها في ثنائيتها فقال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥).

يقول ابن كثير في تفسير (جمالي): الأرض الهامدة: هي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء، وقال قتادة: غبراء متهشمة، وقال السدي: ميتة ثم يقول: فإذا

(١) د. محمد عبدالله الشرقاوي: الإسلام والنظر في آيات الله الكونية: سلسلة دعوة الحق: ٤٧.

أنزل الله عليها المطر اهتزت - تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، وربت - ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ﴾ - حسن المنظر، طيب الريح. ذلك استقصاء طريف وجميل من ابن كثير.

ويقول الرازي: همود الأرض: يبسها وخلوها عن النبات والخضرة... والاهتزاز: الحركة على سرور، فلا يكاد يقال: اهتز فلان لكيت وكيت إلا كان الأمر من المحاسن والمنافع... ثم يقول: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ﴾: من كل نوع من أنواع النبات من زرع وغرس، والبهجة: حسن الشيء ونضارته... قال المبرد: هو الشيء المشرق الجميل... أقول:

اهتزت: تحركت على سرور... من المحاسن... حسن الشيء ونضارته،... المشرق الجميل... من أدق البيان الجمالي وأحلاه في تفسير مشهد جمالي لأي القرآن الكريم.

وهل أبهج للعين وأسر للنفس وأجمل للحس من (الزوج البهيج) في ألوان النبات والحياة؟.

إن هذه البهجة لم تكن من مصدر الزهر البديع والورد المبهج وحده، وإنما هي من مشاهد رفوف النبات وألوان الثمار والأشجار، فهي متعة للعين وجمال للوجدان.

ويقول سيد قطب: هي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز، وهي تشرب الماء وتنتفخ فتربو، ثم تفتتح بالحياة بعد الموت... ثم يقول: وهل أبهج من الحياة وهي تفتتح بعد الكمون وتنتفض بعد الهمود؟.

وآيتان أخريان في البهجة سبقت الأولى ﴿فَأَنْبَتْنَاهُ حَدَائِقَ ذَاتَ

بَهْجَةٍ... ﴿ (النمل: ٦٠).

والثانية هي ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْفَيْنَا فِيهَا رُوسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (ق: ٧). وهي ضمن آيات جمالية ترسم في مشهد كوني كبير يشمل السماء والأرض والجبال والنبات، والأمطار والجنت والنخيل...
فالسماء بناء عظيم مزين بعيد عن العيوب والثقوب، والأرض ممدودة ثابتة برواسيها، ظاهرة بنباتها الجميل المبهج وأمطارها المباركة وجنتاتها ونخلها الباسقات لها طلع نضيد...

فالنبات البهيج جمال نضر مفرح، وهو لون من الألوان الجمالية الأخرى في الأرض والسماء يلهم بأبهى التناسق بين جماليات الأرض والسماء. كما يلهم بأجلى التناسق بينهما وبين القضية الفكرية التي تتناولها، قضية الإحياء بعد الإماتة وما يعقبها من مشاهد جمالية، القضية الثانية بعد قضية التوحيد....

وهي ثابتة بالحق الإلهي، مستقرة القواعد والأسس بالبرهان العقلي والحسي والجمالي، ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ ﴾ فيها العبرة والبصيرة والذكرى تتفتح لها العقول والقلوب والأرواح.

ذكر أحمد بسنده أن لقيط بن عامر قال لرسول ﷺ: ... يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررت بوادي أهلك ممحلاً؟» قال: بلى، قال: «ثم مررت به يهتزّ خضراً؟» قال: بلى، قال: «فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه»^(١).

من كل زوج كريم:

ويبدو للوهلة الأولى أن الزوج البهيج ذو خاصية جمالية مقصودة لذاتها وأن الزوج الكريم ذو خاصية معطاء مقصودة لذاتها قبل كل شيء.

(١) نقله ابن كثير عند تفسير آية الحج: ٧.

وربما ساعد على هذا الفهم وصف الزوج الأول بالبهجة، ووصف الزوج الثاني بالكرم، فالأول بهيج والثاني كريم...

ولكن تتبع سياق النوعين من الأزواج وأسبابهما ومنشئهما، واحد أو متقارب ودقيق، فكلاهما من آثار نزول الأمطار، حيث يضيف نزول المطر جمالية إلى بهجة النبات والزهر في مشهد الطبيعة الأخاذ، مثل ما يضيفه نزول المطر من الجمالية إلى كرم النبات. وربما تفرق الأزواج عن بعضها بفارق واحد هو في الاستدلال الفكري القائم على الجانب الجمالي فيه.

فالزوج البهيج: مشهد جمالي لتحقيق الإيمان بالبعث يوم القيامة. من منظور فكري جمالي.

والزوج الكريم: مشهد جمالي لتحقيق الإيمان بالله وقدرته. من منظور فكري جمالي.

فالله يقول: ﴿... فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ويعقب عليها بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارْيَبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ فالعقيدة الأكثر بروزاً وصراحة هي القدرة على البعث يوم القيامة، وقد أكدها مطلع الآية نفسها ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ...﴾ (الحج: ٥ - ٧).

وكذلك في الآية الثانية: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (ق: ٦ - ٧) فقد تقدمتها آية البعث وموقف الكافرين منه ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (ق: ٣)، وإذا فإن الزوجية البهيجة في كلتا الآيتين والمشهدين مرتبطة بعقيدة البعث والقدرة على الإحياء يوم القيامة.

أما الزوجية الكريمة فهي على جمالها قد أشارت الآية الأولى منها إلى الإيمان بالله . يقول الله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء : ٧ - ٩) .

فالزوجية الكريمة هنا متسقة مع العبرة الفكرية التي تعلن كفر أكثر الناس بالله العزيز الرحيم .

ولكن الزوجية الكريمة الثانية أصرح في الدلالة على هذه القضية الفكرية ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَعْمِدَ بَكُمْ وَبِثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (لقمان : ١٠ ، ١١) .

فالزوجية الكريمة هنا مرتبطة فكراً بالتحدي القرآني في استحالة الشرك لله . فهذا خلق الله دون سواه . . .

وبوضوح هذا الفارق العقدي لا بد أن يستتبع وضوحاً قريباً منه في الفارق الجمالي والمزية البديعة فيها .

فالبهجة في الزوجية النضرة متناسقة مع اهتزاز الأرض وانتفاخها في حركة تنسجم فيها حياة الأرض وحركتها الجميلة مع النبات والزهر في رؤيته المبهجة ، وصورة الطبيعة هنا تؤدي هذه الحركة الجمالية التي يحس المتأمل بأبعادها الرائعة . وهي أوضح في الآية الثانية ضمن المشهد الكوني الفسيح المبهر : السماء المبنية المزينة ، الأرض الممدودة الراسية بالجبال ، فالزينة السماوية تتسق مع البهجة الأرضية في النبات . والأرض الممتدة الراسية هي مهد هذا الجمال والبهجة ومنبته .

وبالمقابل فإن الزوجية الكريمة ترتبط بلفت القلوب والأعين إلى ما في

الأرض من جمال النبات في الآية الأولى ، وبالخلق الهائل من السموات والجبال ونشر الأحياء في الآية الثانية . . .

حتى إنه يمكن استنتاج ألوان من الجمالية في هذه الأزواج الأربعة ، فهي (جمالية مبهجة نضرة متفتحة) في الأزواج الأولى ، و (جمالية جلالية قادرة معطاءة مغدقة) في الأزواج الثانية .

وبالإضافة لما سبق يمكن أن نستلهم جماليات أخرى ترسّخ موقع الزوجية النباتية الكريمة :

● إن وصف القرآن النبات بالكريم يشعر بجمال منظره كما يشعر بكثرة عطائه وكرمه ، فجماله يتشعب في حسن المنظر وكرم العطاء ، وهذا يتسق تماماً مع إرادة التكثير المفهومة من قوله : ﴿ كَرَّمْنَا... ﴾ .

● النبات الكريم مظهر لاسم الله وصفته فهو الكريم وأكرم الأكرمين . وما أكثر الآيات التي تلفت الذهن والوجدان إلى كرم الله تعالى في كل شيء . فلا عجب من كرم النبات ما دام المنبت كريماً ، ولا غرو من إغداق النبات ما دام المغدق وهاباً ورزاقاً ومنعماً .

● وكرم النبات كما يحمل مسحة جمالية في منظره فإنه يشير إلى طبيعته الحية النافعة المفيدة لمطاعم الإنسان والحيوان ، ويشير أيضاً إلى استمرار أكله وبقاء مطعمه لما حمله من طبيعة كريمة سخية على الدوام ، فهو يأتي من غير حساب ، ومن مكرم لا نهاية لعطائه .

● وما دام النبات كريماً ومن إله كريم يلبي حاجات الإنسان الضرورية والجمالية فإن من أدب النفس وجمالها المعنوي أن تتلقّاه بوافر التكريم والاحترام ، وتستقبله بما يليق به وبمصدره من التقدير والامتنان . . .

وهل يغفل المؤمن عن ذلك وهو صاحب القلب المدرك والشعور المرهف والوجدان المتفتح ؟ .

وأي ضلال فكري وقساوة شعورية وغلظة وجدانية وانغلاق قلبي من ذلك الكافر المعاند الأصم الأبكم الذي لا يحس ولا يعقل؟ .

● ويلفت الرازي عند تفسيره (آية الشعراء) النظر إلى وجه لطيف فيقول: الكريم صفة لكل ما يرضي ويحمد في بابه: يقال: وجه كريم إذا كان مرضياً في حسنه وجماله، وكتاب كريم، إذا كان مرضياً في فوائده، ومعانيه، والنبات الكريم، هو المرضي فيما يتعلق به من المنافع... .

ثم يقول: وفي وصف الزوج بالكريم وجهان: أحدهما، أن النبات على نوعين: نافع وضار، فذكر سبحانه كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع، وترك ذكر الضار. والثاني: أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعاً بالكرم، ونبه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة وإن غفل عنه الغافلون.

وهذا الوجه يسمح لفضيلة (الكرم) أن تستوعب ألوان النبات جميعها، ما كان منه نافعاً للإنسان ولا ينفع الحيوان، وما كان نافعاً للحيوان ولا ينفع الإنسان، وما كان نافعاً للأرض وللنوء وللجمال ولا ينتفع منه الإنسان والحيوان. فهو مظهر لعطاء المكرم لمن خلق ولما خلق... .

فسبحان الله الذي زين السماء وبرأها من العيوب.

ومدّ الأرض وأرساها بالجبال.

وأنبت فيها من كل زوج بهيج. ومن كل زوج كريم.

وأنشأ الجنات والحب والنخيل الباسقات.

آمنا به وببعثه يوم المعاد. فهو وحده الخالق العزيز الرحيم.

حدايق ذات بهجة:

إذا كانت الحدايق (رثات) المدن الغاصّة بالسكان من الناحية الصحية فهي في الوقت ذاته (ذوقيات) هذه المدن تصنعها بنفسها لتتملاها العيون وترتاح لها النفوس.

ولشد ما تتحجّر المدن بكآبتها ومعاملها ومتاجرها ومرافقها المعاشية حين تفتقد الحقائق العامة بعد أن افتقدت الحقائق الخاصة .

حتى إن الحقائق الخاصة لا تغني في وقت من الأوقات عن الحقائق العامة التي تبهج عامة الناس وتشيع في قلوبهم الراحة والمتعة، وتشع البهجة في جوانب المدينة كلها .

وفي تخطيط المدن تستحوذ الحقائق على الأوليات من خطتها: فهي إلى جمالياتها ملتقى الأصحاب، والأسر ومنتزه الناس المكدودين طول الأسبوع . واللفتة القرآنية الجمالية هي بلا شك لفظة حضارية ذات مضمون أو قوام جمالي تنبه الوجدان إلى اهتمام القرآن بها في أزمنة متقدمة وبلد قاحل غير ذي زرع .

وما دام القرآن لم ينزل لمكة وحدها ولا لأهل مكة بخصوصهم فإن من الحاجات الجمالية العامة لفت الذهن إلى أهمية نشر الحقائق في جوانب المدن الإسلامية .

فهو يقول: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَعَلِيمٌ ۝﴾ (النمل: ٦٠) .

والتعبير القرآني واضح أنها (حدائق) وليست (حديقة) واحدة، وأن هذه الحقائق تفترق عن الغابات والأدغال المشجرة، والأحراش الكثيفة . فإنها محاطة بالجدارن ويعمل بها الإنسان .

وهي بالتعبير القرآني ذات (بهجة) نضرة بهيجة فرحة حية، تبهج العين برؤيتها والأذن بتغريد طيرها، والأنف بعبيرها، واليد بلمسها، فيها من الألوان والأحجام والأنواع ما لا تبدعها لوحة واحدة جميلة يحس بها الوجدان والمشاعر . هي أقرب أن تكون حدائق طبيعية تروى بماء الأمطار وقد نظمها

قليلاً يد الإنسان بين زهر بديع وشجر مورق وعشب سندسي . (وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر، وإن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث، فضلاً على معجزة الحياة النامية في الشجر - وهي السر الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر-) ^(١) . فهي من مستنبتات الأمطار أنزلها الله هنا حسناً وبهاءً لتنشئ الأشجار الجميلة والورود البديعة، فهي شجرها وورودها، وقد كانت هذه الأمطار في بقاع أخرى حياة النبات والثمار والرزق العميم.

ثم إنها مرفق جمالي عام لأن الحاجة الجمالية عامة، ومنتزه جماعي يعبّ من جماله كل الناس، فهي كما قال القرآن ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ و﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْنُوا شَجَرَهَا﴾ . . . بخطاب العموم ليفيد منها العموم . والجمالية هنا مرتبطة بأشياء:

أولها: جمالية المطر يهطل عليها وعلى غيرها بنظام متناسق، ففي شهوده جمال وفي وقعه جمال وفي تلطيف الجو به جمال، وفي سيلانه على الأرض جمال، وفي صحوه فيما بعد جمال .

ألوان من الحسن والأطياف الجمالية استلهمها الأدباء والشعراء والفنانون، وتغنوا بها كلمة وريشة ولحناً .

وثانيها: جمالية الخلق الإلهي فهي من إبداع الله ومظهر لجماله الرباني . . . فلا أحد يخلق مثلها ولا أحد يستنبت شجرها، ولا أحد يجعلها بهية بهيجة في وجدان الناس . . . لا أحد يفعل هذا سوى الله الذي جمّلها، وأشعر الناس بجمالها .

وثالثها: هذه الأنهار خلال الأرض من تجمع مياه الأمطار وجريانها

(١) الظلال عند تفسير الآية .

فيها، فهي إذ تضيف ألواناً جمالية مبهجة على الحقائق ذات البهجة فإنها (شرايين) الحياة تغذي الحقول وتسقي البساتين وتروي الحقائق.

إن القرآن ينبه عقب الحقائق النضرة السابقة إلى جريان الأنهار في الأرض نعمة الرزق وهبة الجمال. . .

ورابعها: إن الأمطار والحدائق والأنهار والجبال. . . قد جلت ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الآية التي وردت بعدها. فالأمطار نظام متقن، والحدائق جمال متناسق، والأنهار والجبال أجزاء من الإتقان. وهل الجمال إلا صنيع متقن تتناسب ألوانه وأبعاده وأقداره ليحدث الأثر الوجداني المفرح؟.

إنها مشهد كوني فيه الضخامة الهائلة، واللطافة الرقيقة، والمياه الجارية والأشجار المبهجة. . . هو أحد المشاهد الجمالية في القرآن - وما أكثرها وأدقها وأعظم نسقها - لتأخذ بإنسانية الإنسان إلى الإيمان، وبحسّه إلى تذوق حلاوة هذا الإيمان.

وهذا كله قد صرح به القرآن أنه من القرآن، وأن رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا. . . وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ. . .﴾ في الآيات التي عقب بها على هذا الجمال والإتقان.

وما أعظم وأجمل ما ختم الله به هذا المشهد، وختم به السورة (النمل) كلها في قوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُؤُنَا إِلَيْهِ فَنَعْرِفُؤُنَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فالحمد لله على خلق السموات والأرض.

والحمد لله على إنزال الأمطار وإنباته حدائق ذات بهجة.

والحمد لله على الهداية في ظلمات البر والبحر.

له الحمد على الرزق والرحمة والنعم الكثيرة.

وله الحمد الذي أنقن كل شيء صنعه.

وله الحمد في الأولى والآخرة .

الشجرة الطيبة والشجرة الملعونة :

هما نوعان متقابلان عموماً ، ولكن الشجرة الملعونة وإن كانت من الشجر الخبيث إلا أنها علم على نوع من الشجر له صفاته وصورته ومنبته وطعامه كما سيأتي تفصيله .

وإن أكد صفة أطلقها القرآن على الشجر عموماً هي السجود لله وعبادته ، فقد جمعها بالكائنات السماوية والأرضية .

الشمس والقمر والنجوم والدواب . . . مما يسجد لله تعالى في حالات وأشكال يعلمها الله .

وهي صفة جمالية توحى بانتظام حركي خاص لجميع أنواع الشجر وأحجامه . ولكنها جمالية خفية مستورة . وصفتها الجمالية الظاهرة هي في خضرتها التي تضفي على الحداثق بهجة ونضرة تمتع النفس وتريح العين ثم في ثمرها اليانع .

فإذا تفهم المؤمن هذين اللونين من الجمالية فإن شعوراً فياضاً من الغبطة والمحبة والاطمئنان والشفافية لا بد أن تلف وجدانه ومنافذه المحسنة المطلة على الوجود .

تلك سمة عامة للشجرة ساجدة مبهجة تتفاعل مع مشاعر الحياة والخلق وأحاسيس الوحدة الشاملة .

ولكن القرآن دلنا على ما سماه الشيطان بشجرة (الخلد) أول شجرة ذات شأن ، وحاول أن يغري آدم وحواء بالأكل منها حتى يبقيا خالدين في جنات الخلود كما ادعاه الشيطان ﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ (طه : ١٢٠) .

ومن آخرها تلك الشجرة التي تمت تحتها بيعة الرضوان آخر سنة ست ،

وأصبحت خالدة في القرآن خلود العهد الذي قطعه المؤمنون على أنفسهم مع رسول الله ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾ (الفتح : ١٨).

ثم عمد عمر بن الخطاب إلى قطعها صوناً لعقيدة المؤمنين من إثارة الشرك وشائبة التقديس.

بينما نجد صفات مادية في طبيعة الشجرة عموماً:

● فهي منشأة من الله الخالق ﴿وَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ (الواقعة : ٧٢).

● ومستتبنة بقدرته وحكمته وفق نظام إلهي ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ (النمل : ٦٠).

● ولوقود جاهز أو طاقة وقود بعد تراكمها عبر القرون ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا إِذْ أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس : ٨٠).

● وليبوت النحل وأعشاش الطير ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (النحل : ٦٨).

● ولأشكال الصناعات الخشبية ذات الصبغة الفنية كالتحف والحفر على الخشب واللوحات الخشبية الرائعة، أو ذات الصبغة العملية كالأقلام وبناء السقف والأبواب... ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ...﴾ (لقمان : ٢٧).

● وأشكال أخرى تجمع بين الجمالية والنفعية العملية وتمثل في صناعة السفن التي أكثر القرآن من ذكرها في مناسبات مختلفة. ولكن القرآن ينوه بشجرة طيبة وأخرى مباركة ويشيد بهما ويفضلهما في البيان على أي نبات آخر بينما ينبه إلى الشجرة الخبيثة والشجرة الملعونة فينفر منهما مثل ما ينفر من الضلال التي اقترن بهما.

فالشجرة الطيبة: أدعى لأن تمثل بالتوحيد لأنها ليست كأية شجرة أخرى في طيها وثباتها وبسوق فروعها وجني ثمارها.

ويبدو أنها شجرة (وحيدة) بهذه المواصفات الخاصة تليق أن تضرب مثلاً لكلمة (التوحيد) الجامعة للنبوات والمغرفة في القدم، والمحور الأساسي للشريعة الإسلامية...

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٥).

يقول (الظلال): إن الكلمة الطيبة - كلمة الحق - لكالشجرة الطيبة. ثابتة سامقة مثمرة... ثابتة لا تززعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان - وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان - سامقة متعالية، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل - وإن خيل إلى البعض أحياناً أن الشر يزحمها في الفضاء - مثمرة لا ينقطع ثمرها، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنأ بعد آن...^(١).

وليتصور الخيال هذه الشجرة من التعبير القرآني:

إنها ليست خيالاً ضاربة في الوهم والتخريف، ولكنها من الفن المتخيّل الذي يمكن تصوره وتوقعه... هي شجرة معمرة ومعمرة جداً، ولكنها معطاءة ومعطاءة كثيراً بإذن الله، ثابتة الجذور في الأرض ممتدة الفروع في السماء.

والتعبير القرآن يضربها مثلاً عجبياً...

● بالفردية في كل شيء فهو مثل واحد، وشجرة واحدة، لها أصل

(١) وانظر تفسير الرازي فيه كلام رائع يزيده روعة مقارنة الشجرة الطيبة بالكلمة الطيبة.

واحد، وفرع واحد، تؤتي (أكلها) بمعنى مأكولها، كل (حين) (بإذن ربها)، فردية أو أحدية عجيبة متناسقة مع الكلمة الطيبة الواحدة.

● وبثمرها الطيب وريحها المنعش فليس لها ثمر ولا ريح خبيث، وهو دائم في كل حين فلا ينقطع... فأَي ثمر هذا الذي يجني في الليل والنهار، وفي الصيف القائط والشتاء القارس والخريف العاري والربيع المورق. وأية شجرة هذه تعطي ثمرها الطيب مدة العام الكامل وعلى طول الأعوام القادمة من غير نهاية.

● إنها وحدها (تؤتي) أكلها كل حين، لا يطلبها القاطف، ولا يشتد الجاني بأخذها، فهي تعطيه ثمارها بسخاء ورغبة عجيبة.

● وعطاؤها الدائم بإذن ربها الذي خلقها بهذه الصفات والأفعال، وليست بإذن صاحبها الذي قد لا يملك من أمرها وأمره شيئاً غير ما اعتاده الناس في مثل هذه الحال.

جمال المنظر وطيب الثمر وحلاوة المذاق وديمومة العطاء وطلاوة الظلال، ألوان من الحسن تتجمع في الشجرة المباركة المعمرة التي تزيدها الأيام جمالاً وطيباً وحلاوة وعطاءً وظلالاً.

والشجرة الطيبة تذكرنا بالشجرة المباركة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم:

● فهي شجرة الزيتون التي كانت جانباً من لوحة النور الإلهي البهي ﴿كَانَهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُونُورٌ عَلَى نُورٍ...﴾ (النور: ٣٥). إنها وما يتصل بها تأخذ مساحة كبيرة في هذه اللوحة الجمالية الفريدة.

والشجرة الملعونة: يقول الله تعالى فيها: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوتُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٦٠).

فما هي هذه الشجرة؟ وما صورتها؟ ولم لعنت في القرآن؟ وما موقف المشركين منها؟ .

هي شجرة الزقوم على أرجح الأقوال، وهي في جهنم، ولعنت بالمجاورة حيث لعن الكفار الذين يأكلونها ويطعمونها. أو كما تقول العرب: لكل طعام مكروه ضار: إنه ملعون، وفيها إبعاد عن جميع صفات الخير والرحمة كما هو المعروف من معنى اللعن عموماً. فهي في أبعد مكان من الرحمة حيث تنبت في أصل الجحيم.

يقول الله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ۚ﴾ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا لَئُونٌ مِنْهَا الْبُطُونُ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ (الصافات: ٦٢ - ٦٧).

وهو أطول نص يبين ما هية هذه الشجرة^(١)، والحكمة من خلقها، ومنبتها، وصورتها، وسوء طعمها وريحها وطبعها ومزجها بالحميم شراب المكذبين. فطعامهم الزقوم وشرابهم الحميم... إنه مشهد غثيان وقبح وبشاعة، ولكنه عرض في صورة فنية وجمالية معجزة.

ويشير ابن كثير في تفسيره إلى صورة الزقوم البلاغية المنفردة بقوله: وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر...

وينبه الفخر الرازي إلى وصف (الزقوم) بصفات منها: أن منبتها في قعر الجحيم. وأنها كرؤوس الشياطين، ويحجب عن جهل الناس برؤوس الشياطين بإجابات منها: أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في

(١) وفي سورة الدخان (٤٣): ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾، والواقعة (٥١ - ٥٢): ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ لَا تَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ﴾.

الصورة والسيرة، واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة والسيرة، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برؤوس الشياطين في القبح وتشويه الخلقة. والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل، كأنه قيل إن أقبح الأشياء في الوهم والخيال هو رؤوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها في قبح المنظر وتشويه الصورة.

ثم يقول: والذي يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديداً الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة قالوا: إنه شيطان، وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة قالوا إنه ملك...

وفي السنة النبوية من حديث (السحر) في البخاري^(١): ... فأتاها رسول الله ﷺ (البشر) في ناس من أصحابه فجاء فقال: «يا عائشة كأن ماءها نفاقة حناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين...».

وينقل ابن حجر^(٢) عن الفراء وغيره: يحتمل أن يكون شبه طلعتها (الزقوم) في قبحه برؤوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح، وقد تقرر في اللسان أن من قال: فلان شيطان أراد أنه خبيث أو قبيح...

إن رسول الله ﷺ يكره القبح والمقبوحين، وتعاف نفسه بشاعة المطعوم والمشموم والمنظر، فحين رأى أدوات السحر في بشاعة صورتها، وجد تشبيهها برؤوس الشياطين أنسب صورة لأقبح منظر فكرهه لنفسه ولعائشة رضي الله عنها.

ومن هذا الباب تصوير الرسول رجلاً يقومون بالأئمة من بعد الرسول:

(١) البخاري: الطب باب السحر: ٥٧٦٣.

(٢) الفتح: ٢٣١/١٠.

«لا يهتدون بهدائي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس...»^(١).

وكذلك فإن المظهر الفوضوي في الرأس والوجه قبيح المنظر سيء الطلعة أشبه ما يكون بالشیطان. فقد دخل رجل نأثر الرأس واللحية فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده أن أخرج كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففعل الرجل ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ: «أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم نأثر الرأس كأنه شیطان»^(٢).

ولم يتعد سيد قطب عما قاله الرازي كثيراً عند التعليق على آية (الصفات) يقول^(٣): ففي مخيلة الإنسان صورة للشياطين وهي تثير في نفسه الفزع والرعب وهو يتصورها ويستحضرها كل حين... ثم يقول: وهؤلاء الظالمون النازلون في جهنم يأكلون طلع هذه الشجرة، يأكلون رؤوس الشياطين هذه... فإذا شأكت حلوقهم. وزحمت بطونهم وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفئ اللهب فإنهم لشاربون عليها ماءً ساخناً، يردون بعده إلى عذاب الجحيم، كأن طلع شجرة الزقوم وهذا الشراب الساخن الحميم لم يكونا عذاب الجحيم.

والشجرة الخبيثة: وهي التي تعم الزقوم وغيرها، وذكرها القرآن في مقابل الشجرة الطيبة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٦).

ومن أساليب القرآن التربوية عرض المتناقضات أو المتعارضات وعواقبها من الإيمان والكفر والفضيلة والرذيلة، والخير والشر والحق والباطل،

(١) مسلم: الإمامة. وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن: ٢٣٨/١٢ بشرح النووي.

(٢) الموطأ: الجامع. إصلاح الشعر.

(٣) مشاهد القيامة في القرآن: ١٣٦.

والآخرة والدنيا (الفاسدة)... لتنبية الذهن إلى فضائل الأولى فيلتزم بها المؤمن من تلقاء نفسه ويعرض عن الأخرى وهو قانع بشرها وسوئها.

والشجرة الخبيثة قد تكون كذلك بسبب ريحها وطعمها وصورتها... في مقابل الشجرة الطيبة بسبب ريحها وطعمها وصورتها.

وقد استوصلت كلها فلم يبق لها أصل ولا فرع... في مقابل الشجرة الطيبة. أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وما دامت قد اقتلعت من فوق الأرض فقد خلت من الثمار والأكل... في مقابل: تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، إنه تناسق في الصورة الجزئية وتقابل في المشهد الكلي يوحي بالأبعاد المتوازية التي تستقر جمالياتها في الوجدان والإدراك.

يقول الفخر الرازي: (واعلم أن هذا المثال في صفة الكلمة الخبيثة في غاية الكمال، وذلك لأنه تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة، وخالية عن كل المنافع. أما كونها موصوفة بالمضار فإليه الإشارة بقوله (خبيثة) وأما كونها خالية عن كل المنافع فإليه الإشارة بقوله ﴿أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ...﴾.

البلد الطيب والبلد الخبيث:

حكمة قرآنية أو مثل رباني موصوف بأجمل الألفاظ والتعابير... إنها قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٨).

إنها حكمة قرآنية ذات أفق إنساني تزدهم فيها تجارب الحياة والأحياء: فالأرض الطيبة التربة العذبة المشارب تنبت الزرع الطيب والثمر اليانع، والأرض الرديئة التربة السبخة المنبت، المالحة المشارب لا تخرج إلا شؤماً وبُخلاً وهذه الحكمة لا تقتصر على البلد وأرضه وإنما تشمل كل الموجودات

وجميع القيم والأفكار والفضائل والأحوال...

وهو مثل لا يفترق عن الشجرة الطيبة والخبيثة. وقد ضربه الله للمؤمن والكافر يصور فيه نزول القرآن بنزول المطر، والمؤمن بالأرض الخيرة التي نزل عليها المطر فأخرجت الأزهار والثمار والنبات، كما يصور الكافر بالأرض السبخة الفاسدة التي لا تنتفع بالأمطار، فهو أيضاً لا ينتفع بنور القرآن ولا بتربيته وتوجيهاته ومعارفه...

إنه مثل يستحق وقفة متأنية: (تقابل) فيه شخصية المؤمن الذي استوعب قلبه معاني القرآن وتوجيهاته فتفتح بها ولها، ونبت فيه الخير والنوايا الصادقة، وظهرت على جوارحه أعمالاً خيرة وسلوكاً فاضلاً، فهو بهذا متناظر مع البلد الطيب التي تزدهم فيه الأشجار الطيبة في منبتها وتربتها لتخرج النبات ألواناً ومذاقاً وأكلاً... وهذه الشخصية تتقابل مع شخصية الكافر ذي القلب المغلق والنفس الضيقة فلا تؤتي إلا أذى وكآبة وشدة. ولا تختلف عن البلد النكد الذي لا يثمر إلا شوكاً وعلقماً.

صورة مشرقة منبثة لبلد طيب في مواجهة صورة كالحة مقحلة لبلد نكد، يبدو فيهما تقابل منسّق الألفاظ والمعاني تزيد المثل جمالاً لفظياً ومعنوياً وفنياً.

في الأولى: الطيب، نباته، بإذن ربه... وفي الثانية: الخبيث، النكد...

وفي الأولى: أصل دائم ينتج أثراً صالحاً دائماً بإذن الله... وفي الثانية طراً العُثْب على البلد فلم يكن ذاك في أصله، وإنما (خُبْتُ) لطارىء أو حادث فتبدّل الأثر من نبات طيب إلى نبات نكد تبدّلاً مؤقتاً وعارضاً...

أليس الخير هو الأصل في الوجود والإنسان، والشر طارىء عليه؟ ألم تتقبل الفطر هذا الخير وتستقيم عليه في جميع الأحوال ما لم تغفل أو تتأثر بغيره؟.

وبعد هذا ألا يجدر بالإنسان أن يشكر ربه على أصالة الخير وإلهامه
وتسوية النفس عليه ﴿كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ﴾؟.

إن المعاني الذهنية والأفكار المجردة صيغت بصورة وتعابير حسية،
تقربها منها وتلفها بكساء جمالي مشرق في تصوراتها المشرقة، بينما صيغت
الأخرى بصورة فنية تنبه الوجدان إلى سقمها وقساوتها ما دامت تعبر عن
تصوراتها المنحرفة الضالة.

فالتوحيد كشجرة طيبة ثابتة باسقة الفروع دائمة الأكل، والشرك كشجرة
خبيثة مقطوعة الجذور قميمة الفروع لا تعطي ثمراً ولا ظلاً.

ويتفرع من الأولى الشجرة المباركة، ومن الثانية الشجرة الملعونة شجرة
الزقوم.

والمؤمن الموحد كالبلد الطيب يخرج نباته بإذن الله. والكافر أو المشرك
كالبلد الخبيث لا يخرج إلا نكداً...

إنه أسلوب القرآن بروعته وإعجازه يبرز المجردات في أروع (واقعية)
جمالية محسنة.

جماليات في الحيوان :

عرضت آيات الحيوان في سورة النمل^(١) لمجموعة كبيرة من أنواع (الحيوان) وذكر معها منافعها المادية والحضارية والجمالية... في الطعوم والمشارب والدفء والزينة والركوب وجمال الرؤية في الرواح والتسريح .

فمنها الإبل والغنم والبقر: فيها الدفء والمطعم والحمولة والمنافع الأخرى، وفيها الحسن للعين والأذن، ولكن أدقها وأعمقها عبرة اللبن الخالص السائغ للشاربين من بين فرث ودم .

ومنها: الخيل زينة وجمالاً، والبغال والحمير ركوباً وحمولة من بلد إلى آخر .

ومنها: الطير مسخرات في جو السماء مرفقة بأجنحتها، متناسقة في سبوحها . منتظمة في جماعاتها . قادرة على التحليق في الأجواء بما يمسكهن الله من القدرة والجو المناسب .

ومنها أسراب النحل الملهمة أن تتخذ بيوتها في الجبال والعرائش، والأشجار، والملهمة أن تأكل من كل الثمرات ومن جميع السبل تعطي ألوان العسل فيه شفاء للناس... .

وهذا يعني أن أنواعاً منها لا يقصد منه الجمال وإنما يستعمل للمنافع المادية والحاجات المعاشية فهي ليست مادة جمالية تلهم الفن والإبداع .

وأن أنواعاً أخرى تكسوها مسحات الجمال وتقصد للمتعة الجمالية فهي زينة الفرسان والركبان ومادة جمالية بالرسم والكلمة والمثال .

وأن أنواعاً ثالثة لها حسننها في حالات ومنافعها المعاشية والطبية في

(١) آيات مختارة من (٥ - ٨٠) .

وإن استهلال آيات الحيوان من أول السورة ووسطها وآخرها يفقدها هنا خاصة هامة من خصائص تناسقها الفني مع سياقها وسباقها، ولكننا نلجأ إلى ذلك بسبب ضرورة التصنيف .

حالات أخرى... تتخذ في الأولى مادة جمالية وتستخدم في الثانية وسائل للحاجات والمنافع.

منها ما يطير، ومنها ما يسير، ومنها ما يعدو ومنها ما يجري...

منها ما ينتفع من لحمه ولبنه وجلوده وحمولته، ومنها ما ينتفع بشرابه، ومنها ما يتمتع بزيتته وحسنه.

إن تقدم الإنسان في المجالات العلمية وتفوقه في التقنيات الحديثة لا يغنيه عن أهمية الحيوان في المطعم والمشرب والسكن، وإن إبداعه ألواناً جمالية سواء باليد أو في المصنع لا يبعده طويلاً عن جماليات في حياة الحيوان، فجمال السيارات الفارهة ليس بديلاً عن جمال الخيل الأصيلة، وجريان الطير في كبد السماء ليس أقل جمالاً من سرب الطائرات في عروض فنية مدروسة. وهندسة خلايا النحل وطرح شراها لا يفوقه الفن المعماري في كثير من المنشآت الحديثة الراقية. على ضآلة حجمها واستقامة غريزتها. ففي عملها دقة عجيبة يصعب على العقل مثله سواء كان في بناء خلاياها، أو في تصنيف أعمالها، أو في طريقة صنع العسل المختلف الألواح والروائح والطعوم.

ومن ناحية أخرى فالمعروف أن البيئات الزراعية هي السائدة في العالم اليوم وأنها محور الحياة الحضرية وعمودها الفقري في كل شيء فلا حياة ولا استقرار بدونها للإنسان، ولا جمالية ولا حضارة من غير إنتاجها وعطاءاتها للفكر والفن والاجتماع. (وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة، فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة، وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات، تلبية حاسة الجمال، ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان)^(١) فقد اشتهر عن السيد المسيح عليه السلام قوله: ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان.

(١) الظلال عند تفسير هذه الآية.

وبقيت مسألتان في الأنعام لهما صلتها الجمالية بصورة مباشرة وغير مباشرة:

الأولى: القدرة أو الطاقة الفنية الإنسانية: التي خلقها الله في الإنسان فأفاد من موهبتها وتأثر من ذوقيتها بانتاج جماليات حسية ومصنوعة جديدة تجمل مرافق الحياة وتزين مناحي العيش وترفه عن الضرورات الأولى، فعلمه ما لم يعلم وسيره في مسالك الجمال وانتاجه، وسيواصل الإنسان مسيرته الجمالية بالحس الإنساني الملهم، وستبدع يده أجمل المرافق والمناظر والمسامع، بالغة ما بلغته في سلم التطور والجمال ما بقي الحس الجمالي والقدرة على الإبداع ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾...

والثانية: المتاع والأثاث في اللباس وجلود الأنعام المتجدد: فهو نموذج لكل أنواع المعاش ومفردات الأدوات والوسائل. وتلك نعمة عامة تشمل الحاجات وما فوق الحاجات، والضرورات وما وراء الضرورات.

فمن اللباس والسكن والطعام... ما يلبي حاجة الإنسان البسيطة وضروراته الحياتية فيسكن إليها ويطمئن لوجودها ويسعى لأن يرفه بها عن حياته ونفسه دائماً في الكم والكيف، فهي متاع قريب وضروري في غالب الأحيان. ومنها ما يلبي حاجة جمالية، ورغبة في الرفاه والحسن فيبدع لحياته أبهاها ويتخذ لها أروعها، فهي بيوت الجمال المتحركة في الظنن والإقامة، وهي إذ تروي هذه الحاجة في جانب منها فإنها تطلب المزيد والمزيد.

ونستلهم معنى جديداً من قول الله تعالى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، فالمتعة باللباس والأصواف والأوبار إلى حين، والأثاث والرياش الفني إلى حين أيضاً.

وهذا يشير إلى تجدد المتع باللباس والنماذج الحياتية والضرورات المعاشية تماماً مثل تجددها في انتاج الجماليات في كل وقت، وتجدد المتع بالجماليات في أبعاد ومحسات لم تكن معروفة من قبل وإن حافظت العادات القديمة على طابع مميز في معظم الأحيان.

والخلود للأثار الفنية العريقة يأتي فيما يأتي من تجدد النظرات الفنية إليها، وقراءتها بالفكر والوجدان من منطلقات فنية وفكرية مستحدثة، ولكنها على كل حال لن توقف المد الإنساني الفني الذي يتطلع إلى ثمرات فنية مبدعة إلى حين، ثم يتطلع إلى غيرها وغيرها ما دامت القدرات الفنية والتطلعات الجمالية والحاجات الإبداعية مغروسة في وجدان الإنسان وكيانه، تلك طبيعة الإنسان والفن والحياة.

أليست هذه لفحة جمالية تضاف إلى جماليات الحيوان في نفسه وانتاجه وعروضه؟ أليست هذه الجماليات عدداً من أنواعه المعلومة والمجهولة مما يخلقه الخالق وتصنعه يد الإنسان؟ وفي كل حين؟.

ومن الدوابّ مختلف ألوانه:

- ما من دابة في الأرض إلا أمم أمثالنا.
- ما من دابة إلا وتسجد لله مع الملائكة والناس وأجرام الكون، ومظاهر الطبيعة في وحدة رائعة من (العبادة).
- بثّ الدواب في الأرض آية الخلق والقدرة ودليل العبودية والخضوع.
- شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون.
- الدواب والأنعام ألوان مختلفة.
- كل دابة من ماء.
- اتفق المفسرون على أن كل ما يدبّ على الأرض فهو دابة حتى وإن كان في هذا الجانب إنساناً، ولكن يبدو أن معظم الآيات تخص الحيوان وإن كان بعضها يشمل ويشمل الإنسان.

وعلى كل حال: فالدواب المبنوثة في الأرض الساجدة لله المختلفة الأشكال والأحجام والألوان. المتوحدة في أصل الخلقة والإنسان، آية باهرة من التنسيق الإلهي والتكامل الخُلقي لله تعالى.

من الدواب ما هو جميل الصورة خفيف الحركة دقيق التكوين يضرب به المثل والشبه بالجمال والخفة والأصوات البديعة.

ومن الدواب ما هو ثقیل الجسم ضخم الصورة بارد الدم غليظ التكوين قبيح الصوت يضرب به المثل والشبه بالغلظة والخشونة والبرود والقباحة.

ومن الدواب ما بين هذه وتلك: الطائر في السماء والسايح في الماء والمستأنس عند الإنسان والنافر في الفلاة، وفي مقدمة هذه وتلك: الإنسان بأجناسه وأعرافه واختلاف ألوانه، ولكنه على كل حال: خلقه الله في أحسن تقويم.

إنها بألوانها وأشكالها وأحجامها من المسبحات الساجدات، وقد بثها الله في أقطار الأرض المعمورة والمهجورة.

١ - فهي من أصل واحد ونشأة متماثلة وطبيعة واحدة: هي من (ماء) في وحدة تركيبها وتكوينها ثم تنوعت الأنواع وتفرعت الأجناس ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: ٤٥).

حقيقة علمية، وحقيقة كونية، وحقيقة جمالية:

● فهي حقيقة علمية: فالماء عنصر أساسي في تكوين جسم الإنسان الذي يحتوي على ٧٦٪ منه، وتتطلب بيضة الدجاج توفير ٦٠ ل. من الماء العذب لتكوينها، وكذلك يتطلب كل كيلو غرام من السكر ١٠٠٠ لتر من الماء العذب، أما القمح فإنه يحتاج إلى ١٥٠٠ لتر من الماء، والقطن ١٠,٠٠٠ لتر، والأرز ٤,٠٠٠ لتر من الماء. ومن الثابت علمياً أن أصل جميع الكائنات الحية قد تكوّن في الماء... وأن كل الكائنات الحية تتركب أساساً من ماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

● وهي حقيقة كونية: ساقها الله ضمن آيات وحقائق كونية شاملة: فالله نور السموات والأرض، والبحار المظلمة المائجة، والتسييح لمن في السموات والأرض، وتراكم السحب وهطول الأمطار والثلوج وهدير الرعود، وسنا البروق. فقد قدرت كمية المياه الكلية في الكرة الأرضية سواء كانت سطحية أو جوفية أو في الغلاف الجوي المحيط بحوالي ١٥٠٠ مليون كم^٣، وتمثل مياه البحار والمحيطات الجزء الأكبر من حجم الأرض (٥/٤) سطح الأرض.

● وهي حقيقة جمالية: فإن في نسق جيل معين من الدواب جمالاً للحس، وإن في تفاوت أجيال الدواب بين ضخم بالغ الضخامة ودقيق منتهي الدقة إلهاماً بجمالية التعدد في الإيجاد والتكوين والحركة والتلوين.

الدواب الزواحف تمشي على بطنها، والإنسان والطير يمشي على قدمين. والحيوان يدب على أربع. كل ذلك وفق نظام في الخلق والحياة معاً.

(وإن تملّي الأحياء وهي بهذا التنوع في الأشكال والأحجام، والأصول والأنواع، والشيآت والألوان. وهي خارجة من أصل واحد ليوحى بالتدبير المقصود، والمشیئة العامدة، وينفي فكرة الفلته والمصادفة، وإلا فأی فلته تلك التي تتضمن كل هذا التدبير، وأیة مصادفة تلك التي تتضمن كل هذا التقدير؟ إنما هو صنع الله العزيز الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)^(١).

وإن جمالها في وحدة أصلها ونشأتها، وفي تنوعها أشكالاً وألواناً وهيئات، ثم في بثها في أقطار الأرض كلها مما استأنسه الإنسان واستنفر عنه.

أما الإنسان وهو أجمل وأقوم من دب أو يدب على الأرض فهو صورة متفردة من جماليات الخالق، وإن الدواب الأخرى الجميلة منها والقبیحة مادة غزيرة

(١) الظلال عند تفسير الآية.

تلهم الفنانين بأروع لوحات في الأدب والفن عبر الأجيال والقرون.

٢ - المنظور الشمولي الخاشع: إنه مشهد كوني عابد يشمل من في السموات والأرض عموماً، كما يشمل الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس خصوصاً ﴿الزَّيْتُونَ﴾ أَنْتَ اللَّهُ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج: ١٨). حشود هائلة من المخلوقات السماوية والأرضية يرسمها البيان القرآني المعجز ويضعها في مشهد أعظم من الكون وأوسع من رقعة السماوات والأرض. فهل يمكن لفنان أن تمتد يده في شمولية كبرى مثل هذه الشمولية. فتصور هذه الأجرام الساجدة، كلاً في بعد مخصوص وهيئات مختلفة، ينسقها إطار الخشوع والعبودية الخالصة؛ في مساحة خيالية وما فوق الخيال؟.

إنها رؤية وعلم، ووراء العلم والرؤية. (ويتدبر القلب هذا النص، فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك، وإذا حشد من الأفلاك والأجرام. مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم، وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان... إذا بتلك الحشود كلها موكب خاشع تسجد كلها لله، وتتجه إليه وحده دون سواه تتجه إليه وحده في وحدة واتساق، إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرق...^(١)).

وأجرام مضيئة منيرة وأشياء كبيرة هائلة، وأحياء من الإنسان والملائكة والنبات والدواب، وأشكال لا تصل إليها الأبصار والاسماع والحواس والعلوم الإنسانية، وألوان من الخلق القريب والبعيد، والمنظور ووراء المنظور والمتشابه والمختلف، تلفه حركة إلهية كونية كبرى منطلقاً من الفطر والغرائز

(١) السابق عند تفسير الآية.

والتركيب الخلقي المبدع. فسبحان من سجد لعظمته جميع الخلق وشهد لجماله الوجود كله.

إن الدواب هنا ركن في المنظور الشمولي الخاشع، فهي على اختلافها وألوانها وتوزعها آية من آيات الله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (الشورى: ٢٩)، ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ٤). ولكن أي عجب في هذا، أليست الدواب عالماً وأماً كعالمنا وأمننا؟.

الطير ألوان:

- الطير المصنوع والطير المخلوق.
- الطير المسخرات في جو السماء.
- الطير المسبح المصلي.
- الطير الخطاف القوي الكسور.
- الطير المخبر.
- الطير جند محشورة مع الجن والإنس.
- الطير الطعام المشتهى لأهل الجنة.
- الطير الأبايل.
- الطير الشؤم.
- الطير العمل الملزم.
- الطير أمة مثل أمم الناس.

إن ألوان الطير أخذت من البيان القرآني ألواناً من المعاني والجماليات المشهودة والمطعومة والعبادة والمكلفة بمسئوليات والمرسلات بإذن الله تعالى. وربما كان من أوضحها جمالاً وإلهاماً:

١ - الطير المسخرات في جو السماء: ﴿الْمَيْرَوُا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٧٩).

مشهد يري أسراب الطير في كبد السماء تسبح في رحابها الشاسعة تمسكها قدرة الله من السقوط، مرفقة بأجنحتها تارة ومستريحة أخرى، منتظمة في سبوحها إلى ما شاء الله لها من الآفاق والآماد، بألوانها المتسقة وحركاتها البديعة، وجماعاتها المختلفة؛ ألوان وأحجام وأشكال وأصوات، ينسجم بعضها ببعض ويتداخل ألوانها في ألوان بعض.

إنه مشهد الرؤية والبصر يسري إلى أعماق الوجدان فيشهد بجمال الله ويقر بعظمته وقدرته.

إن رحلات الطيور المهاجرة من بلد إلى آخر تقطع لها المسافات الشاسعة تدرك (ملاحتها) الجوية، وتعرف (مطاراتها) العالمية، في أسراب كثيفة كجيش زاحف في جو المساء، مما تملأه العين وتستوقف البصر ويتأثر به الوجدان.

هو جمال المشهد يضرب على أوتار القلوب بسناه البديع.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ...﴾ (الملك: ١٩).

٢ - الطير المسيح المصلي: إنه أمة مثلنا ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ (الأنعام: ٣٨).

فهو أمم مختلفة وليس أمة واحدة. ولكنه (بأمميته) مثلنا يسجد ويصلي ويسبح، تتساوى فيها النفوس الإنسانية والطيور المحلقة في السماء، هي في صلاة وسجود وتسبيح، مع فرق واحد في الاختيار للأولى والإلهام للثانية ثم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (النور: ٤١).

(من) في السموات الأرض يسبح ويصلي.

(والطير) صفات تسبح وتصلي.

(والله) قد علم صلاة كل وتسبيحه.

إن الكون و (من) فيه، في عبادة وعبودية لخالقه كُلف الإنسان بها وتميز عنها، وزين إيمانه بها.

وإن الطير (صافات)، في عبادة وعبودية لخالقها. فعباداتها جمال، في اصطفاف أرجلها وأجنحتها في السماء من أروع الجمال.

فلا فرق بين عبادة أمة الأرض وأمة السماء والأمم بين الأرض والسماء. إنها (وحدة) الجمع على العبودية والعبادة لا وحدة الوجود على الأشياء والموجودات.

وإن جمال الرؤى يزيد روعة وجمالاً تسبيحها وصلاتها وسجودها، وهي في كبد السماء وأجواء الفضاء.

والقرآن سماه (منطق الطير) وسماه اللغويون (هديل الحمام) و(تغريد الطيور)، وتناول العلماء بالدراسة منطقته وهديله وتغريده فوجدوا فيها لغات شتى وأصواتاً أجمل من الموسيقى، وألواناً من التعبير الشجي والمفرح، والنداء والغوث والعذوبة، ما لا يوجد في سواه.

كل طائر له صوته ومنطقه، وكل صوت له نغمته ونبرته وكل منطق له تعبيره وأسلوبه، يقترب بعضها من بعض ولا يساويه، ويدنو بعضها من بعض ولا يماثله...

وروعة مشهد الطير الصافات تخف أمامها روعة الألحان والأصوات المختلفة التي تستحوذ على السمع في جمع من الطيور وفي حديقة من الحدائق العامة.

إن منطقها ولغتها وأصواتها تسبيح وصلاة، فما أجمله من تسبيح وما أحسنها من صلاة، أليس الطير أمة أو أمماً أمثالنا؟.

الطائر المخبر... الخارق:

إن أعجب طائر في الوجود هو هذا الهدهد، فهو في اهتمام سليمان

عليه السلام (يتفقده) لما له من الموهبة والعمل ما ليس لغيره.

وصور القرآن مهمته (الإخبارية) (التطوعية) أدق تصوير، وعرضها بتحليل موف وموحٍ ومعبر، عن فهم عميق لمسئولية العمل الاستطلاعي. إنه أحاط بمعلومات لم يعرفها سليمان عليه السلام من قبل، وهي معلومات من اهتمام الدولة، والنبوة معاً.

وجاءه من بلاد بعيدة، من سبأ اليمن، بالمفاجأة الضخمة، بالنبا العظيم اليقين الذي لا يعتوره الشك والريب ولا تخالجه الظنون والأهواء.

إنه وجد (بليقيس) الملكة المطاعة من قومها ذات الشخصية المتميزة بقوة سلطاتها وحنكة رأيها وسعة ملكها وفخامة عرشها، إنها وحدها ﴿تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

فمظاهر الملك فخمة ضخمة، وأبهة العرش عظيمة، وقوة الثراء والوسائل مختلفة. وجميع ما يتطلبه الملك والسلطان متوفر في بلادها. فهي ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ولكن قوام الملك من العقيدة السليمة والعبادة الصحيحة انحرفت بها إلى ما يزينه الشيطان من أعمالها أو أعمال رجالها.

فهي ملكة عبادة الشمس وقومها تبع لها، وهي وهم يسجدون للشمس من دون الله... فأني إدراك وتفهم عميق لعمل الهدهد الاستطلاعي، ولما صوره له القرآن من معرفة راسخة للعقيدة الدينية الموحدة؟.

فلم يغرّه مظاهر الملك ولا أبهة العرش ولا المرافق المادية الجمّة عن تفهم الوجود الحقيقي للخير المطلق والكمال المطلق.

إنها فطرة ذكية وغيرة مهذّبة لا تطغى عليها الزخارف والمظاهر، والجند والقوة العسكرية، هي فطرة التسبيح التي يشترك فيها الطير والحيوان وما في السموات والأرض ومن فيهن.

وهي فطرة منسجمة مع الخلق للخالق، وغريزة تحمله على التوحيد مثل ما تحمل سائر المخلوقات الموحدات المسبّحات.

ولكنه فيما يبدو (علم) تعلمه الهدد من سليمان النبي. فقد كان يتداوله علماً، ويمارسه عبادة، وينشره دعوة بين قومه من حين لآخر، فهو دعوة الأنبياء يستجيب لها الإنسان والحيوان والنبات والجماد لهذا وذاك. ولنتأمل (مقولة) هذا الطائر العجيب عن التوحيد كما صورته القرآن.

وقبل أي قول، فمن المعلوم أن التوحيد إيمان وذكر وسلوك وعبادة، ولكنه (جمال) أيضاً لما يتضمنه من وحدة التصور وسموه وربانيته ووصفه بصفاته وأسمائه الحسنى. فكيف أدرك (الهدد) ذلك كله ومن ثم عرضه على سليمان وهو يبرر غيابه عنه؟.

يقول: لقد صدهم الشيطان عن السجود لله تعالى فسجدوا لإحدى مخلوقاته: الشمس...

والله وحده يستحق السجود لأنه وحده:

- يظهر المخبوء من الغيث والنبات، وأسرار السماوات والأرض.
 - ويعلم ما تعلن النفوس وما تخفي.
 - هو واحد ليس له شريك ولا نظير، ولا يدانيه شريك ولا نظير.
 - ورب العرش العظيم الذي لا تقاس به عروش البشر ومنها عرش بلقيس (العظيم) لأنه لا تقاس به الأرباب والآلهة.
- صفات وأعمال تتفق مع الألوهية والوحدانية اتفاقاً مع دعوة سليمان ونبوته...

وتناسقها مع الأسباب القاهرة التي غيبت عن الحضور بعد ما تفقده سليمان عليه السلام. ثم تناسقها مع المسئولية الملقاة عليه في الدعوة والتبليغ...

ويبدو أن (الهدهد) تابع (موقف) الملكة فيما بعد بطلب من سليمان لامتحانه امتحان الإخبار الدقيق والصدق الراجح، ثم نقل إليه أدق التفاصيل والحالات في مثل هذا الموقف الخطير.

● ألقى إليها كتاب سليمان المبدوء بيسم الله الرحمن الرحيم، والمعلن فيه الدعوة إلى التوحيد.

● فاستشارت الملكة بطانته وأغلبيتها من العسكريين فأعلنوا لها استعدادهم للقتال: فهم أولو قوة وأولو بأس شديد. ولكنهم أرجعوا الرأي الأخير إليها.

● ثم تقدمت باقتراح مجرب تمتحن فيه مقصد سليمان: الملك أو النبوة وذلك بإرسال هدية إليه ومن ثم تنظر الرد السريع أو البطيء.

● ويتابع الهدهد المهمة (الفريدة) و(الطويلة) فيرجع إليها بتهديد الملك بعدما كان بعث إليها بهداية النبوة... وتنتهي هنا مهمة الهدهد. التطوعية والإلزامية وقد رحل وعاد إليها ثلاث مرات متباعدات.

قصة خارقة ركنها الأساسي أو بطلها طائر خارق، تجلت بطولته في مهمته الخارقة، وفي أحداثها الفذة... تتناسق المهمة مع سليمان ورسوله ومن أرسل إليها تناسقها مع الفهم العميق والحوار الحي في إطار جمالي فريد. أي طير هذا، بل أي رسول من رسول. إنه الهدهد المخبر الحكيم صاحب قضية وحاملها إلى الآخرين، حامل أمانة لم يسبق لمثله حملها... قيم فكرية عقديّة من أكبر ملوك الأرض في ذلك الزمان.

وقد نجح في امتحانه الصعب مثل ما نجح في هذه المهمة المعقدة فاستحق الخلود والإشادة في أعظم (وثيقة) دينية في الوجود.

إن قصة الهدهد عرضت لأدق الانفعالات النفسية لشخصيات القصة جميعها وفي المواقف والمشاهد كلها، ولا شك أن من أروعها مواقف الهدهد وإدراكه وذكاءه وإيمانه... ثم حركته وتعليقاته على كل حدث فيها،

بما يثير مشاعر الإيمان وروعة البراعة والعظمة، وجمالية الأحداث وجلالها.
أليس هذا عجباً وجمالاً؟.

ثم ألا يستحق أن يكنى بأبي الأخبار من بين سائر الطيور؟.

النملة الحذرة... العجيبة:

أحسّ (وادي النمل) بزحف هائل من الإنسان والجن والطيور والحيوان.
بينما كانت أسرابه منهمكة تطلب رزقها من فتات وقشّ ودقيق طعام.

إنه جيش النمل في وادي النمل يشعر باقتحام جيش سليمان العملاق لا
يعبأ بالأقزام.

هو مشهد عجيب من الحركة الدؤوبة، والعمل المتواصل، والانتظام
الرائع، والخطوط الطويلة العريضة من الزحوف النملية. حركات منتظمة،
وتعاون منسق في جماعات وجماعات.

وهذا الموكب الهادر من العمل في صوت خفي واتساق عجيب يدركه
سليمان عليه السلام وجنوده من القوى الجبارة، ولكنه جيش بقيادة نبيّ أوتي
منطق الطير والحشرات.

فما أحسّ النمل بوقع الخطى وثقلها حتى قالت نملة - وربما كانت
رئيسة النمل - إنذاراً يعرض حياة النمل بالبوار إن لم تنفذه.

قالت النملة محذرة منبهة للأخطار القادمة والمتوقعة... نعم قالت،
وتكلمت، وسمع كلامها وقولها من يعنيها، قالت بلغة النمل قولاً فصيحاً بيناً.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّמْلُ ادْخُلُوا مَسْكَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَبَسَّ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ (النمل: ١٨ - ١٩).

هي نملة تخاطب أترابها وتتفاهم معها، وهي لا تخاطب جنساً آخر من المخلوقات المختلفة. إنها لغة النمل وليست لغة النحل أو الفراش، أو العناكب مثلاً...

لقد أعلنت اسم (سليمان) هكذا من غير وصف ولا تقدير، وصرحت باسم جيشه وجنوده... ولكن متى كان النمل عموماً تعرف الأشخاص والأسماء والطوارئ؟ إنها نملة عجيبة خارقة.

وأندرت النمل من التخطيم، ووجهته للهرب إلى بيوته، فإن الجنود لا يشعرون غالباً بهذه الأقدام التي قد تتحطم تحت الأقدام.

ولا بد من أن يستجيب النمل إلى هذا الانذار ففيه الحماية والتوجيه، فتدخل بيوتها إلا ما سبق عليها أجلها فداستها الأقدام.

وتبسم سليمان من قولها، لا لأنه فهم لغة لم يفهمها سائر الناس وتلك نعمة وخصوصية وحسب، وإنما هو أيضاً قول فيه الحكمة والسداد من أصغر خلق الله، وفيه العبرة والعظة لأمم البشر والحيوان جميعاً.

فيه جمال الحكمة، وروعة التوجيه، ووضوح البيان والقول.

إن للطير والحيوان والسمك والحشرات لغات تتفاهم بها، فهي أمم منشورة في اليابسة والماء والفضاء، وقد أيد العلم الحديث ما جاء من لغاتها ومنطقها.

فليس عجيباً أن تتكلم نملة مع زميلاتها على مثل الطعام والرزق والحماية، ولكن العجيب ما يصوره القرآن أن يصدر مثل هذا الكلام الحكيم من حشرة لا ترمقها العين.

عندئذ توسل سليمان إلى الله تعالى أن يلهمه شكره والإنابة إليه. فقد كان متأثراً مستشعراً مسروراً شاكراً حامداً. ثم أصبحت النملة (جمالية) في الحركة والحذر والقول على مدى الأيام.

وأضحى المسلمون يقرؤون سورة طويلة من سور القرآن الكريم سماها الله (النمل) وقد استروحوا حواراً عجبياً من نموذج رائع للقصة القصيرة ذات الأهداف المعنوية والجمالية.

يقول السيوطي: جمعت (الآية) في هذه اللفظة أحد عشر جنساً من الكلام: نادت، وكنت، ونبهت، وسمت، وأمرت، وقصت، وحذرت، وخصت، وعمت، وأشارت، وعذرت. فالنداء: يا، والكناية: أي، والتنبيه: ها، والتسمية: النمل، والأمر: ادخلوا، والقصص: مساكنكم، والتحذير: لا يحطمنكم، والتخصيص: سليمان، والتعميم: جنوده، والإشارة: وهم، والعذر: لا يشعرون، فأدت خمس حقوق: حق الله، وحق رسوله، وحقها، وحق رعيتها، وحق جنود سليمان^(١). أليس هذا عجباً وجميلاً؟

الناقة المعجزة ومصارع المكذبين:

ثمود قبيلة عربية عريقة القدم، ونبّيها صالح عليه السلام أحد أنبياء العرب القدامى، ذكره الله في القرآن مع قبيلته في كثير من سور القرآن القصيرة والطويلة، كالأعراف والتوبة، وهود والحج والفرقان والقمر والفجر والبروج والشمس ومعظمها مكّي. وكانت ثمود في شمالي الجزيرة العربية، كما كانت عاد في جنوبها تعكف على أصنامها وأوثانها.

ويشيد القرآن بحضارتها الزراعية والعمرانية، فأهلها أصحاب الحجر اتخذوا من سهولها قصوراً، ونحتوا من الجبال بيوتاً كثرت فيهم آلاء الله ونعمه حتى أصبحوا فارهين بحياتهم منعمين في معاشهم، أقوياء متمكنين في بلدهم. وسبقتهم عاد ونبّيها هود عليه السلام، في وجودها وتكذيبها ومصرعها بالريح الصرصر العاتية... فلم تفدهم الذكرى والعبرة منها فاستحقت مصيرها المفزع المخوف.

(١) الإتقان: ٥٥/٢.

ناقة صالح المعجزة من البيئة العربية، وقصور ثمود في الجبال الراقية والمنحوتة وسهولها الممتدة الخصبة من أسباب تقدمها وتمكنها، والماء المتفجر من الجبال قسمة بينهم وبين الناقة.

وتطاوالت ثمود واستعلت بأنعم الله، وهزئت بصالح قائلة: ﴿أَبْشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّنَبُّهُ﴾ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَّالٍ وَسُعْرٍ ﴿ (القمر: ٢٤) واتهموه بالكذب بعد أن دعاهم إلى التوحيد مستكثرين عليه النبوة وذكر ربه، وبلغت بهم الجرأة إلى اعتداء تسعة رهط منهم على الناقة فأفسدوا في الأرض ولم يصلحوا، فتعاطى أشقاهم الخمر ليزيد من جرأته فانبعث وعقر الناقة التي أرسلها الله آية لهم، ووقع البلاء العميم والشر المستطير والعذاب المفزع.

إنها ﴿الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ (الأعراف: ٧٨) دفعت بهم إلى الهلاك ﴿صَيْحَةً مِّثْلَ صَيْحَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ (فصلت: ١٣). أو ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ﴾ (القمر: ٣١).

أي مصير ومصراع هذا؟ سهولهم هي هي، وبيوتهم في الجبال على حالها، لم يمسه شيء وإنما هم وحدهم جمدوا في أمكنتهم صرعى لا يتحركون.

إن صيحة واحدة فعلت بهم ما فعلت فكانت أجسامهم أعواداً جافة هشياً بعدما استطالت بقوتها وتمكنها في بنيانها.

والتعبير الفني يوحي بالرهبة المؤثرة في ثلاث نقاط:

● فهم على قوتهم وجبروتهم ليسوا شيئاً أمام قوة الله وجبروته. فأخذهم أخذ عزيز مقتدر بسبب ما قدموا عليه من عقر الناقة الآية.

● ومدينتهم الجبلية الباقية بعدهم قائمة منذ ذلك الوقت حتى اليوم لم ينقص منها شيء ولكنهم أضحوا كالعصي اليابس لا يستقيم على شيء.

● وتصويرهم الحي في القرآن ﴿كَفَّكَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿ يوحى للعين بالفرع الدائم وللقلب بالأثر المستمر، وكأنها حدث جماعي حاضر يمكن أن يحدث مثله في أي وقت وأي جيل.

إنها واحدة من سلسلة الرسائل والتكذيب والمصير المدمر عبر التاريخ القريب والبعيد، ولكنها في البيان القرآني صورة حية موحية خالدة لا يتصور مثلها من الخوف والهلاك... ولنتأمل هذه الجمل القرآنية: ﴿قَدْ مَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس: ١٤، ١٥) و﴿وَعَتَوَاعَنَ أَمْرَ رَبِّهِمْ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُنُومًا...﴾ (الأعراف: ٧٧، ٨٨) و﴿يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا...﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ (هود: ٦٢، ٦٨) و﴿كُلُّ شَرِّبٍ مُّخَضَّرٌ ﴿ كَهَشِيمٍ الْمُخَضَّرِ ﴿ (القمر: ٢٨، ٣١) .. فإن أسلوبها العلوي يأسر الوجدان المدرك بروعته وجلال إحياءاته.

وإن أي تالٍ لهذه القصة وسواها ثم يشاهد آثارها في الواقع يدرك دقة البيان القرآني وروعة تصويره وفنية عباراته، حتى ذلك الذي لا يرى آثارها المادية الواقعة فإنه يفرغ من القدرة القادرة المحيطة بهم - كما صورها القرآن فقصت عليهم في سرعة مذهلة، ومن ثم تبقى آثارها الشعورية ماثلة في النفس عميقة البعد قوية الأسر مستمرة متجددة الرهب. وصدق رسول الله حيث قال: شَيَّبَنِي هُودُ وَأَخَوَاتُهَا...^(١).

إن (مدائن صالح) شمالي (العلا) كانت في طريق الرسول عليه السلام إلى تبوك، فلما مرَّ بالجحر سجى ثوبه على وجهه، واستحث راحلته ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم...^(٢).

(١) قال الهيثمي في الزوائد: ٣٧/٤. رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) ابن هشام: ٥٢٢/٤. وانظر روايات أخرى في سيرته.

ما أشده أثراً في النفس والسلوك وأبلغه في التخويف والترهيب إنها ليست قصة في التاريخ عرفت مصيرها وعاقبتها مثل مصائر المكذبين وعاقبتهم وحسب وإنما هي مشهد من فن القول المعجز تتجدد عبره وعظاته المستلهمة من البيان القرآني الفذ.

الجبال جُدَد . . . أَوَابَة :

وعرّف الجبل بأنه كتلة برية عالية لا تستوي الأرض فيها إلا قليلاً عند القمة، وتوجد بعض الجبال منعزلة، ولكن الأغلب أنها توجد في مجموعة أوصف، أو سلسلة مترابطة. وهناك فرضيات عديدة لتكوين الجبال: منها حفظ التوازن من حيث الثقل بين القطاعات المختلفة من قشرة الأرض، أو الاعتقاد بأن القارات تنجرف في اتجاهات معينة فوق مادة قاع المحيط. فتتجعد مقدماتها نتيجة للاحتكاك والمقاومة الشديدة . . . وصرح القرآن بألوانها المختلفة المتباينة المتقاربة ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر: ٢٧) وهذا يعني اختلاف بنيتها الأساسية من كلسية وبركانية وبازليّة أو كما يقال: صخور نارية ورسوبية ومتحولة.

ومهما تكن أنواعها فهي مضرب المثل في ضخامتها ورهبتها وهول منظرها ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ (هود: ٤٢) ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (إبراهيم: ٤٦)، ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧). ونوع القرآن استخدامها في مجالات متعددة مألوفة وغير مألوفة:

الاستخدام العام والنوعي:

فبسبب ارتفاعها عن سطح الأرض ومنسوب المياه يمكن أن تعصم الإنسان من الطوفان أو الغرق حين يلجأ إليها وهذا ما تمسك به ولد نوح عليه السلام حين خوّفه بالطوفان ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا

عَاصِمَ الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿ (هود: ٤٣) . وكذلك اتخاذها أماكن سامقة تتجلى فيها أعاجيب القدرة الإلهية، حين أرى ربنا إبراهيم عليه السلام إحياء الموتى وقال له: ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٠) . ومثلها ضعف الجبل ذي الطبيعة الصخرية القوية عن ثبوته أمام تجليات الله في قصة موسى عليه السلام ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ... ﴾ (الأعراف: ١٤٣) . . .

١ - ومنه نحت البيوت الآمنة:

فقد استفادت أقوام منذ قديم الزمان من ضخامة طبيعتها ومثانة بنائها فاستخدمت مغاراتها وكهوفها للسكنى ولاتقاء شر الحيوان المفترس، وكانت سجلاً حضارياً لأحوالها وأوضاعها، واتخذ آخرون الجبال نفسها بيوتاً آمنة بعد أن نحتوها في جهود بشرية مضنية، وما تزال بعضها تعبر عن حضارة راقية حتى الآن مثل: مدينة البتراء ومدائن صالح. ﴿ تَنَخَّذُوا مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنَحَّيْوْنَ الْجِبَالَ بِيُوتًا ﴾ (الأعراف: ٧٤) فهي أمان من هجمات الإنسان والحيوان ﴿ وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بِيُوتًا آمِنِينَ ﴾ فأحياناً كانت تعتبر حصوناً أو تبنى عليها قلاع قوية تعيش آلاف السنين. وقد ساق القرآن هذه الفائدة ضمن نعم كثيرة من البيوت والحيوان واللباس والظلال . . . وبين أنها (أكنان) يستكن إليها الإنسان ويطمئن بها فتقيه من شرور العاديات . . .

ولا تقتصر على الضرورات أو الحاجيات وإنما قد تكون قصوراً جبليّة فارهة ﴿ وَتَنَحَّيْوْنَ مِنَ الْجِبَالِ بِيُوتًا فَرَهِينَ ﴾ (الشعراء: ١٤٩) وكذلك ما يتخذه بعض الحيوان منها كالنحل ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ... ﴾ (النحل: ٦٨) .

٢ - الجبال أوتاد:

فهي بأوزانها الثقيلة وكتلها الضخمة تجعل الأرض كرة موتدة مرساة

وجرمًا متماسكاً ثابتاً فتحفظ حركتها المتوازنة ودورانها المنتظم، وهي إذ ترسخ هذه الحركة والدوران بنظام دائم فإنها تثقل بالجبال فليست جسمًا خفيفاً طائشاً لا يقوى على العواصف والرياح.

وربما كانت الأرض في أول نشأتها خفيفة فأرساها بالجبال ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا﴾ (النازعات: ٣٢) ودعمها بالأوتاد ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبا: ٧).

٣ - الجبال من جلال الله ودلائل قدرته ونظامه الكوني:

ومهما اختلفت الفرضيات الجيولوجية في تكوين الجبال فإنها مظهر مهيب للجلال الإلهي يلهم الرهبة والقدرة الفائقة. وإن في نصبها مرتفعة وتضاريسها الضخمة ما يوحي بالخشوع والجلال، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (الغاشية: ١٧ - ١٩). وقد كانت أعلى الجبال أصعدة يتنافس في ركوبها المغامرون من كل جيل.

وهي برهبتها وعظمتها نظام رائع في توزيعها على اليابسة يلطف المناخ القاسي برودة وحرارة.

فلو^(١) نظرنا إلى كيفية توزيع الجبال والنجوم على سطح الأرض لدهشنا من هذا التوزيع الرائع البديع، إذ كلما تقدمنا إلى جهات المنطقة الحارة من العالم تأخذ الجبال والنجوم بالارتفاع بصورة عامة، وكلما تقدمنا إلى المناطق الباردة تأخذ هذه المرتفعات بالانخفاض بصورة عامة حتى تكون سهولاً. وبهذا الترتيب المنسق تُلطف المناخ غالباً في المنطقة الحارة

(١) رشيد رشدي الغافري: آيات الخالق الكونية والنفسية. جمعية التربية الإسلامية ط/التنغيص الأهلية، بغداد. وانظر: الإسلام في عصر العلم: محمد أحمد الغمراوي من ص: ٣٢٤. دار الكتب الحديثة.

من الأرض وما يليها شمالاً وجنوباً، وذلك لشواهد الجبال وسوايق النجود فيها وبذلك صلح الغالب منها للسكنى، وكذلك خفت وطأة البرد في المناطق المتجمدة وذلك لانخفاض أراضيها فصارت صالحة للسكنى، فلو كانت الحالة معكوسة أي لو كان سطح اليابس من الأرض يتدرج بالارتفاع كلما تقدمنا إلى المنطقة الباردة حيث تكون شواهد الجبال ويتدرج بالانخفاض كلما اتجهنا إلى المناطق الباردة حيث تكون المنخفضات من السهول لتحوّل معظم المنطقة الباردة إلى جمد لا يمكن معه السكن فيها ولتعرّض معظم المنطقة الحارة لحرارة شديدة لا تطاق. فهل هناك قوة لا تدرك ولا تعقل قدرت هذا النظام في توزيع الجبال والنجود على سطح الأرض ليكون معظمه ملائماً للحياة؟ كلا ثم كلا! بل إن هناك صانعاً منظماً عالماً أقام هذا النظام في التوزيع ألا وهو الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾.

٤ - الجبال أبواب مسبحة:

وإذا نصبت الجبال جلالاً وأرساها الله في الأرض لتحقيق نظاماً ملطفاً لليابسة فإن مما يضيف إلى أهميتها الجمالية أنها أبواب مسبحة تتناسق مع الوجود العلوي والأرض كله المعلن عنه في آيات كثيرة وفي مقدمتها (المسبحات).

● وخص الله من الأنبياء داود عليه السلام ثم (رسول الله ﷺ فيما بعد) بالجبال المسبحة التي يدرك من تسبيحها ما لا يدركه غيره. فهي مسخرة له مسبحة لله تعالى ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ...﴾ (الأنبياء: ٧٩). وهذه الخاصية فضل من الله يضاف إلى أفضاله في النبوة والملك والقوة البدنية والذرية الطيبة... ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أُوتِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ﴾ (سبأ: ١٠). وهو تسبيح دائم لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (ص: ١٨).

● وخص به القرآن موضعاً فعاليته في النفوس وأثره على الآخرين، حتى وإن كان جبلاً سامقاً قوياً فإنه يسكن إلى أثره يتجاوب مع علو شأنه ﴿لَوْ

أَنْزَلْنَاهَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتُمُ خَشَعًا مَّتَّصِدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ... ﴿٢١﴾
(الحشر: ٢١). خاشع: كخشوع المؤمن في صلاته، متصدع كتصدع الصخر الذي يتفجر بالينابيع والمياه...

وإذا فإن صفة الخشوع والتصدع كامنة في أي جبل على اليابسة، وإن القرآن وحده قادر على أن يبرز هاتين الصفتين إلى الوجود فيصبح الجبل خاشعاً متصدعاً من خشية الله. فما بال القلوب الجاحدة والنفوس القاسية التي لا تلين لذكر الله وما نزل من الحق؟ أليست كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء... ؟.

وقريب منه تلك الأمانة الكبرى (أمانات التكليف) التي عرضت عليها فأبين أن يحملنها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

● وتسييحها عام وسجودها لعظمة الله شامل. فهي إذ خلقت مفطورة على الخضوع الكامل والتسبيح المستمر في (لغة) الجماد التي لا نفقها، و(لسان) الجبال الذي لا ندركه فإن أروع الجماليات في هذه اللغة واللسان ينبثق من كتل ضخمة هائلة مثل الجبال يعلن القرآن أن أجراماً سماوية وأرضية أخرى تفوقها في الضخامة تسبح الله بلغتها ولسانها، وتسجد لعظمة الله مهما كانت كبيرة وعظيمة إلى جانب تلك الكائنات الدقيقة الصغيرة ﴿الْمُرَرَّاتِ اللَّهُ يَسْجُدُ لَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ...﴾ (الحج: ١٨).

تسبيح الجماد والجبال، وسجودها لله وحده لا يمكن لأية لغة فنية أن ترسمه أو تصوره أو تعبر عنه تماماً مثل استحالة إمكاناتنا عن فهم لغتها وسجودها الحقيقيين.

● ومع هذا التسبيح والسجود يضيفي القرآن جماليات على هذه الجمادات الهائلة الجبال، فهي كما سبق مفطورة (على الخشوع) و (الإشفاق)

و(الإدراك) لما في هذا القرآن من تأثير عظيم بسبب ما تضمنه من خشية الله . . .

ثم تتوج هذه الجماليات بالخطاب الإلهي لها ﴿يَجْبَلُ أَوَّيَّ مَعَهُ﴾، وإذا بالجبال تحسّ بخطاب الله العظيم فتطيع وتؤوب مسبّحة مع تراتيل داود ومزاميره الخارقة.

كيف فهمت الجبال خطاب الله وأطاعته واشتركت مع داود في التسبيح المرتل الجميل؟ وكيف انزاحت الحواجز والحجب بين الكائنات الأرضية وبارئها، وبين داود والجبال حتى أضحت (فرقة) الترتيل الداودي البديع؟ كيف حدث هذا ولمّ لم يحدث مثله وقد أوتي أبو موسى الأشعري مزامراً من مزامير داود كما أخبر عنه رسول الله ﷺ؟ وكيف يحدد الخيال الإنساني مثل هذا التصور الفريد العجيب؟.

سبحان خالق الجبال أشكالاً وألواناً وأحجاماً.

وفاطرها نظاماً عجيباً وملجأً ومسكناً آمناً.

وبارئها أوبة مسبحة مرتلة ساجدة.

سبحان الله العظيم الكبير المتعال.

* * *

(سورة الحجر) نموذج لدراسة جمالية

بين يدي الدراسة:

إن الصفات المعنوية والتناسبية الترتيلية التي نقّدها أولاً، والسمات التعبيرية التي سنقدمها فيما بعد أُلِيقَ بالقرآن الكريم عموماً وبسورة الحجر خصوصاً، ليس لأن القرآن (حمّال) لها (معطاء) لذخائرها وحسب وإنما لأن الدراسات البلاغية والجمالية نفسها تنشط وتعمق وتُدقّ في كتاب الله تعالى.

فالمسلم مطالب بتدبره وترتيله والعمل به، وهذه الثلاثية تستدعي اعتباره محور الحياة الفكرية والعملية والأدبية، وعمادها للإنسانية التي لم تعرف أمة بعناية كتابها مثل ما عرفت به الأمة الإسلامية.

وإن نصه الثابت وبيانه الأرفع وإعجازه المستمر تؤكد على التدبر والترتيل والعمل من جانب الثبوت والبيان والإعجاز ومن جانب أنه كلام الله وحجته وتشريعه وخصائصه التنزيلية والتربوية.

وهذه المزايا تتطلب أن يتأمل العلماء فيه، وينفقوا جهودهم في تتبع خصائصه، ويعمّقوا نظراتهم وتأملاتهم فيه لأنه محور حياتهم كما قدمت، ولأن أعمق النظرات وأدق التأملات، وأوسع الجهود في استكناه مآثره تعطي ثمرات فكرية وفنية مستمرة ومتجددة.

وقد تناول بعض العلماء والأدباء سوراً معينة مثل: الرعد، والواقعة، والرحمن، وهود، وقصار السور ودرسوا ما فيها من مضامين معنوية ومزايا لغوية وأدبية، ويستطيع غيرهم أن يستلهم منها معطيات أخرى مهما دقت

التأملات وتعمقت الدراسات والنظرات كما يستطيعون بالضرورة أن يتناولوا غيرها بمثل نظراتهم ودراساتهم أو تزيد.

لأن هؤلاء وأولئك يعتقدون بقدسية القرآن وإعجازه، وما دام ذلك كذلك فإن آية سورة فيه - وهي إذ تنسب إلى الله الذي أعجز الناس بها - قابلة لمثل هذا التدقيق والعمق والجهود الفكرية والأدبية المختلفة.

وربما تميزت هذه الدراسة عن غيرها بإبراز الخصائص الجمالية والجلالية كنموذج لمعرفة الظاهرة الجمالية في سور القرآن جميعها. روي عن ابن الأنباري أنه قال: ركب الكندي (يعقوب بن إسحق) المتفلسف إلى أبي العباس (ثعلب) وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشواً، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبدالله قائم، ثم يقولون: إن عبدالله قائم، ثم يقولون: إن عبدالله قائم. فالألفاظ مكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبدالله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبدالله قائم، جواب عن سؤال، وقولهم: إن عبدالله لقائم، جواب إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرار المعاني، فما أحرار المتفلسف جواباً.

فإذا صح هذا بلاغة في اللفظة العربية الشائعة فكيف يكون حالها في النسق القرآني المعجز؟.

وإن العلماء فرقوا مثلاً بين: الحمد والشكر، والخشية والخوف، والسبيل والطريق، والإعطاء والإيتاء، والقعود والجلوس، وجاء وأتى، وعمل وفعل...^(١). في موضع كل منها بالتعيين دون الأخرى ومناسبتها في المعنى والموسيقى والصورة، ضمن التركيب القرآني. وسورة (الحجر) سورة من

(١) دلائل الإعجاز الجرجاني: ٢٠٦.

انظرها وغيرها وانظر تحليلها في المزمهر: ٤٠٥/١، وبيان إعجاز القرآن: للخطابي: ٣٠. والإتقان: ١٩٥/١، والبرهان للزملكاني: ٩١. وسبق شيء منه في موضعه.

كلام الله وكتابه، وهي معجزة بيانية لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها وصفاً
جمالياً وقدرة بلاغية، فلا يصح أن تدرس دراسة سطحية، ولا أن تتناولها
العقول والقلوب والأفلام مثل أي نص أدبي آخر. فنحن هنا أمام سيد الكلام
وأجل النصوص وأقدس البيان، وأجمل الآثار الأدبية.

وبمثل هذه الروح أقبل العلماء والأدباء على كتاب الله ويقبلون، وبمثل
هذه القدرات العلمية والأدبية والفنية تناولوا نصوصه بالعمق والدأب والفهم
ويتناولون.

فلا غرو أن يدرسوا ما فيه حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، وآية آية، وسورة
سورة، ولا عجب أن يستنبطوا منه أدق العلوم وأروع الأساليب ما دامت
دراساتهم تشمل حروفه وكلماته وآيه وسوره.

ومثل هذه الخاصية لا ينفرد بها كتاب الله فإن أي نص مقدس، بل وإن
أي كلام لعظيم أو كبير من البشر، في التشريع والأخلاق والآداب يستدعي
الاهتمام والإقبال والدأب على الدراسة والاستنباط.

فمجال العقيدة والعبادة وبهاء التشريع والأخلاق وروعة المصائر البشرية
في الدنيا والآخرة تجلبها القدرة البيانية الفائقة لتبرز صفات القرآن الجمالية
وسماته التعبيرية الفنية.

وإن الكشف عن دقائق تشريعه وعبادته وعقيدته وتربيته ضمن بيانه
المعجز ينوه بجماليات لا حد لها في المبنى والمعنى يستلهم منها العلماء
والأدباء روائعها ورواءها.

وسورة الحجر تأخذ قسطها الجمالي من كثير من أغراض القرآن
العظيمة التي تستحق مزيداً من الدراسة وعمقاً في البحث. فهي مثل سائر
السور أليق بالدراسات الجمالية والفنية.

جمالية التناسب في السورة:

هي سورة مكية بإتفاق^(١) وترتيبها الخامسة عشر من حيث النزول، ومن السور المتوسطة من حيث حجمها (٩٩) آية، وطول آيها، يقول الفيروزبآدي: كلمات (الحجر) (٦٥٤) كلمة، وحروفها (٢٧٥٠) حرف^(٢)، وسميت بالحجر لورود قصة أصحاب الحجر في أواخرها بدءاً من قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨٠). وهي خامسة خمسة مما بدأ الله به قوله: ﴿الر﴾ كجزء من الآية الأولى.

التناسب المعنوي:

فالسورة وحدة فكرية توجيهية تتسق مع أخواتها من السور المكية في موضوعاتها. ولا بد أن نلّم بالنواحي التالية:

١ - موضوع السورة: الرسالة المحمدية وموقف الجاهلية منها. فمحمد عليه الصلاة والسلام رسول الله نزلت عليه معجزة القرآن الثابت بالحق، والجاهليون يكذبون ويستهزئون وينعتون رسول الله بأقبح النعوت التي لا تليق بواحد من عامة الناس، وهذا يقتضي دعماً من الله بالوحي المتتابع، وتوجيهاً إلهياً، ومواساة له من تعامل قومه وقسوتهم عليه بما فيه العبرة من التاريخ القريب والبعيد.

٢ - تناسب آياتها: ففي الآية الأولى ﴿الرَّتِلْكَ آيَتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ توضيح لربط الحروف المقطعة بالقرآن الكريم الذي نزل بمثل هذه الحروف العربية التي تحداهم به ولم يقدرُوا على الإتيان بمثله.

والتناسب قائم أيضاً بين الآيات الأولى وبين خاتمة السورة نفسها حيث

(١) ليس ثمة دافع خاص لاختيار هذه السورة، فهي واحدة من السور المكية التي تشترك مع سائر المكي بخصائصه.

(٢) تنوير القياس في تفسير ابن عباس.

يقول الله فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ... إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ... وَأَعْبَدْرَبَكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. فالتناسب في وصف القرآن ونزوله على الرسول ﷺ وتوجيهه له بما يليق به قائم في البداية والنهاية... فقد أعظموا الفرية على الرسول حين ذكر الله قولهم: ﴿وَقَالُوا يَكُأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦) فناسب تأكيد الله لهم لغيرهم بنزوله وحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ (٩). ثم تتفرع سائر الآيات من موضوع السورة الأساسي الذي أشرت إليه في عبر التاريخ، وتزيين السماء، ومد الأرض وإرسائها، والنشأة البشرية الأولى ومصائرهم فيما بعد.

والسورة نسيج واحد على الرغم من تنوع الفروع والأجزاء، إذ أن كل فرع أو جزء فيها يتسلسل مع الآخر حتى تستوفي السورة (الموضوع) من جميع نواحيه وجوانبه.

فهي تبدأ بالإشادة بكتاب الله الذي جحدته الجاهليون عناداً واستكباراً وليس عن برهان ولا دليل، حتى لو أنهم عرجوا إلى باب السماء فإنهم يعاندون ويقولون ﴿نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾.

ثم يلفت القرآن أنظار الذين كذبوه وعقولهم إلى الكون العظيم الهائل وخالقه الأعظم والأكبر الذي قدر لهم المعاش والأرزاق، وأرسل الرياح لواقع وأنزل الأمطار وسقاهم منه، وأنعماً جليلاً أخرى.

ثم ينبههم إلى النشأة الأولى والمعاد الأخير وما يجري بينهما من صراع الخير والشر، ومواجهة الرسالات والكافرين: إبراهيم ولوط وشعيب وهود عليهم السلام.

وأخيراً يثبت القرآن قلب الرسول بما ينزل عليه من القرآن والسبع المثاني، ويوجهه إلى تحمله والقيام بمسئوليته ومنها: الجهر بالدعوة مهما ضاق صدره بقومه فإن تسيبحة الله وسجوده له وعبادته الدائمة تكفيه المستهزئين وتنصره عليهم ولو بعد حين.

والقرآن المكي الذي أنزل على رسوله الأمين في وقت عصيب من حياته عليه الصلاة والسلام يبين في هذه السورة منه عظمته، وتأيدته لرسوله في أحداث جرت قبل التاريخ وبعده، وفي سعة كونية فسيحة وآفاق من الحياة رحبة، وعظات بالغات فيها شفاء النفوس وشحد العزائم في كل جيل وزمان.

٣ - مناسبة السورة للسور الأخرى: ونبحثها من جانبين:

الأولى: مناسبتها للسور القرآنية نزولاً: فقد سبقتها سورة (بنو إسرائيل، ويونس، وهود، ويوسف) وأخيراً الحجر. والمناسبة واضحة تمام الوضوح:

أ - هذه السور جميعها مكية سميت بأسماء أنبياء الله سواء كانوا عرباً أو من بني إسرائيل، وهم بعثوا في أصقاع متقاربة من البلاد العربية. في الجزيرة وما حولها. وهذا يعني تقديراً خاصاً لهؤلاء الأنبياء باعتبارهم المبلغين لشرائعهم، ثم لما في قصصهم عبرة وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام في مواجهة الكفار والمعاندين الجاهليين.

ب - معظم السور الماضية تبدأ بقوله (الر) ويتبعها ذكر القرآن ووصفه بصفات البيان والحكمة والكرامة وإحكام الآيات... ثم إن هذه الحروف المقطعة هي جزء من الآية الأولى في كل سورة سابقة على عكس الحروف المقطعة الأخرى مثل (الم) و(حم) و(يس) و(طه)... وهذا يلهم تأكيد التلاحم بين (الر) وإعجاز القرآن الكريم باعتبارها آية واحدة تؤدي هذا المعنى بالتعيين.

ج - ولو تتبعنا نهايات هذه السور مثل ما تتبعنا أوائلها لوجدنا ما يشير أو يصرح أحياناً بأهمية القرآن الكريم وشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام. ففي سورة يوسف جاء قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ...﴾

لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٢-١٠٤﴾ وقوله في آخرها ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ (١١١).

وجاء في سورة هود قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ... لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠) ثم يقول لرسوله في آخر السورة ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣).

وجاء في آخر سورة يونس: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ... الْحَكِيمِينَ﴾.

أما مناسبة (الحجر) لما بعدها نزولاً، فإن سورة الأنعام التي نزلت بعد الحجر تتناول قصة التكذيب والعناد والمواقف الجاحدة من الرسول عليه الصلاة والسلام ودعوته، وذلك في مثل قوله: ﴿وَمَا تَأْنِيهِمْ مِنْ آيَةٍ... فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ... يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤ - ٥) ووقع بعد تعليم الرسول وتعليمنا شكر الله وحمده في مطلع السورة وما في ذلك من تثبيت وتطمين، ثم تتناول السورة لفت أنظارهم إلى ما حولهم ومن حولهم من الأمم التي أهلكها الله بسبب عصيانها وكفرانها.

إن سورة الأنعام أطول نفساً وأكثر آياً وأزخم معاني وألصق بإظهار مساوئ الجاهليين في السلوك والعقيدة والتعامل، وموضوعها: الألوهية والعبودية الذي تتشقق منه الرسالة والرسول، والشريعة والخلافة ومصائر الناس يوم القيامة يتشابه مع سائر السور المكية مثل سورة الحجر التي نحن بصدد الحديث عن مناسبتها. إلا أن التشابه (الدقيق) بينهما ورد في بعض المعاني الواقعة في (الأنعام) كالإشادة بالله الخالق وموقف الجاحدين من رسالة محمد ﷺ، وتيقن أهل الكتاب بهذه الرسالة. وبشرية الرسول وتفصيل إيمان إبراهيم، وإيمان ذريته من بعده، وأخيراً ما تزاوله الجاهلية الساخرة من خرافات دينية، وإهدار أموال لاستعمالها في حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم والأنعام لتبين مدى السخف في التصور والسلوك الجاهلي الذي يكون موضع هزء وافتراء وضلال، فما أجدد أن يستهزأ بهم ويسخر منهم، وتشان أعمالهم

وعقولهم، ثم تلفت النظر إلى جرائمهم في قتل أولادهم وقتل النفس التي حرم الله، وتفريق دين الله شيعاً ومذاهب، وتبرؤ (القرآن) كتاباً منزلاً من عند الله ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ...﴾ (١٥٥) وتنتهي السورة ببيان هداية الله لرسوله واستعداد الإنسان لمثل هذه الهداية والخلافة.

الثاني: مناسبة السورة للصور القرآنية مُصحفياً: ففي المصحف الشريف تقع سورة الحجر بين سورة إبراهيم السابقة وسورة النحل اللاحقة. وجميع هذه السور المتتابعة مكية، وتشترك سورة إبراهيم والحجر بالحروف المقطعة (الر) في مطالعتهما.

أ - إن تنزيل سورة إبراهيم في مكة يؤذن بالنسب في العقيدة والنبوة مثل ما يؤذن بنسب القرابة في الجدود الأولى. وهذا يوحي بعلاقة الرسول بإبراهيم عليهما السلام قبل هجرته إلى المدينة ولقائه باليهود والنصارى، وإنه يشعر أيضاً بصلة القرابة للعرب وأنبيائهم بإبراهيم الجد الأعلى وأبي الأنبياء، والبيت الحرام والكعبة فيه شاهد على ذلك. فإذا دعا الرسول بدعوة إبراهيم فإنها ملة الحنيفية التي انحرف عنها الجاهليون المتأخرون، ورسول الله يعيدهم إليها صافية نقية.

ب - وفي سورة إبراهيم أكثر من إشارة وتلميح إلى بنائه البيت مع ابنه إسماعيل في (١٨) آية. وإلى جانب ما قصته هذه السورة من حياة نوح وعاد وشمود وموسى ثم إبراهيم خصوصاً، وحياة الأنبياء ودعوتهم ومواقف أقوامهم منهم ومصائبهم عموماً فإن إعلان السورة في مطلعها بمهمة القرآن الكريم وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور يماثل تماماً ما ختم الله به السورة نفسها في قوله: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أَنَّهُمْ إِلَى اللَّهِ شَاقِقُونَ﴾ (١٨٠) ولعلنا نلاحظ في مطلع السورة أيضاً قوله: ﴿وَلَا يَدْرِي يَرَاهُ أَمْ يَسْتَكْبِرُ﴾ (١٨١) وهو قوله: ﴿وَلَا يَدْرِي يَرَاهُ أَمْ يَسْتَكْبِرُ﴾ (١٨١) وهو قوله: ﴿وَلَا يَدْرِي يَرَاهُ أَمْ يَسْتَكْبِرُ﴾ (١٨١).

ج - ومع أن سورة إبراهيم بلغت (٥٢) آية فإن طول آياتها تكاد تتساوى في الحجم مع سورة الحجر التي بلغت آياتها (٩٩) آية.

ومن أكثر الآيات بياناً لمعنى التوحيد وآثاره النافعة المستمرة - وهو قدر مشترك بين السور المكية جميعها - قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً... قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٤ - ٢٦)، ثم ما فيها من البيان المفصل لمشاهد الكفار أتباعاً ومتبوعين في نار جهنم (الآيتان: ٢١، ٢٢) مما لا يحتاج في سورة الحجر إلا إلى عرض عام لموعد الكافرين في جهنم ذات الأبواب السبعة (الآيتان: ٤٣، ٤٤)، حتى يتنبه الكفار ويتبينوا عاقبتهم.

والملاحظة الهامة في سورة إبراهيم خلوها من موقف الاستهزاء والتكذيب والعناد الذي نجده في سورة الحجر، مما يدل على نزولها في وقت متأخر من الآي المكي حين قويت شوكة المسلمين شيئاً قليلاً.

د - وفي سورة النحل: وهي الأطول والأكثر آياً، والأقرب نزولاً بسورة إبراهيم من سورة الحجر يبدؤها الله بالوعيد المخوف بقرب يوم القيامة ويعقب عليه بقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ... فَأَتَقُونِ﴾ وهو الوحي الإلهي الذي ينزل بالالوهية والتوحيد، ثم تعدد آلاء الله في خلق الأنعام ومنافعها وجمالها، وفي إنزال الأمطار وإنبات الزرع والشجر والشراب. وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وتسخير البحار ومنافعه في النقل والطعام. وآيات أخرى تتصل بالالوهية والوحدانية، ثم يلفت النظر إلى تعاملهم وتصورهم للأشئ التي يجعلونها لله ولا يحبونها لأنفسهم، وإنما يتوارون من ولادتها، ويتمم آلاءه بذكر النحل الذي ألهمه الله أن يتخذ البيوت من الجبال ومما يعرثون.

ويبرز الأدب مع القرآن لأنه أنزله روح القدس ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ... مُبَيَّنً﴾ (١٠٢ - ١٠٣). وقد أنزل فيه أجمع آية للفضائل الإسلامية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ (٩٠) وأنزل فيه الرزق الحلال وأنواعاً من الطعام الحرام ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ... رَجِيمٌ﴾ (١١٥). وأخيراً يربط بين الإسلام ودعوة إبراهيم ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ

إِبْرَاهِيمَ ... ﴿١٢٣﴾. مثل ما سبق ذكره في سورة إبراهيم.

هـ - وفي تمام سورة النحل توجيهات عظيمة نافعة قيمة في أسلوب الدعوة ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ ... بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥) وفي الصبر على الأذى فإنه أخلق بالدعاة ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾.

إن المتتبع لهذه السور الثلاث إبراهيم والحجر والنحل حسب ترتيبها في المصحف يستوحي تلاحمها في الموضوعات الكبرى والموضوعات المتفرعة منها، وهي وإن تكررت كبرياتها فإنها كانت تعرض في كل سورة منها بعروض خاصة تميزها عن غيرها وتصلها بها في آن واحد.

ومثل هذا التناسق المعنوي في السور لا يحتاج إلى تأمل طويل أو إلى تمحل في التأويل، وإنما يحتاج فقط إلى رصف هذه الآيات المتشابهة رصفاً فكرياً يؤدي إلى اتساق في آياتها وسورها، وهي جمالية تتسع بأفاقها الرحبة الجماليات الجزئية في الآيات كلها.

يقول المراغي: في مناسبتها لما قبلها وجوه:

- ١ - إنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين.
- ٢ - إنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين.
- ٣ - إن في كل منهما وصف السموات والأرض.
- ٤ - إن في كل منهما قصصاً مفصلاً عن إبراهيم عليه السلام.
- ٥ - إن في كل منهما تسلياً لرسوله ﷺ بذكر ما لاقاه الرسل السالفون من أمهم وكانت العاقبة للمتقين.

ويقول في مناسبتها لما بعدها:

لما قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾ كان ذلك تنبيهاً إلى حشرهم يوم القيامة، وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا، ف قيل: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾، وأيضاً فإن قوله في آخرها: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقَّ يَأْتِيكَ الْيَقِينُ﴾ شديد الالتئام بقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ رَبِّكَ...﴾.

وللعلماء والباحثين اجتهادات وتعليلات مختلفة لا تعدو مثل هذه المعاني.

التناسب الترتيلي:

سبق أن القرآن الكريم كتاب الله المبين نزل باللسان العربي وبالأصاليب العربية ولكنه أعجزهم بفوقية لغته وسمو أساليبه، وكان العرب يطربون للكلم الموزون والشعر المقفى وينشدونه في مجالسهم وأيامهم، فلا بد أن يهر العرب بالصوتيات القرآنية وبالجرس الناشئ من تناسق الحروف بالكلمات، وتناسق الكلمات بالجمال والآيات، وهذه وتلك منبعثة من ترتيل القرآن بتلاوته المميزة التي لا يعرف لها نظير.

١ - التناسق الترتيلي وفواصل السورة:

أ - وسورة الحجر تتجه في فاصلتها اتجاهها واحداً لا يتغير حتى تشكل في مجموعها (وحدة) جرسية تتناسق مع (وحدتها) الموضوعية، والفاصلة هي النون والميم المسبوقتان بحرف المد مما يعجب له العرب ويطربون له، ولا يستثنى من ذلك سوى آيتين تفترقان في المعنى والموضع وفاصلتهما اللام المسبوقة بمد الياء وهما: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (٧٤) وآية ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥)، فالحرف (اللام) في الهجائية مجاور للحرف (الميم) فجمعت السورة في فواصلها الحروف الهجائية المتجاورة: اللام، والميم، والنون على اختلاف في نسبة كل منها في السورة. فهي (٤٨) (ياءون)، و (٣٣) (ون)، و (١١) (ي م)، و (٤) (وم)، ولكنها على كل حال نسبة عكسية. ثم إن لفظة

(سجّل) متناسبة في المعنى مع الحجارة التي أمطر الله بها قوم لوط تماماً مثل وصف الصفح بأنه جميل، وهذا يعني أن مراعاة المعنى لا يتنافى مع الجرس الصوتي للكلمة وإن تغيرت فاصلتها فإنها حافظت على الإيقاع نفسه في مد الكلمة مدّاً عارضاً للسكون. وابتعدت عن المشهور والمعروف بسجع الكهان.

ب - وتبدأ الآية الأولى بقوله (الر) حروف ثلاثة: أولها متصل الصوت من غير مد وثانيها ممدود مدّاً طويلاً مع الشدة، والثالث بمد قصير. وهي في جملتها تنبيه جرسى ومعنوي لما سيأتي من الكلام المتصل بالإعجاز القرآني، حيث إن القارئ لا بد أن يقف عندها برهة ثم يتابع القراءة، فالوقوف عندها حسن وجائز ويقتضيه الأداء والمعنى. فهي فاتحة أو مقدمة ضرورية لتحقيق الغرض الصوتي في تهيئة النفس الإنسانية وتنبيهها لما سيتلوها من الذكر الحكيم.

وتتلون (الر) جمالياً في الإمالة وفي التحقيق عند من يقرأ بهما.

٢ - التناسق الترتيلي والتخفيف:

أ - فتخفيف (رُبَمَا) على غير المشهور هي قراءة نافع وعاصم وهي مشددة في قراءة الباقيين.

وليس في القرآن لفظة أخرى بهذا التخفيف أو التشديد، ويهملنا هنا تخفيف الباء حتى كأن التالي أو القارئ يطلب منه أن يسرع إلى إدراك الموقف النادم الذي كان الكفار عليه ويتمنون أن لو كانوا مسلمين، وتنهينا الآية إلى خاصة أن الشدات في تمام الآية لا تزيد على اثنتين رسمتا على اللفظتين الموحيتين بالود والتمني ووصفها.

وكذلك التخفيف في قوله (لمنجّوهم) في قراءة حمزة والكسائي، والتخفيف في قوله: (قدّرنا) بقراءة أبي بكر، وقوله: (سكرت) في قراءة ابن

كثيراً^(١) تلهم الحكمة نفسها مع ملاحظة أن كل لفظة في سياقها الذي لا تستبدل به لفظة أخرى.

ب - أوحى تخفيف (ربما) لي بمتابعة (الشدات) في السورة كلها، والمعلوم أن (الشدة) في الأصل حرفان متماثلان الأول ساكن والثاني متحرك أدغما ببعضهما، سواء كانت الشدة بسبب حرف هجائي مثل: يودّ - يا أيّها - سكرت . . . أو نتيجة ادغام النون الساكنة أو التنوين بحروف لإدغام مثل: من رسول - بقدر معلوم - جنات وعيون.

وتقارب الشدات في السورة من (١٦٠) شدة. وإذا اعتبرنا الآية القرآنية (جملة) صوتية فإن حضور الشدات فيها تختلف من آية لأخرى. ويؤثر ذلك على الحركة الصوتية.

فبعضها خالٍ منها مثل الآيات: ١٤، ٣٦، ٤٦، ٦٢، ٦٧، ٧٠، ٧١، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٩٠، ٩٤ . . . فهي اثنتا عشرة آية. وبعضها يأخذ رقماً قياسياً. فهناك آيات تحتوي كل منهما على خمس شدات هي الآية السادسة والآية الخامسة والثمانون، وأربع آيات تحتوي كل منها على أربع شدات هي الآيات: ٩، ٤٥، ٨٥، ٩٨، وثلاث عشرة آية تحتوي على ثلاث عشرة شدة هي الآيات: ٨، ٢١، ٢٧، ٢٨، ٣٥، ٣٩، ٤٧، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٨٦، ٨٨، ٨٩، وباقي الآيات تحتوي كل منها على شديتين أو واحدة، ولا حاجة إلى استقصائها. مع ملاحظة أن بعضها يشدد ويغني.

ج - يصعب تحليل الشدات وجوداً وعدماً بقاعدة مطردة في هذه السورة وفي غيرها. تعليلاً جرسياً وإيقاعياً. وللباحث أن يستنتج بتأمله تعليقات خاضعة للنقاش والنقد.

(١) انظر: الإقناع لابن خلف الأنصاري: ٦٧٩/٢ ثم تابع القراءات في السورة جميعها بالطريقة المعجمية من معجم القراءات القرآنية: ٢٤٩/٣ - ٢٦٣، د. أحمد مختار ود. عبدالعال ط/١ جامعة الكويت ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

ويبدو لي - والله أعلم - أن الآيتين: ٦ ، ٨٥ ، اللتين تحتوي كل منهما خمس شدات تحملان (شدة) في البعد الشعوري الذي ينبض فيهما. فالله يقول في الآية السادسة ﴿وَقَالُوا يَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾. أوليس حجم هذه الفرية الكبرى يستحق ضغطاً صوتياً يتسق مع حجمها وشدتها؟.

والآية الخامسة والثمانون هي: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهَا فَاصِّحُ الصَّفْحِ الْجَمِيلِ﴾. أوليست هذه على طولها تعتبر جواباً أو مقابلة للفرية السابقة الكبرى في نسبة الرسول للجنون؟ إن الآيتين متسقتان في الموضوع والتألف الجرسى. الافتراء على الرسول ﷺ بالجنون يتطلب تهديداً من الله بإتيان الساعة، وتوجيهاً للرسول بالصفح الجميل، وفي كل منهما الشدات نفسها فهما في الموضوع الواحد. وقريب منهما الآيات الثلاث التي تشتمل كل منها على أربع شدات، مثل الآية التاسعة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أو ليس مضمون الآية من الأهمية ما يستدعي مثل هذا الضغط الصوتي في بيان تعهد الله بحفظ كتابه؟. وخذ مثلاً الآية: (٤٥) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ فإن التأكيد على مصير المتقين يتطلب مثل هذا التأكيد الصوتي الخاص.

ومثلها الآية: (٩٨) وهي قبل الآية الأخيرة من السورة تقول: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ فإن التسييح باسم الله والسجود له يتسقان مع الشدة الصوتية الملائمة.

وهذه الملاحظة تسري على مواقع الشدات الأخرى التي لا تحتاج إلى مزيد تأمل.

٣ - التناسق الترتيلي وحروف المد:

أ - إن ما سبق من مسألة الحروف المشددة يستوقفنا فيه حرفا الغنة

وهما النون والميم المشددتان اللذان يتطلبان مخرجاً خاصاً (من خيشوم الأنف) ملتحمًا بغنة طويلة المدى قليلاً، وهذا يدفع بنا إلى عرض نظرة في (المدود) الواردة ضمن هذه السورة الكريمة.

وتحظى سورة الحجر عموماً بعدد كبير من المدود ضمن الآيات وفواصلها.

ففي الفواصل وحدها تسع وتسعون مداً يطوّل القارئ في الوقوف عندها، وهي الميم والنون المسبوقة بالمد واواً وياءً كما أشرت إليه سابقاً، وتكثر مثل هذه الفواصل في القرآن عادة، ولكي نتبين هنا قيمة المد الإيقاعية نذكر أن سورتي الإسراء والكهف مثلاً تحظيان فقط بالمد القصير غالباً، مع أن كلاهما أطول من الحجر، ومثلهما سورة طه ذات المد القصير، علاوة على السور التي تكثر في فواصلها الحروف الساكنة مثل: القيامة والمندر، والواقعة، والغاشية، والفجر وسور قصيرة أخرى.

يضاف إلى ما سبق حضور المد في سورة الحجر في كثير من أنواعه الواجب والجائز الطويل والقصير الوارد ضمن الآيات، فقد قاربت أربعين مداً ثري الترتيل بوافر من الانسيابات الصوتية الطويلة والمتوسطة والقصيرة.

ب - وفي السورة ما يقارب من سبعين آية اقتصر المد الطويل فيها على الفاصلة وحدها من أصل (٩٩) مداً كما سبق الكلام، وهذا عدا المدود القصيرة التي تقع خلالها، فقد خلت بعض الآيات من أي مد طويل آخر، ولكن إلى جانبها نجد آيات تعدد المدود فيها على الرغم من قصرها.

ففي الآية الثانية والعشرين وهي أشمل آية لآلاء الله ثلاثة مدود طويلة بالإضافة إلى مد الفاصلة ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ بِخَازِنِينَ﴾ أما بالنسبة للمدود القصيرة فلا تكاد كلمة تخلو منه.

وكذلك فإن الآية السابقة لها تحتوي على مدين طويلين بالإضافة إلى

مد الفاصلة ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾. وهذا يعني أن هاتين الآيتين تشملمان أكثر المدود الطويلة والقصيرة من أية آية أخرى في السورة، فهل يعني هذا اقتران التأمل الطويل بالآلاء العظمى بما يتناسب مع طول النفس والترتيل الطويلين؟ وهل مثل هذا التناسق الموضوعي والصوتي مما يصح قاعدة مطردة في كل موضع من القرآن الكريم؟ إن الجواب الدقيق على مثل هذا يحتاج إلى مزيد من الدرس والبحث.

ثم آيتان أخريان يختلفان موضوعاً ويقتربان مداً وترتيلًا وهما ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (٥٨) ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٩) ففيهما أربع مدود طويلة مضافاً إليها مدا الفاصلة أيضاً. فهل تلهم هذه المدود الطويلة والقصيرة ترتيباً بإيقاع العذاب على المجرمين من قوم لوط؟ وهل لاستثناء (آل لوط) الذين نجاهم الله ثم استثناء (امراته) مرة أخرى علاقة بهذا التريث الطويل؟ إن واقع القصة يشير إلى إحاطة العذاب بالكافرين ومعهم زوجة لوط عليه السلام التي استثنيت من الناجين، فكأن الفرز يحتاج إلى طول أناة حتى لا يعمهم العذاب الأليم.

ج - مدود مقصورة: إن الترتيل لبعض المدود الطويلة السابقة قد قرئت مخطوفة أو مقصورة في قراءات ثابتة فمثلاً قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) قرأ أبو عمرو والحرميان: بفتح اليائين في (عبادي) و(أنبي)، وكذلك (إنبي) في قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩). وقرأ نافع (بناتي) في قوله: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٧١) بفتح الياء في الجميع^(١).

ويمكن أن نستنتج من هذه القراءات حكمة عامة هي التعجيل والإسراع في طلب مغفرة الله ورحمته في الآية الأولى، وإبلاغ التهديد والوعيد من غير

(١) انظر الإقناع السابق: ٦٨٠/٢.

لبث في الآية الثانية، وطلب الكف عن اقتراف السوء مع ضيوف لوط من غير تردد ولا تأخر في الآية الثالثة.

إن ما تحمله هذه الآيات من المقاصد المنجزة لا تتحمل بطئاً ولا طول انتظار. وهي حكمة (مستنتجة) تتسق مع الترتيل الخاطف والمقصور.

د - خطف الحروف المدودة: فالسورة المحافظة على وحدة الفاصلة الطويلة تعتمد في قراءات ثابتة إلى خطف مدود قصيرة بعدها وليست واردة في سائر الفواصل وذلك ليتم توازن بينها بلا قلق ولا اضطراب. فقوله تعالى: ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ (٥٤) قرأها نافع بكسر النون مع التخفيف حيث أن الأصل فيها (فبم تبشرونني) فاستثقل النونين فحذف إحداهما وهي الثانية لأن التكرير بها وقع ولم يحذف الأولى^(١). والنون المحذوفة هي التي تعرف بنون الوقاية، والياء ياء المتكلم، فقد روعي فيها اتساق فاصلتها مع المد الطويل بسائر الفواصل.

ومثلها قوله: ﴿فَلَا نَفْضَحُونَ﴾ (٦٨)، وقوله: ﴿وَلَا تُخْزُونَ﴾^(٢) (٦٩)، بكسر النون فيهما على قراءة حفص المشهورة.

٤ - التناسق الترتيلي وتسهيل الهمزات:

إن التخفيف في بعض الشدات الوارد في السورة يلفت نظرنا إلى تسهيل بعض الهمزات فيها، فقد روى ورش عن نافع في قوله تعالى: ﴿الْأَيْكَةِ﴾ (٧٨) بتسهيل الهمز أي الايكة^(٣)، وكذلك في قوله

(١) حجة القراءات: أبو زرعة. ت: سعيد الأفعاني: ٣٨٢، مؤسسة الرسالة ط/٢ ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

(٢) النشر في القراءات العشر ابن الجزري: ٣٠٢/٢. دار الفكر.

(٣) ابن مجاهد في كتاب: السبعة في القراءات: د. شوقي ضيف: ٣٦٨ ط/٢ دار المعارف.

تعالى: ﴿فَأَسْرِ﴾ بتسهيل الهمزة في قراءة ابن كثير والمدنيين^(١) وهمزات أخرى تدخل في قاعدة التخفيف العامة.

ولا يخفى ما في التسهيل من انسياب الصوت بترتيلها ومن ثم وصلها بكلمات الجملة القرآنية، ولكن ذلك لا يتأتى مزاجاً أو حسب الذوق اللحني ووفق النغم وإنما يتبع التلقي الثابت عن الشيوخ الأثبات إلى رسول الله ﷺ.

وهذا هو أحد الفروق بين التنسيق الترتيلي، والانسجام الغنائي العام. ففي الأول تقدير مضبوط لا يتخلف، أما في الثانية فيكفي أن يراعى فيه كمال النغم والموسيقى.

٥ - وحالات صوتية أخرى:

تنسجم مع حالات الوقف والوصل لكل كلمة فيها الإمالة والتفخيم والأحكام الأخرى في سائر القراءات، مما ينشأ عنها صفات خاصة للحروف تستدعي تغييراً بالترتيل والصوتي، وكذلك ما عرف عن ثقات القراء من الأشمام مثل: ﴿فَأَصْدَعْ﴾^(٢) (٩٤)، وضم الهاء في قوله: ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ﴾^(٣) (٣). وتقصير المدود الجائزة، وتطويل المدود الواجبة... مما لا يخفي أثره في صيغة الترتيل وطبيعة الجرس والإيقاع.

٦ - في الجرس الصوتي:

إن (وحدة) الفاصلة في السورة كما تحدثنا عنها هي (نهاية) (تلوين) جرسي يتبدى في كلمات الآية وألفاظها وإذا اعتبرنا الآية القرآنية جملة أو شبه جملة صوتية فإن الحركة الجرسية في الآية كلها متكاملة بين الوحدة والتلوين.

ولا ريب أن هذا التلوين المتناسق قد ساهم في انسجامه ما ذكرنا سابقاً من حالات الهمزات والمدود وصفات الحروف إلى جانب الاختيار الدقيق

(١) النشر: ٢٩٠/١.

(٣) المصدر السابق: ٢٧٣/١.

(٢) المصدر السابق: ٢٥٠/٢.

للحروف والكلمات في الوضع اللغوي العام، فسورة الحجر هنا نموذج مما يستوعبه القرآن الكريم من السور القرآنية من الناحية الصوتية، فكلما أمعنا النظر فيها تكشف لنا ألواناً من الجرس والإيقاع ما ليس بالحسبان، وإن المختصين يستطيعون أن يستلهموا مقاطع صوتية أكثر فأكثر، وأعمق فأعمق، وأجمل فأجمل.

فمن أروع تلوين جرسي يمكن أن نجده في هذه السورة:

● المعاوذة الجرسية: إن للتكرار في السورة وفي غيرها أغراضاً بلاغية ومعنوية وصوتية، وسنبرز هنا الغرض الجرسي وحده فقد توسعت السورة ببيان قصة الخليفة والخليفة الأولى على الرغم من قصر السورة. والتكرار الجرسي واضح في الآيات: ٢٦ - ٤٣ فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾.

ويقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾.

ويقول بلسان إبليس: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾.

فمثل هذا التكرار يوفر انسياباً صوتياً متناسباً في مشهد من قصة الخليفة الأولى. وإذا تأملنا في المقطع المكرر وهو ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ فإننا واجدون فيه جرساً داخلياً موزوناً يقترب كثيراً من أوزان الشعر الموسيقية إن لم يماثلها. فكأن هذا المقطع مقسم إلى ثلاثة مقاطع صغيرة متوازية: من صلصال، من حمل، مسنون.

وقريب منه في المشهد نفسه الآيات:

﴿فَقَعُوا لَهُمُ السَّحِيدِينَ﴾

و﴿أَبْنَاءُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّحِيدِينَ﴾.

﴿مَالِكٌ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

والتعبير البشري العادي في مثل هذا المقام يقول في الآية الأولى : فاسجدوا له ، وفي الثانية : أبى أن يسجد ، وفي الثالثة : مالك ألا تسجد . . . أو قريباً منها ولكن هذه الآيات راعت فواصل السورة إلى جانب اعتبارات بلاغية أخرى ، لتسري الحركة الجرسية على حال واحدة من التناسق الصوتي الظاهر .

ومع هذه الثلاثية الجرسية في النموذجين السابقين نرى لونين من الجرس والفاصلة القرآنية : (واو ونون ، وياء ونون) في إبداع صوتي . وكذلك لفظة (أجمعين) في الآيات ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٣ .

● الاكتمال الجرسي : وأقصد به أن الجملة القرآنية لا يكتمل جرسها الصوتي إلا بالكلمات والحروف الموزونة المعبر بها ، فإذا حذفت كلمة أو بدلت مكانها ، أو تغيرت حروفها فإن الجرس يفقد الكثير من تناسقه وإبداعه . وعندئذ يمكن أن نشعر بإيقاع معين لكل كلمتين متجاورتين وأحياناً لكل كلمة واحدة من الآية القرآنية . والنماذج السابقة تصلح شواهد على ما نقول ، ولكن في السورة نماذج أخرى .

فلنقرأ أو لنسمع قوله : ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ فإن اختيار كلماتها البسيطة وترتيبها بهذه الصيغة تنبها إلى جرسها البديع حيث يمكن تقطيعها إلى ثلاث كلمات تناسبية نحس بأن لكل منها جرساً يبدو مثلها كـ (تفعيلة) شعرية جميلة ، ولو أننا بدلناها ورتبناها على شكل آخر لاختل جرسها ولخسرنا لونها التناسبي المتلائم . فكأنها (ترحيب) منمغم من الملائكة الأبرار لعباد الله المتقين .

ولنقرأ أو لنسمع قوله : ﴿فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فهي كلمات ثلاث أيضاً ، وعلى بساطة كلماتها وتكرار الصفح ، ووصفه بالجمال في هذا الترتيب السهل الممتنع يوحي بإمكانية ترداد كلمتين أو مقطعين صوتيين : فاصفح

الصفح الجميل، يتخللهما جرس إيقاعي لا يمكن أن نشعر به فيما لو بدلنا أو غيرنا أو حذفنا.

إنه يلهم بتألف جمالي في خلق الصفح المعنوي، وفي جمال عرضه الجرسى.

وهكذا تتابع التوصيات الإلهية لرسوله عليه الصلاة والسلام تستوعب هذين اللونين من جماليات المعنى والفضيلة وجمالية الصوتية وجرسها البديع.

نأخذ على ذلك الأدبين الرفيعين ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. فالصيغة الصوتية غير متماثلة في الجملتين، ولكنهما متكاملتان متناسقتان، وبالإمكان أن يحس القارئ أو السامع لكل منهما وزن خاص لكل كلمة أو لجزء منها، ولكن هذا الإحساس تتسع أوزانه في الثانية ويطول أكثر فهو متناسق مع طول الآية لفظاً باعتبارين: لأنها خاتمة السورة وخاتمة التوصيات الإلهية، ولأن الأدب فيها مستمر ومستمر حتى يأتيه اليقين. كل كلمة في موضعها حتى ضمائر الخطاب وحتى الحروف متناسقة مع الكلمة الأخرى بانسجام، مؤلفة مع حروفها بإحكام لتمنحنا تأثيراً جمالياً في جرسها وإيقاعها.

وفي قصة أخرى من السورة ينصح لوط عليه السلام قومه بأن يتعدوا عن الفاحشة ويتوعددهم إن قاموا بعذاب الله ويقول لهم: ﴿وَأَنفِقُوا لِلَّهِ وَلَا تُخْرُونَ﴾ فإذا لم يتنوها عاقبهم الله بالصيحة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ مثل أصحاب الحجر أيضاً ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾...

إن هذه الآيات الثلاث تجري في جرسها بإيقاع قوي مؤثر في مقاطع أو كلمات ثلاث كأنها وضعت في قوالب وأوزان جلالية وشعرية مع أنها ليست من الشعر في شيء، ولكن الانسجام الكلمي يوحى بمثل ذلك.

● التوازن الجرسى: والمتأمل ببعض الآيات السابقات يلحظ انسجاماً

وتناسقاً لفظياً منشؤه اختيار نوعية من الكلمات وترتيبها على هيئة أو نظم معين .

ومن خلال هذا الانسجام والتناسق ينشأ توازن بين الألفاظ والمقاطع تؤدي جمالاً داخلياً يتضح أكثر فأكثر عند تلاوة الآية وتكرارها وتأملها، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ فالجملتان متوازنتان، وكأن لفظة (منكم) التي لها دلالتها المعنوية الهامة، حاجز بين المتقدمين والمتأخرين، وهو ترتيب لفظي يوحى بترتيب زمني، فالمتقدم أولاً ثم المتأخر ثانياً.

ويدق التوازن الجرسى في آيات أخرى مثل ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ فالآية متصلة بالآية السابقة، ويلاحظ أن بيان التعنت فيها للجاحدين يأخذ ناحيتين: اختلاط الأمور في آرائهم، وإصابتهم بالسحر، وكلاهما يؤدي إلى الآخر، فهما متلازمان، ولذا فإن التوازن التعبيري بينهما يقتضي أن تأخذ كل ناحية أربع كلمات متوازنة فيما بينها حتى تؤدي جمالاً داخلياً، فلو حاولنا أن نحذف كلمة واحدة من أي قسم لاختل التوازن ثم لضاع شيء كثير من جرسه الصوتي .

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِئَةٍ مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لِمُرْزِقَيْنِ﴾ فالآية تتحدث بأنعم الله في المعيشة لصنفين: للناس المخاطبين ولغيرهم ممن لا يستطيعون رزقهم بل الله يرزقهم وهم من العبيد والإماء والأنعام، والحيوان البري...، وكل صنف أخذ حقه من التعبير الوافي يساوي الصنف الآخر ليتم التوازن بينهما في مقدار الكلم بحيث لو أننا أخذنا أقصر كلمة من أي صنف لاختل التوازن وافتقدنا جمال الجرس الصوتي، وهذا بلا شك يمنحنا تناسقاً معنوياً مع التناسق اللفظي الذي يشير إلى أن رازق الجميع والمنعم عليهم هو الله تعالى .

والتوازن لا يقتصر على الآية الواحدة وحده وإنما يلف السورة بأجمعها

في مقادير من الكلم المتساوي أو المتقارب. فأيات السورة جميعها من الآيات المتوسطة في طولها والمتقاربة في كلماتها.

وربما طال بعضها قليلاً مثل الآيات: ٦٥، ٦٦، ٧٤، ٨٥، ٨٨، لاعتبارات معنوية، نفصل الكلام على بعضها.

فالأية (٦٥) هي: ﴿فَاسْرِ يَا هَذِهِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ وَلَا يَلْنَفُثْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَأَمْضُوا حَيْثُ تَوْمُرُونَ﴾ تتكون من خمس مقاطع متوازنة تقريباً، ومثل هذه المقاطع الخمسة في آية واحدة يلهم في معناها تقرير (خطة) انسحاب بكيفية السير المنتظم الحذر فراراً من العذاب المحيط بقوم لوط. فهي: السير بأهله في آخر الليل، وهم أمامه، من غير التفات إلى الوراء، ولیمضوا حيث أمرهم الله. فالجرس يتناسب مع انتظام الحركة والمعنى.

والآية (٦٦) هي ﴿وَقَصَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ تنمة لمشهد قوم لوط وما يحل بهم من العذاب صباح ليلتهم، ويلاحظ تفصيل جزئي وإطناب قليل في الوعيد بإنزال العذاب الذي لا بد أن يفزع منه القوم بإرهاب وحرب نفسية قبل أن يقعوا في العذاب الأليم. لذلك نرى أن جرسها ذو إيقاع شديد ينبئ بإنذار عظيم.

والآية (٨٨) هي ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي جزء من التوصيات الإلهية للرسول عليه الصلاة والسلام، وفيها ثلاث توصيات: ألا يتمنى متاع الحياة الدنيا، ولا يحزن على ما متعوا به إن لم يؤمنوا، وليتواضع للمؤمنين.

وهذه التوصيات أتت عقب ما فضل الله به رسوله على سائر خلقه حيث أعطاه القرآن والسبع المثاني (فاتحة القرآن) أو (السبع الطوال من أوائل القرآن) وهي نعمة وفضل لا يعد لها شيء من متع الدنيا.

إنه خطاب تهذيب لرسوله وللمؤمنين يشعر برعاية ربانية وتعليم إلهي

وهداية إلى خير الأمور وتأديب متواضع للمؤمنين، ولذا فإن الجرس هنا محبب نلمح فيه مسحات الرضا والحبور والكرامة.

● مفردات وجمل ذات جرس خاص: والتوازن الجرسى المتوازن مع الجو والموضوع لا يختص بالكلمات والتراكيب بعضها إلى جانب بعض وإنما يلاحظ أيضاً في حروف المفردات والجمل (المضغوظة).

ويغلب على مفردات السورة التوسط في عدد الحروف وهي بهذا تنسجم مع التوسط في الجمل والآيات، كما لاحظنا سابقاً، والتوسط في المفردات والجمل والآيات لون خاص بسورة الحجر وأمثالها، ينشأ منه (موجات) صوتية متوسطة تتم التناسق اللفظي والجملي والمعنوي.

أحادية، أو حركتين فسكون، ثم يعقبها حركة أو حركتان فسكون، ويقوم المد مقام الحرف الساكن. ومعظم المفردات في السورة من هذا القبيل، وكلها أمثلة على ذلك. فبداية الآية (الر) تقرأ هكذا: ألف، لام، را، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾. والآية (٤٤) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾. والآية الأخيرة ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. فكل مفردة منها مؤلفة من عدد من الحروف المتوسطة في الطول، وبحركة أو حركتين فسكون، ولكن في تألف جرسى عجيب، ما عدا كلمتي: (الكتاب وقرآن - ربك حتى)، فإن في كل منهما لو قطعت ثلاث حركات فسكون. وهذا قليل في السورة ولا ينشأ منه خلل جرسى لخفته على اللسان عموماً، بل وإن توالي ثلاث حركات أحياناً يمنح انسيابية جرسية صوتية أخاذة.

بيد أنه من المناسب دراسة المفردات الطويلة نوعاً ما من الناحية الجرسية مثلاً: الضالّون - لمنجّوهم - للمتوسّمين - المقتسمين - سجيل... وكذلك الجمل (المكثفة) أو المضغوظة التي تحتوي كل منها على الفعل والفاعل والمفعول به، وأحياناً المفعولين مثل: حفظناها - فاسقيناكموه - مددناها - لأزینن - لأغوينهم - كفيناك - لنسألنهم...

فإن كل مفردة أو جملة فيها لا تخرج عن القاعدة العامة في حركاتها وسكناتها ومداتها، فهي إما أحادية الحركة أو ثنائية وقلما تكون ثلاثية، يعقبها حرف مد أو حرف ساكن، وهكذا فمهما كثرت الحروف في المفردة أو الجملة فإن جرسها متلائم مع مقاطعها الحرفية، تماماً تلاؤمها مع الكلمات والجمل الأخرى في الآية. حتى إن (التكثيف) الحرفي في لفظة واحدة - حين تعبر عن جملة يفترض (عادة) أن تطول إذا كانت تعبيراً عادياً -، فإن هذا الضغط أو التكثيف يلقي ظلالاً لفظية وجرسية محبة.

فالجملة (فأسقيناكموه) تتكون من ست كلمات على الأقل، ما بين فعل واسم وحرف، وهي إذ استوفت عناصرها الأساسية من الفعل والفاعل وأخذت حقها من (التوابع) في المفعولين. فإنها توحى بتلاؤم جرسى منظم مع الظل التي ترسمه (اللفظة - الجملة) من حاجة الإنسان والحيوان والنبات إلى الماء النعمة الجليلة التي امتنَّ الله بها على خلقه، وهو وحده الذي أسقامهم وجعله لذة وحياة من بداية تكوينه إلى سقايته. ولنتصور هذه المخلوقات جميعها وقد أعد الله لها الماء شرباً، فاختصر كل الحركات في إعدادة وتوزيعه ومنافعه وطلبه والحاجة إليه، وتنوع صلاحياته، وما ينشأ عن ذلك من جماليات الخلق وبهاء الطبيعة، في لفظة واحدة هي أخصر جملة في اللغة العربية (فأسقيناكموه)، إنها رائعة في اختصارها وجرسها وظلالها.

وكذلك قوله (مددناها) فإن الأرض الممدودة لإقامة الحياة عليها، واستقبال الماء وإنبات النبات من كل شيء موزون تلهم بالسعة والاطمئنان والرحابة، كما تعطي (قلقلة) الدال الثانية تخفيفاً مع الضمير المتصل لتوالي ثلاث حركات فسكون، نبرة صوتية تسهل النطق بحروفها وتناسب مع سعة المعنى ورحابته، والمدان المتصلان بها يتممان هذا الانسجام الصوتي والمعنوي.

ومن الكلمات التي تلفت الانتباه: ^ألَا زَيْنَ، ^بوَلَا غَوِيَّهْمُ، فهما تعبران عن تصميم شيطاني وتأکید إبليس على تزيين الفساد والغواية للناس، وكل

منهما مبدوءة بحرف القسم ومنتهية بنون التوكيد مما يدل على هذا التصميم والتأكيد. وهذه ناحية بلاغية نستشف منها التهالك على الشر والفساد ما عدا المؤمنين، فليس للشيطان عليهم سبيل. فالجرس واضح في الحزم والجزم ويقتضي مثل هذه الشدات الظاهرة، ولكن كلمة (لَأُزَيِّنَنَّ) التي توالى فيها ثلاثة نونات. فإنه قد خفف من وقعها حركة النون الأولى التي هي من أصل الفعل باعتبارها حرفاً أصلياً مبنياً على الفتح. وفي الوقت ذاته وقعت هذه النون بين حرفين مشددين: الياء المشددة، والنون المشددة، وأي ثقل أشد من أن ينطق بهما مجتمعين لو خلت من حرف متحرك بينهما؟.

إن الحالة الواقعة في الشيطان هي التصميم على الشيطنة، ومثل هذا يقتضي لفظة معبرة بجرسها ومعناها، وقد جاء ذلك في هاتين اللفظتين وبخاصة الأولى حيث وقعت فيها شدتان، ومع ذلك فإنه لا بد من تناسق اللفظة كلها مع سائر المفردات في الانسياب الجرسى وهذا لن يتحقق إلا بوجود حرف متحرك يتناسب مع القاعدة العامة في الترتيل.

إن النظرة في (الصوتيات القرآنية) عموماً لا تحتاج إلى قواعد موسيقية ولا إلى معرفة في أصول الغناء، ولا إلى اعتناق مصطلحات فنية لتطبيقها على القرآن، فالقرآن في غنى مطلق عن كل هذا، فهو ليس قصائد تغنى ولا أشعاراً تلحن، ولا حركات موسيقية كما يعهدها الفن الموسيقي، وإنما هو كتاب الله صياغة معجزة في اللفظ والمعنى والأداء.

وأن أي إنسان يمكنه أن (يتذوق) جماليات الترتيل بنسبه المقدرة المضبوطة والموصولة بالمعلم والقارئ الأول رسول الله ﷺ.

ونحن نربأ بالقرآن أن يلحن ويقطع، ولسنا من أولئك الذين يلحنون ويقطعون، ولكنها (ذوقيات) تتصل (بالتجويد) اتصالاً علمياً وجمالياً، نلفت الوجدان إلى تمليحها لتدرك تجليات القرآن الإعجازية.

فمن أسس البيان الإعجازي تناسق الآيات وتناسبها، وتلاؤم المفردات

وانسجامها، وإقدار القرآن على بيان فذ يوحى بقدره فنية متفردة في الأداء الرائع، إنه ﴿كَتَبَ الْحِكْمَةَ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

سمات تعبيرية وجمالية في السورة

من المفيد أن أقدم صفات عامة أو ملامح كبرى تتصل بخصائص التعبير الفني في هذه السورة، فإن إيضاح هذه الملامح وإبرازها يلقي أضواءً جمالية وجلالية على أسلوبها وطرق التعبير فيها.

١ - السورة مكية باتفاق:

وتنحو في أسلوبها منحى السور المكية الخالصة في جزالة اللفظة، واستعلاء التعبير وقصر الآيات وتوسطها، وجلالية الأداء، ومثل هذه الصفات لا تتخلف غالباً سواء كانت حياة الرسول ﷺ هي الغالبة القوية الظاهرة، أم كانت المغلوبة الضعيفة المهزومة. فالآيات المكية بشموخ أسلوبها وربانية مصدرها واستعلاء بيانها تعبر عن ذات قادرة أبدية، وحكمة نافذة سرمدية، بغض النظر عن البيئة الخاصة التي كان الرسول يحياها، والمعاناة الأليمة التي كان يلقاها من قومه.

وكانت رصانة الحكمة وجزالتها، وعلوية البيان الإلهي وفوقيته لا تخفف من المعاناة والآلام التي تزدهم في حياته وحسب وإنما تثبتته في مواقفه الضعيفة وأحياناً المنهارة... بالإضافة إلى روح الصمود والتثبيت أمام تحديات الشرك الكبيرة فلم نعهد تخاذلاً أو انهزاميةً في أية سورة من المكي. والتثبيت مستمر والتطمين متواصل من ناحية أخرى في تنوع الموضوعات المعالجة في السورة: في أحقيتها وصدقها ونصاعة مثلها وسلامة فضايلها، ثم في العظة من عبر التاريخ والتأسي بحياة الأنبياء والمرسلين السابقين. وكذلك في التخويف من عاقبة حياتهم الدنيوية والوعيد والتهديد بمصائرهم المظلمة تجاه أحداث يوم القيامة المروعة.

٢ - الإعجاز القرآني عموماً وفي الحجر خصوصاً:

وعلى العكس مما يُظنّ فمن المعروف أن معظم آيات (التحدي) مكّي وبخاصة في الفترة التي كان الرسول ﷺ يقاسي صعوبات الدعوة ومشكلات نشرها بين قومه.

فالأيات الثلاث في تحدي المشركين أن يأتوا بمثل القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة مكية، وقد نزلت قبل سورة الحجر التي نحن بصدد الحديث عنها.

فقد سبقت آية الإسراء ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ...﴾ (٨٨).

وتلتها آية يونس - وهي سابقة على سورة الحجر: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٣٨).

وبعدها آية هود - وهي قبل سورة الحجر أيضاً ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ ۚ مُفْتَرِيَاتٍ ۚ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ﴾ (١٣).

وهذه التحديات الشديدة والمعجزة كانت تدعم موقف الرسول ﷺ مهما بلغ من الضعف والوهن، وتبرز بيان العرب وبلاغتهم ضعيفاً واهياً أو أقل روعة وفصاحة.

وسورة الحجر التي نزلت بعد سورة يونس مباشرة ولم تفصلها عنها سوى سورة يوسف، وأعقبها بسورة الأنعام الطويلة، نموذج قوة واستعلاء وإعجاز ضمني يؤكد ربانية القرآن وصلة رسوله به، في وقت تكالبت عليه قوى البغي والشرك، وتضافرت على حياته مصائب القوم المكذبين.

في هذه البيئة المتوترة التي كانت الغلبة ظاهرة لقريش كان الله يقول لرسوله في سورة الحجر: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾ ويقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ويقول: ﴿فَأَصْدَعْ

بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾. ويختمها بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.

١ - التكرار: وأشارت إلى بعضه عند الكلام على الجرس الداخلي لأسلوب السورة. والتكرار الذي يفيد تثبيت الفكرة وتأكيد المعنى إذا جرى في كلمات أو جمل ذات وقع صوتي فإنه يضيف على المشهد جمالاً لفظياً ومعنوياً وجرسياً، والتكرار لا يؤتى به عادة إلا لإشباع رغبة نفسية وشحن عاطفي بالمشاعر الخاصة ولذا فإنه يراعي مقتضى الحال في مثل هذا التثبيت والتأكيد.

ولكن الألفاظ أو التراكيب المتكررة إذا تتبعناها في السورة بكاملها فإن القارئ لا يلحظ فيها تكراراً واسعاً، حيث إن السورة بلغت (٩٩) آية. منها لفظة (أجمعين) وردت أربع مرات، و﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ ثلاث مرات في خمس آيات (٥٧ - ٦١) . . . ولذا فإننا نذكر ألفاظاً وتراكيب تكرر ورودها في آيات (متجاورة) مثل: ﴿مِنْ صَلَٰصِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ فقد جاءت ثلاث مرات كما تقدم بين الآيات (٢٦ - ٣٣) تحقيقاً لأصل الإنسان ونشأته الأولى، و﴿تُبَشِّرُونَ﴾ وشيء من مشتقاته الذي جاء أربع مرات بين الآيات (٥٣ - ٥٥) لما للبشارة من أصداء نفسية مبهجة و«السجود» خمس مرات بين (٢٩ - ٣٢)، فهو نهاية التذلل للخالق واطمئنان لسلطانه وحكمته.

إن سياق التكرار في هذه الألفاظ وغيرها يزيد من روعة السورة وجمالها ما دام يتطلبه السياق ويقتضيه المعنى، ويستدعيه الجرس الصوتي البديع.

وعلى العكس فنلاحظ في السورة ميلاً واضحاً إلى (تنويع) اللفظة وترادفها، مثلاً بين قوله: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ﴾ وقوله: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وبين قوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، وبين ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ و﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾. وبين ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ و﴿وَلَا تُخْزَوْنَ﴾، وبين ﴿وَلِئِنْهَا لِبَسِيلٍ مُّقِيمٍ﴾

و﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾...

٢ - التأكيد: وبعضه من التكرار السابق، وإجمالاً فإن سمة التأكيد أظهر من غيرها. وسببه المعارضة الشديدة التي كان الرسول ﷺ يلقاها من أجل التوحيد والمعاد، وهي إنكار مستمر ممزوج باستعلاء الأموال والأحساب والأطماع، ولذا فلا تكاد تمر آية أو اثنتان إلا في أسلوب التأكيد الذي يقنع بيقين الموضوعات في السورة وأهميتها، وإن لم تحصل هذه القناعة فإن مقداراً من التقرع والتخويف قد يخفف من غلوائهم وشططهم.

ويتفاوت التأكيد في الكثرة والقلة، كما يختلف في النوع والأداة.

● فالتوكيد (بإن) ولامه كثير جداً مثل: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ و﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾، و﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَيْرِيبِ﴾ و﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾. وأحياناً يضاف إليه تقديم الخبر على الاسم مثل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ و﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾...

● وبالقسم أو اللام الموطئة للقسم المقترن بجواب مؤكد أو خال من التوكيد مثل: ﴿وَلَقَدْ أَتَيْتُكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَنَافِي﴾... و﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ﴾... و﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَخْرَجِينَ﴾. ومن أجمل (الأقسام) تلك التي حلف بها الله برب محمد ﷺ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَنَّ لَهُمُ جَمْعِينَ﴾، وأرضاها لنفس الرسول وأكثرها تظميناً وتقديراً حلفه به أو بعمره ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

● وبضمائر الفصل في المتكلم والغيبة: فالسياق يقتضي مثل هذا النوع من التأكيد حتى يفيد الحزم في المسألة المطروحة أو الفكرة المعالجة، مثلاً قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿نَبِيِّ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ و﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ وقريب منه ضمائر الرفع مثل ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾.

● وبالتأكيد اللفظي والمعنوي: فقد كان توجيه الله للرسول بالصفح عن المشركين مؤكداً ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾.

ومن المعنوي انفراد بعض الآيات بقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وسبقت آياتها، وأعظم منه اقترانها بلفظة (كل) مثل: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فهي تدل على جميعهم واجتماعهم.

● وأعظم الآيات تأكيداً هي قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ففيها حرف «إن»، وإظهار ضمير الرفع «نحن» واللام التأكيد «لحافظون»، وتقديم الجار أو المجرور «له» على الخبر «لحافظون» وفوق هذه جميعاً إسناد المؤكدات إلى صيغة الجمع وهو الله تعالى، وأي إنكار يلقاه القرآن من هؤلاء المعاندين أعظم جحوداً وأقوى شدة من هذا الإنكارات التي رصفتها آية واحدة؟. والقرآن في مفهوم هذه الآية ينقسم إلى تنزيله من الله، فهذا القسم يتطلب تأكيداً لمواجهة حدة الإنكار وقوته، والقسم الثاني: تعهد رباني مؤكد من الله بحفظ كتابه مهما كانت صروف الدهر ونوازل الأيام، وهذا هو ما حدث وسيحدث إن شاء الله.

● وتأكيد داخلي يحس به الإنسان من جرس الآيات الأسر، ومن تراكيب توحى بهذا الإحساس الذي يبدو في التقريع والتوبيخ لعقولهم، والسخرية من كبرهم، وإظهار عنادهم ومكابرتهم ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، وفي وصف جهنم ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ . . .﴾ وقرب الآخرة ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ وكفايته شرهم واستهزاءهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.

٣- التناسق العضوي بين الآيات:

فالسورة تحدثت عن موقف كفار قريش من القرآن، وحفظ الله للقرآن وقدرته وحكمته في خلق الكون، وبدء الخليقة، وحلقات من حياة إبراهيم ولوط وصالح وشعيب، ثم انتهت بتوجيهات الله لنبيه عليه الصلاة والسلام وقد

تحدثت سابقاً عن التناسب بين هذه الموضوعات حتى تبين لنا (وحدة) السورة في مبناها ومعناها، ولكنني أزيد هنا لفظة أخرى وهي: أن كثيراً من الآيات تتصل ببعضها في اللفظ والموضوع وإن ختمت بفاصلتها وأشعرت بنهاية آيها.

خذ لذلك شيئاً من أسلوب الاستثناء في آيتين متجاورتين ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٢٠) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ...﴾ وقوله: ﴿وَحَفِظْنَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (١٧) ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ أَتَمَعُ...﴾. وكذلك أسلوب الجمل الطويلة في ذكر المتعلقات والصفات، مثل: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٢٧) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وقوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقَسِّمِينَ﴾ (١٠) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وكذلك أسلوب الشرط غير الجازم في أطول آيتين في السورة ﴿وَلَوْ فَدَحْنَاهُ عَلَيْهِمْ أَبَا مِّنَ السَّمَاءِ...﴾ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا...﴾ ﴿مَسْحُورُونَ﴾.

ومثله أساليب التشبيه والوصف والإفصاح والتعليل التي قد لا تظهر في ألفاظ صريحة مثل ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٢) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ...﴾ فالتشبيه في حرف (الكاف)، والوصف في جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ...﴾، والتعليل في قوله: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤١) ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ...﴾، والإفصاح في مثل قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ (١٤) ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ...﴾ وقوله: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أما أسلوب العطف عموماً وبالواو خاصة فهو كثير وشامل لجميع موضوعات السورة.

وأما التناسق بين مطلع السورة وخاتمها فقد سبق أنه كمال (الوحدة) في السورة ليس في موضع واحد وإنما في مواضع ظاهرة يراها كل من له مسكة تذوق للقرآن والعربية.

وهكذا فإننا نستنتج سمة واضحة في السورة هي التناسب الظاهر

والخفي معاً، وإن تعدد الموضوعات فيها يزيد لها تماسكاً وتلاحماً وانسجاماً.

ويزيد التناسق جلاء أسلوب واحد في الوضوح الذي لم يتغير في كلمات السورة وآياتها. فلا تجد لفظة غامضة أو تركيباً معقداً على الإنسان العربي ذي الملكة والبيان، وهذا الاستواء الأسلوبي السامي يؤكد على ربانية المصدر وإعجاز الكلام مهما تلونت الأفكار وتعددت الموضوعات.

٤ - لوحات ومشاهد جمالية وجلالية:

ووحدة السورة في المعنى والمبنى لا يتعارض مع عروضها التصويرية وبيانها الفني. فالسمة الجمالية - وأحياناً الجلالية - بارزة في لوحات السورة ومشاهدها.

أ - في مصطلحات البلاغة:

وهي بفنها التعبيري وأدائها التصويري والمجازي، أساس اللوحات والمشاهد في السورة وعناصرها الأولى، ولا يستغني كاتب عن إبرازها وإظهار أسرارها وجمالياتها، ولذا فإنني سأسرد معظم الآيات التي هي نماذج من فنون البلاغة العربية الأصيلة.

● في علم المعاني:

● خبري يراد منه التهكم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ

والاستهزاء

لَمَجْنُونٌ﴾

● استفهام يراد منه التوبيخ

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾

والتقريع

● استفهام تعجب

﴿فَيَعْبَثُونَ﴾

● أمر تهديد ووعيد

﴿ذُرَّهُمْ يَا كُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾

● خبر يراد منه الوعيد والتهديد،

﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾

أن يصيب كفار مكة مثل ما

أصاب الأولين

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ﴾

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

● وفي البيان:

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾

﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾

﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾

﴿وَآخِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾

● خبر يراد منه التهديد بسوء

عاقبتهم

● سؤال توبيخ وتقريع وتعنيف

● مجاز في أهلها، ويجوز أن

يكون الإهلاك للقريّة وأهلها

● استعارة كالناقة الملقحة،

فالسحب تحمل بالرياح، أو:

ملقحة: لأنّ الرّيح ملقحة

للسحب، وللشجر

● استعارة تشبيهاً له بوارث الميت

لاستحالة أن يخلف الله الميت

في تملك تركته

● استعارة والمراد سدت،

مأخوذة من: سكر النهر: إذا

حبس ومنع من الجري

● مجاز فإن العين لا تمد وإنما

يراد مدّ البصر وإدامته،

يقول: لا تمدّ النظر إليه

مستحسناً.

● استعارة بمعنى تواضع لهم

● استعارة من الصدع في العود

ونحوه: الشق والمراد: أجهر

بالحق وصرح به مفرقاً بينه

وبين الباطل

● وفي البديع : فالسورة بمجموعها يمكن أن تكون شواهد على

معظم أنواع البديع البلاغي . ونكتفي بالأمثلة التالية :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾
● تغيير الخطاب إلى غيبة

﴿مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾
● مقابلة في السباق والتأخير

﴿وإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾
● مقابلة في الإحياء والإماتة

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾
● حسن الابتداء وحسن الختام

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾
● الانسجام ويقرب من أوزان الشعر
﴿بَقِيَ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾
﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ﴾

﴿إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٦١) ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُمْ﴾
● الاستدراك والاستثناء بشرط أن يتضمننا ضرباً من المحاسن
﴿فَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْفَٰرِيقِ﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ... الْمُخْلِصِينَ﴾
● الترتيب حيث أورد أوصافاً ومراحل لخلق الإنسان
وسجود الملائكة
ومثلها القصص وبخاصة : ضيف

إبراهيم

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ... الْوَارِثُونَ﴾

● حسن النسق وهو : توالي المعطوفات بشكل متلاحم
تلاحماً سليماً مستحسناً

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ... فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾
● القسم : وهو الحلف على شيء بما يكون فيه فخر له أو تعظيم لشأنه ، أو تنويه لقدره

بالإضافة إلى أنواع: الإفتنان، والتفويت، وأنواع أخرى من جماليات البديع^(١).

ب - نماذج من جماليات السورة:

أن عدداً من اللوحات والمشاهد الجمالية والجلالية اتسقت في سورة الحجر، وكل منها يوحى في مكانه وبيئته بتناسق واضح وأحياناً خفي مع الموضوع أو الفكرة المطروحة. وهذه وتلك تتلاءم مع التناسب والجرس والإيقاع التي اختارته السور، حتى إننا نلمح (وحدة) متناسقة بين الموضوع والصورة والصوت. ومن الجماليات:

١ - زيتان متعارضتان: في السورة الكريمة لونا من الزينة: الأولى: زينة الله في رصف النجوم وتلاؤها للناظرين، ومن ثم دعوتنا إلى تَملي مشاهدتها في جماليات يومية لا تملها العين ولا الوجدان ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ...﴾، والثانية: زينة الشيطان في تجميل القبح وتزيين الباطل، وإسقاط الإنسان في أحوال الرذيلة لأنها مغرية تشد الغافل إليها ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخُوَيْتَنِي لِأُزِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ.

الزينة الأولى تلون المشهد بالتأملات العلمية وتحقيق المنافع الفلكية، فالسما لحة جمالية للعين الفنانة وللوجدان المرهف ولل فکر المتببع، إنه

(١) انظرها في الإفتنان: ٨٣/٢، فصل: بدائع القرآن. يقول: الإفتنان: هو الإتيان في كلام بفنيين مختلفين كالجمع بين الفخر والتعزية... والإقتدار: أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور اقتداراً منه على نظم الكلام وتركيبه على صياغة قوالب المعاني... وعلى هذا أتت جميع قصص القرآن. والتفويت: إتيان المتكلم بمعان شتى من المدح والوصف وغير ذلك من الفنون. كل فن في جملة منفصلة عن اختها مع تساوي الجمل في الزنة... وهذا موجود في توسط الآيات من حيث الطول وتفاوت المعاني في سورة الحجر.

مشهد جمالي جلالي كثيراً ما لفت القرآن النظر إليه ودعا إلى استجلائه، ونبه الإنسان أي إنسان إلى عدم إغفاله من فكره ورؤيته.

إن الكواكب عالم ضخم ومداراتها حركة متوازنة عظيمة تشهد بالإتقان الإلهي والقدرة الربانية، ولكنها في الوقت ذاته شاهدة بالإبداع الرائع الذي يجمع الضخامة والجمال.

إنها (لفتة إلى جمال الكون - وبخاصة تلك السماء - تشي بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون، فليست الضخامة وحدها وليست الدقة وحدها، إنما هو الجمال الذي ينتظم المظاهر جميعاً، وينشأ من تناسقها جميعاً. وإن نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة، وقد انتشرت منها الكواكب والنجوم، توصوص بنورها، ثم يبدو كأنما تخبو، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوة من نجم بعيد، ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدر حالم، والكون من حوله مهوم، كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد، إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكوني، وعمق هذا الجمال في تكوينه، ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة ﴿وَرَبَّيْنَاهَا لِلنَّظَرِ﴾^(١).

والزينة الثانية: ترفضها القيم وتدفعها الفضائل عن ساحة الوجود الإنساني السليم، زينة ترتبط بانحراف الشيطان واستعلائه يحمل رايتها في كل زمان ومكان بهرجة خادعة وجمالاً زائفاً وبهاءً سراباً، فإذا خدع الإنسان بها فإنه يكون قد تاه وضل، وإذا استمرأها فإنه يكون قد انغمس في النزوات والمآثم، وأين هذا من جمال الروح وزينة الوجود، وجلالية القدرة؟.

إن الشيطان قادر على الإغواء والإغراء، ولديه من الوسائل ما تمكنه من خداعه وإغرائه، فله من شياطين الإنس أعظم التأييد وأجمل العروض وأزيف المشاهد، ولكن ما النتيجة؟ إنها حبايل الشياطين يقع فريستها، وقبائح

(١) سيد قطب في الظلال.

الجماليات المصطنعة يجترح شرورها فيهلك نفسه ويبدد طاقته وينسى قضيته، وهذا هو ما يقصده أتباع الشيطان من اليهود.

بيد أن عباد الله قادرون على تمييز هذين اللونين من الزينة مثل قدرتهم على كشف الحقيقة من الزيف، والفضيلة من الرذيلة فقد أرهف الله نفوسهم وأعد لهم من جماليات الكون ما يشبع حاجتهم، ووسع لهم مجالات الحسن في النفس والروح والطبيعة ما ضيقه الآخرون. وكان سلطانه الجمالي والجلالي عليهم رحيماً كريماً ودوداً رضيعاً حبيباً، وسلطان الشيطان على أتباعه مكرراً وكفراً وكرهية وعداوة. فستان بين الزيتتين، وما أعظم الفارق بين المصدرين.

٢ - ألوان من الحوار: إن الحوار في السورة يستغرق معظم الآيات والقصص والمشاهد، وهذا يمنحها حياة وحركة وجمالاً.

● حوار الله مع الشيطان حين أمره بالسجود لآدم، فعصى أمر ربه وادعى أنه خير منه ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَاسٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

ولكن الشيطان لو عقل ما صنعه لما استمرراً وتناول، فقد كان آدم الطين جميل الهيئة، رائق المنظر، ملامح بشرية، وسمات إنسانية لم يفتن إبليس إلى تناسقها وجمالها، وإنما راح يذكر أصل النشأة وطبيعة التكوين ومصدر الإيجاد.

ثم إنه لم يفتن إلى عملية ربانية هامة في جمال الخلقة وبهاء الإيجاد هي: تسوية الله له شكلاً عجباً حسناً فلا تنافر في خلقه ولا شذوذ في صنعه، إنه جمال الإنسان الذي سواه الله بنفسه وطبعه بحكمته. فإذا أضيف إلى جمال الجسم وحسن الشكل، جمال الروح التي نفخها الله فيه، وبهاءها وروعها فإن اكتمال هذا الإنسان من كمال الله، وجماله من جماله وجلاله.

هذه المعاني صاغتھا السورة في حوار حي مؤثر وإن كان بين الله الخالق القادر المصور وبين الشيطان المخلوق الضعيف المارد.

وفي هذا المشهد الحواری تؤدي الألفاظ صوراً معبرة موحية: سويته - نفخت فيه من روحي - صلصال - المتقون في جنات وعيون، السلام - الأمان...

وبالمقابل: إلا إبليس أبى - عليك اللعنة - من المنظرین - بما أغويتني - الغاوين - جهنم موعدهم...

● حوار الملائكة مع الأنبياء: ومن أعجبها بشارة إبراهيم عليه السلام بغلام عليم بعد أن بلغ من الكبر عتياً وكانت امرأته عاقراً، وحواره في مقصدهم إهلاك قوم لوط بالصيحة، وحوار هؤلاء القوم مع نبيهم لوط عليه السلام ومحاولة ردعهم عن فجورهم المشين...

إنها قصص أو مشاهد من القصص النبوي عرضت الحق والخير والفضيلة، وموقف المكذبين والمعاندين في أسلوب حواری تتبدى منه العبرة والدرس الواعظ في جمالية اللفظ ورهبة الموقف وهول المصير.

صور متقابلة وحالات متعارضة ونماذج مختلفة من الرحمة والغضب، والبشارة والإنذار.. تستدعي كل منها ألفاظاً مؤثرة وتراكيب مصورة، وتعبير تبدو عليها مسحات من الرفق والخوف، والعطف والشدّة.

فقد قدم الله لهذا كله قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وقرنه بقوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

سلام ملائكي وجزع بشري، بشارة عظمى في غير وقتها ولكنها الحق من عند الله، نجاة المؤمنين وهلاك المجرمين - إنكار وطمأنينة، صدق بالحق، وكذب بالباطل، سفه وعمه وسكر، وعقل ووعي وتبصرة.

إن هذا التقابل: الخير والشر والحق والباطل قد صور في أروع

اللوحات . . . مثلاً: أتيناك بالحق. فالحق شيء يؤتي به، وهو على عمومه يشعر بالحركة والحيوية المأتية، ودابر الكافرين مقطوع مصبحين: فسوف لن تبقى لهم بقية، إنهم سيتأصلون عن بكرة أبيهم، ويقطعون من دابرهم إنها صورة عنيفة للقطع والإهلاك.

وصورة بائسة يائسة يذكيها أوار الشهوة، وسعار الفاحشة، وعمه الشذوذ، وضلال الفطرة ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. صورة السكارى وما هم بسكارى ولكنه الإثم المتأجج والشر المستطير.

وأما صورة «السجيل» الممطر عليهم بالحجارة فهي مما لا يتوقعه الإنسان من رحمة السماء والغيث الممرع، إنهم يمطرون من الطين المحرق والحجارة اللاهبة ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾.

٣ - حضارات زائلة: إن زوال الحضارات له أسبابه وعوامله، وقد نبه القرآن إلى هذه الأسباب والعوامل، ففي مطلع السورة يحذرنا الله من سقوط الحضارات في مبادئ عامة، فإن لكل أمة أجلها لا يتقدم ولا يتأخر، وذلك وفق ما ينتشر فيها من مساوئ وضلالات ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾.

والأمل اللاهبي والإطماع الكبير يشغل الجماعات عن إدراك أمراضها، وإن هي أدركتها فإن الآمال العريضة الخادعة تصرفهم عن معالجتها ولكنهم سوف يعلمون عاقبة لهوهم وآمالهم في أجل معلوم ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾.

ذاك مبدأ عام وقاعدة كلية، ومن الأمم أو الأقوام الذين ذكرتهم السورة وأغراهم الأمل فاستمرؤوا الرذيلة، واقترفوا الفاحشة، قوم لوط وشعيب وصالح عليهم السلام.

فصرحت بقوة ثمود في العمران والبناء فقد ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ

يُؤْتَاءُ آمِنِينَ ﴿ فَكَانَتْ «مَدَائِنُ» صَالِحِ آيَةِ ظَاهِرَةٍ وَعِظَةٍ بِالْغَةِ ﴾ ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

وتتجلى في مصائر القوم تراكيب قوية موحية بالرهبة والعظمة والقدرة
العلوية .

فانظر مثلاً إلى هذه السخرية والإمهال ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا
وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .

ثم تأمل ما صرحت به الملائكة في إجرام القوم ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ
قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ .

والى استئصال شأفتهم وإهلاكهم ﴿أَن تَدِيرَهُمْ تَوْلَاءَ مَقْطُوعٍ مُّصْبِحِينَ﴾ .
والصورة المفزعة المروعة هي الخسف والزلازل التي أصابت بلدهم
﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا . . ﴾ .

وكذلك صورة الصيحة الأخذة القاتلة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُّصْبِحِينَ﴾ .
إن تدمير الحضارات أكبر من أن يوصف وأشد من أن يتحدث عنه،
وإنه ليصف نفسه بأحداثه الجسام، ويتحدث عن مصائبه المدمرة، أبلغ
وصف وحديث .

فهل يتعظ كفار مكة بمن حولهم؟ وهل يعتبرون بمصائرهم وأمامهم
شواهد ماثلة للعيان؟ ﴿وَإِنَّهُمْ لِبِلَاءٍ مَّامِرِينَ﴾ .

فالتاريخ دروس وعبر، والحضارات تنشأ وتهلك، والأمم تبقى وتزول .
والإنسان يقرأ التاريخ لا للتسلية والإعجاب، ولا يتلو كتاب الله للتغني
والتمني، وإنما يفيد منهما بقدر ما يكفيه، ويتجنب انحرافات الجماعات ما
يدفع عنه الإهلاك والتدمير . فالسورة من هذا الجانب صورة حضارية من
الصور الكثيرة التي زخر بها القرآن . وحسبنا أن نعلم أن قسَم التاريخ، قبل

التاريخ وبعده، جانب كبير وهام فيه، فهل يعتبر المسلمون ويتعظون؟ وإن أجمل الجماليات تصبح هباءً منثوراً حين ينزل بها الدمار، فتضحى أقبح القبائح في النفس والعين والوجدان، فهل يتأملون ويفكرون؟.

٤ - توازن الآيات الكونية: وكثيراً ما يلفت القرآن انتباهنا إلى التوازن والتناسب في المخلوقات الأرضية والعلوية: في الأنفس والسماء والأرض.

و(صرحت) سورة الحجر بهذا التوازن حين تحدثت عن الأمطار والنبات، و(أشارت) إليه حين تحدثت عن البروج والرياح والجبال، و(عبرت) عنه بين التصريح والتلميح في خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، وقبلها في الإحياء والإماتة.

ولنأخذ من بعضها بطرف.

أ - البروج: وهي منازل النجوم والكواكب التي أقسم الله بمواقعها في سور أخرى. وهي خلق على ضخامته وعظم تكوينه وسعة حجمه وأبعاده، أدق ما يكون توازناً في مداراته. فالمجرة المعروفة بطريق التبانة هي موقع الشمس والقمر بل والشموس والأقمار والنجوم المرئية والخفية، وتستخدم السنة الضوئية لتقدير المسافات بين أجرامها وهي عشر بلايين كم. وهناك ملايين من المسافات الضوئية بينها، وإلى جانبها السدم والبروج السابحة في فضاء الكون العظيم. فعلى بعد مليوني سنة ضوئية من هذه المجرة يوجد سديم المرأة المسلسلة، التي أثبتت المناظير الضخمة أن فيها حشوداً هائلة من النجوم المنتظمة في حركة طوافها حول مراكزها بتوازن عجيب وهائل.

وهناك سدم يبعد موقعها عنا بـ ١,٢ بليون سنة ضوئية، وهي تتباعد عنا بشكل منتظم وسري. إنها خلق كبير، يوحى بالعظمة والجلال ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾.

ب - النظام في الرياح والأمطار: فآية الحجر تشير إلى العلاقة المنتظمة بينهما، فالله تعالى يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ

ماء... ﴿ حيث ربطت الآية بينهما بالفاء مرتبة ومعقبة .

ويقول العلم: لولا الرياح لما كان المطر، إذ إن السحاب مكهرب بنوع خاص من الكهرباء التي تجعل قطراته يدفع بعضها بعضاً، وتحمل الرياح هذا السحاب إلى أن يلتقي بسحاب أو جبل يحمل كهرباء مضادة فيتكون تلقيح نوعي ينشأ عنه البرق ثم الرعد، وحين تتضخم قطرات السحاب بسرعة تسقط على الأرض في شكل أمطار أو ثلج وبرد إذا كانت البرودة شديدة. فالمطر الذي يحدث بإذن الله نتيجة قانون طبيعي نظم الله به العلاقة بين الرياح والأمطار. ويقول العلم: لولا الرياح الموسمية التي تهب صيفاً من المحيطات على المنطقة الحارة ومنها الهند مثلاً حيث خففت وطأة الحر فيها، لكان من العسير جداً بقاء الحياة في هذه المنطقة^(١).

ج - من كل شيء موزون: الخط الجمالي البعيد الأفق هو ذلك الخط الأرضي الذي وسعت له الأرض ظاهراً وباطناً، ومن الأوجه التي فسر بها «الموزون»: أنه الحسن والتناسب والوزن بالحكمة والعقل، فهو متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطف ومطابقة المصلحة^(٢).

ولكن الآية تصرح في أولها بالإنبات «وأنبتنا» ثم تصرح بأن الإنبات «من كل شيء»، وهذا يحتمل أن يقتصر على توازن النبات والثمار فليس نتاج الأرض من نوع واحد دون نوع، ويحتمل أن يراد من «كل شيء» المعادن أيضاً، وهذا حسب قول الرازي: والأشياء الموزونة في العرف والعادة هي المعادن لا النبات.

(١) انظر: آيات الخالق الكونية والنفسية: رشدي رشيد الجابري، و: الإسلام والنظر في آيات الله الكونية: د. محمد عبدالله الشرقاوي وأقدمها: الإسلام في عصر العلم: محمد أحمد الغمراوي.

(٢) انظر: تفسير الرازي عند هذه الآية.

ويبدو لي - والله أعلم - أن التوازن يشمل استنبات التربة الظاهرة بأنواع من النبات والثمار مختلف ألوانها وأحجامها وطعمها وجمالها، ويشمل باطن الأرض وما أودع الله فيها من معادن جامدة ومائعة فإنها من «الشيء» الذي ينبتة الله في الأرض.. فإن كل نبتة في ظاهر الأرض، وكل معدن في داخلها يدل على دقة الخلق وإحكام الصنع وتقدير محكم.

وإذا كنا نتطلع إلى تناسق النبات والأشجار في الطبيعة الجميلة فإن ما أودعه الله من المعادن يلفت انتباهنا إلى جماليات يصطنعها الإنسان من هذه المعادن، فإذا بالجمال الطبيعي والصناعي يلتقيان ويتوازنان، فكل شيء بقدر معلوم وفي هذا القدر المعلوم تناسب جمالي وجلالي للآيات الكونية العظيمة التي عرف الإنسان بعضها، وجعل أكثرها.

٥ - الرسول ﷺ في سورة الحجر: إن سورة الحجر وإن سميت بذلك فإن فيها بياناً دقيقاً عن حالات وأوضاع من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وإذا انتظمنا مع سياق السورة فإن معاناة الدعوة، وصدق النبوة، ورعاية الله، وتوجيهاته تشمل السورة من بدايتها إلى خاتمتها.

أ - الإعراض عن جهالات الكفار: فقد أمره الله أن يذر المشركين ويعرض عن سفاهاتهم، ويهددهم بوعيد الله في كل حين. وحين وصفوه بالجنون وطلبوا منه انزال ملائكة العذاب سخرية واستهزاء، أجابهم الله أن الملائكة تنزل بالحق وبالوقت الذي يختاره الله وليس بالذي يختارونه، وحسبهم أن الله أنزل القرآن بطريق رأس الملائكة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ب - مواساة الرسول عليه الصلاة والسلام: فليس بدعاً من الرسل، وإن الدعوة تتزامن مع المعاناة، وهذه سنة الأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وطلب الله من رسوله أن يخبرهم عن إبراهيم وضيافته، وعن لوط وشعيب وصالح وأقوامهم... وهكذا قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ...﴾ و﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾... فهذا نوع من التبليغ المؤثر.

ج - البشرية والرسالة: فهو يحزن على قومه، ويضيق صدره بشركهم وقسوتهم، ويتمنى ما عندهم من المتاع والغنى... لأنه بشر، ولكنه ليس كأبي واحد منهم، فهو رسول ونذير مبين، أنزل عليه القرآن والسبع المثاني، ليصدع بما أوحى إليه، والله يكفيه المستهزئين.

ولا بد أن ترتقي البشرية إلى مدارج النبوة وإن بقيت منها بقية، بل وإلى أرقى هذه المدارج وأسمائها من غير أن يتخلى عن قوام هذه البشرية، ولن يتأتى ذلك إلا بإعلاء روحه وصفاء سريرته واتصاله بالله تعالى، فليفزع إليه مما ينتابه من المكروه، وليشكره حمداً وثناءً، وليكن من الساجدين ومعهم، عابداً لله حتى الممات.

ومن التعابير المصورة: ويلهم الأمل فهو تشخيص معنى الأمل باللاهي عن الحق والخير.

واخفض جناحك للمؤمنين تصوير يوحى بالأنس والرفق والتواضع يكرره القرآن في مناسبات متعددة.

فاصفح الصفح الجميل: إن في الصفح والعفو جمالاً معنوياً محبباً، فكيف به إذا وصف صراحة بالجمال؟.

ومن اللفظات الحانية التي يكرم بها الرسول ألوان من الخطاب الإلهي الظاهر والخفي كما سبقت أمثلته، وإضافة (الرب) إليه وحده ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾، ثم في الإيمان التي أشرت إليها ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ...﴾ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَنَّهُمْ﴾.

فالرسول يحتاج إلى رعاية ربه وفي أحلك المواقف، ولن يتخلى الله

عنه، وسيكفيه شرهم واستهزاءهم، وسيقوي عزائمه ليمضي في طريق الدعوة مهما تكالبت عليه القوى وتآزرت ضده المصائب. وأي تأييد ورعاية أعظم من أن ينزل عليه القرآن ويمنحه النبوة؟ إن هذه السورة تعبر عن مرحلة هامة في الرسالة المحمدية: مشكلاتها ومعوقاتها، وأجوائها، ومصاعبها، ثم ترسم الخطة وتصرح بالتوجيه الذي يزيل المشكلات، ويحل الصعوبات، ويقضي على السلبات...

ورعاية الله لرسوله في خضم هذه الأجواء المتلاطمة من أسمى الجماليات التي تلتقي فيها أرقى البشرية والرسالة في شخصية الرسول ﷺ.



(الخاتمة)

سمات عامة للظاهرة الجمالية في القرآن الكريم

مما سبق لا بد من أن نستنتج مفهوماً واضحاً ومحددأً للجمالية ونستخلص أهم عناصرها، وصفاتها، وطبيعتها، وآثارها: ثم نذكر أهم الطروحات الفنية من خلال المنظور الإسلامي.

أولاً: مفهومها:

فالجمالية هي علم الجمال القرآني وفنيته التي تعنى بالكشف عن ألوانه وأسراره وأساليبه من خلال الموضوعات القرآنية المتعددة.

وتشمل المفردة المنتقاة الصافية، والتركيب الجزل، والصورة البارعة، والحكمة البليغة والمثل السائر، والقصة الواعظة، والحوار الفني والتشريع السامي، والتصور الكامل، والتهديب المربي.

فالجمالية علمٌ لأنها تعتمد على قواعد من العلوم المختلفة كالنحو والصرف والبلاغة.

ولأنها تضع قواعد للتناسق الجمالي بين سور القرآن وآياته.

ولأنها تعنى بمقادير صوتية محددة متلقاة تبرز التناسب الترتيلي في علم التجويد.

وهي أيضاً فنية تتبدى في صورها وإيحاءاتها وظلالها وتأثيراتها المختلفة.

لأنها ذوقية محسنة تختلف معها النظرات والمواقف الأدبية.

ولأن جمالياتها الجرسية والإيقاعية وجدانية المصدر والمرجع والعلاقة.

وهي تشمل (الجلالية) باعتبارها تلهم تناسق العظمة وتناسب الحكمة، وانبهار الإحساس والإدراك، وعلوية المقام.

ففي كل منهما بهاء وحسن وتناسق يتناسب مع طبيعتهما ومتعلقاتهما. وهما يلتقيان في (الله) ذي الجلال والجمال. فهو القوي المتين ذو العرش المجيد المهيمن الجبار الحكيم القدير العزيز، وخلقه الكبير العظيم الدقيق دليل على جلالته وعظمته. وهو الرحيم الرؤوف، المحسن، الكريم، الودود ومخلوقاته البديعة في الإنسان والطبيعة وما دونهما دليل على جمال صفاته، من الرحمة والرأفة والإحسان والكرم والود.

وبما أن القرآن الكريم صفة الله تعالى فلا بد من أن يتوفر فيه آيات الجلال والجمال، ومشاهد القوة والعظمة إلى جانب مشاهد الأنس والوداعة.

ثانياً: عناصر الجمالية:

إن (الهندسة) البانية في القرآن الكريم تبرز أمامنا ثلاثة عناصر أو مقومات للجمالية القرآنية.

١ - الأداء التعبيري المناسب: ويشمل التعبير الفني بألوانه وأنواعه. وفق الدواعي النفسية والاجتماعية والإعجازية. ومنه:

أ - الإيجاز، ويتضمن المبادئ الكلية، واختصار مراحل ملحوظة في القصة خاصة، وتقرير حكم سائرة. . . .

ب - المكافىء، والمطنب لأغراض بلاغية جمالية تعرف من السياق ويقتضيها المقام.

ج - التصوير: بالكلمة المعبرة، والتركيب الموحى، والآية أو الآيات المصورة، في مشاهد حية، ولوحات شاخصة، وأحوال نفسية وذھنية.

وهو إذ يأخذ مساحة كبيرة في البيان القرآني فإن طريقته في التجسيم والتخييل والتشخيص تضيء على الرغبات النفسية والمعاني المجردة جمالية الحركة والحيوية والحوار حتى تجعلها حاضرة الوقع، نابضة الروح.

ج - القدرة الفنية الفائقة: مثل طول النفس، وتناول الموضوع الواحد بالعديد من الصور والتراكيب، وإفحام الخصم فكراً ووجداناً بالحقائق القرآنية التي اكتست لبوس الروعة الفنية، وشحنها بالمؤثرات الكلامية الملائمة، وأنواع التزيين اللفظي والمعنوي، وتنويع طرائق البيان والخطاب.

٢ - الجرس الصوتي:

أ - الانتقاء اللفظي: ويمنح تآلفاً بين الحروف والكلمات والتراكيب ينشأ عنه سلاسة النطق وانسيابية التلاوة.

ويتلَوّن الجرس الداخلي حسب الموضوعات إلى أن ينتهي في فواصل الآيات خاتمة الجمل القرآنية الجرسية في موجات صوتية مختلفة الطول والشدة.

ب - الترتيل بالتجويد يؤكد التناسب الصوتي: ويعني الأداء الصوتي المتسق الأبعاد والمقادير في أحوال صوتية خاصة، ويشمل: الوقفات الصوتية، والحركات الصوتية والذبذبات الصوتية. فالوقفات: هي محطات الحروف عند سكونها أو المنتهية بحرف المد، وهي متنوعة: خفيفة سهلة ومختلفة الطول كالمدود ومنها شديدة فخمة كحروف الاستعلاء... والحركات الصوتية: وهي الحروف المتحركة بتناسب فيما بينها حتى تؤدي جمالاً جرسياً في اللفظ والترتيل. والذبذبات الصوتية: وهي حروف ليست صريحة أو وحيدة المخارج وإنما يتردد نطقها بين مخرجين متقاربين، كالجيم المعطشة، وحروف القلقلة والهمس. ومن هذا التناسب الصوتي يصح أن ينغم وفق الصيغ العلمية التي تعرف بها صفات الحروف والمدود، وأحوال التلاوة في الكلمة الواحدة وما بين الكلمتين... وكيفية الابتداء والوقف وما يلحق بها من تغييرات معنوية.

ج - الترتيل بالقراءات المتواترة: وهو مدخل واسع إلى عالم من الصوتيات المتسقة والمتوازنة مع الطريقة الصوتية المتلقاة عن الرسول ﷺ تضفي على القرآن جماليات صوتية يصعب تحديدها. يضاف إلى ذلك القراءات السبعة الواردة.

د - الإيقاع الداخلي والختامي: وهما عنصران هامين في التناسق الترتيلي لاستكمال الجانب الصوتي في أدائه الخاص، وإذ هما يختلفان قوة وسهولة وطولاً وقصراً ينبهان إلى الإعجاز في اختيار المفردة والتركيب القرآنيين.

٣ - الموضوعات المعالجة: فالقرآن زاخر بالموضوعات المبتكرة والمعاني الجديدة، والأفكار الإسلامية القرآنية التي لا عهد للعرب بأمثالها في عالمي الغيب والشهادة، وفي منهجة الحياة ونظامها، وفي التصورات الكبرى للوجود الجائز والواجب، وفي كل منها ألوان جمالية تقنع الفكر وتلبي الحاجات الجمالية الوجدانية.

أ - في الروحيات، والأخلاقيات، والعقليات^(١): تتجلى جماليات القرآن في مثل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠) وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩) وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

ب - في الفطر والأنفس والآفاق: فجمال العواطف واضح في مثل قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ...﴾ (المائدة: ٨٣).

واستقامة الغرائز في مثل قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾... وفي الأنفس

(١) وانظر: دراسات إسلامية. د. محمد درراز.

والآفاق مباديء هامة تتجلى في مثل قوله: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ...﴾ (فصلت: ٥٣). وجمال الفطرة عموماً في مثل قوله: ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ...﴾ (الروم: ٣٠).

ج - في الموجودات من عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد. وفي الغيبات: من الملائكة والجنان، ومشاهد يوم القيامة، والإلهيات آيات الجلال والجمال، وهذا واضح في مثل قوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الحشر: ٢٤) وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٦) وقوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ (الغاشية: ٨) وقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَثَلَّثَ وَرُبِعَ﴾ (فاطر: ١).

ثالثاً: صفات الجمالية القرآنية:

ومن خلال النماذج الوفيرة التي عرضناها للجمالية القرآنية تتضح صفات عديدة منها:

١ - التناسب والتناسق^(١): وهي أروع ما في الظاهرة القرآنية من جماليات منظوقاً ومفهوماً وإحاطة، فالقرآن ﴿أَحْكَمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ﴾ (هود: ١)، وهو «نور» و«حياة» و«شفاء لما في القلوب»، ثم إن تناسبه يشمل جماليات لفظية ومعنوية وجرسية وتصويرية.

٢ - التلون والوحدة: فقد تناول القرآن موضوعات شتى وكل منها عرض بالأسلوب الذي يناسبها، وهكذا تتقابل الأحوال ويتشابه بعضها، ويتكامل بعضها الآخر حتى يحس الإنسان أن لكل منها شخصيتها وتفردا ولونها، ولكنها تتآلف في وحدة جامعة تضم ألوانها وهيئاتها الفكرية والأسلوبية.

(١) انظر آيات الحج: ٥، والشعراء: ١٠ وق: ٧.

فألوان المعاني والصور تتفرع من المعنى الكلي واللوحة الكاملة، لتشكل وحدة فكرية ومعنوية فلا تفترق الألوان إلا لتتجمع، ولا تتجمع إلا لتلون المشهد أو المعنى بما يلائمها من ألوان وظلال وأصواء. ومن أوضح نماذجها سورة (الحجر) السابقة^(١).

٣ - العلوية والتأثير النفسي: فالقرآن كلام الله، وصفته الربانية تفرّد بأسلوبه العلوي وبيانه المعجز ولذا فإن تأثيره ملموس ومستمر على الناس في مختلف طبقاتهم وأجناسهم، وهيمته واضحة على العقول والقلوب والعواطف. إنه بعلويته قادر على تحريك المشاعر، واستثارتها من الأعماق، حتى وإن لم يدرك بعض الناس معناه ومضمونه فإنهم لا بد من أن يتذوقوا فعاليته مهما كانوا من القاسية قلوبهم، فهي تلين لسماعه لأن طبيعتهم الإنسانية تتجاوب - على الأقل - مع تآلف الأصوات وتتابعها، وبخاصة حين يلحظون ربّانيته وقديسيته.

٤ - الرحابة والعمق: إنها تتسع حتى تشمل الألوهية، والنبوة، والكونية، والبشرية، والطبيعية، كما تشمل المعاني الذهنية، والأشواق الروحية، والمبانيء الخلقية.

وتعمق وجودها في خلجات النفس وحبّات القلب^(٢) وإذا بها تتبلور في جماليات الرضا والحب وجلاليات الخشية والرهبة التي توجه سلوك الإنسان وتربط البشرية بوشائجها وتربطها بالله وبالخير والحق، وبالحياة والموت.

(١) وانظر أيضاً قوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ (الروم: ٢٢).

فهي وحدة الإنسانية، وألوان منها في اللغات والأجناس، ثم تأمل ختام الآية (العالمين) الدال على الآية الباهرة في الوحدة والتنوع.

(٢) انظر قصة الهدد، وبلقيس، وعرض الغزوات المؤثر، وليلة الصيام، والثلاثة الذين خلّفوا، وتقلب وجه الرسول ﷺ في السماء.

إن التحابَّ بين العبد والخالق من أسمى جماليات الحب الإنساني، وإن التواد الخالص بين الناس بعضهم ببعض من أرقى جماليات الحب الأخوي. والفطرة البشرية تحب محبوبات كثيرة من النساء والبنين والذهب والفضة والخييل المسومة والأنعام... وإنها تحب الأصول والفروع والحواشي من القربات. والأموال والرياش، ولكنه حب سطحي زائل قريب أمام الحب الأكبر حب الله، وحب الحق والخير والمثل^(١).

رابعاً: طبيعة الجمالية القرآنية:

إن تركيبة الجمالية القرآنية تتفق مع الجماليات الأدبية في حرصها على الصورة البارعة والتعبير الأدبي، والصوتيات البديعة، ولكن القدرة على احتواء هذه العناصر بين أديب وأديب وفنان وفنان، مجال التنافس الأدبي، وميدان الإبداعات الجمالية التي يمكن أن توجد منها أثراً فنياً مختلف القيمة الأدبية والفنية.

وتبدو جمالية القرآن الكريم في حقيقتها أقدر علىسبق والمنافسة والغلبة لا باعتبارها صفة من صفات الله وحسب وإنما باعتبار أن الإعجاز البياني أبرز صفاتها وسماتها. ويمكن تلخيص هذه الطبيعة بما يلي:

١ - إنها عربية أدبية بيانية ثرية متميزة تحرص على انتقاء الشكل والمضمون لتتكافأ مع مزيها البيانية المتفردة، وهي إذ تتخذ المنحى الأدبي فإنها تقيم

(١) وأوضح نماذجه في مواد: الرضى، والحب، والود... السابقة.
وانظر دلالات جمالية في قوله: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم...﴾.
فالرحابة في خطاب الناس جميعاً ذكرهم وإنائهم، وجعلهم شعوباً وقبائل. وجميعهم ذوو كرامة لإنسانيتهم، والعمق في قوله: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. فالأكرمية عند الله تنفي أي حظ من حظوظ الدنيا والمادة الكثيرة جداً، وتثبتها للآتقى والأنفع، لأنها الأبقى والأسمى.

من لغتها لساناً عربياً واضحاً مفهوماً، تتوافر فيه أسمى عناصر الأدبية الفذة ومقوماتها.

٢ - وهي (خاصة) فريدة للمعجزة القرآنية لم يعرف مثلها في أية معجزة مادية أو فكرية دينية أخرى، حتى إن تلك الآثار الفنية الأدبية الخالدة في العالم لم تبلغ في مضامينها الروحية والفكرية والقيمية والتغيرية مثل ما بلغته، في أداء القرآن الفني.

٣ - وهي إذاً فكرية ووجدانية تتناسق فكراً وتعبيراً، أو هي بالدقة تقيم وزناً كبيراً وشاملاً للفكر والتأمل من ناحية، والإدراك والوجدان من ناحية أخرى، في جميع الأبعاد وكل الخصائص، وتجمّله بالأساليب الرائعة ليلغ أثره العظيم في النفوس.

٤ - وهي جامعة للعلمية والأدبية بأوسع مفاهيمهما وأرحب مجالتهما وأجمل عروضهما، فالقرآن في علميته وأدبيته، وفي صوره وأساليبه كان علم المسلمين ومصدر علومهم وكان من الوجهة الجمالية (علم بلاغتهم) وما تزال معجزاته العلمية التي تصاغ بالصياغات الفنية تترى لا تفقد شيئاً من حقائقها العلمية ولا توهن أيّاً من مصداقيتها الفكرية والجمالية.

٥ - وهي إنسانية المنزِع عامة الاتجاه تراعي قدرات الإنسان وطاقاته مثل ما تراعي فطرته، وتبرز لذلك جماليات الكون والقيم والفكر والروح للوجدان الإنساني، كما تبرز جماليات الإنسان نفسه رجلاً أو امرأة ضمن المجالات العديدة، وتخاطب الناس وبني آدم في العموميات الإنسانية والكماليات البشرية.

٦ - وهي قيمة ملتزمة بالمنهج الرباني، وبالهداية الإلهية وبالتهذيب الديني تبعد من تكوينها ونشاطاتها تلك الاتجاهات المنحرفة في قيام الفنون والآداب بالعبثية غير المسؤولة تماماً، مثل ابتعادها عن المتعة الفنية والعقلية المجردتين ولغايات فنية وعقلية محضّة.

خامساً: في آثار الجمالية القرآنية:

إن المدارس الفنية والجمالية بتعددتها وقيامها على أسس فلسفية لم تستطع أن تكون جيلاً فكرياً وفنياً عريضاً، ولا أدباً خالداً وعاماً سوى فترات وجماعات طابعها التغيير وعدم الاستقرار.

أما مدرسة القرآن الفنية والجمالية فإن آثارها لم تقف عند حد ولا لزمن معين، سواء كان في التأثير الفكري المبدئي أو التأثير السلوكي أو التأثير الفني الأدبي.

ويمكن إبراز هذه الآثار بما يلي.

١ - في اللغة والبيان الأدبي: فآثاره اللغوية والبيانية عديدة مثل:

اتساع الآفاق الأدبية، وشمول الأغراض البيانية الجاهلية. وإن إضافة آفاق وأغراض أدبية جديدة في اللغة العربية أغنى البيان الأدبي لدى الشعراء والكتاب الإسلاميين وبخاصة أولئك المخضرمين أو القريبين العهد بالجاهلية مثل حسان بن ثابت، وعمر بن أبي ربيعة، وكعب بن زهير فإنهم أعلى باعاً وأرسخ قدماً وأوسع لغة وأغراضاً وآفاقاً من النابغة وابن كلثوم وعنترة، كما يقول ابن خلدون في مقدمته^(١). ويتبع هذا التوسع والغنى ثراء في الألفاظ وجمال في البيان ورونق في الصورة.

٢ - في استشارة النظرات الجمالية: فقد توسعت وتزينت النظرات الجمالية أيضاً بينما كانت محدودة الأفق ضيقة المجال مادية المصدر، وزخرت بالعواطف وبشتى المشاعر الإنسانية النبيلة التي لم تعرفها الجاهلية، وأضحت القيم الإسلامية من السعة والسمو والصدق ما لم يدركه نظيره الفكر الجاهلي وأدبه وعواطفه. حتى إن العروض الجمالية القرآنية كانت وما تزال

(١) في الفصل الذي عقده في أن حصول الملكة بكثرة الحفظ.

تثير الأحاسيس الجمالية الراقية في التصورات الإنسانية العامة حول الطبيعة والحياة والخلق، وما وراء الطبيعة والحياة والخلق.

٣ - وهذا التشكيل البياني والنفسي والجمالي الجديد كان قدرة (مغيرة) ومؤثرة في النفوس حيث بلغت حبتها، ولامست شغافها فجعلت من المشركين أمة التوحيد والوحدة والإسلام، وأقبلت على الحياة بصيغ ذهنية وجمالية لم تعرف من قبل، ثم إنها قادرة أيضاً على (التغيير) والتأثير والتجديد حين يهيأ لها المناخ النفسي والاجتماعي المناسب.

وإن زخمها العاطفي والفكري يحقق للمجتمع الإسلامي أدباً متميزاً وملتزمًا يغترف من ينوع البيان القرآني أروع الخصائص والأساليب مثل ما فعل في (مسار) الأدب العربي العام شكلاً ومضموناً. والعالم الإسلامي اليوم يتوقع أن يسود الاتجاه الأدبي الإسلامي في الحركة الأدبية لا باعتباره أدباً ثراً في المصدر واتساع الأفاق وحسب وإنما لأنه أدب التراث والمعاصرة في قضايا المجتمع الإسلامي المتزايدة. إنه اتجاه ومطلب معاً.

٤ - وإن (ثنائية) الأثر السابق تضع أمامنا آثاراً ومظاهر فنية متنوعة أخرى:

أ - فهناك فن إسلامي يتميز بجمالياته وأبعاده وأغراضه ومقوماته عبر العصور، تتدفق أعماله من النظرة الجمالية للمسلم المتأثرة بجمالية القرآن وفنيته، وهي مدرسة مستقلة عن أية مدرسة فنية أخرى قد عُنت بالمجردات والرموز أو الفن التجريدي والرمزي واهتمت بالعنصر الإدراكي ولكنها لم تغفل الإثارة العاطفية، وانبهار الوجدان، وتحريك المشاعر وبخاصة في تلاوة القرآن الكريم، والأشكال الجمالية الإسلامية.

ب - الفن الزخرفي والتزييني! وهو فن يقوم بعضه على نظام هندسي دقيق، ويقوم بعض الآخر على جماليات تزيينية تضاف إلى الدقة الهندسية. وهذا واضح في الأشكال الشجرية والمجسمات والنقش الإسلامية وبخاصة ما

يلاحظه من جمال الجدران والسقف والقباب في المساجد الكبرى.

ج - في خصائص العمارة الإسلامية والتراث المعماري عموماً حيث نجد القواعد المعمارية والجمالية تتألف في وحدة فنية كانت مثار الإعجاب والتأمل والدراسة. ومنها: الانفتاح والطلاقة، والانسحاب والترسل، والتوفيق بين الجمالية المعمارية والحفاظ على التصون إلى جانب ما نلاحظه من الرعاية الصحية. في فصول السنة كلها.

د - في الفن المصحفي: ومن أهم عناصره: جماليات الخط العربي بأنواعه، وزخرفة الإخراج وتزيينه بألوان من الخطوط والأشكال في مقدمته وخاتمته وحواشيه، وكذلك الصناعات المصحفية التي تتناول جمال الحرف والورق والاستعانة بالتقنية الحديثة في تجويد العمل الصناعي. وأخيراً تلك الألوان الجمالية في التسجيل المرئي والصوتي المتناهي، واللوحات القرآنية الرائعة التي لا يخلو منها معرض ولا متحف.

سادساً: طروحات جمالية من منظور إسلامي:

إن الظاهرة الجمالية في القرآن لا تخفى على كثير من المثقفين المنصفين وإن لم يلتزم بعضهم بالإسلام ديناً وعقيدة. وقد نوه علماءنا وكثير من الباحثين بقسط من جماليات هذه الظاهرة لأنها وجه فني للإعجاز البياني.

وهذه الحقيقة التي لا مرء فيها تحملنا إلى أن نفيد منها منافع فكرية وجمالية وتربوية وحضارية. وتدفعنا إلى أن نعرض مجالات أو طروحات فنية (لدراستها) من حيث المنطلق والتطبيق.

١ - العمل على تذوق القرآن تذوق نظر وانصات، وأخصه: التذوق الأدبي والجمالي في (لغته - وصوره - وترتيبه) إلى جانب ذوقياته الأخرى.

٢ - وضع منهج للتربية الجمالية تأخذ بألويتها التذوق الفني للقرآن، وتراعي روح الشريعة الإسلامية.

٣ - تنشيط حركة الأدب الإسلامي والملتزم بقضايا المجتمع الفكرية والسلوكية والمصيرية والفنية.

٤ - رعاية الفن الإسلامي رعاية منهجية ومعنوية: في الفن الصوتي، والخط العربي، والفن التشكيلي...

٥ - تشجيع العمارة الإسلامية، والحدائق العامة، وإقامة المعارض الفنية على نمط إسلامي عريق ومبدع. وطروحات فنية أخرى تنبثق من جماليات الروح والمادة، والطبيعة وما وراء الطبيعة من منظور إسلامي مستقل.

وبهذا تتحقق الاستقلالية الفنية التي لا بد من أن تجلب إليها الأنظار، وتتعرف إلى جمالياتها أقطار العالم باعتبار أنها فن إسلامي أصيل له فلسفته ومقوماته ومجالاته وأساليبه وابداعاته.

ومن ثم نتحرر من عبوديات فنية عالمية، وانتماءات إلى أشباه الفن أو الفن الهابط الذي اكتوى شباب العالم من ركامه وانتشاره، ثم من طغيانه على القيم والفضائل باسم الفن وتحت لوائه، ولكنه انغماس في البهيمية والحيوانية المدمرة.

وإن هذه المنطلقات الفنية والطروحات الجمالية لا تعني عزلة محضة ولا انفتاحاً مطلقاً وإنما هي تقدير للأصالة التراثية المتجددة، الواهبة والأخذة، ولكن بحسبان، وليس على حساب الفن الإسلامي الصحيح.

وعندئذ سيكسب هذا الفن إعجاباً حضارياً وتقديراً عالمياً وستوفر له المتاحف ركناً واسعاً من الفنون المختلفة، (وقد أقيم العديد منها)، وهو سبيل واحدة للتأثير الوجداني والعاطفي في المجالات الفلسفية والفكرية والحضارية العالمية.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

ثبت المراجع

أولاً: القرآن الكريم، وتفسيره، ومنها:

- ١ - تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، (الطبري) أبو جعفر محمد بن جرير، البايع الحلبي، ط ٣، ١٣٨٨ هـ.
- ٢ - تفسير الفخر الرازي: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، (الفخر الرازي) محمد بن ضياء الدين، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤٠١ هـ.
- ٣ - تفسير القرآن العظيم: (ابن كثير) إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٢ هـ.
- ٤ - تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (أبو السعود) محمد بن محمد العمادي، إحياء التراث العربي.
- ٥ - فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، (الشوكاني) محمد بن علي، دار الفكر.

ثانياً: الحديث النبوي وشروحه، ومنها:

- ١ - الصحيحان: (البخاري) محمد بن إسماعيل، و(مسلم) مسلم بن الحجاج.
- ٢ - السنن: (الترمذي) محمد بن عيسى، (أبو داود) سليمان بن الأشعث، و(ابن ماجه) محمد بن القزويني، و(النسائي) أحمد بن شعيب.
- ٣ - الموطأ: مالك بن أنس.
- ٤ - المستدرک على الصحيحين: (الحاكم) أبو عبدالله الحاكم النيسابوري محمد بن عبدالله.
- ٥ - المسند: (أحمد بن حنبل).

٦ - صحيح ابن خزيمة: (ابن خزيمة) محمد بن إسحاق، المكتب الإسلامي ١٤٠٠ هـ.

٧ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (الهيثمي) علي بن أبي بكر، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٢ هـ.

٨ - فتح الباري شرح صحيح البخاري: (ابن حجر) العسقلاني، أحمد بن علي، قرأ الأجزاء الثلاثة الأولى تصحيحاً وتحقيقاً: الشيخ عبدالعزيز بن باز، ورقمه: محمد فؤاد عبد الباقي، وأخرجه محب الدين الخطيب.

٩ - شرح مسلم: (النووي) يحيى بن زكريا، دار الفكر، دمشق ١٤٠١ هـ.

١٠ - الجامع الصغير والجامع الكبير: (السيوطي) عبدالرحمن بن أبي بكر.

١١ - الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين خ: (ابن عدي) عبدالله.

ثالثاً: المراجع الخاصة:

١ - آيات الخالق الكونية والنفسية: رشيد رشدي الغافري، بغداد، جمعية التربية الإسلامية.

٢ - الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، البابي الحلبي ١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م.

٣ - استخراج الجدل من القرآن الكريم: ابن الحنبلي، عبدالرحمن بن نجم الحنبلي، ت. د. زاهر الألمعي ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

٤ - أسرار البلاغة: الجرجاني، عبدالقاهر، دار المنار، تعليق محمد عبدالمنعم جفاجي، مكتبة القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.

٥ - أسرار التكرار في القرآن: الكرمانلي، محمود بن حمزة بن نصرت عبدالقادر أحمد عطاء، دار الاعتصام ١٣٩٨ هـ - ١٩٨٧ م، وسماه البرهان في متشابه القرآن.

٦ - الأسس الجمالية في النقد العربي: د. عزالدين إسماعيل.

٧ - الإسلام في عصر العلم: محمد أحمد الغمراوي، دار الكتب الحديثة.

٨ - الإسلام والنظر في آيات الله الكونية: د. محمد عبدالله الشرقاوي، سلسلة دعوة الحق ٥٠، مكة المكرمة.

- ٩ - أسماء الله الحسنى (رسالة): حسنين مخلوف، دار المعارف بمصر، تاريخ المقدمة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- ١٠ - أصول علم النفس: د. أحمد عزت راجح، ط ١٠، المكتب المصري الحديث ١٩٧٦ م.
- ١١ - الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره: د. محمد أحمد يوسف القاسم، دار المطبوعات الدولية، القاهرة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- ١٢ - إعجاز القرآن: الباقلائي، محمد بن الطيب، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١ م.
- ١٣ - إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعي، ط ٨، المكتبة التجارية الكبرى ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م.
- ١٤ - الإعجاز والإيجاز: الثعالبي، عبد الملك بن محمد (أبو منصور)، دار البيان، بغداد، ودار صعب، بيروت.
- ١٥ - الإقناع في القراءات السبع: ابن خلف الأنصاري، أحمد بن علي، ت: د. عبد المجيد قطامش، جامعة أم القرى، دار الفكر بدمشق ١٤٠٣ هـ.
- ١٦ - الأمثال في القرآن: محمود بن الشريف، دار عكاظ، السعودية.
- ١٧ - البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: الزملكاني، عبد الواحد، رئاسة ديوان الأوقاف، بغداد ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- ١٨ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزآبادي، مجد الدين بن يعقوب، ت: د. محمد علي النجار، القاهرة ١٣٨٥ هـ.
- ١٩ - بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار: د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي ١٩٧٨ م.
- ٢٠ - البيان والتبيين: الجاحظ، عمر بن بحر (أبو عثمان)، ت: د. عبد السلام هارون، الخانجي ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
- ٢١ - بيان إعجاز القرآن: الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم (أبو سليمان)، دار التأليف ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م.
- ٢٢ - التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار المعارف ١٩٧٥ م.

- ٢٣ - الجمالية عبر العصور: إتيان سوريو، ت: د. ميشال عاصي، منشورات عويدات، بيروت ١٩٧٤ م.
- ٢٤ - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: سيد قطب، بيروت، القاهرة ١٩٨٠ م.
- ٢٥ - حجة القراءات: (أبو زرعة) عبدالرحمن بن سعد، ت: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- ٢٦ - الحيوان: الجاحظ، عمر بن بحر (أبو عثمان)، ت: د. عبدالسلام هارون البابي الحلبي ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م.
- ٢٧ - دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية: د. محمد عبدالله دراز، دار القلم، الكويت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
- ٢٨ - دراسات نفسية في الفن: د. مصطفى سويف، القاهرة ١٩٨٣ م.
- ٢٩ - دلائل الإعجاز: الجرجاني، عبدالقاهر، تصحيح وتعليق: محمد رشيا رضا، دار المعرفة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م.
- ٣٠ - رغبة الأمل من كتاب الكامل: سيد بن علي المرصفي، بغداد، دار البيان ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.
- ٣١ - روح التربية والتعليم: د. محمد عطية الأبراشي، البابي الحلبي.
- ٣٢ - السبعة في القراءات (كتاب): ابن مجاهد، أحمد بن موسى، ت: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠ م.
- ٣٣ - الشخصية الفنية: د. محمود البسيوني، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦ م.
- ٣٤ - طبقات الأمم: أبو القاسم صاعد أحمد الأندلسي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩١٢ م.
- ٣٥ - طبقات الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، دار النهضة، بيروت ١٩٦٩ م.
- ٣٦ - ظلال القرآن (في): سيد قطب، دار الشروق ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٣٧ - العقد الفريد: ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، المحمودية التجارية ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ م.

- ٣٨ - علم الجمال: دني هويسمان، ت: ظافر الحسن، منشورات عويدات، بيروت ١٩٧٥ م.
- ٣٩ - فتاوى: ابن تيمية، أحمد، مكتبة المعارف، الرباط.
- ٤٠ - الفتح الرباني: أحمد عبدالرحمن البنا، دار الشهاب، القاهرة.
- ٤١ - الفن الإسلامي: أصوله، فلسفته، مدارسه: أبو صالح الألفي، دار المعارف، لبنان.
- ٤٢ - الفوائد: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (أبو عبدالله)، المؤيد، الطائف، والبيان، دمشق ١٩٨٨ م.
- ٤٣ - القرآن والصورة البيانية: د. عبدالرحمن حسين.
- ٤٤ - القرآن ينبوع العلم والعرفان: علي فكري.
- ٤٥ - قصص الأنبياء: د. مصطفى عبدالواحد، دار الكتب الحديثة.
- ٤٦ - قصص الأنبياء: عرائس المجالس: الثعلبي، أحمد بن إبراهيم، عيسى البابي الحلبي.
- ٤٧ - الكامل في اللغة والأدب: المبرد، أبو العباس، مكتبة المعارف، بيروت.
- ٤٨ - لغة القرآن الكريم في جزء عم: د. محمد أحمد نحلة، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١ م.
- ٤٩ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن علي الندي، ط ٦، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.
- ٥٠ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، ضياء الدين، قدّم له وحققه: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م.
- ٥١ - مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (أبو عبدالله)، ت: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.
- ٥٢ - المدارس الفلسفية: د. أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة مصر ١٩٦٥ م.

- ٥٣ - المزهري في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي، عبدالرحمن جلال الدين، ت: جاد المولى، البيجاوي، أبو الفضل إبراهيم. البابي الحلبي.
- ٥٤ - مشكلة الفن: د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر.
- ٥٥ - معجزة خلق الإنسان بين الطب والقرآن: د. نبيه عبدالرحمن عثمان، سلسلة دعوة الحق: ٥٠.
- ٥٦ - معجم القراءات القرآنية: د. أحمد مختار، ود. عبدالعال، جامعة الكويت ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ٥٧ - المغني: ابن قدامة، عبدالله بن أحمد، من مطبوعات إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، مكتبة الرياض الحديثة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ٥٨ - المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبدالجبار بن أحمد (القاضي).
- ٥٩ - مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: د. عبدالعليم عبدالرحمن، دار الشروق ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ٦٠ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٩ م.
- ٦١ - من أساليب البيان في القرآن الكريم: د. محمد علي أبو حمدة، جمعية عماد المطابع التعاونية، عمان ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- ٦٢ - من إعجاز القرآن البياني: د. أحمد حمدي بدوي.
- ٦٣ - النقد الأدبي الحديث: د. محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣ م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة: العمل على تقنين قاعدة جمالية، والإفادة من أعمال العلماء	
والنقاد القدامى، والجوانب المتشابهة في الجمالية القرآنية	٥
المدخل: ظواهر قرآنية متعددة، وعلمائنا والمسألة الجمالية في القرآن،	
وخصائص تعبيرية في الأدب الجاهلي	٩
مفردات جمالية في القرآن الكريم	١٧
المفردات والإعجاز	١٧
المفردات وجماليات القرآن	٢١
١ - جماليات وضعية	٢١
٢ - استقلال لفظ واحد برسم صورة	٢٤
٣ - مفردات لأداء وظيفة معنوية	٢٨
٤ - مفردات مؤلفة لألوان جديدة من الجمالية	٣٠
أولاً: التوظيف التنزيهي	٣٠
ثانياً: مفردات موظفة لألوان من الصور الجمالية في التشبيه	
والمجاز	٣٣
ثالثاً: في الفاصلة القرآنية	٤١
مفردات جمالية يكررها القرآن	٥٠
روعة الإصباح	٥١
ضحك مختلف	٥٢
تصوير فائق	٥٥
جمال رحب	٥٦
ألوان من الحب	٥٨

الموضوع	الصفحة
زينة وزينة	٦٢
من دلالات الحق	٦٥
مجالات ذوقية مختلفة	٧٠
خصائص في المفردات القرآنية	٧٧
ألوان من جماليات التركيب القرآني	٧٩
تراكيب رقمية	٧٩
تراكيب تصنيفية	٨٤
تراكيب مغفلة	٨٨
تراكيب سائرة وحكيمة	٩٢
تراكيب جدلية حوارية، صور منها	٩٧
في صور التركيب وجمالياته	١١٩
تراكيب علمية... أدبية	١٢٨
● تشريع القرآن	١٣٥
أولاً: تشريع المعاملات	١٣٥
ثانياً: التشريع الجنائي	١٤٦
سمات في لغة التشريع القرآني	١٥٠
جماليات في التناسق القرآني	١٥٣
التناسق مفهوماً	١٥٣
التناسب وعلم الجمال	١٥٤
علماء المسلمين والتناسب	١٦٣
أسباب في التناسب القرآني	١٦٧
تعقيب على نظرية التناسب القرآني	١٧٣
القرآن والسنة يوجهان إلى التناسب	١٧٦
التناسق الصوتي والتناسب اللفظي والترتيلي	١٨٧
خاصية التناسب الترتيلي	١٩٣
ألوان من الأداء الصوتي الجمالي للقرآن	٢٠٢

إلهامات صوتية في المكي والمدني	٢٠٧
نماذج من التناسب اللفظي المعنوي والصوتي والتصويري	٢١٠
أ - في التناسب المعنوي	٢١١
٢ - في التناسب الصوتي	٢١٧
٣ - في التناسب التصويري	٢٢٢
موضوعات جمالية في القرآن الكريم	٢٣١
الله ذو الجلال والجمال	٢٣١
تصورات إلهية خاطئة من الوجهة الجمالية	٢٣١
أسماء الله الحسنى	٢٤١
١ - الأسماء الجمالية	٢٤٣
٢ - الأسماء الجلالية	٢٤٦
٣ - أسماء تشتمل على الجمالية والجلالية	٢٤٨
العلماء المسلمون وكمالية الله تعالى	٢٥٦
العلماء وجلالية الأسماء والصفات والأفعال	٢٦٨
في روائع الآيات الجمالية	٢٧٤
الإنسان بين الابداع الإلهي والإبداع البشري	٢٨٣
في الابداع الإلهي	٢٨٣
أولاً: لونا من الجماليات	٢٨٣
ثانياً: تسويات جمالية	٢٨٨
ثالثاً: إبداع إلهي بين المشهود والغيبى	٢٩٦
رابعاً: الوسائط الناقلة للجماليات	٣٠٠
خامساً: القدرة الجمالية بين العمل التفسيري والإعجاز الإلهي ..	٣٠٩
في الإبداع البشري	٣١٥
أولاً: سفينة نوح عليه السلام	٣١٧
ثانياً: الحجر وبناء المدن	٣١٩
ثالثاً: سد مأرب الزراعي	٣٢١

الموضوع	الصفحة
رابعاً: سد ذي القرنين	٣٢٤
خامساً: كرسي سليمان عليه السلام	٣٢٧
سادساً: الصرح الزجاجي	٣٢٩
سابعاً: قصر بلقيس وعرشها	٣٣٠
في جماليات ما دون الإنسان	٣٣٢
الطعام والماء ضرورة وجمال	٣٣٢
من كل زوج بهيج ... من كل زوج كريم	٣٤٠
حدائق ذات بهجة	٣٤٧
الشجرة الطيبة والشجرة الملعونة	٣٥١
البلد الطيب والبلد الخبيث	٣٥٨
جماليات في الحيوان	٣٦١
ومن الدواب مختلف ألوانه	٣٦٤
الطير ألوان	٣٦٨
النملة الحذرة	٣٧٤
الناقة المعجزة ومصارع المكذبين	٣٧٦
الجبال جدد ... أوابة	٣٧٩
(سورة الحجر) نموذج لدراسة جمالية	٣٨٥
الخاتمة: سمات عامة للظاهرة الجمالية في القرآن الكريم	٤٣١
أولاً: مفهوم الجمالية في القرآن	٤٣١
ثانياً: عناصر الجمالية في القرآن	٤٣٢
ثالثاً: صفات الجمالية القرآنية	٤٣٥
رابعاً: طبيعة الجمالية القرآنية	٤٣٧
خامساً: في آثار الجمالية القرآنية	٤٣٩
سادساً: طروحات جمالية من منظور إسلامي	٤٤١
ثبت المراجع	٤٤٣
الفهرس	٤٤٩